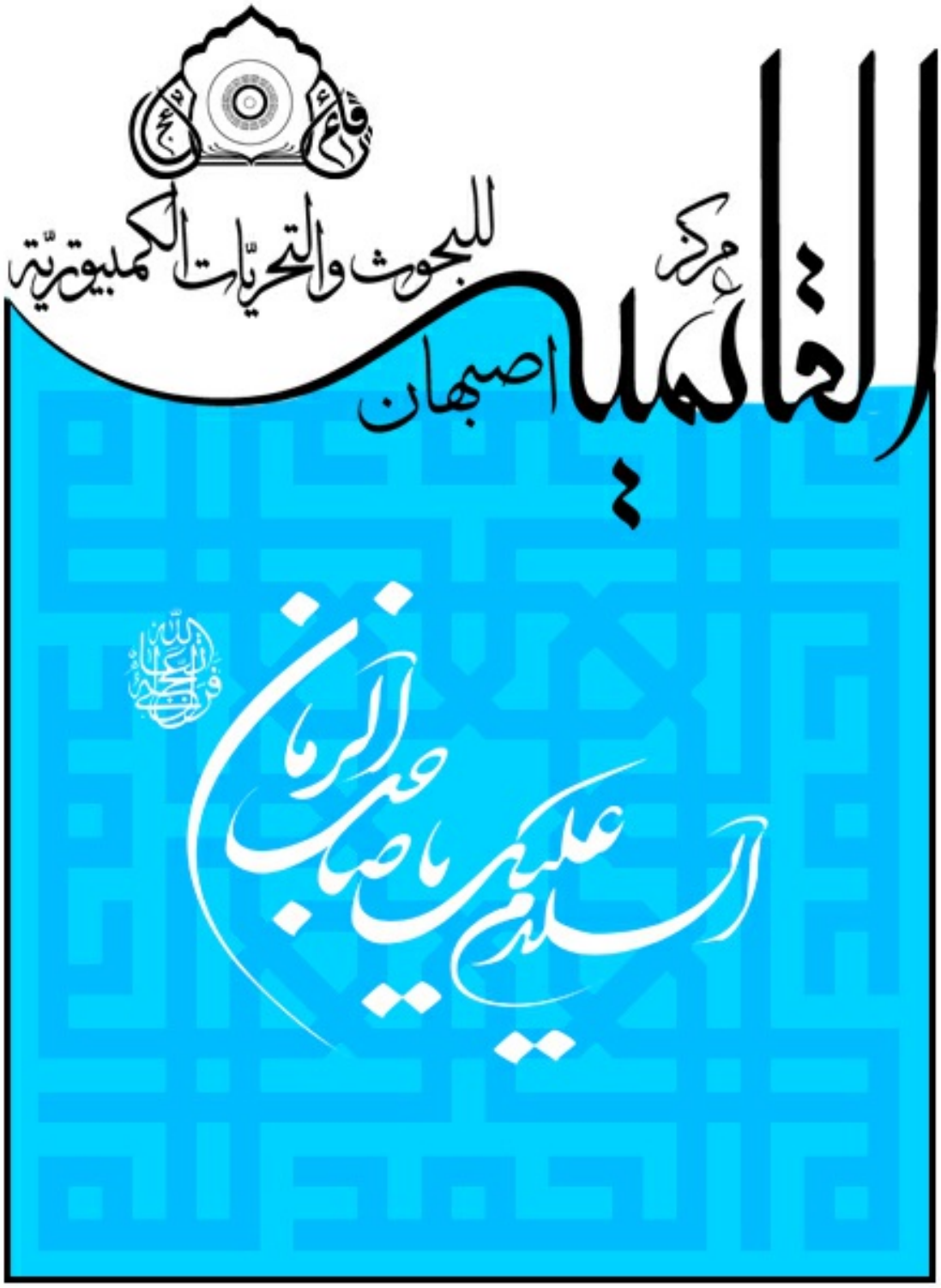

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

آية الله العظمى مكارم الشيرازي

نفحات الولاية

شرح عصري مبسط لنهج البلاغة

من خطبة ١ إلى ٢٠

بإشراف ومراجعة سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي
إعداد لجنة من العلماء

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحیم

نفحات الولايه: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

آيت الله العظمى ناصرمكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
نفحات الولایه (شرح عصری جامع لنهج البلاغه) المجلد ۱ ----- ۱۸
اشاره ----- ۱۸
اشاره ----- ۱۹
الدافع الرئیسی لتألیف هذا الکتاب ----- ۲۳
السید الرضی جامع نهج البلاغه ----- ۲۷
اشاره ----- ۲۷
أساتذه السید الرضی ----- ۲۷
تلامذه السید الرضی ----- ۲۸
کتب ومؤلفات السید الرضی ----- ۲۹
السید الرضی والشعر ----- ۲۹
القابه ومناصبه ----- ۳۰
وفاه السید الرضی ----- ۳۱
کلام بشأن نهج البلاغه وصاحبه ----- ۳۳
اشاره ----- ۳۳
۱- فصاحه النهج وبلاغته ----- ۳۵
۲- المضامین الرصینه الشامله لنهج البلاغه ----- ۴۱
اشاره ----- ۴۱
مصداق لقوله تعالی: «اوتوا الکتاب» «فصل الخطاب» . ----- ۴۳
۳- جاذبه نهج البلاغه الخارقه ----- ۴۵
اشاره ----- ۴۵
أقوال العظماء بشأن جاذبیه نهج البلاغه ----- ۴۷
أسناد نهج البلاغه ----- ۴۹
شروح نهج البلاغه ----- ۵۲

مقدمه السید الشریف الرضی رحمه الله ----- ۵۵
لماذا جمعت نهج البلاغه ----- ۵۵
الخطبه الاولی ----- ۵۹
اشاره ----- ۵۹
نظره إلی الخطبه ----- ۵۹
القسم الأول: بعد العقول عن معرفه الذات الإلهیه! ----- ۶۱
القسم الثانی: توحید الذات والصفات ----- ۶۷
القسم الثالث: لیس کمثله شیء ----- ۷۵
اشاره ----- ۷۵
تأمّلات ----- ۷۹
اشاره ----- ۷۹
۱ - علاقه الخلق بالخالق ومسأله «وحده الوجود» ! ----- ۷۹
۲ - انحراف الجهال عن حقیقه صفات اللّه ----- ۸۲
۳ - نفی الحدوث الذاتی والزمانی للذات القدسیه ----- ۸۴
۴ - هل یصح اطلاق لفظ «الموجود» علی اللّه؟ ----- ۸۵
القسم الرابع: تصدر الکلام بشأن خلق العالم ----- ۸۷
اشاره ----- ۸۷
الهدایه الفطریه والتکوینیه لکافه موجودات العالم ----- ۹۱
تأمّلان ----- ۹۲
۱ - هل یصطلح بالعارف علی اللّه؟ ----- ۹۲
۲ - کیفیه علم اللّه بالموجودات قبل ایجادها ----- ۹۳
القسم الخامس: کیفیه بدایه خلقه العالم ----- ۹۷
اشاره ----- ۹۷
تأمّل: هل العالم المادی حادث؟ ----- ۹۸
القسم السادس: الماء کان أول مخلوق ----- ۱۰۱
القسم السابع: دور العواصف فی انبثاق الخلقه ----- ۱۰۵

اشاره ----- ۱۰۵
تأمّلات ----- ۱۰۷
۱ - دراسه العباره علی ضوء الفرضیات المعاصره ----- ۱۰۷
۲ - کیفیه ظهور العالم ----- ۱۰۹
۳ - الفرضیات السائده بشأن العالم أبان نزول القرآن ----- ۱۱۰
۴ - ما المراد بالسموات السبع؟ ----- ۱۱۲
۵ - کیفیه علم الإمام علیه السلام بهذه الأمور ----- ۱۱۴
القسم الثامن: عالم الملائکه ----- ۱۱۵
اشاره ----- ۱۱۵
تأمّلات ----- ۱۲۰
۱ - ماهیه الملائکه! ----- ۱۲۰
۲ - أصناف الملائکه ----- ۱۲۲
۳ - العرش وحملته ----- ۱۲۳
۴ - عصمه الملائکه ----- ۱۲۵
۵ - مقام معرفه حمله العرش ----- ۱۲۶
القسم التاسع: خلق آدم علیه السلام ----- ۱۲۷
اشاره ----- ۱۲۷
مراحل خلقه آدم علیه السلام من الناحیه الجسمیه والروحیه ----- ۱۲۸
تأمّلات ----- ۱۳۲
۱ - خلق آدم علیه السلام ----- ۱۳۲
۲ - الترکیب المزدوج للجسم والروح ----- ۱۳۴
۳ - الإنسان، أُعجوبه عالم الکون ----- ۱۳۵
القسم العاشر: بدایه انحراف ابلیس ----- ۱۳۷
اشاره ----- ۱۳۷
تأمّلات ----- ۱۴۰
۱ - عظمه مقام الإنسان ----- ۱۴۰

٢ - كيف كان السجود لآدم؟ ---- ١۴٠
٣ - أسئله واستفسارات بشأن خلق الشيطان ---- ١۴١
۴ - تبريرات جوفاء ---- ١۴۴
القسم الحادى عشر: عاقبه آدم ---- ١۴٧
اشاره ---- ١۴٧
تأمّلات ---- ١۵٠
١ - ما كانت جنّه آدم؟ ---- ١۵٠
٢ - هل اقترف آدم معصيه؟ ---- ١۵١
٣ - ماحقيقه الشجره المحظوره؟ ---- ١۵٣
۴ - الكلمات التى تاب اللّه بها على آدم عليه السلام. ---- ١۵۴
القسم الثانى عشر: بعثه الأنبياء وعظم مسؤوليتهم ---- ١۵٧
اشاره ---- ١۵٧
تأمّلات ---- ١۶٢
١ - الأنبياء بمثابه المزارعين ---- ١۶٢
٢ - حوادث الاعتبار واليقظه ---- ١۶٢
٣ - دور الدين فى الحياه ---- ١۶٣
۴ - لا تخلو الأرض من حجه ---- ١۶۴
۵ - مميزات الأنبياء ---- ١۶۵
القسم الثالث عشر: بزوغ شمس الإسلام ---- ١۶٧
اشاره ---- ١۶٧
تأمّلان ---- ١۶٩
١ - الأديان قبل البعثه البنويه ---- ١۶٩
٢ - آفاق الأنبياء المستقبليه ---- ١٧٢
القسم الرابع عشر: خصائص القرآن ---- ١٧٣
اشاره ---- ١٧٣
تأمّلات ---- ١٧٩

١ - شموليه القرآن ---- ١٧٩
٢ - من عنده علم الكتاب؟ ---- ١٧٩
٣ - معيار التمييز بين الكبائر والصغائر ---- ١٨١
۴ - الناسخ والمنسوخ وفلسفتهما ---- ١٨١
۵ - تأريخ الاُمم الماضيه والأمثال القرآنيه ---- ١٨٢
القسم الخامس عشر: أهميه فريضه الحج ---- ١٨۵
اشاره ---- ١٨۵
تأمّلان ---- ١٨٨
اشاره ---- ١٨٨
١ - نبذه تأريخيه عن الكعبه ---- ١٨٨
٢ - فلسفه الحج ---- ١٩٠
الخطبهالثانيه ---- ١٩٣
اشاره ---- ١٩٣
القسم الأول ---- ١٩٣
اشاره ---- ١٩٣
نظره إلى الخطبه ---- ١٩۴
ظروف وملابسات الخطبه ---- ١٩۴
الركنان الأساسيان فى الإسلام ---- ١٩۶
تأمّلان ---- ١٩٩
١- التوحيد ركيزه الصالحات ---- ١٩٩
٢- التوحيد الخالص الذى طبع حياه أميرالمؤمنين عليه السلام ---- ٢٠١
القسم الثانى: العصر الجاهلى ---- ٢٠٣
اشاره ---- ٢٠٣
صوره الحياه الميته فى العصر الجاهلى ---- ٢٠٩
القسم الثالث: المنزله الساميه لآل محمد صلى الله عليه و آله ---- ٢١٣
اشاره ---- ٢١٣

تأمّلان ----- ۲۱۶
۱- آل النبی صلی الله علیه و آله کهف الاُمّه الإسلامیه ----- ۲۱۶
۲- من هم آل النبی صلی الله علیه و آله؟ ----- ۲۱۷
القسم الرابع: لا یقاس بآل محمد أحد من الناس ----- ۲۱۹
اشاره ----- ۲۱۹
تأمّلان ----- ۲۲۳
۱- مکانه أهل البیت فی القرآن والرویات ----- ۲۲۳
۲- تبریرات واهیه ----- ۲۲۵
الخطبه الثالثه ----- ۲۲۷
اشاره ----- ۲۲۷
القسم الأول ----- ۲۲۷
اشاره ----- ۲۲۷
نظره إلی الخطبه ----- ۲۲۷
مضمون الخطبه ----- ۲۳۰
تحلیل مهم لمسأله الخلافه ----- ۲۳۱
تأمّلات ----- ۲۳۵
۱- لم آثر الإمام علیه السلام الصبر؟ ----- ۲۳۵
۲- لماذا التعبیر بالتراث عن الخلافه؟ ----- ۲۳۷
۳- الإمام علیه السلام جلیس البیت ----- ۲۳۷
۴- لماذا تعرض الإمام علیه السلام لقضیه الخلافه؟ ----- ۲۳۸
القسم الثانی: عصر الخلیفه الثانی ----- ۲۴۱
اشاره ----- ۲۴۱
إجابه علی إستفسار ----- ۲۴۴
تأمّلات ----- ۲۴۹
۱- نماذج الفضاضه الأخلاقیه علی عهد الخلیفه الثانی ----- ۲۴۹
۲- العثار والاعتذار ----- ۲۵۰

٣- رد على سوال ---- ٢٥١
القسم الثالث: عصر الخليفه الثالث ---- ٢٥٤
اشاره ---- ٢٥٤
تأمّلات ---- ٢٥٩
١- كيفيه انتخاب خليفه الثانى والثالث ---- ٢٥٩
٢- الشورى وحكومه عثمان ---- ٢٦٠
٣- أسباب الخروج على عثمان ---- ٢٦٣
۴- هل سار جميع الصحابه على نهج النبى صلى الله عليه و آله ---- ٢٦٥
القسم الرابع ---- ٢٦٨
اشاره ---- ٢٦٨
تأمّلات ---- ٢٧٣
١- البيعه الشعبيه لأمير المؤمنين عليه السلام ---- ٢٧٣
٢- مصدر الانحرافات الاجتماعيه ---- ٢٧۴
٣- المعارک الثلاث على عهد الإمام على عليه السلام ---- ٢٧۵
القسم الخامس: قبول البيعه والخلافه ---- ٢٨٠
اشاره ---- ٢٨٠
تأمّلات ---- ٢٨٣
١- الرد على سؤال ---- ٢٨٣
٢- المسائل التى تضمنها الكتاب ---- ٢٨۴
٣- مميزات الخطبه الشقشقيه ---- ٢٨۶
الخطبه الرابعه ---- ٢٨٨
اشاره ---- ٢٨٨
نظره إلى الخطبه ---- ٢٨٨
القسم الأول: التحلى بالوعى واليقظه ---- ٢٩٠
اشاره ---- ٢٩٠
ملاحظه ---- ٢٩٢

الهدایه فی ظل أهل البیت علیهم السلام ----- ۲۹۲
القسم الثانی: کنت أتوقع غدرکم، ولکن. . . ----- ۲۹۴
اشاره ----- ۲۹۴
تأمّلان ----- ۲۹۶
۱ - البصیره ----- ۲۹۶
۲ - ستر عیوب الناس ----- ۲۹۷
القسم الثالث: الیوم أکشف الحجاب ----- ۳۰۰
اشاره ----- ۳۰۰
الصراع بین الحق والباطل ----- ۳۰۲
الخطبه الخامسه ----- ۳۰۴
اشاره ----- ۳۰۴
نظره إلی الخطبه ----- ۳۰۴
القسم الأول: احذروا مثیری الفتن ----- ۳۰۶
اشاره ----- ۳۰۶
سکوت الإمام علیه السلام بعد النبی صلی الله علیه و آله ----- ۳۰۹
القسم الثانی: تری ماالعمل مع المتربصین؟ ! ----- ۳۱۲
اشاره ----- ۳۱۲
تأمّلات ----- ۳۱۳
۱ - سوابق الإمام علیه السلام ----- ۳۱۳
۲ - لم أخاف الموت؟ ! ----- ۳۱۴
۳ - لم السکوت؟ ----- ۳۱۵
الخطبه السادسه ----- ۳۱۶
اشاره ----- ۳۱۶
نظره إلی الخطبه ----- ۳۱۶
الحیطه والحذر تجاه الأعداء ----- ۳۱۷
تأمّل: رساله إلی جمیع المسؤولین ----- ۳۱۹

الخطبه السابعه ----- ۳۲۰
اشاره ----- ۳۲۰
أتباع الشيطان ----- ۳۲۰
تأمّل: خطط الشياطين ----- ۳۲۳
الخطبهالثامنه ----- ۳۲۶
اشاره ----- ۳۲۶
نظره إلى الخطبه ----- ۳۲۶
عذر أقبح من ذنب ----- ۳۲۷
الخطبه التاسعه ----- ۳۳۰
اشاره ----- ۳۳۰
ضجه فارغه ----- ۳۳۰
تأمّلان ----- ۳۳۱
۱ - رجل العمل ----- ۳۳۱
۲ - الفارق بين الدعايه والاعلام الفعال ----- ۳۳۲
الخطبه العاشره ----- ۳۳۴
اشاره ----- ۳۳۴
نظره إلى الخطبه ----- ۳۳۴
تحذير المسلمين ثانيه ----- ۳۳۴
تأمّل: جند الشيطان ----- ۳۳۷
الخطبه الحاديه عشر ----- ۳۳۸
اشاره ----- ۳۳۸
نظره إلى الخطبه ----- ۳۳۸
كن كالجبل ----- ۳۳۹
تأمّلان ----- ۳۴۱
۱ - محمد بن الحنفيه ونسبه وبعض أخباره ----- ۳۴۱
۲ - الشرط المهم فى النصر على الأعداء ----- ۳۴۲

الخطبه الثانیه عشره ----- ۳۴۴
اشاره ----- ۳۴۴
نظره إلی الخطبه ----- ۳۴۴
اللحمه العقائدیه ----- ۳۴۵
تأمّل: الرابطه الحق ----- ۳۴۶
الخطبه الثالثه عشره ----- ۳۴۸
اشاره ----- ۳۴۸
نظره إلی الخطبه ----- ۳۴۸
خصائص أهل الجمل ----- ۳۴۹
تأمّلات ----- ۳۵۳
۱ - نبوءه النبی صلی الله علیه و آله بشأن موقعه الجمل ----- ۳۵۳
۲- ذم أهل البصره ----- ۳۵۴
۳ - المحیط والاخلاق ----- ۳۵۵
الخطبه الرابعه عشره ----- ۳۵۶
اشاره ----- ۳۵۶
نظره إلی الخطبه ----- ۳۵۶
ذم أهل البصره ثانیه ----- ۳۵۶
الخطبه الخامسه عشره ----- ۳۶۰
اشاره ----- ۳۶۰
نظره إلی الخطبه ----- ۳۶۰
القسم علی إعاده الأموال المغصوبه ----- ۳۶۱
تأمّلات ----- ۳۶۲
۱ - معطیات العداله فی المجتمعات البشریه ----- ۳۶۲
۲ - اسراف عثمان ----- ۳۶۳
۳ - الإجابه عن سؤال مهم ----- ۳۶۴
الخطبه السادسه عشره ----- ۳۶۶

اشاره ----- ۳۶۶
القسم الأول ----- ۳۶۶
اشاره ----- ۳۶۶
نظره إلى الخطبه ----- ۳۶۶
اليقظه والوعى فى الامتحان ----- ۳۶۷
تأمّلان ----- ۳۷۰
۱ - التأريخ يعيد نفسه ----- ۳۷۰
۲ - بيان الحقيقه أم رعايه المصلحه ----- ۳۷۱
القسم الثانى: الذنوب شماس كالخيل ----- ۳۷۲
القسم الثالث: سبيل النجاه ----- ۳۷۶
اشاره ----- ۳۷۶
تأمّلان ----- ۳۸۱
۱ - الجاهل من جهل قدر نفسه ----- ۳۸۱
۲ - الاعتدال هو الصراط المستقيم ----- ۳۸۲
الخطبه السابعه عشره ----- ۳۸۴
اشاره ----- ۳۸۴
القسم الأول ----- ۳۸۴
اشاره ----- ۳۸۴
نظره إلى الخطبه ----- ۳۸۴
أبغض الخلائق ----- ۳۸۵
تأمّلان ----- ۳۸۸
۱ - ما البدعه ومن المبتدع؟ ----- ۳۸۸
۲ - أخطر الذنوب، حمل ذنوب الآخرين ----- ۳۸۹
القسم الثانى: الجاهل المتشبه بالعالم ----- ۳۹۲
اشاره ----- ۳۹۲
تأمّلات ----- ۴۰۰

١ - آفات علماء السوء ---- ۴۰۰
٢ - علم كخيط العنكبوت ---- ۴۰۱
٣ - اطراء المتملقين ---- ۴۰۱
القسم الثالث ---- ۴۰۴
اشاره ---- ۴۰۴
التفسير بالرأى وقلب الحقائق ---- ۴۰۵
الخطبه الثامنه عشره ---- ۴۰۸
اشاره ---- ۴۰۸
القسم الأول ---- ۴۰۸
اشاره ---- ۴۰۸
نظره إلى الخطبه ---- ۴۰۹
ما علّه كل هذا الاختلاف؟ ---- ۴۰۹
تأمّلات ---- ۴۱۱
١ - مسأله التصويب ونشأتها ---- ۴۱۱
٢ - نتائج القول بالتصويب وغلق باب الاجتهاد ---- ۴۱۶
٣-الهرج والمرج الفقهى والقضائى ---- ۴۱۸
القسم الثانى: الاختلافات غير المبرره ---- ۴۲۰
اشاره ---- ۴۲۰
شموليه القرآن ---- ۴۲۳
القسم الثالث: أناقه القرآن وعمقه ---- ۴۲۶
اشاره ---- ۴۲۶
تأمّلان ---- ۴۲۸
١- القرآن والمسائل المستحدثه ---- ۴۲۸
٢- لم لا تنقضى عجائب القرآن ---- ۴۲۹
الخطبه التاسعه عشره ---- ۴۳۰
اشاره ---- ۴۳۰

الاصطدام بمنافق طائش ---- ۴۳۱
تأمّلان ---- ۴۳۴
۱- عله هذا الاصطدام العنيف ---- ۴۳۴
۲- كيف صبر الإمام عليه السلام على هذا المنافق ---- ۴۳۵
الخطبه العشرون ---- ۴۳۶
اشاره ---- ۴۳۶
طرح الحجب قريباً ---- ۴۳۶
ملاحظه: عالم ما بعد الموت ---- ۴۳۹
تعريف مركز ---- ۴۴۱

نفحات الولایه (شرح عصری جامع لنهج البلاغه) المجلد ۱

اشاره

عنوان و نام پدیدآور:نفحات الولایه: شرح عصری جامع لنهج البلاغه المجلد ۱/ ناصرمکارم شیرازی، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحیم الحمدانی.

مشخصات نشر:قم : مدرسه الامام علی ابن ابی طالب (ع) ، ۱۴۲۶ق.-= ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهری:۱۰ ج.

شابک:۳۰۰۰۰ ریال : دوره ۹۶۴-۸۱۳-۹۵۸-X: ؛ ج. ۱ ۹۶۴-۸۱۳-۹۰۷-۵ : ؛ ج. ۲ ۹۶۴-۸۱۳-۹۰۸-۳ : ؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۱۷-۲ : ؛ ج. ۴ ۹۶۴-۸۱۳-۹۱۸-۰ : ؛ ج.۵ : ۹۶۴-۸۱۳-۹۴۱-۵ ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۶ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵ : ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۷ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲ : ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۸ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹ : ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۹ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶ : ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۱۰ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳ :

یادداشت:عربی.

یادداشت:ج ۱- ۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

یادداشت:ج. ۶- ۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ ق.= ۱۳۹۰).

یادداشت:کتابنامه.

مندرجات:.- ج. ۶. من خطبه ۱۵۱ الی ۱۸۰.- ج. ۷. من خطبه ۱۸۱ الی ۲۰۰.- ج. ۸. من خطبه ۲۰۱ الی ۲۴۱.- ج. ۹. من رساله ۱ الی ۳۱.- ج. ۱۰. من رساله ۳۲ الی ۵۳

موضوع:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق -- خطبه ها

موضوع:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- کلمات قصار

موضوع:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- نامه ها

موضوع:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق . نهج البلاغه -- نقد و تفسیر

شناسه افزوده:حمرانی، عبدالرحیم

شناسه افزوده:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق . نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده:مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره:BP۳۸/۰۲ /م۷ ۱۳۸۴

رده بندی دیویی:۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی:م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص :۱

اشاره

نفحات الولایه: شرح عصری جامع لنهج البلاغه المجلد ۱

ناصرمکارم شیرازی، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحیم الحمدانی

ص :۳

الدافع الرئیسی لتألیف هذا الکتاب

لم یحظ کتاب بالعنایه والرعایه - بعد القرآن الکریم - کما حظی نهج البلاغه ولم یتیسر لغیره مثل هذه المنزله الساميه النامیه.

فما أکثر البحوث والدراسات فی تصویره الفنی وفصاحته وبلاغته وصیاغته حتی أضحی موئلًا ومنهلًا وأساساً ونبراساً للدراسات الإسلامیه ومعیناً ثرا للمعارف الإنسانیه. وهل رأینا کالنهج یرغب المؤلفون بشرحه والتعرف علیه والاقتباس منه والاستشهاد به وحفظ ولو بعض حکمه ومواعظه. إنّه کتاب المعانی الروحیه، والعداله الاجتماعیه، والتربیه الرساليه، والقیم الخلقیه، والأدله والکمال والنقاء، ونابض بکل مفید وسدید ورشید، ورافض لکل ألوان الشرور والفجور والغرور ومهما استجدت من أفکار وآراء ونظریات واکتشافات خلال هذه القرون المتطاوله فلا تزیده إلّاتسدیداً وتأییداً وتخلیداً، ولا یزداد المفکرون والباحثون نحوه إلّاانسجاماً واحتراماً، لأنّه الکتاب الزاهر بالحجج البالغه والزاخره بالموارد السائغه والجامع بین جلال البلاغه وجمال الصیاغه، وبین إصاله المعانی وجزاله المبانی وبین دقّه التصویر ورقه التعبیر.

لقد عکفت کأغلب الأفراد الشغفین بنهج البلاغه علی مطالعه بعض أجزائه. بحسبما کانت تتطلبه الضروره والحاجه، حتی لاحت بوادر الخامس عشر من خرداد عام ۱۹۶۳ م فأُلقی القبض علیَّ برفقه طائفه من کبار العلماء والمفکرین فاودعنا السجن. کانت ظروف السجن عصیبه جدّاً فی الأیام الأُولی حیث عمدت جلاوزه النظام الشاهنشاهی البائد إلی حظر أغلب الأشیاء عن الوصول إلینا، غیر أنّ الضغوط التی مارسها الرأی العام دفعت بذلک النظام

إلى التخفيف من وطأته والتنازل عن بعض المحظورات الثقافيه؛ الأمر الـذى جعلنا نطلب من أصدقائنا وذوينا إتياننا ببعض الكتب إلى السـجن. أمّا أنا فقـد ناشـدتهم كتاب نهج البلاغه لأسـتغل تلك الفرصه المناسـبه وأتفرغ فيها للتأمل فى هذا الكتاب العظيم، وقـد منّ اللّه علىّ ووفّقنى للتـدبر والتحقيق فى دراسه القسم الثـانى من هـذا الكتـاب والـذى يشـمل الرسائـل والوصايـا السياسـيه والأخلاقيه، آنـذاك أيقنت بأنّ نهج البلاغه لأعظم وأكبر ممّا كنّا نفكر فيه ونتصوره عنه. فقد رأيت نفسـى حينها أمام بحر زاخر من العلوم والمعـارف التى تعالـج أهم قضايـا الإنسـان فى كـافه أبعـاده المعنويه والمـاديه، كمـا يمـد الإنسـان بمختلف المواهب المعنويه التى تمكنها من بلوغ شأطئ الامان فى هذه الدنيا المحفوفه بالمكاره.

آنـذاك أدركت عمق خيبه وخسـران أولئـك الـذين ولّوا ظهورهم لهـذا الكنز الفيّـاض والمنهل العـذب وجعلوا يسـيلون لعابهم لموائد الأجانب بما يعجزون عن الإتيان بمثل قطره من بحره المتلاطم!

من عجائب هـذا الكتاب الـذى اقتفى آثا رالقرآن حتى طبع بصـفاته وسـماته إنّه وخلافاً للمدارس الفكريه والأخلاقيه والسياسـيه التى يبليها الزمان فانّه يحمل فى طياته صـفات العصرنه والتجدد وكأنّ خطب أمير المؤمنين عليه السلام ومواعظه وتوجيهاته تقرع سمع المعاصـر وتجعله يعيش أجواء مسجد الكوفه. وما أجدر عشاق الحق والحقيقه والمتعطشين لمعرفه العلوم الربّانيه والمتطلعين لعيش الحياه الحره الكريمه أن يقصـدوا كل يوم ضـريح هـذا العالم الفـذ السـيد الشـريف الرضـى (جامع نهـج البلاغه) فيؤدوا له طقـوس الاجلاـل والاكبـار ويقرأوا الفـاتحه على روحـه الطـاهره بفضـل الجهـود المضـنيه الـتى بـذلها مـن أجـل جمع كلمـات أميرالمؤمنين عليه السلام فزود بها البشريه جمعاء فضلاً عن المجتمعات الإسلاميه.

ومـاذا بوسـعى أن أقول بشـأن نهـج البلاـغه الـذى حـار فى وصـفه البلغاء وعجز عن تصويره الفصـحاء وعيت عن الاحاطه بكنهه العلمـاء، وعليه لاـ أرى من جـدوى فى الاسـتغراق فى هـذا الموضوع، وأخوض فى الغرض والـدافع من هـذا الكتـاب. فقـد أقبل العلماء والأُدباء على هـذا الكتاب النفيس – نهـج البلاغه – بين حافظ وناسـخ وشارح، حيث بلغ عـدد شـرّاحه فى العصـر القـديم والحديث ما جاوز الخمسين شارحاً الذين بذلوا ما بوسعهم لسبر أغواره واستخراج

كنوزه وجواهره حتى قدموا خدمه جليله لطلاب المعرفه والحكمه، إلّاأنّ الانصاف هو أنّ هذا الكتاب ما يزال يعيش مظلوميه كبرى وغربه عظمى، وليس هناك من سبيل لازالتها سوى فى تظافر الجهود وتعبئه الأفكار والطاقات من أجل إعاده النظر والاسهاب فى تفاصيل وجزئيات هذا الكتاب الثر، ولا سيما فى عصرنا الراهن الذى تشهد فيه المجتمعات الإنسانيه ذروه المشاكل والمطبات التى تعترض حياتها اليوميه، إلى جانب ظهور المذاهب والمدارس الفكريه المختلفه والحملات الشعواء التى تمارسها الأجهزه الاستكباريه والدوائر النفعيه الغارقه فى الأهواء والشهوات وحب الدنيا والخلود إليها ضد العقائد والأخلاق والفضيله والتقوى بغيه تحقيق أهدافها المشؤومه فى ضمان مصالحها ونهب خيرات البشريه وتجريدها من هويتها الإنسانيه. أجل فالعصر الحاضر يجعل نهج البلاغه يتطلب جهوداً أكثر وأنشطه أوسع وأشمل من شأنها التوصل إلى الطرق والأساليب التى تذلل الصعاب الماديه والمعنويه والفرديه والاجتماعيه، إلى جانب التصدى إلى النزعات الفكريه الهدامه التى تستهدف الدين والأخلاق. وعلى هذا الأساس وما أن فرغنا من نشاطنا القرآنى فى التفسير الذى دوناه – التفسير الأمثل – وكتابنا رساله القرآن والتى حظيت باقبال المحافل العلميه والأوساط التحقيقيه حتى آلينا على أنفسنا أن نواصل نفس هذه الجهود وبمعونه الاخوه الفضلاء من العلماء بخصوص نهج البلاغه على غرار الجهود والأساليب التحقيقيه التى إعتمدناها فى التفسير القرآنى – الأمثل – بل إنّ التجارب السابقه قد جعلت هذا الجهد المتواضع أقرب من غيره إلى الاتقان والاكمال. نعم لقد عزمنا على مباشره هذا العمل رغم كثره المشاكل والعراقيل وسعه حجم المسؤوليات مستلهمين العزم والامداد من البارئ سبحانه وعبده الخالص ربيب النبى صلى الله عليه و آله أمير المؤمنين ويعسوب الدين وقائد الغر المحجلين على بن أبى طالب عليه السلام وبعد أن وعدنا الاخوه الذين وقفوا إلى جانبنا فى التفسير القرآنى بتقديم كافه أشكال الدعم والعون فى هذا المجال لكى نعد شرحا جديداً جامعاً لهذا الكتاب من شأنه تلبيه حاجات العصر ووضع الحلول الوافيه الشافيه للمعضلات الفكريه والاجتماعيه، كما استعنا فى بعض المواقيع بما أورده المفسرون والشارحون القدماء والمعاصرون من أجل إغناء كافه جوانب المواضيع، إلى جانب اعتماد الأفكار والاطروحات الحديثه المعاصره.

لقد باشرنا هذا العمل غره الثالث عشر من شهر رجب المرجب لعام ۱۴۱۳ ه الميلاد الميمون لأمير المؤمنين عليه السلام وسار بخطوات بطيئه هادئه حتى استغرق إعداد المجلد الأول - رغم الجهود الجماعيه المشتركه - ما يقارب الثلاث سنوات (ومن الطبيعى أن لا تشوب الأعمال العجله فى بدايتها) . حتى اتسقت لنا الأُمور فأخذنا نحث السير وننهض سريعاً بهذا العمل، رغم يقيننا بأننا مازلنا نحوم فى هذا المحيط المتلاطم والبحر العميق؛ الأمر الذى لايبد ويسيراً قط. والأفضل ألا أخوض فى التفاصيل التى اعتمدت فى هذا الشرح وأترك ذلك للاخوه القراء، ويسرنى هنا أن أناشد كافه الاخوه الفضلاء أن يتحفونا بآرائهم بما يقرب هذا العمل من أهدافه ومقاصده، إلى جانب النظر بعين العفو والصفح إلى الخطأ والزلل.

وأخيراً أسأل اللّه أن يتفضل علينا باتمام هذا الجهد المتواضع بغيه التزود من مائده نهج البلاغه لنا ولكافه جياع الفكر والعقيده، إنّه نعم المولى ونعم المجيب، وما توفيقى إلّاباللّه عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين.

قم - الحوزه العلميه ناصر مكارم الشيرازى ۳ ربيع الثانى ۱۴۱۷ ه ۲۰ / تموز / ۱۹۹۶ م

ص:۸

السید الرضی جامع نهج البلاغه

اشاره

هو أبو الحسن محمـد بن الحسـین الموسوی، ولد فی بغداد سـنه تسع وخمسن وثلاثمائه للهجره. أُمّه فاطمه بنت الحسـین بن أبی محمد الحسن الاطروش بن علی بن الحسن بن علی بن عمر بن علی بن أبی طالب علیه السـلام، وهی إمرأه فاضـله عرفت بالورع والتقوی والبصیره الثاقبه، فقد قال فیها السید الرضی (ره) : لَوْ کانَ مِثلَک کلُّ اُمِّ بَرِّهِ غَنِیَ البَنُونَ بِها عَنِ الآباءِ

کما یتصل نسب جدّه بالإمام موسـی بن جعفر الکاظم علیهما السـلام وهو أبو أحمد الحسـین بن موسـی بن محمد بن موسی بن إبراهیم بن الإمام أبی إبراهیم موسـی الکاظم علیه السـلام. وقـد کانت له منزله عظیمه فی الـدوله العباسـیه والدوله البویهیه، حتی لقبه أبو نصر بهاء الدین بالطاهر الأوحد.

أقبل السـید الرضی علی العلم والفقه والأدب حتی بات أبدع أبناء زمانه، وقد خلف أبیه عام ۳۸۸ بتولی نقابه الطالبیین فی حیاته، وعهد إلیه بالنظر فی المظالم والحج بالناس. إبتدأ ینظم الشـعر وله من العمر عشر سنین أ وتزید قلیلاً، حکم بعض النقاد بأنّه أشعر الطالبیین، وإلی جانب ذلک فقد کان کاتباً بلیغاً مترسلاً، امّا المرحوم العلّامه الامینی فقد صرّح بشأن السید الشریف الرضی قائلا: «وسـیدنا الشـریف الرضـی هو مفخره من مفـاخر العتره الطـاهره، وإمـام العلم والحـدیث والإـدب، وبطل من أبطال الـدین والعلم والمذهب، ومهما تشدق الکاتب فان فی البیان قصوراً عن بلوغ مداه» . (۱)

أساتذه السید الرضی

لقد ذکر العلّامه الأمینی إسم أربعه عشر من أساتذه السید الرضی ومنهم:

۱- ۱) الغدیر ۴ /۱۸۱. [۱]

۱ – أبو سعید الحسن بن عبداللّه بن مرزبان النحوی المعروف بالسیرافی المتوفی عام ۳۶۸ه فقد درس السید الرضی علیه النحو ولما یبلغ العاشره من عمره.

۲ – النحوی المعروف أبو علی الحسن بن أحمد الفارسی المتوفی عام ۳۷۷ ه.

۳ – هارون بن موسی.

۴ – الخطیب المشهور أبو یحیی عبد الرحیم بن محمد المعروف بابن نباته المتوفی عام ۳۹۴ه.

۵ – القاضی عبد الجبار، العالم الشافعی المعتزلی.

۶ – الفقیه والمحدث والمتکلم الشیعی الکبیر الشیخ المفید والذی یعدّ من أعظم أساتذه السید الرضی. وهناک قصه رائعه جدیره بالسماع بشأن کیفیه تتلمذه وأخیه السید المرتضی علی ید الشیخ المفید. فقد قال مؤلف کتاب «الدرجات الرفیعه» : رأی المفید أبو عبد اللّه محمد بن النعمان الفقیه الإمام فی منامه، کأنّ فاطمه بنت رسول اللّه صلی الله علیه و آله دخلت علیه وهو فی مسجده بالکرخ ومعها والداها الحسن والحسین علیهما السلام صغیرین فسلمتهما إلیه، (وقالت له: علمهما الفقه) . فانتبه متعجباً من ذلک، فلمّا تعالی النهار فی صبیحه تلک اللیله التی رأی فیها الرؤیا دخلت إلیه المسجد فاطمه بنت الناصر، وحولها جواریها وبین یدیها ابناها محمد الرضی وعلی المرتضی صغیرین، فقام إلیها وسلّم علیها. فقالت له: أیّها الشیخ هذان ولدای، قد أحضرتهما لتعلمهما الفقه.

فبکی أبو عبد اللّه – الشیخ المفید – وقصّ علیها المنام وتولی تعلیمهما الفقه، وأنعم اللّه علیهما، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما فی آفاق الدنیا؛ وهو باق ما بقی الدهر «وردت هذه القصه فی شرح ابن أبی الحدید، ج ۱ / ۴۱» .

تلامذه السید الرضی

روی کبار علماء الفریقین أنّ العلّامه الأمینی ذکر تسعه من تلامذه السید الرضی، ویمکن الإشاره هنا إلی أبرز من روی عنه ومنهم شقیقه السید المرتضی وشیخ الطائفه أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسی کانت للسید الرضی همه کبیره جعلته یؤسس مدرسه لطلاب العلوم

الـدينيه أسـماها «دار العلم» ولعلها أول مـدرسه يتلقى فيها الطلاب الـدروس صـباحاً بينما يخلـدون إلى الراحه والسـكن مساءً فى نفس المدرسه، وهى على غرار مدرسه أخيه السيد المرتضى، وقد كان الشيخ الطوسى والقاضى عبد العزيز بن براج من تلاميذها وسبقت مدرسته «المدرسه النظاميه» ببغداد بحوالى ۸۰ سنه وربما كانت تقليداً لها (۱).

كتب ومؤلفات السيد الرضى

ذكر العلّامه الأمينى أنّ السـيد الرضـى خلف أكثر من تسـعه عشر كتاباً، أهمها أثره الخالد نهج البلاغه الذى يضم خطب ورسائل وكلمات الإمام على عليه السـلام. ثم يورد الشـيخ الأمينى أسـماء واحـد وثمانين كتاباً زمان السـيد تعرضت لشـرح نهـج البلاغه أ وترجمته.

ومن أهم الكتب التى ألفها السيد الرضى:

۱ – خصائص الأئمه، والذى أشار إليه المؤلف فى مقدمه نهج البلاغه.

۲ – مجازات الآثار النبويه، والذى طبع عام ۱۳۲۸ ه فى بغداد.

۳ – الرسائل العلميه فى ثلاثه مجلدات.

۴ – معانى القرآن.

۵ – حقائق التأويل فى متشابه التنزيل والذى عبّر عنه الكشى بحقائق التنزيل.

السيد الرضى والشعر

كان السـيد الرضـى نابغه فى الشـعر، علماً أنّ الشـعر لم يضف شـيئاً لشخصـيته العظيمه، ورغم ذلك فقـد جادت قريحته الشـعريه بمختلف الفنون والآداب والصـنوف الشعريه التى تكشف عن مدى قدرته فى نظم الشعر. يذكر أنّ السيد الرضى قد أنشد قصيده غرّاء كشف فيها النقاب عن علو نسبه ولما يبلغ العاشره من عمره ولذلك عدّه بعض الأُدباء أشعر شعراء قريش، وربّما رجّح شعره على المتنبى، وهناك رسائل ومبادلات بينه وبين الصاحب بن عباد وأبى اسحاق

۱– ۱) مذكرات العلّامه الشريف الرضى / ۲۹.

الصابی، وذکر الخطیب البغدادی فی تأریخه قائلاً: سمعت محمد بن عبد اللّه الکاتب أنّه قال عند أبی الحسین بن محفوظ قال: سمعت من فریق من الأُدباء أنّهم قالوا: السید الرضی أشعر شعراء قریش. فردّ ابن محفوظ قائلاً: نعم، هذا کلام صحیح، ثم أضاف: کان هناک بعض الأفراد الذین یحسنون الشعر فی قریش إلّاأنّهم قلیلوا النظم للشعر، ولم یکن سوی السید الرضی یکثر إنشاد الشعر إلی جانب إتصافه بالعذوبه والجمال.

القابه ومناصبه

لقبه بهاء الدوله سنه ۳۸۸ بالشریف الأجل، وفی سنه ۳۹۲ بذی المنقبتین، وفی سنه ۳۸۹ بالرضی ذی الحسبین، وفی سنه ۴۰۱ أمر أن تکون مخاطباته ومکاتباته بعنوان الشریف الرضی أن المناصب والولایات کانت منکثره علی عهد سیدنا الشریف من الوزاره التنفیذیه والتفویضیه والاماره علی البلاد بقسمیها العامه والخاصه، تولی الشریف نقابه الطالبیین واماره الحاج والنظر فی المظالم سنه ۳۸۰ وهو ابن ۲۱ عاما علی عهد الطائع، ثم عهد إلیه فی ۱۶ محرم سنه ۴۰۳ بولایه أُمور الطالبیین فی جمیع البلاد فدعی «نقیب النقباء» . (۱)

---

۱ - ۱) النقابه: موضوعه علی صیانه ذوی الأنساب الشریفه عن ولایه ولا یکافئهم فی النسب ولا یساویهم فی الشرف، لیکون علیهم أحبی وأمره فیهم أمضی وهی علی ضربین: خاصه وعامه، وأمّا الخاصه فهو أن یقتصر بنظره علی مجرد النقابه من غیر تجاوز لها إلی حکم وإقامه حد فلا یکون العلم معتبراً فی شروطها ویلزمه فی النقابه علی أهله من حقوق النظر اثنا عشر حقاً: ۱- حفظ أنسابهم من داخل فیها ولیس هو منها، أ وخارج عنها. ۲- تمییز بطونهم ومعرفه أنسابهم حتی لا یخفی علیه منه یتوأب. ۳- معرفه من ولد منهم من ذکر أوانثی فیثبته. ۴- أن یأخذهم من الاداب بما یضافی شرف أنسابهم وکرم محتدهم لتکون حشمتهم فی النفوس موقوره وحرمه رسول اللّه صلی الله علیه و آله فیهم محضوره. ۵- أن ینزههم عن المکاسب الدنیئه ویمنعهم من المطالب الخبیثه. ۶- أن یکفّهم عن ارتکاب المآثم. ۷- أن یمنعهم من التسلط علی العامه لشرفهم. ۸ - أن یکون عوناً لهم فی استیفاء الحقوق. ۹- أن ینوب عنهم فی المطالبه بحقوقهم العامه. ۱۰- أن یمنع أمائهم أن یتزوجن إلّامن الأکفاء. ۱۱- أن یقوم ذوی الهفوات منهم فیما سوی الحدود. ۱۲- مراعاه وقوفهم بحفظ اصولها وتنمیه فروعها.

وفاه السید الرضی

توفی السید الرضی رحمه الله فی السادس من شهر محرم الحرام من سنه ست وأربعمائه - وله من العمر ما یناهز السابعه والأربعین -، وحضر جنازته الوزیر فخر الملک، وجمیع الأعیان والأشراف والقضاه والصلاه علیه، وقد أقیمت مراسم العزاء فی داره فی الکرخ.

روی أغلب المؤرخین أنّ جسده الطاهر قد حمل إلی کربلاء فدفن إلی جوار قبر جدّه، والذی یفهم من بعض النقول التأریخیه أن قبره فی مقدمه الحائر الحسینی. ومضی أخوه المرتضی من جزعه علیه إلی مشهد موسی بن جعفر علیه السلام؛ لأنّه لم یستطع أن ینظر إلی تابوته ودفنه وصلی علیه فخر الملک أبو غالب، ومضی بنفسه آخر النهار إلی أخیه المرتضی بالمشهد الشریف الکاظمی، فألزمه بالعود إلی داره. (۱)

رثاه الکثیر من الأدباء والشعراء وفی مقدمتهم أخیه السید المرتضی الذی أنشده قائلاً: یا للرجال لفجعه جذمت یدی

۱- ۱) أغلب ما أوردناه بالنسبه لحیاه السید الرضی قد اقتبسناه من کتاب الغدیر ۴ / ۱۸۱ - ۲۱۱، [۱] إضافه إلی شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید، [۲] عبقریه الشریف الرضی، سفینه البحار [۳]ومذکرات العلامه الشریف الرضی. [۴]

كلام بشأن نهج البلاغه وصاحبه

اشاره

يعد الحديث عن على عليه السلام أو نهج البلاغه عملاً سهلاً وفى نفس الوقت وليس بسهل! فهو ليس بسهل بالنسبه لمن يروم الغوص فى أعماق على عليه السلام والوقوف على كنهه وحقيقته والاحاطه بكافه جوانبه الفكريه وسعه إيمانه وقوه صبره وعظم فضائله وملكاته، أو أن يتعرف على نهج البلاغه كما هو فى حقيقته. ولكن من السهل الوقوف على بعض قبسات هذين النبراسين العظيمين والقمرين الزاهرين. لا تخفى شخصيه على عليه السلام على مسلم، فكل من له أدنى معرفه بعلى عليه السلام وتاريخه وسيره حياته سيوقن بأنّه الإنسان الكامل - بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله - وأنّه آيه من آيات الحق جل وعلا وان كتابه نهج البلاغه ليس الّا شعاعاً من شمسه المنيره. فنهج البلاغه بحر من العلم ومحيط من الحكمه وكنز لا ينضب وحديقه غناء بالزهور وسماء مزينه بالنجوم ومصدر لسعاده الإنسان فى مسيرته الدنيويه.

وممّا لاشك فيه أنّ من يروم إقتحام هذا الميدان عليه أن يعدّ الكتب والمجلدات علّه يحصى بعض حقائق الاُمور، بينما لا نهدف - فى هذه المقدمه - إلّاإلى التطرق إلى بعض الإشارات المقتضبه من أجل التمهيد للخوض فى شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام والتى نراها أفضل طريقه للتعريف به، وهل الجو المشمس إلّادليل على وجود الشمس.

وهنا أود أن ألفت إنتباه الاخوه القراء إلى أنّ عدداً كبيراً من العلماء والأدباء والزعماء - ولا سيما من غير المسلمين - قد تناولوا بالبحث والدرس كتاب نهج البلاغه فرأوا أعظم ممّا ظنوا وتصوروا فأطلقوا عباراتهم المعروفه بشأن نهج البلاغه بما يكشف عن مدى تأثرهم والذهول الذى أصابهم فلم يتمالكوا أنفسهم ويعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم وعواطفهم.

ويبدو أن كل واحد من هؤلاء قد تأثر بجانب معين من نهج البلاغه، وربما أمكننا إيجاز هذه الجوانب فى المحاور الرئيسيه الثلاث الآتيه:

١ - فصاحه وبلاغه نهج البلاغه.

٢ - المضامين العميقه لنهج البلاغه.

٣ - الجاذبيه الخارقه لنهج البلاغه.

ص:١٦

۱– فصاحه النهج وبلاغته

لابدّ فی هذا الأمر من الاستشهاد بأقوال البلغاء والفصحاء والأدباء والشرّاح والکتّاب الذین سیروا – حسب قدرتهم – أغوار نهج البلاغه فتأثروا بما لمسوه من حلاوه وطلاوه فی فصاحته وبلاغته وسحر بیانه بما لم یعهدوه، فأطلقوا عباراتهم بشأنه ومنهم:

۱ – وما أحرانا أن نتجه بادئ ذی بدء صوب جامع نهج البلاغه والذی یعتبر من جهابذه الفصاحه والبلاغه الذی احتل الصداره من بین فصحاء العرب وبلغائها وقد أفنی عمره فی جمع خطب نهج البلاغه، ألا وهو السید الرضی الذی وصفه الکاتب المصری المعروف الدکتور «زکی مبارک» فی کتابه «عبقریه الشریف الرضی» قائلاً: «هو الیوم أبدع أبناء الزمان، وأنجب ساده العراق، یتحلی بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظ من جمیع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبیین، ولو قلت إنّه أشعر قریش لم أبعد عن الصدق» .

یقول الشریف الرضی فی مقدمته الرائعه لنهج البلاغه: «کانَ أمیرُ الْمُؤمِنینَ علیه السلام مَشْرِعَ الْفَصاحَهِ وَمَوْرِدَها وَمَنْشَأ الْبلاغَهِ وَمَوْلِدَها وَمِنْهُ ظَهَرَ مَکْنُونُها وَعَنْهُ أخذَتْ قوانینُها وَعَلی أمْثِلَتِهِ حَذا کُلُّ قائِلٍ خَطیبٍ وَبِکلامِهِ اسْتَعانَ کُلُّ واعِظٍ بَلیغٍ وَمَعَ ذلِک فَقَدْ سَبَقَ وَقَصَّرُوا وَقَدْ تَقَدَّمَ وَتَأخّرُوا» ، ثم یفسر هذا الکلام فیقول: «لأن کلامه علیه السلام الکلام الذی علیه مسحه من العلم الإلهی وفیه عبقه من الکلام النبوی» .

۲ – الشارح المعروف الذی أفنی عمراً فی شرح وتفسیر نهج البلاغه وتحدث بشغف وإعجاب عن علی علیه السلام وهو عز الدین عبد الحمید ابن أبی الحدید المعتزلی الذی یعدّ من أشهر علماء العامه للقرن السابع الهجری (۱).

۱– ۱) یقع شرحه فی عشرین مجلداً وقد استغرق فی تألیفه أقل بقلیل من خمس سنوات وهی مدّه خلافه علی علیه السلام علی حد تعبیره.

فقد تحدث مراراً وكراراً بهذا الشأن فی شرحه وأذعن لعظمه فصاحه وبلاغه النهج. فقد قال علی سبیل المثال بشأن الخطبه ۲۲۱ التی أوردها علی علیه السلام - بشأن البرزخ - «وینبغی لو اجتمع فصحاء العرب قاطبه فی مجلس وتلی علیهم، أن یسجدوا له کما سجد الشعراء لقول عدی ابن الرقاع: قلم أصاب من الدواه مدادها. . . فلم قیل لهم فی ذلک قالوا إنا نعرف مواضع السجود فی الشعر کما تعرفون مواضع السجود فی القرآن» (۱).

ثم قال فی موضع آخر حین عرض للمقارنه بین کلام أمیر المؤمنین علی علیه السلام وکلام «ابن نباته» (۲)الخطیب المعروف الذی عاش فی القرن الهجری الرابع: «فلیتأمل أهل المعرفه بعلم الفصاحه والبیان هذا الکلام بعین الانصاف لیعلموا أنّ سطراً واحداً من کلام نهج البلاغه یساوی ألف سطر منه بل یزید ویربی علی ذلک» (۳). وینقل أیضاً إحدی خطب ابن نباته فی الجهاد والتی تمثل قمه الفصاحه وقد ضمنها عبارات أمیر المؤمنین علیه السلام الوارده فی الجهاد «ما غزی قوم فی عقر دارهم إلّاذلّوا» فیقول: «فانظر إلی هذه العباره کیف تصیح من بین الخطبه صیاحاً وتنادی علی نفسها نداءً فصیحاً، وتعلم سامعها أنّها لیست من المعدن الذی خرج باقی الکلام منه، ولا من الخاطر الذی صدر ذلک السجح عنه، ولعمر اللّه، لقد جمّلت الخطبه وحسنتها وزانتها وما مثلها فیها إلّاکآیه من الکتاب العزیز یتمثل بها فی رساله أو خطبه، فانّها تکون کاللؤلؤه المضیئه تزهر وتنیر، وتقوم بنفسها، وتکتسی الرساله بها رونقاً، وتکتسب بها دیباجه» (۴).

وأخیراً نختتم کلامه بما أورده فی مقدمه شرحه للنهج حیث قال: «وأمّا الفصاحه فهو علیه السلام إمام الفصحاء وسید البلغاء وفی کلامه قیل: دون کلام الخالق وفوق کلام المخلوقین ومنه تعلم الناس الخطابه والکتابه» (۵).

۳ - «جورج جرداق» الکاتب المسیحی اللبنانی المعروف الذی ألف کتابه المشهور

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱۱ / ۱۵۳. [۱]

۲- ۲) هو أبو یحیی عبد الرحیم بن محمد بن اسماعیل بن نباته المتوفی عام ۳۷۴.

۳- ۳) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۷ / ۲۱۴. [۲]

۴- ۴) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۲ / ۸۴. [۳]

۵- ۵) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱ / ۲۴. [۴]

«الإمام علی صوت العداله الإنسانیه» حیث أفرد فصلاً من کتابه لبیان خصائص الإمام علی علیه السلام فقال بخصوص نهج البلاغه: «أمّا فی البلاغه، فهو فوق البلاغات، کلام ضم جمیع جمالات اللغه العربیه فی الماضی والمستقبل، حتی قیل عنه: کلام دون کلام الخالق وفوق کلام المخلوقین» (۱).

۴ - «الجاحظ» الذی عاش مطلع القرن الهجری الثالث ویعدّ من أبرز أدباء العرب ونوابغهم، حیث أورد بعض کلمات أمیر المؤمنین علیه السلام فی کتابه المعروف «البیان والتبیین» فجعل یثنی علیه. ومن ذلک قال فی المجلد الأول من کتابه المذکور حین طالعته کلمته علیه السلام: «قیمه کل امرء ما یحسنه» (۲)؛ لو لم تکن فی کل هذا الکتاب إلّاهذه الجمله لکفت، بل وزادت، فأفضل الحدیث ما کان قلیلاً ومفهومه ظاهر جلی ویغنیک عن الکثیر، وکأنّ اللّه کساه ثوباً من الجلال والعظمه وحجاباً من نور الحکمه بما یتناسب وطهر قائله وعلو فکره وشده تقواه.

۵ - «أمیر یحیی العلوی» مؤلف کتاب «الطراز» حیث أورد فی کتابه عباره عن الجاحظ انّه قال: «إنّه الرجل الذی لا یجاری فی الفصاحه ولا یبارى فی البلاغه، وفی کلامه قیل دون کلام الخالق وفوق کلام المخلوقین، ولم یطرق سمعی کلام بعد کلام اللّه ورسوله سوی کلمات أمیر المؤمنین کرم اللّه وجهه من قبیل قصار کلماته «ما هلک امرء عرف قدره» و «من عرف نفسه عرف ربه» و «المرء عدو ما جهل» و «استغن عمن شئت تکن نظیره واحسن إلی من شئت تکن أمیره واحتج إلی من شئت تکن أسیره» . وعلیه فلیس من العبث أن یعرب هذا الأدیب الزیدی «صاحب کتاب الطراز» عن دهشته لاستناد کبار علماء المعانی والبیان بدواوین شعراء العرب وأدبائهم بغیه السبیل إلی الفصاحه والبلاغه بعد کلام اللّه وکلام النبی صلی الله علیه و آله وولوا ظهورهم لکلمات الإمام علی علیه السلام، بینما کانوا یعلمون أنّه یمثل قمه الفصاحه والبلاغه وفی کتاب نهج البلاغه کل ما یریدون من فنون أدبیه من قبیل الاستعاره والتمثیل والکنایه والمجاز والمعانی و. . .» (۳).

۱- ۱) علی صوت العداله الإنسانی ۱ / ۴۷.

۲- ۲) نهج البلاغه، قصار الکلمات ۸۱.

۳- ۳) الطراز ۱ / ۱۶۵ - ۱۶۸.

۶ – الکاتب المشهور «محمد الغزالی» الذی نقل فی کتابه «نظرات فی القرآن» عن الیازجی أنه أوصی ولده قائلًا: «إذا شئت أن تفوق أقرانک فی العلم والأدب وصناعه الانشاء فعلیک بحفظ القرآن ونهج البلاغه» . (۱)

۷ – المفسر المعروف «شهاب الدین الآلوسی» الذی قال – حین بلغ اسم نهج البلاغه –: «إنّ انتخاب هذا الاسم لهذا الکتاب نابع من کونه یشتمل علی کلام فوق کلام المخلوق ودون کلام الخالق المتعال، وهو کلام یقترب من الاعجاز یضم البدائع فی الحقیقه والمجاز» (۲)

۸ – الاستاذ «محمد محیی الدین عبد الحمید» الذی قال فی وصفه لنهج البلاغه: «کلّ هذه المزایا مجتمعه، وتلک الصفات متآزره متناصره؛ وما صاحبها من نفح إلهی وإفهام قدسی، مکنت للإمام علیّ من وجوه البیان، وملکته أعنّه الکلام، وألهمته أسمی المعانی وأکرمها، وهیأت له أشرف المواقف وأعزها، فجرت علی لسانه الخطب الرائعه والرسائل الجامعه والوصایا النافعه» . (۳)

۹ – أحد شرّاح نهج البلاغه «الشیخ محمد عبده» إمام العامه والکاتب العربی المعروف، الذی قال بشأن النهج فی مقدمته علیه – بعد أن إعترف بأنّه تعرف مصادفه علی هذا الکتاب الشریف – ویبدو أنّ هذه قضیه جدیره بالتأمل –: «حین تصفحت نهج البلاغه وتأملت موضوعاته بدا لی وکأنّ هذا الکتاب عباره عن معارک عظیمه، الحکومه فیها للبلاغه والقوّه للفصاحه وقد حملت من کل حدب وصوب علی جنود الظنون الباطله وسلاحها الأدله القویّه والبراهین الساطعه» .

۱۰ – «السبط بن الجوزی» أحد أبرز الخطباء والمؤرخین والمفسرین المعروفین العامه، الذی صرّح فی «تذکره الخواص» قائلًا: «وقد جمع اللّه له بین الحلاوه والملاحه والطلاوه والفصاحه لم یسقط منه کلمه ولا بادت له حجه، أعجز الناطقین وحاز قصب السبق فی السابقین الفاظ یشرق علیها نور النبوه ویحیر الافهام والألباب» . (۴)

۱– ۱) نظرات فی القرآن / ۱۵۴، طبق نهج البلاغه ۱ / ۹۱.

۲– ۲) نقلًا عن کتاب (الجریده الغیبیه) عن مصادر نهج البلاغه / ۱. [۱]

۳– ۳) مصادر نهج البلاغه ۱/۹۶.

۴– ۴) تذکره الخواص، الباب السادس / ۱۲۸. [۲]

۱۱ و۱۲ - ونختتم هذا الفصل بقولين لأديب مسيحى معروف وهو الكاتب والمفكر العربى المشهور «ميخائيل نعيمه» الذى قال: لو كان على مقتصراً على الإسلام لم يتعرض شخص مسيحى (يشير إلى الكاتب والمفكر المسيحى اللبنانى جورج جرداق صاحب كتاب الإمام على صوت العداله الإنسانيه) لسيرته وحياته ويتابع الأحداث التى واجهته فيترنم بشجاعته التى أصابته بالدهشه والذهول؛ ولم تقتصر شجاعه الإمام وبسالته على ميدان الحرب، فقد كان رائداً فى البلاغه وسحر البيان والاخلاق الفاضله وعلو الهمّه وعمق الإيمان ونصره المظلومين واتباع الحق وبسط العدل. ثم قال فى موضع آخر بأن ما قاله وفعله هذا النابغه ما لم تره عين وتسمعه أذن، وأنّه لأعظم من أن يسع المؤرخ بيانه بقلمه ولسانه. وأخيراً فقد قال فيه ابن أبى الحديد: وأمّا الشجاعه فانه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتى بعده، ومقاماته فى الحرب مشهوره يضرب بها الأمثال إلى يوم القيامه؛ وهو الشجاع الذى مافرّ قط، ولا ارتاع من كتيبه، ولا بارز أحداً إلّاقتله، ولا ضرب ضربه قط فاحتاجت الاولى إلى ثانيه، وأمّا السخاء والجود ففيه يضرب المثل فيهما، فكان يصوم ويطوى ويؤثر بزاده، وقال الشعبى: كان أسخى الناس؛ كان على الخلق الذى يحبه اللّه: السخاء والجود، ما قال (لا) لسائل قط. وأمّا الحلم والصفح: فكان أحلم الناس عن ذنب، وأصفحهم عن مسىء؛ وقد ظهر صحه ما قلناه يوم الجمل حيث ظفر بمروان بن الحكم - وكان أعدى الناس له وأشدّهم بغضا - فصفح عنه، وأمّا الفصاحه فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيد البلغاء، ومنه تعلم الناس الخطابه والكتابه، ولما قال محفن بن أبى محفن لمعاويه: جئتك من عند أعيا الناس، قال له: ويحك! كيف يكون أعيا الناس! فو اللّه ماسن الفصاحه لقريش غيره.

۲- المضامين الرصينه الشامله لنهج البلاغه

اشاره

من المميزات التی يتصف بها نهج البلاغه التی تلفت انتباه القارئ إذا ما أقبل عليه إنّما تكمن فی شموليته وتنوع مضامينه الرصينه، بحيث «تجعله يصدق أنّ هذه الأقوال المتقنه الدقيقه التی تعالج اُمور شتی تصل إلی حدِّ التضارب إنّما تصدر من عين واحده، ومن المسلم به أنّ هذا الأمر لا يصدر إلّامن أمير المؤمنين علی عليه السلام الذی أودع قلباً حافظاً وروحاً ساميه تفيض علوماً ومعارفاً إلهيه حقه وأسراراً جمه لا يسعها سوی ذلك القلب. ويسرنا هنا أن نستشهد بالإقوال التی ساقها كبار العلماء والمفكرين بهذا الخصوص.»

۱ - ونستهل ذلك بما أروده العالم المعروف «محمد عبده» إمام العامه، فقد رسم صوره رائعه عن حاله وهو يطالع لأول مره نهج البلاغه وما اشتمل عليه من خطب ورسائل وكلمات قصار عجزت العقول أن تجود بمثلها فصاحه وصياغه وبلاغه، فقال: «وكان لطيف الحِسّ، نقیّ الجوهر، وضاء النَّفس؛ سليمَ الذّوق، مستقيم الرأی، حتسنَ الطريقه سريع البديهه، حاضر الخاطر؛ حوّلاً قلبًا؛ عارفاً بمهمّات الاُمور إصداراً وإيراداً.»

۳ - نقل «الشيخ البهائی» فی «كشكوله» عن كتاب «الجواهر» ان «أبو عبيده» قال: قال علی عليه السلام تسع جمل عجزت بلغاء العرب عن الإتيان بواحده منها؛ ثلاث فی المناجاه، وثلاث فی العلوم، وثلاث فی الادب. (۱)ثم خاض فی شرح هذه العبارات التی وردت ضمن كلماته فی نهج البلاغه وسائر أحاديثه.

۴ - الدكتور «زكی مبارك» الذی صرّح فی كتابه «عبقريه الشريف الرضی» قائلاً: «أعتقد أنّ دراسه نهج البلاغه تمنح الإنسان المروءه والشهامه وسمو الروح، ولا عجب فهو ينبع من نفس عظيمه واجهت الوقائع والحوادث بشجاعه الأسود» (۲).

۱- ۱) كشكول الشيخ البهائی ۳ / ۳۹۷.

۲- ۲) عبقريه الشريف الرضی ۱ / ۳۹۶.

فالكلام هنا لا يتناول سعه المعلومات وكسب المعارف والعلوم، بل قصره على استشعار الهمه والمروءه وسمو النفس فى ظل التمعن بالنهج.

۵ - «ابن أبى الحديد» هو الآخر أعطى الكلام حقّه فقال: ولم تحصل العداله الكامله لأحد من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه و آله إلّالهذا الرجل، ومن أنصف علم صحه ذلك، فان شجاعته وجوده وعفته وقناعته وزهده يضرب بها الأمثال. وأمّا الحكمه والبحث فى الاُمور الإلهيه، فلم يكن من فن أحد من العرب، وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمه ينفر دون به، وأول من خاض فيه من العرب على عليه السلام ولهذا تجد المباحث الدقيقه فى العدل والتوحيد مبثوثه عنه فى فرش كلامه وخطبه، ولا تجد فى كلام أحد من الصحابه والتابعين كلمه واحده من ذلك. (۱)

۶ - أورد «المرحوم السيد الرضى» بعض العبارات المقتضبه العميقه المعنى فى كتابه الشريف بشأن مضامين نهج البلاغه، وهى جديره بالتأمل والاهتمام، من ذلك ما ذكره ذيل الخطبه «۲۱» حيث قال:

«إنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام اللّه سبحانه وبعد كلام رسول اللّه صلى الله عليه و آله بكل كلام لمال به راجحاً وبرز عليه سابقاً» . أمّا الخطبه «۲۱» فهى:

«فإنّ الغايه أمامكم وإنّ وراءكم الساعه تحدوكم، تخففوا تلحقوا فانّما ينتظر بأولكم آخركم» . كما أورد مثل هذا المعنى ذيل الحكمه «۸۱» من كلماته القصار فقال: «وهى الكلمه التى لا تصاب لها قيمه ولا توزن بها حكمه، ولا تقرن إليها كلمه» .

۷ - ونطلق الحديث هنا للكاتب المصرى المعروف «عباس محمود العقاد» الذى يعدّ من كبار الأدباء المعاصرين لنرى مدى اعجابه بنهج البلاغه، فقد أورد بعض العبارات الجزيله فى مواضع من كتاب «عبقريه الإمام على عليه السلام» والتى تبيّن عمق معرفته بشخصيه الإمام ومدى تأثره بكلماته، فقد قال: «إن نهج البلاغه عين متدفقه بآيات التوحيد والحكمه الإلهيه التى توسع معارف الباحثين فى العقائد والتوحيد والمعارف الإلهيه» (۲).

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱۶/۱۴۶. [۱]

۲- ۲) العبقريات ۲/۱۳۸ (طبعه دارالكتاب اللبنانى.

وقال فی موضع آخر: «إنّ کل نموذج من کلماته شهاده؟

علی قدرته الإلهیه بیان الحقائق، أنّه لا شک من أبناء آدم الذی علم الأسماء، فهو

مصداق لقوله تعالی: «اوتوا الکتاب» «فصل الخطاب» .

(۱)

وقال أیضاً: «إنّ کلماته علیه السلام تمثل قمه الحکمه والفصاحه والبلاغه، وقد قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «علماء أمتی کأنبیاء بنی اسرائیل» . فهذا الحدیث یصدق علی علی علیه السلام قبل غیره، فکلماته الحکیمه فی مصاف کلمات الأنبیاء علیهم السلام (۲).

۸ – وقال الکاتب والأدیب المعاصر «محمد أمین النووی» یصف نهج البلاغه: «إنّه الکتاب الذی جعله الله حجه واضحه وقد ضمنه علی علیه السلام الأمثال القرآنیه والحکم الربانیه بفصاحه وبلاغه قل نظیرها» . (۳)

۹ – وهذا الأدیب المصری المعروف «طه حسین» الذی یعتبر عمید الأدب العربی، فقد قال بعد أن تعرض لردّ علی علیه السلام علی السائل الذی کان شاکاً فی حرب الجمل: «إنی لم أر ولم أعرف جواباً بعد الوحی وکلام اللّه أعظم وأروع من هذا الجواب» . (۴)

۱۰ – المرحوم «ثقه الإسلام الکلینی» الذی نقل فی الجلد الأول من کتابه الکافی إحدی خطبه علیه السلام فی التوحید، فقال: «هذه من خطبه المعروفه ولو اجتمعت الانس والجن لبیان حقائق التوحید لعجزت عمّا بینه علی علیه السلام ولولاه لما عرف الناس سبیل الوحدانیه» . (۵)

۱۱ – ونختتم البحث بما أورده العلّامه الفقیه آیه اللّه الخوئی، إذ قال: «حین یرد الإمام علیه السلام بحثاً فی خطبه من نهج البلاغه فانه لا یترک مجالاً بعده للحدیث حتی یخیل لُاولئک الذین لا علم لهم بسیره أمیر المؤمنین علیه السلام أنّه قضی عمره فی ذلک الموضوع» (۶).

۱– ۱) العبقریات ۲ / ۱۴۴.

۲– ۲) العبقریات ۲ / ۱۴۵.

۳– ۳) مصادر نهج البلاغه ۱ / ۹۰.

۴– ۴) جوله فی نهج البلاغه / ۱۸ و ۱۹.

۵– ۵) أصول الکافی ۱/۱۳۶.

۶– ۶) البیان / ۹۰. [۱]

۳- جاذبه نهج البلاغه الخارقه

اشاره

لقد شعر جميع من تعامل مع نهج البلاغه - من قبل أشياع على عليه السلام أو سائر العلماء والأُدباء المسلمين ومن سائر الأديان - دون استثناء بوجود قوه كامنه تشدهم إليه وتجعلهم يتأثرون به ويتكهربون بأجوائه.

والحق إنّ مثل هذه الجاذبه التى اتسمت بها كافه خطبه ورسائله وكلماته هى التى دفعت بفريق من العلماء لتناول هذا الكتاب النفيس بالشرح والتفسير وتدوين المقالات والأبحاث والاستغراق فى مختلف جوانب شخصيه الإمام على عليه السلام. بدورنا نرى أن هذه الجاذبه تختزن عدّه دوافع، يمكن إيجاز أهمها فى ما يلى:

۱ - لقد شحن نهج البلاغه بالأقوال التى تصرح بمواساه الطبقات المحرومه والمستضعفه، إلى جانب الحديث عن مجابهه الظلم والطغيان ومقارعه حكام الجور والطواغيت. فقد تعرض فى عهده الذى عهده إلى مالك الأشتر حين ولاه مصر إلى الخطط والبرامج التى ينبغى اعتمادها فى كيفيه إداره شؤون البلاد. يتحدث عليه السلام فى هذا العهد عن حقوق ووظائف الطبقات الاجتماعيه السبع، حتى إذا بلغ الطبقه المحرومه من الناس أفصح عن مكنوبات نفسه وسيرته فى التعامل معها فيوصى عامله قائلاً له: «اللّه اللّه فى الطبقه السفلى من الذين لا حيله لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى. . .» ، ثم يؤكد عليه: «فلا يشغلنك عنهم بطر فانّك لا تعذر بتضييعك التافه لاحكامه الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم، وتفقد اُمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال» ولم تقتصر وصاياه عليه السلام بهذا المجال فى هذا العهد فحسب، بل لم ينفك يؤكد ذلك فى كل خطبه من خطبه وموعظه من مواعظه لعماله وولاته.

۲ - لقد سلك نهج البلاغه سبيل تحرير الإنسان من أسر الهوى والشهوات التى تؤدى به

إلى البؤس والشقاء، وكذلك تحريره من قيود الطواغيت والظلمه، فهو يستفيد من كل فرصه لتحقيق هذا الهدف المقدس، إلى جانب تأكيده على أنّه ما جاع فقير إلّابما متع به غنى، وأن تراكم الثروه يفيد تضييع الحقوق وعدم العمل بالأحكام الشرعيه. (۱)

ويصرح الإمام عليه السلام: «أمّا والذى فلق الحبه، وبرأ النسمه، لولا حضور الحاضر وقيام الحجه بوجود الناصر، وما أخذ اللّه على العلماء أن لا يقاروا على كظه ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألقيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عفطه عنز» ! فهو يؤكد على شده تنمره فى إعاده روح الحريه والعداله والمساواه التى لا يعرف المهادنه فيها، بل أبعد من ذلك فى أنّه لا يرى الامره والحكومه سوى وسيله ووظيفه لتحقيق هذه الاهداف (۲). ويخطىء كل من يظن أنّ علياً عليه السلام يمكنه أن يتهاون فى هذا الأمر، ولم يعرف عمق شخصيه على؛ الأمر الذى أكده فى رسالته إلى عثمان بن حنيف (۳).

۳ – النفحات العرفانيه التى ينبض بها نهج البلاغه إنّما تناغم الأرواح المتعطشه للحكمه فتسقيها الشراب الطهور الذى يسكرها بالعلم والمعرفه!

فلا يرى القارئ لخطبه فى اللّه وصفاته الجماليه والجلاليه سوى أنّه يحلق مع الملائكه ليخترق حجب المعرفه والكمال (۴)امّا إذا تحدث عن أهوال القيامه وسكرات الموت والعاقبه التى تنتظر الإنسان فلا تراه إلّاوكأنّه أمسك بقبضه الغافلين وأخذ يسوقهم نحو المصير الذى منه يهربون والعاقبه التى عنها لاهون. (۵)

۴ – قوه الجاذبيه الأُخرى التى يختزنها نهج البلاغه والتى أشرنا إليها سابقاً أنّه عليه السلام أمير الكلام فى كل موضوع يطرقه بما يجعلك تتصور أنّه بارع فى هذا الموضوع وقد أفنى عمره فى بيان عناصره ومقوماته وسائر جوانبه، ولا يحسن شيئاً آخر سواه وسرعان ما يتبدد هذا التصور حين تطالعه وقد تحدث فى موضوع آخر – فاذا تناول – على سبيل المثال – قضيه

۱– ۱) الإمام على صوت العداله الإنسانيه ۳/۱۷۷.

۲– ۲) الخطبه الشقشقيه (الخطبه ۳) .

۳– ۳) الرساله رقم ۴۵.

۴– ۴) الخطبه الاولى وخطبه الأشباح / ۹۱ وسائر الخطب بهذا الشأن.

۵– ۵) الخطب ۱۰۹ – ۱۱۱ – ۱۱۳ وما شابهها.

التوحيد وشرح أسماء اللّه وصفات الجلال، خيل إليك أنّه فيلسوف ربانى سبر أغوار التوحيد وانهمك فيه لسنوات متماديه وليس له مثل هذا العمق فيما سواه؛ فليس للتجسم من سبيل إلى حديثه، ولا من سبيل إلى سلبه الصفات، بل يقدم صوره عن التوحيد تجعل الإنسان يرى ربّه ببصيرته فى كافه السموات والأرضين حاضر فيها وفى نفسه فيمتلئ قلبه حبّاً للّه ومعرفه به. بينما لا تكاد العين تقع على خطبته فى الجهاد، حتى لا تغيب عنها صورته كآمر شجاع ومقاتل باسل مغوار قد ارتدى بزته العسكريه وأخذ يستعرض أساليب الحرب وفنون القتال وستراتيجيه الدفاع والهجوم، وكأنّه أفنى عمره فى ميادين الوغى وساحات القتال ولم تدعه يفكر فى ما سواها.

فاذا تصفحنا نهج البلاغه وطالعتنا خطبه ووصاياه لعماله وولاته حين أخذ بزمام الاُمور وتزعم قياده الاُمّه، رأيناه يكشف النقاب عن عناصر تألق الحضارات وازدهارها وأسباب سقوطها وانهيارها، إلى جانب استعراض مصير الأقوام الظالمه والاُمم المستبده بالاضافه إلى الاسس والمبادئ التى من شأنها ضمان سلامه الأنظمه الاجتماعيه والسياسيه الحاكمه، بما يجعلك تظن بأنّه عكف عمراً على هذه الاُمور ويختص بها دون الاهتمام بسائر ميادين الحياه ونواحيها. ثم نقلب صفحات النهج لنراه زعيماً أخلاقياً هادياً البشريه نحو تهذيب النفس ومكارم الأخلاق. يلتقيه أحد الأصفياء من أصحابه ويدعى «همام» الذى يسأله أن يصف له المتقين. فيعدد له عليه السلام ما يقارب المئه من صفاتهم بعبارات أحكم صياغتها وبلاغتها كأنّه جلس عمراً لدروس الأخلاق والتهذيب وتربيه النفوس حتى يصعق همام صعقه كانت نفسه فيها. حقاً إنّ هذه الأبحاث العميقه الفريده المتنوعه التى شحن بها نهج البلاغه تعدّ من الخصائص والمميزات التى اتصف بها هذا الكتاب العجيب.

أقوال العظماء بشأن جاذبيه نهج البلاغه

الأقوال التى ساقها كبار جهابذه العلماء بخصوص الجاذبيه الكامنه فى نهج البلاغه تعتبر من الشواهد التى تعزز ما أوردناه سابقاً بهذا الشأن:

فالسيد الرضى جامع نهج البلاغه الرائد الذى يعدّ من مشاهير الاُدباء العرب يصرح

أحياناً حين نقله لبعض الخطب ببعض العبارات التى تكشف عن عمق افتتانه بما يورد وعدم تمالكه لنفسه تجاه قوه سبك عبارات صاحب النهج. ومن ذلك أنّه قال إثر نقله للخطبه رقم «۸۳» من نهج البلاغه «وفى الخبر أنّه لما خطب بهذه الخطبه اقشعرت له الجلود وبكت العيون ورجفت القلوب» ونقرأ فى خطبه المتقين - حين سأله ذلك العارف «همام» عن صفات المتقين - أنّه حين بلغ ذلك الموضع من الخطبه، صعق همام صعقه كانت نفسه فيها، فقال أميرالمؤمنين عليه السلام: «امّا واللّه لقد خفتها عليه، هكذا تفعل المواعظ البالغه فى أهلها» .

كما علق السيد الرضى على الخطبه رقم «۲۸» ليعرب عن عمق أثرها فى روحه وعقله فقال: «إنّه لو كان كلام يأخذ بالاعناق إلى الزهد فى الدنيا، ويضطر إلى عمل الآخره لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الاتعاظ والازدجار. . .» وأضاف: «ومن أعجبه قوله عليه السلام: «ألا إنّ اليوم المضمار وغدا السباق، والسبقه الجنّه والغايه النار» فان فيه مع فخامه اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل وواقع التشبيه سراً عجيباً ومعنى لطيفاً. . . فتأمل ذلك فان باطن كلامه عجيب، وغوره بعيد لطيف، وكذلك أكثر كلامه عليه السلام» .

وقال ذيل الخطبه «۱۶» : «إنّ فى هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان مالا تبلغه مواقع الاستحسان، وان حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به» . وفيه - مع الحال التى وصفنا - زوائد من الفصاحه لا يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلّا من ضرب فى هذه الصناعه بحق، وجرى فيها على عرق «وما يعقلها إلّاالعالمون» .

وهكذا نقل ما أورده المفسر والمحدث المعروف «ابن عباس» حين ألقى الإمام خطبته الشقشقيه حين قام إليه رجل من أهل السواد فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه، فقال له: يا أمير المؤمنين، لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت. فقال: «هيهات يابن عباس! تلك شقشقه هدرت ثم قرت» . قال ابن عباس: «فو اللّه ما أسفت على كلام قط كأسفى على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد» .

فقد قال ابن أبى الحديد: «هو سيد المجاهدين وأبلغ الواعظين ورئيس الفقهاء والمفسرين وإمام أهل العدل والموحدين» . (۱)

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۷/۲۰۲. (بتلخيص)

أسناد نهج البلاغه

مامن شک فی أنّ خطب ورسائل نهج البلاغه وکلماته القصار وردت (علی ضوء جمعها من قبل المرحوم السید الرضی) علی نحو الروایات المرسله؛ أی لم تذکر أسانیدها بما یجعلها متصله بالمعصومین، وقد أدی هذه بدوره إلی تشکیک البعض أحیاناً، ولا سیما بالنسبه لأُولئک الذین ظنوا بأن نهج البلاغه وبفضل مضامینه العظیمه قد یکون سنداً لاثبات حقانیه مذهب الشیعه وأفضلیه علی علیه السلام علی جمیع الصحابه؛ فاتخذوا ذلک ذریعه لفرض طوق من العزله علی هذا الکتاب فی أوساط الرأی العام الإسلامی. وإن کانت هذه الزوبعه - ولحسن الحظ - لم یکن لها أدنی تأثیر فی أفکار علماء وأدباء الفریقین الذین کسروا حاجز الصمت وکالوا له المدیح والثناء وخاضوا فی شرحه وتفسیره، وقد مرت علینا نماذج من ذلک، مع ذلک نری من الضروری الخوض فی قضیه أسناد النهج بغیه إزاله الشک وإماطه اللثام عن حقیقه هذا الکتاب وهنا لابدّ من الالتفات إلی أمرین:

١ - أنّ أغلب خطب نهج البلاغه ورسائله وکلماته القصار - إذا لم نقل جمیعها سوی معشاره - إنّما هی من قبیل المطالب المستدله المبرهنه أو ذات الاستدلال المنطقی، بعباره أُخری من قبیل «القضایا التی قیاساتها معها» . وعلیه فهی لیست بحاجه إلی سلسله السند بصفتها مباحث تعبدیه، فالأعم الأغلب من المضامین وردت بشأن المعارف العقائدیه من قبیل: المبدأ والمعاد والصفات وأدله عظمه القرآن ونبی الإسلام صلی الله علیه و آله وما شاکل ذلک. کما وردت بعض المضامین کمواعظ ونصائح ودروس وعبر بشأن حیاه الأُمم السابقه ونظم إداره شؤون البلاد والحیاه الاجتماعیه والآداب ومسائل الجهاد وما إلی ذلک من المباحث المنطقیه الاستدلالیه الخاضعه للدلیل والبرهان.

ولما کانت نتاجات کبار الفلاسفه وعلماء العلوم المختلفه وحتی النتاجات الأدبیه الشعریه

لفطاحل الشعراء تؤخذ دون الحاجه إلى سلسله الأسانيد، فان هذا الأمر يجرى على مضامين نهج البلاغه بما يجعله غنياً عن تلك السلسله، وحقيقه الأمر أنّها تحمل أدلتها معها «قضايا قياساتها معها» . نعم هناك محور صغير فى النهج قد عنى ببعض الأحكام الفرعيه التعبديه، فان كان من حديث عن السند، أمكن إقتصاره على هذا المحور والذى لا يشكل قطعاً عشر كتاب نهج البلاغه. ونخلص من هذا إلى عدم جدوى هذه الضجه المفتعله بشأن أسانيد النهج، وهى زوبعه جوفاء عديمه الأثر.

٢ - بغض النظر عمّا سبق، فاننا لا نرى من عقبه فى هذا الأمر حتى وإن اعتمدنا المعايير المتعارفه لحجيه السند بالنسبه لنهج البلاغه؛ وذلك لأنّ المعيار الأصلى لقبول الحديث والروايه - على ضوء ما فرغ منه فى علم الأُصول وبرهن فى محله - إنّما يتأتى الوثوق بها من طرق مختلفه؛ فأحياناً يحصل الوثوق بالروايه من خلال سلسله السند وثقه الرواه، كما يحصل أحياناً أُخرى مثل هذا الوثوق بواسطه كثره الرواه - وفى الكتب المشهوره والمعتبره -، وأخيراً قد يكون مضمون الروايه على درجه من العمق والرصانه على أنّه إنّما صدر من النبى صلى الله عليه و آله أو الإمام المعصوم؛ الأمر الذى يجعلنا نثق بهذه الروايه وهذا ما ذكروه بالنسبه لزبور آل محمد صلى الله عليه و آله الصحيفه السجاديه (إلى جانب الاسناد المعتبره التى أوردها بهذا الشأن) ، بفضلها ضمت أدعيه رفيعه ساميه ذات مضامين عميقه صدرت عن الإمام السجاد على بن الحسين زين العابدين عليه السلام. ولا شبهه ولا ريب أن من يتمعن فى خطب نهج البلاغه ويتدبر مضامينها ويتأمل أسرارها، فانّه لا يملك سوى الاذعان بأنّ مثل هذه الكلمات محاله الصدور عن الإنسان العادى وأنّها لم تصدر سوى عن النبى صلى الله عليه و آله أو امتداده الإمام المعصوم عليه السلام.

وعلى حد تعبير كبار علماء الفريقين: «إنّ كلامه فوق كلام المخلوقين ودون كلام الخالق» .

وبناءً على هذا وعلى ضوء بزوغ الشمس دليل على وجودها، فان مضمون نهج البلاغه دليل على اعتبار سنده وصدوره عن المعصوم عليه السلام، واننا لنوقن بذلك على أنّه لم ينسب لمعصوم سوى لعلى عليه السلام. فمن ذا الذى يحتمل أنّه صدر من فرد عادى ثم نسبه لعلى عليه السلام؟ ! إذا كان مثل هذا الابداع أو حتى عشر من أعشاره فلم لا ينسبه لنفسه ويفوز بهذا الشرف؟ وناهيك عمّا تقدم وعلى ضوء ما نعرفه عن شخصيه «السيد الرضى» ووثاقته وعلو مقامه، فاننا نقطع بأنّه لم

ينسبه إلى على عليه السلام مالم يكن قد رأى مصادره المعتبره، فهو لا يقول روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه قال كذا، بل اعتاد القول «ومن خطبه عليه السلام ومن رسائله ومن كلماته القصار» . فكيف وأنى لهذا العملاق أن يتحدث بهذه الثقه والقطع وينسب الكلمات لإمامه المعصوم دون أن يستند إلى أسناد معتبره وردت بهذا الشأن؟ ! . أضف إلى ذلك فقد دونت عدّه مصنفات قبل «السيد الرضى» ضمت أغلب خطب ورسائل نهج البلاغه والكلمات القصار؛ الأمر الذى يثبت أنّ هذه الكلمات كانت متداوله أيضاً - قبل السيد الرضى - ومعروفه بين العلماء والمحدثين والرواه وأحياناً بين عوام الناس.

ومن شأن هذه الشهره أن تغنينا عن الاسناد. بل ذهب بعض كبار المؤرخين أنّ الخطب التى اشتهرت بين الناس كانت أكثر بكثير من هذا المقدار الذى جمعه «السيد الرضى» فى نهج البلاغه، والواقع هو أنّ النهج عبقات من تلك الخطب. ومنهم المؤرخ المعروف «المسعودى» الذى عاش لقرن قبل «السيد الرضى» ، الذى صرّح فى كتابه «مروج الذهب» بشأن خطب الإمام على عليه السلام قائلاً: «والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربع مائه ونيف وثمانون خطبه» (۱)، والحال لا يضم النهج أكثر من مئتين وأربعين خطبه. ونقل العالم المعروف «السبط بن الجوزى» فى كتابه «تذكره الخواص» عن «السيد المرتضى» انّه قال: «بلغتنى أربعمه خطبه من خطب الإمام على» (۲). وقال صاحب «البيان والتبيين» العالم المعروف: «كانت خطب الإمام على عليه السلام مدونه ومحفوظه ومشهوره» (۳). وقال «ابن واضح» فى كتابه «مشاكله الناس لزمانهم» : «لقد حفظ الناس الكثير من خطب الإمام على عليه السلام، فقد ألقى أربعمئه خطبه حفظها الناس، وهى هذه الخطب المتداوله بيننا» (۴).

وهنا لابدّ من القول بأن جمعاً من العلماء المعاصرين والفضلاء ألقوا كتباً كمصادر وأسناد لنهج البلاغه، حيث استخرجوا أسانيد الخطب من الكتب التى صنفت قبل «السيد الرضى» وصرحوا بها فى كتبهم، من قبيل كتاب «مصادر نهج البلاغه وأسانيده» تأليف العالم المحقق

۱- ۱) مروج الذهب ۲ / ۴۱۹، طبعه دار [۱]الهجره قم.

۲- ۲) تذكره الخواص / ۱۲۸. [۲]

۳- ۳) البيان والتبيين ۱ / ۸۳.

۴- ۴) مشاكله الناس لزمانهم / ۱۵. [۳]

«السید عبد الزهراء الحسینی الخطیب» الذی یجعل الباحث یقف علی هذه الحقیقه، وهی أنّ السید الرضی لم ینفرد قط بنقله لهذه الخطب.

یذکر أنّ هذا الکتاب یفید بأنّ نهج البلاغه قد جمع من مئه وأربعه عشر کتاباً، وأنّ أکثر من عشرین منها قد دونت من قبل علماء کانوا یعیشون قبل السید الرضی. ومن أراد المزید فلیراجع الکتاب المذکور حیث لا نری المقام یسع للاستغراق أکثر من هذه العجاله. والذی تجدر الإشاره إلیه هنا أنّ السید الرضی قد استفاد من خمسه عشر کتاباً - ذکرها خلال بعض تعلیقاته علی کلمات نهج البلاغه - فی جمعه لنهج البلاغه. (۱)

ونستنتج ممّا مرّ معنا خواء الشکوک التی نشأت من عدم وجود الأسانید.

شروح نهج البلاغه

حدیثنا الأخیر فی هذه المقدمه، کلام مختصر بشأن الشروح والتراجم التی أوردها علماء المسلمین بخصوص هذا الکتاب منذ عصر السید الرضی حتی عصرنا الحاضر، ویبدو أن هذه الشروح إنّما تتضاعف وتزداد کلما ابتعدنا أکثر عن عصر السید الرضی، والسبب فی ذلک یعود إلی تنامی المعرفه بهذا الکنز النفیس کل یوم، وما هذه المؤتمرات والندوات التی أقیمت وما

۱- ۱) ۱ - البیان والتبیین للجاحظ. ۲ - تأریخ الطبری. ۳ - الجمل للواقدی. ۴ - المغازی لسعید بن یحیی الاموی. ۵ - المقامات لأبی جعفر الاسکافی. ۶ - المقتضب للمبرد. ۷ - حکایه أبی جعفر محمد بن علی الباقر علیه السلام. ۸ - حکایه ثعلب عن ابن الاعرأبی. ۹ - خبر ضرار الضبابی. ۱۰ - روایه أبی جحیفه. ۱۱ - روایه کمیل بن زیاد النخعی. ۱۲ - روایه مسعده بن صدقه لخطبه الاشباح عن الصادق جعفر بن محمد. ۱۳ - روایه نوف البکالی. ۱۴ - ماذکره أبو عبید القاسم بن سلام من غریب الحدیث. ۱۵ - ماوجد بخط هشام بن الکلبی.

زالت تقام بخصوص نهج البلاغه إلّاشهاده حيه اُخرى على صحه ما أوردناه. فقد أشار المرحوم العلّامه الأمينى فى المجلد الرابع من كتابه الغدير فى ترجمته لحياه المرحوم السيد الرضى إلى هذه المسأله وقال: «لقد كتب أكثر من خمسين شرحاً على نهج البلاغه منذ عصر المرحوم السيد الرضى لحد الآن. . .» ثم خاض فى ذكر هذه الشروح، إلى جانب ذكر مؤلفيها وتأريخ وفاتهم، وباضافه التراجم التى ظهرت فى هذه الأواخر، فقد أحصى ما يقارب الحادى والثمانين ترجمه وشرحاً» (۱)وبالطبع فان كل شرح من هذه الشروح (كتفاسير القرآن) قد سلط الضوء على جانب من جوانب نهج البلاغه، فقد خاض البعض فى جانبه الأدبى بينما تناول البعض الآخر أبعاده التأريخيه أو الفلسفيه أو القضايا التربويه والاجتماعيه وما إلى ذلك.

هذا وقد ذكر مؤلف كتاب «مصادر نهج البلاغه» أكثر من مئه وعشره شروح وتفاسير لنهج البلاغه، بينما ذكر بعض الفضلاء فى كتبهم أسماء ثلاثمائه وسبعين كتاباً ألفت فى شرح نهج البلاغه وترجمته وتفسيره (۲). وبالرغم من ذلك لابدّ من الاعتراف بأن هذا الكتاب ما زال لم يظفر ببغيته من سبر أغواره والغوص فى أعماقه من أجل استخراج كنه معانيه لتعالج متطلبات العصر والزمان وأنين البشريه، كيف لا وأبعاده كأبعاد شخصيه على عليه السلام التى لا يحيطها الكلام ولا يلم بتفاصيلها القلم والبيان. وهنا لابدّ من القول بأن الشروح والتراجم المذكوره ليست واسعه كامله، وأنّ بعضها قد اكتفى بمحور من محاور نهج البلاغه، ولم يشذ منها سوى النزر القليل من الشروح التى تعاملت بشموليه مع النهج ومنها:

۱ - «أعلام نهج البلاغه» والذى اعتبره العلّامه الامينى من أقدم شروح نهج البلاغه، ومؤلفه «على بن الناصر» من معاصرى المرحوم السيد الرضى.

۲ - «منهاج البراعه» لمؤلفه سعيد الدين هبه اللّه القطب الراوندى، وهو من أعلامالقرن الهجرى السادس.

۳ - شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد المعتزلى - من أعلام القرن السابع الهجرى - وهو

۱- ۱) الغدير ۴ / ۱۸۶ - ۱۹۳.

۲- ۲) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغه / ۱۰ (جدير ذكره أن عدد الشروح التى وردت فى مصادر نهج البلاغه مئه وواحد لا مئه وعشره) .

من الشروح المشهوره ویقع فی عشرین مجلداً.

۴ - شرح ابن میثم البحرانی - من علماء القرن السابع - وهو من الشروح الواسعه الرائعه.

۵ - منهاج البراعه للمرحوم الحاج المیرزا حبیب اللّه الموسوی الخوئی، والمعروف بشرح الخوئی، وهو من علماء القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجری.

۶ - شرح «الشیخ محمد عبده» من مشاهیر علماء العامه الذی عاش فی القرن الثالث عشر الهجری.

وأخیراً لا یسعنا المقال لأن نذکر أسماء طائفه من الفضلاء المعاصرین الذین صنّفوا شروحاً عظیمه لهذا الکتاب النفیس. وما یجدر ذکره هو أنّ صاحب کتاب «الذریعه» الفاضل المرحوم المحدث الطهرانی قد ذکر مئه وأربعین شرحاً للنهج أوردها علماء الشیعه، بینما أحصی سته عشر شرحاً لعلماء العامه، یعدّ أقدمها شرح الفخر الرازی المتوفی عام ۶۰۶ ه» . (۱)

۱- ۱) الذریعه ۱۴ / ۱۱۱ - ۱۶۰. [۱]

مقدمه السید الشریف الرضی رحمه الله

لماذا جمعت نهج البلاغه

أمّا بعد حمد اللّه الذی جعل الحمد ثمناً لنعمائه، ومعاذاً من بلائه، وسبیلاً إلی جنانه، وسبباً لزیاده إحسانه، والصلاه علی رسوله نبی الرحمه، وإمام الأئمه، وسراج الأمه، المنتخب من طینه الکرم، وسلاله المجد الأقدم، ومغرس الفخار المعرق، وفرع العلاء المثمر المورق. وعلی أهل بیته مصابیح الظلم، وعصم الامم، ومنار الدین الواضحه، ومثاقیل الفضل الراجحه صلی اللّه علیهم أجمعین، صلاه تکون إزاء لفضلهم، ومکافأه لعملهم، وکفاء لطیب قرعهم وأصلهم، ما أنار فجر ساطع، وخوی نجم طالع، فانی کنت فی عنفوان السن، وغضاضه الغصن، ابتدأت بتألیف کتاب فی خصائص الأئمه علیهم السلام: یشتمل علی محاسن أخبارهم وجواهر کلامهم، حدانی علیه غرض ذکرته فی صدر الکتاب، وجعلته أمام الکلام، وفرغت من الخصائص التی تخص أمیر المؤمنین علیاً علیه السلام، وعاقت عن إتمام بقیه الکتاب محاجزات الأیام، ومماطلات الزمان. وکنت قد بوّبتُ ما خرج من ذلک أبوباً، وفصّلته فصولاً فجاء فی آخرها فصل یتضمن محاسن ما نقل عنه علیه السلام من الکلام القصیر فی المواعظ والحکم والأمثال والآداب؛ دون الخطب الطویله، والکتب المبسوطه. فاستحسن جماعه من الأصدقاء ما اشتمل علیه الفصلُ المقدم ذکره معجبین ببدائعه، ومتعجبین من نواصحه، وسألونی عند ذلک أن أبتدیء بتألیف کتاب یحتوی علی مختار کلام مولانا أمیر المؤمنین علیه السلام فی جمیع فنونه، ومتشعّبات غصونه: من خطب، وکتب، ومواعظ، وأدب. علماً أنّ ذلک یتضمن من عجائب البلاغه، وغرائب الفصاحه، وجواهر العربیه، وثواقب الکلم الدینیه والدنیویه، ما لا یوجد مجتمعاً فی کلام، ولا مجموع الأطراف فی کتاب؛ إذ کان أمیرالمؤمنین علیه السلام مشرع الفصاحه

وموردها، ومنشأ البلاغه ومولدها؛ ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها؛ وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصروا وقد تقدم وتأخروا، لأن كلامه عليه السلام الكلام الذى عليه مسحه من العلم الإلهى وفيه عبقه من الكلام النبوى، فأجبتهم إلى الابتداء بذلك عالماً بما فيه من عظيم النفع، ومنشور الذكر، ومذخور الأجر. اعتمدت به أن أبين عن عظيم قدر أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذه الفضيله، مضافةً إلى المحاسن الدثره، والفضائل الجمه. وأنّه عليه السلام انفرد ببلوغ غايتها عن جميع السلف الأولين الذين إنّما يؤثر عنهم منها القليل النادر، والشاذ الشارد فأما كلامه فهو البحر الذى لا يُساجل والجم الذى لا يحافل وأردت أن يسوغ لى التمثل فى الافتخار به عليه السلام بقول الفرزدق:

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثه: أولها: الخطب والأوامر، وثانيها: الكتب والرسائل، وثالثها: الحكم والمواعظ؛ فأجمعت بتوفيق الله تعالى على الابتداء باختبار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحكم والأدب. مفرداً لكل صنف من ذلك باباً، ومفصّلاً فيه أوراقاً، لتكون مقدمه لاستدراك ما عساه يشذ عنّى عاجلاً، ويقع إلىّ آجلاً. وإذا جاء شىء من كلامه عليه السلام الخارج فى أثناء حوار، أو جواب سؤال، أو غرض آخر من الأغراض به، وأشدها ملامحه لغرضه. وربما جاء فيما أختاره من ذلك فصول غير متسقه، ومحاسن كلم غير منتظمه؛ لأنّى أورد النكت واللمع، ولا أقصد التتالى والنسق.

ومن عجائبه، عليه السلام، التى انفرد بها، وأمن المشاركه فيها، أنّ كلامه الوارد فى الزهد والمواعظ، والتذكير والزواجر، إذا تأمله المتأمل، وفكر فيه المتفكر، وخلع من قلبه أنّه كلام مثله ممن عظم قدره، ونفذ أمره، وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك فى أنّه كلام من لاحظ له فى غير الزّهاده، ولا شغل له بغير العباده، قد قبع فى كسر بيت. أو انقطع إلى سفح جبل، لا يسمع إلّاحسّه، ولا يرى إلّانفسه، ولا يكاد يوقن بأنّه كلام من ينغمس فى الحرب مصلتاً سيفه، فيقطّ الرقاب، ويجدل الأبطال، ويعود به ينطف دماً، ويقطر مهجاً. وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد، وبدل الأبدال وهذه من فضائله العجيبه، وخصائصه اللطيفه، التى جمع بها

بین الأضداد، وألف بین الأشتات، وکثیراً ما أذاکر الإخوان بها، وأستخرج عجبهم منها، وهی موضع للعبره بها، والفکره بها.

وربما جاء فی أثناء هذا الاختیار اللفظُ المردد، والمعنی المکرر؛ والعذر فی ذلک أنّ روایات کلامه تختلف اختلافاً شدیداً: فربما اتفق الکلام المختار فی روایه فنقل علی وجه، ثم وجد بعد ذلک فی روایه اُخری موضوعاً غیر موضعه الأول: إمّا بزیاده مختاره، أو لفظ أحسن عباره فتقضی الحال أن یعاد، استظهاراً للاختیار، وغیرهً علی عقائل الکلام. وربما بعد العهد أیضا بما اختیر أولاً فأعید بعضه سهواً أو نسیاناً، لا ـ قصداً واعتماداً. ورأیت من بعد تسمیه هذا الکتاب ب «نهج البلاغه» إذ کان یفتح للناظر فیه أبوابها، ویقرّب علیه طلابها، فیه حاجه العالم والمتعلم، وبغیه البلیغ والزاهد، ویمضی فی أثنائه من عجیب الکلام فی التوحید والعدل، وتنزیه الله سبحانه وتعالی عن شبه الخلق، ما هو بلال کل غلّه، وشفاء کل علّه، وجلاء کل شبهه.

ومن الله سبحانه أستمد التوفیق والعصمه، وأتنجّزُ التسدید والمعونه، وأستعیذه من خطأ الجنان، قبل خطأ اللسان، ومن زله الکلم، قبل زله القدم؛ وهو حسبی ونعم الوکیل.

الخطبه الاولی

اشاره

(۱) ومن خطبه له علیه السلام

نظره إلی الخطبه

تعتبر هذه الخطبه من أهم خطب نهج البلاغه، وما تصدرها النهج إلّادلاله واضحه علی براعه السید الرضی فی الاختیار. فالخطبه تتضمن الرؤیه الإسلامیه للصفات الکمالیه والجمالیه، ثم تشیر إلی قضیه خلق العالم بصوره عامه ومن ثم خلق السموات والأرض والملائکه، کما تخوض فی خلق آدم علیه السلام وتتعرض لقصه سجود الملائکه وإعتراض إبلیس وهبوط آدم علیه السلام إلی الأرض. ثم یتطرق علیه السلام إلی فلسفه بعثه الأنبیاء ولا سیما خاتمهم نبی الإسلام صلی الله علیه و آله إلی جانب التحدث عن عظمه القرآن الکریم وأهمیه سنّه النبی صلی الله علیه و آله، کما یتوقف عند مسأله الحج من بین الأحکام الإسلامیه کفرع من فروع الدین بصفته فریضه إلهیه کبری تختزن بعض الأسرار واللطائف، بالشکل الذی یمد المتتبع لهذه الخطبه برؤیه شمولیه لأهم القضایا الإسلامیه، من شأنها تقدیم الحلول لکافه المصاعب التی تنطوی علیها والتی تعترض سبیلها.

۱- ۱) وردت هذه الخطبه (لیست بصوره کامله بل بعضها) فی عده کتب قبل السید الرضی (ره) و بعده. وکان ممن رواها قبله: ۱- المرحوم الصدوق فی کتاب التوحید ۲- المرحوم ابن شعبه الحرانی فی کتاب تحف العقول. أما من نقلها بعده: ۱- الواسطی فی کتاب عیون الحکمه والمواعظ ۲- المرحوم الطبرسی فی الاحتجاج ۳- ابن طلحه فی کتاب مطالب السؤال ۴- القاضی القضاعی فی دستور معالم الحکم ۵- الفخر الرازی فی التفسیر الکبیر ۶- الزمخشری فی ربیع الأبرار ۷- القطب الراوندی فی منهاج البراعه ۸- المرحوم العلامه المجلسی فی ج ۴، ۱۱، ۱۸، ۵۷، ۷۷، ۹۲ و ۹۹ من بحارالانوار. طبعاً هناک تفاوت بین العبارات التی وردت فی الکتب المذکوره مع ما ورد فی نهج البلاغه.

وأخيراً فالخطبه من وجهه نظر بمثابه فاتحه الكتاب، حيث تقدم صوره كليه عن المسائل التى درج عليها نهج البلاغه والتى وردت فى المحاور الرئيسيه لخطبه ورسائله وكلماته القصار.

وقد قسمنا هذه الخطبه إلى خمسه عشر قسماً تناولنا كل قسم منه بالبحث بصوره مستقله لنخلص إلى النتائج الكليه التى يمكن التوصل إليها من الخطبه كوحده كامله.

ص:۴۲

القسم الأول: بعد العقول عن معرفه الذات الإلهيه!

ومن خطبه له عليه السلام

يـذكر فيها ابتـداءً خلق السـماء والأرض وخلق آدم وفيها ذكر الحـج وتحتوى على حمد اللّه وخلق العالم وخلق الملائكه واختيار الأنبيـاء ومبعث النبى والقرآن والأحكام الشـرعيه: «الْحَمْـدُ للّهِ الَّذِى لا يَبْلُغُ مِـدْحَتَهُ الْقائِلُونَ وَلا يُحْصِـى نَعْماءَهُ الْعادُّونَ وَلا يُؤَدِّى حَقَّهُ الْمُجْتَهِـدُونَ، الَّذِى لا يُـدْرِكُهُ بُعْـدُ الْهِمَمِ وَلا يَنالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ، الَّذِى لَيْسَ لِصِـفَتِهِ حَـدٌّ مَحْدُودٌ وَلا نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلا وَقْتٌ مَعْدُودٌ، وَلا أَجَلٌ مَمْدُودٌ، فَطَرَ الْخَلائِقَ بِقُدْرَتِهِ وَنَشَرَ الرِّياحَ بِرَحْمَتِهِ وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدانَ أَرْضِهِ» .

الشـرح والتفسـير إنّ نظره عابره إلى مضامين هذه الخطبه تفيد إشاره الإمام على عليه السـلام إلى إثنتى عشـره صـفه من الصفات الإلهيه بتصوير فنى رائع ونظم شاهق:

ففى المرحله الاـولى يشـير إلى كيفيه عجز العبـاد عن إظهار المـدح والثناء وأداء حق الشـكر الإلهى (أشـير فى هـذه المرحله إلى ثلاـثه أوصاف) ويبين فى المرحله الثانيه عجز البشـريه من الناحيه الفكريه عن إدراك عظمه اللّه وكنه ذاته المقـدسه (إشاره إلى وصفين فى هذه المرحله) وفى المرحله الثالثه يورد الدليل على ما أشار إليه سابقاً والذى يكمن فى خروج هذه الذات

عن الحدود وعدم تناهی نعمه وآلائه؛ الأمر الذی یستبطن ویعلل عجزنا عن إدراک ذاته القدسیه واستحاله أداء حقّه فی الشکر والحمد (وهو یشیر فی هذه المرحله إلی أربعه أوصاف) وأخیراً یشیر علیه السلام فی المرحله الرابعه إلی خلق العالم والکائنات، وکأنه أراد أن یکشف النقاب عن هذه الحقیقه وهی أن معرفه الذات الإلهیه إنّما تقتصر علی هذا السبیل، والذی یمثل منتهی قدرتنا واستطاعتنا (ویشیر فی هذه المرحله إلی ثلاث من صفاته الفعلیه) .

ویفید هذا الأمر أنّ الدقه والنظام هی الأسس التی استندت إلیها هذه العبارات الرفیعه التی تضمنتها الخطبه التی أوردها هذا المعلم الربانی.

الآن وبعد هذه النظره العامه نعود إلی بحث وتفسیر هذه الأوصاف الاثنی عشر التی اشتملت علیها الخطبه:

فقد استهل الإمام علیه السلام خطبته بحمد اللّه والثناء علیه مع التصریح بالعجز عن أداء حق الحمد، فقال علیه السلام: «الْحَمْدُ للّهِ الَّذِی لا یَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقائِلُونَ» . (۱)

وذلک لأنّ أوصافه «الکمالیه» و «الجمالیه» لا تعرف الحدود، فما یؤدیه الملائکه والناس من حمد ومدح إنّما یتوقف علی مقدار معرفتهم بالذات المطلقه لا بمقدار کمالاته جل وعلا. وأنی لسائر الأفراد بزعم المعرفه وهذا النبی الکریم الذی یمثل أعظم أنبیاء اللّه یظهر عجزه عن معرفه الخالق المتعال فیصرح قائلاً: «ما عرفناک حق معرفتک» (۲). فاذا عجز الإنسان عن معرفته فکیف یسعه حمده ومدحه؟ وعلیه فان ذروه حمدنا، ما أورده الإمام علیه السلام؛ أی إظهار العجز عن حمده وثنائه والاعتراف باستحاله بلوغ هذه الدرجه علی جمیع مخلوقاته سبحانه.

فقد ورد فی الحدیث عن الإمام الصادق علیه السلام أنّ اللّه أوحی إلی نبیّه موسی علیه السلام أن اشکرنی

---

۱ - ۱) کثر الکلام بین اللغوین ومفسری القرآن ونهج البلاغه [۱]بشأن معنی الحمد والمدح والشکر، غیر أنّ المشهور بینهم أنّ الحمد هو کل مدح إزاء الإعمال الحسنه الاختیاریه؛ بینما ینطوی المدح علی مفهوم أوسع یشمل الإعمال الاختیاریه وغیر الاختیاریه، أمّا الشکر فأخص من المدح ویقتصر علی إیصال أحدهم نعمه إلی آخر فیشکره علی تلک النعمه. (من أراد المزید فلیراجع مجمع البحرین، لسان العرب، المفردات، شرح ابن الهیثم وشرح العلّامه الخوئی) . بینما صرّح بعض مفسری القرآن ونهج البلاغه [۲]کالزمخشری فی الکشاف وابن أبی الحدید فی شرحه أن «الحمد والمدح أخوان، لا فرق بینهما) ، ویبدو أن التفسیر الأول أصح.

۲ - ۲) أورد العلّامه المجلسی ضمن توضیحه لبعض الأخبار فی البحار، تعلیقاً علی کلام المحقق الطوسی هذا الحدیث «ما عبدناک حق عبادتک وما عرفناک حق معرفتک» دون ذکر سنده. بحار الانوار ۶۸ /۲۳. [۳]

حق شکری. قال علیه السلام: إلهی! کیف أؤدی حق شکرک، وشکرک نعمه تحتاج إلی شکر (وهکذا یکون التوفیق إلی الشکر نعمه اخری تستحق الشکر) . فقال: «یا موسی الآن شکرتنی حین علمت أنّ ذلک مِنِّی» (۱).

وهنا لابدّ من القول بأنّ الإنسان إذا ما قال: الحمد للّه، فانه أتی به کاملاً دون نقیصه، إلّاأن یکون فی حق اللّه، ولذلک جاء فی الخبر أنّ الإمام الصادق علیه السلام خرج من المسجد ولم یظفر بدابته، فقال علیه السلام، إن أعادها لی اللّه شکرته حق شکره، فلم تمض مدّه حتی أتی بها إلیه فقال علیه السلام: الحمد للّه. فقیل له: جعلت فداک ألم تقل أشکره حق شکره؟ فقال علیه السلام: ألم تسمع قولی الحمدللّه. (۲)

أمّا فی الوصف الثانی فقد قال: «ولا یحصی نعمائه العادون» . وذلک لأنّ نعمه المادیه والمعنویه والظاهریه والباطنیه والفردیه والجماعیه لأکثر وأعظم من أن تعدّ وتحصی. فبدن الإنسان - علی سبیل المثال - مؤلف ممّا لا یحصی من الخلایا والأنسجه (یبلغ متوسطها عشره ملیارات) التی تشکل کل وحده منها کائناً حیاً ومرکباً معقداً ونعمه من نعمه سبحانه والتی یتعذر إحصاء عددها فی عشرات الآلوف من السنین، فاذا عجز الإنسان عن إحصاء نعم اللّه فی هذا الجانب الیسیر فقط، فکیف یسعه أن یحصی جمیع هذه النعم والآلاء علی المستویات المادیه أو المعنویه؟ فی الواقع لیس لدینا من علم بکافه نعمه لیتسنی لنا عدّها أو إحصائها. فأغلب نعمه قد أغرقت کیاننا وأحاطت بوجودنا، وحیث لم نسلبها قط فقد غفلنا عنها ولم نحط بها (فلا یشعر بالنعمه إلّابعد فقدانها) ، أضف إلی ذلک فان ظفر الإنسان بالنعم والآلاء إنّما یتناسب طردیاً واتساع مدی علمه ومعرفته؛ الأمر الذی یؤدی إلی الاذعان - وکما قال أمیرالمؤمنین علیه السلام - بهذه الحقیقه «ولا یحصی نعمائه العادون» . ویمکن لهذه العباره أن تکون عله للعباره السابقه «لا یبلغ مدحته القائلون» إذ کیف یمکن حمد اللّه والثناء علیه فی ظل العجز عن إحصاء نعمه! ویبدون أنّ هذه النعم ما زالت لا تعرف الحدود رغم الحاله المؤسفه فی قیام بعض الظلمه والفئات النفعیه باحتکار أغلب النعم أو تضییعها من خلال البذخ

۱- ۱) اصول الکافی ۲ / ۹۸، ح ۲۷. [۱]

۲- ۲) المصدر السابق / ۹۷، ح ۱۸. [۲]

والاسـراف والتبـذير، وتعريض طبقـات المجتمع للتعـب والارهـاق. ويقـول عليـه السـلام فى الوصـف الثـالث: «ولا ـ يـؤدى حقّه المجتهـدون» . وهـذه الجمله فى الحقيقه استنتاج ترتب على العباره السابقه، فـاذا تعـذر إحصاء النعم فكيف يمكن أداء حقها؟ بعباره اُخرى فإن حقّه بقـدر عظمه ذاته القدسيه، فى حين شـكرنا وحمدنا بقدر قدرتنا الزهيده، فأين هذا الحمد من ذلك الحق! ولا يقتصر هذا المدح والثناء وأداء الحق على العجز فى الجانب العملى فحسب بل هو قائم حتى من الناحيه الفكريه.

ولـذلك أردف عليه السـلام - وفى إطار بيانه لوصـفين آخرين - قائلاً: «الـذى لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن (۱)» . وكـأنّ التعبير ببعـد الهمم وغوص الفطن إشـاره إلى حقيقه مؤداهـا أنّ الأفكـار الخـارقه مهمـا انطلقت فى قوس الصـعود والفطن المتوهجه فى قوس النزول فأنهـا تبقى عـاجزه عن إدراك كنه ذاته المقـدسه. ولا ـ يـترك الإمـام الا ـقرار بهـذا العجز دون تقـديم الدليل، فيقول: «الذى ليس لصفته حد محدود، ولا نعت (۲)موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود» .

أى أنى لنا الاحاطه بكنه ذاته، والحال أن فكرنا بل جميع كياننا محدوداً لا يحسن سوى إدراك الأشياء المحدوده، بينما لا تعرف الـذات الإلهيه من حدود من جميع النواحى، فليس هنالك من حد أو وصف قابل للإدراك لصـفاته المطلقه من الازل إلى الأبد والتى تأبى الاوليه والاخرويه والبدايه والنهايه. ولا يقتصر هذا الأمر على الذات، فصفاته هى الاُخرى ليس لها من حدود، فعلمه لا يعرف الحدود، وقدرته لا متناهيه، ولا غرو فصفاته عين ذاته التى ليس لها حد محدود.

بعباره اُخرى فانّ اللّه وجود مطلق ليس له أى قيـد وشـرط، ولو كان لقيـد أو شـرط وحـد من الحدود من سبيل إلى ذاته لأصـبح مركبا، فى حين نعلم بأن المركب - كما يقول الفلاسفه -

---

۱- ۱) «همم» جمع همه تعنى فى الأصل الذويان والجريان والحركه ولهذا يطلق الهم حيث بسـبب ذويان الجسم الإنسان وروحه، ثم أطلق على كل أمر مهم أو ما يشـغل فكر الإنسان (ورد شـبه ذلك فى المفردات) . «غوص» تعنى فى الأصل الغمس فى الماء، ثم أطلقت على الدخول فى كل عمل مهم. «فطن» جمع فطنه على وزن فتنه الفهم و الذكاء حسب لسان العرب.
۲- ۲) «الأجل» بمعنى انتهاء الشىء كعمر الإنسان وما إلى ذلك كالعقود والعهود.

ممکن الوجود لا- واجب الوجود - وعلیه فواجب الوجود ذات مطلقه غیر محدوده فی کافه أبعادها، ولذلک کان سبحانه وتراً واحداً لیس له کفؤاً ولا- شبیهاً، لاستحاله قیام وجودین مطلقین من جمیع الجهات، وذلک لأنّ هذا التناقض إنّما یؤدی إلی محدودیه الطرفین، فهذا فاقد لوجود ذلک، وذاک أیضاً فاقد لوجود هذا (تأمل هذا الموضوع) .

وبعد أن تعرض الإمام علیه السلام لصفات الجمال والجلال (الصفات الثبوتیه والسلبیه) ، أشار علیه السلام إلی جانب من صفاته الفعلیه سبحانه، فقال: «فطر (۱)الخلائق بقدرته، ونشر الریاح برحمته، ووتد (۲)بالصخور (۳)میدان (۴)أرضه» . لقد استوحیت هذه التعبیرات من بعض الآیات القرآنیه، فالعباره «فطر الخلائق بقدرته» مستوحاه من الآیه الشریفه «فاطِرِ السَّمواتِ وَالأَرضِ» التی وردت فی عدّه سور قرآنیه من قبیل: سوره یوسف / ۱۰۱ وسوره إبراهیم / ۱۰۰ وسوره فاطر / ۳۵ وسائر السور المبارکه.

والعباره «نشر الریاح برحمته» من الآیه الشریفه «وَهُوَ الَّذِی یُرْسِلُ الرِّیاحَ بُشْراً بَیْنَ یَدَیْ رَحْمَتِهِ» . (۵)

والعباره «ووتد بالصخور میدان أرضه» من الآیه ۱۵ من سوره النمل «وَأَلْقی فِی الأَرْضِ رَواسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ» . (۶)

وبالالتفات إلی ما ذکرنا من معنی «فطر» فانه شبه الخلق بشق الحجاب الظلمانی للعدم؛ الحجاب المتسق والمنسجم الذی لا شق فیه، غیر أن قدرته المطلقه تشقه وتخرج منه المخلوقات، ولیس من شأن أیه قدره سوی قدرته أن تفعل هذا. فقد اتفقت کلمه الفلاسفه والمفکرین علی استحاله استحداثنا لشیء من العدم، أو تحویلنا من وجود إلی عدم، وکل

۱- ۱) «فطر» من ماده «فطر» علی وزن بمعنی شق الشیء من الطول ومنه الافطار فی الصوم

۲ - ۲) «وتد» من ماده «وند» (علی وزن وقت) بمعنی إثبات الشیء ولذلک یطلق الوتد علی المسمار الذی یثبت فی الأشیاء ویمنحها الثبات أیضاً، وأحیاناً یطلق «الوتد» علی وزن «الوقت» .

۳- ۳) «الصخور» جمع «صخره» ، وقال صاحب لسان العرب تعنی الحجر الکبیر الصلب.

۴ - ۴) «میدان» من ماده «مید» علی وزن (صید) بمعنی الحرکه والاضطراب ومیدان علی وزن (ضربان) بهذا المعنی أیضاً و «میدان» علی وزن (حیران) وجمعه میادین بمعنی الفضاء الواسع.

۵- ۵) سوره الأعراف /۵۷. [۱]

۶- ۶) سوره النحل / ۱۵. [۲]

مامن شأن قدرتنا فعله هوتغيير شكل الموجودات من شكل إلى آخر ولا غير!

أمّا التعبير بالرحمه عن حركه الرياح فهو تعبير عذب رائع ينسجم ولطافه النسيم وهبوب الرياح وآثاره المختلفه من قبيل حركه السحب والغيوم نحو الأراضى القفار وتلقيح الأزهار ونمو النباتات واعتدال الجو وحركه السفن والفلك فى البحر وانخفاض درجات الحراره وسائر الخيرات والبركات المكنونه فى هذه الحركه. امّا عن كيفيه توتيد الأرض بهذه الجبال والصخور، فالحق لا يمكن الآن قبول النظريات والاطروحات التى أوردها قدماء العلماء بهذا الشأن إثر قولهم بسكون الأرض وعدم حركتها، حتى جاءت النظريات الحديثه التى تنسجم مع الحقائق العلميه من جهه وتتفق والآيات القرآنيه والروايات الوارده بهذا الخصوص من جهه اُخرى، وذلك لأنه:

١ - أنّ وجود الجبال على سطح الكره الأرضيه يؤدى إلى الحد من آثار ظاهره المد والجزر التى تشهدها اليابسه بفعل جاذبيه الشمس والقمر. فلو اجتاحت الأراضى الرخوه سطح الأرض لأصبح المد والجزر كالبحار والأنهار بما يجعل من المتعذر العيش على هذه الأرض.

٢ - أنّ جذور الجبال متصله مع بعضها تحت القشره الأرضيه وكأنّها درع قد أحاط بالأرض، ولولاها لماجت الأرض وعاشت الحركه باستمرار وفقدت استقرارها بفعل الضغط الداخلى الذى تفرزه الغازات الداخليه والمواد المذابه. وما الزلازل التى تقع إلّانتيجه طبيعيه لمثل هذا الضغط الذى يتجاوز الحدود المعينه، ولولا هذه الجبال لتواصلت هذه الزلزله دون انقطاع.

وبناءً على ما تقدم فان هذه الصخور (الجبال) إنّما توتد الأرض وتحول دون فقدانها لاستقرارها، وناهيك عمّا تقدم فانّ الجبال تعدّ من أهم مصادر الحياه الجوفيه للإنسان، وأنّ كافه العيون والأنهار إنّما تنبع من مصادر الجبال الجوفيه وتلك التى على سطح الأرض.

ويتّضح ممّا ذكرنا سابقاً بشأن الدور الحيوى الذى تلعبه الرياح والجبال فى حياه الإنسان وسائر الكائنات الحيه، عله تأكيد الإمام على عليه السلام هذين الأمرين بعيد الإشاره إلى مسأله الخلق والخليقه.

القسم الثانی: توحید الذات والصفات

«أَوَّلُ الدِّینِ مَعْرِفَتُهُ وَکَمالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِیقُ بِهِ وَکَمالُ التَّصْدِیقِ بِهِ تَوْحِیدُهُ وَکَمالُ تَوْحِیدِهِ الْإِخْلاصُ لَهُ وَکَمالُ الْإِخْلاصِ لَهُ نَفْیُ الصِّفاتِ عَنْهُ لِشَهادَهِ کُلِّ صِفَهٍ أَنَّها غَیْرُ الْمَوْصُوفِ وَشَهادَهِ کُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَیْرُ الصِّفَهِ، فَمَنْ وَصَفَ اللّه سُبْحانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنّاهُ وَمَنْ ثَنّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشارَ إِلَیْهِ وَمَنْ أَشارَ إِلَیْهِ فَقَدْ عَدَّهُ» .

الشرح والتفسیر

تمثل هذه العبارات دوره تربویه تامه فی المعرفه الإلهیه. فقد اعتمد أمیر المؤمنین علیه السلام عبارات مقتضبه عمیقه المعنی بحیث قدم صوره عن الحق تبارک وتعالی لا یمکن الإتیان بأحسن منها حتی ولو جمعنا کافه دروس التوحید والمعارف إلیها وجعلنا بعضها إلی جانب البعض الآخر، فانّها تعجز عن رسم مثل تلک الصوره.

فقد ذکر علیه السلام فی هذا الجانب من خطبته خمسه مراحل لمعرفه اللّه یمکن ایجازها فی مایلی:

۱ - المعرفه الإجمالیه والناقصه

۲ - المعرفه التفصیلیه

۳ - توحید الذات والصفات

۴ - الاخلاص

۵ - نفی التشبیه

فقد قال علیه السلام مبتدأ «أول الدین معرفته» . لا شک أنّ الدین هنا یعنی مجموعه العقائد

والواجبات والوظائف والأخلاق، ومن المعلوم أنّ دعامتها الأساسيه هى «معرفه اللّه» ، وعليه فمعرفه اللّه تمثل الخطوه الاولى على الطريق من جانب والمحور الرئيسى لكافه أصول الدين وفروعه، وليس لهذا الدين من حيويه دون هذه المعرفه - أمّا أولئك الذين يعتقدون بأنّ هناك شيئاً آخر قبل معرفه اللّه، إلّاوهو النظر فى طريق معرفه اللّه والتحقيق بشأن الدين ووجوب المطالعه، فهم على خطأ كبير. وذلك لأنّ وجوب التحقيق يمثل أول الواجبات، بينما تمثل معرفه اللّه أول دعامه للدين، أو بعباره أُخرى فان التحقيق مقدمه ومعرفه اللّه أولى مراحل ذى المقدمه. (۱)

والنقطه الأُخرى المفروغ منها هى أنّ المعرفه الإجماليه قد أودعت فطره الإنسان ولا تتطلب أدنى تبليغ بهذا الشأن، وإنما بعث الأنبياء لاستبدال هذه المعرفه الإجماليه بتلك المعرفه التفصيليه الكامله المتقنه وإغناء جوانبها وتطهير الفكر البشرى من أدران الشرك وأرجاسه.

ثم قال عليه السلام: «وكمال معرفته التصديق به» . هنالك عدّه تفاسير للفارق بين التصديق والمعرفه. بادئ ذى بدء المراد هنا بالمعرفه هى المعرفه الفطريه، والمقصود بالتصديق المعرفه العلميه والاستدلاليه. أو أنّ المراد بالمعرفه هنا المعرفه الإجماليه، والمقصود بالتصديق المعرفه التفصيليه. أو أنّ المعرفه تشير إلى العلم باللّه، والتصديق يشير إلى الإيمان، لأنّ العلم لا يفارق الإيمان، فالإنسان قد يوقن بشىء إلّاأنّه لا يؤمن به قلبياً - بمعنى التسليم له والاذعان به قلبياً، أو بتعبير آخر الاعتقاد به -. وأحياناً يضرب الفضلاء مثلاً لانفصال هذين الأمرين عن بعضهما، فيقولون: إنّ أغلب الأفراد يشعرون بالهلع ولا سيما فى الليله المظلمه حين البقاء إلى جانب ميت فى غرفه خاليه، رغم علمهم بانه ميت، لكن كأن العلم لم ينفذ إلى أعماقهم ويتسلل إلى قلوبهم، فلم يحصل ذلك الإيمان المطلوب وبالتالى فقد تمخض عن هذا الهلع والخشيه.

وبعباره أُخرى فانّ العلم هو تلك المعرفه القطعيه بالشىء، إلّاأنّها قد تكتسب صبغه

---

۱ - ۱) لقد ذهب المرحوم العلّامه المعروف «محمد جواد مغنيه» فى كتابه «فى ظلال نهج البلاغه» إلى أنّ هذه المعرفه تعنى الطاعه والانقياد لأوامر اللّه ونواهيه، وهذا هو المعنى الذى اختاره من قبله الشارح الخوئى - رضوان اللّه عليه، فان كان مرادهما الطاعه بالمعنى الشامل للكلمه بما فيها الأُمور العقائديه صح ذلك، وإن اقتصر على الجوانب العمليه فقط يرد عليهما ما أوردناه سابقاً.

سطحیه فلا تنفذ إلی أعماق وجود الإنسان وروحه، فاذا نفذت إلی أعماقه وبلغت مرحله الیقین بحیث أذعن الإنسان بذلک قلبیاً، فان ذلک العلم یکتسب صفه الإیمان. ثم قال علیه السلام فی المرحله الثالثه «وکمال التصدیق به توحیده» . فمما لاشک فیه أنّ الإنسان لم یبلغ مرحله التوحید الکامل علی أساس معرفته التفصیلیه للّه أو بتعبیر آخر بالمعرفه القائمه علی أساس الدلیل والبرهان. فالتوحید التام فی أن ینزه الذات الإلهیه عن کل شبه ومثیل ونظیر. وذلک لأنّ من جعل له شبیه وصنو لم یعرفه، فاللّه وجود مطلق غنی بالذات عمّا سواه ولیس کمثله شیء، ومن طبیعه الاشیاء التی لها أشباه وأمثال أن تکون محدوده، لأنّ أی من الشبیهین منفصل عن الآخر وفاقد لکمالاته.

إذن فالإنسان لا یبلغ مرحله الکمال إلّابالتصدیق بذاته المنزهه فی أنّه واحد؛ واحد لا عن عدد، بل واحد بمعنی خلوه من الشبیه والمثیل.

ثم ینتقل الإمام علیه السلام إلی المرحله الرابعه وهی مرحله الاخلاص فیقول: «وکمال توحیده الاخلاص له» . والاخلاص من ماده الخلوص بمعنی تصفیه الشیء عن الغیر، بمعنی التصفیه والتنزه. وهناک خلاف بین مفسری نهج البلاغه بشأن هذا الاخلاص، وهل المراد به الاخلاص العملی أم القلبی أم العقائدی. والمراد بالاخلاص العملی هو أن یعیش الفرد ذروه التوحید الإلهی فلا یسأل سواه ولا یری غیره فیما یقوم به من أفعال وأعمال. وهو الأمر الذی تناوله الفقهاء فی بحث الاخلاص فی العباده، وقد أورد «الشارح الخوئی» (ره) هذا التفسیر بصفته أحد الأقوال دون أن یذکر من قال به. (۱)

أمّا الاخلاص القلبی والذی عبر عنه «الشارح البحرانی ابن میثم» بالزهد الحقیقی فهو یعنی توجه القلب إلی اللّه وعدم التفکیر بما سواه، والانشغال بغیره (۲). إلّاأننا نری أنّ الاخلاص

۱- ۱) منهاج البراعه ۱ / ۳۲۱. وقد نقل الشارح الخوئی بأنّ لصدر الدین الشیرازی مثل هذا الاعتقاد فی شرح الکافی.
۲- ۲) شرح نهج البلاغه لابن میثم ۱ / ۱۲۲.

مفهوم عظيم وسامى لا ينسجم وما أورده الشرّاح فى هذه العبارات، ومن المستبعد أن يكون هذا هو المراد به. أمّا المفهوم الوحيد الذى يناسبه هو تنزيه الاعتقاد باللّه تبارك وتعالى؛ أى تنزيهه فى وحدته عن كل شبيه ومثيل، إلى جانب تقديسه عن التركيب من الأجزاء.

وقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا المعنى فى المرحله الخامسه حين قال: «وكمال الاخلاص له نفى الصفات عنه» . وبعباره اخرى فان الحديث فى المرحله السابقه قد تناول الاخلاص على نحو الإجمال، فلما بلغ الاخلاص هنا مرحله الكمال غاص فى التفاصيل، ليتضح من ذلك أنّ الاخلاص فى التوحيد يتطلب تنزيهه عن كافه الصفات التى يتصف بها المخلوق، سواء كانت هذه الصفات بمعنى التركب من الأجزاء أم غيرها، وذلك لأننا نعلم بأنّ جميع الممكنات بما فيها العقول والنفوس المجرده هى فى الواقع مركبه (على الأقل مركبه من الوجود والماهيه) وحتى المجردات؛ أى الموجودات الخارجه عن الماده هى الاُخرى ليست مستثناه من هذا التركب، أمّا الموجودات الماديه فكلها متركبه من الأجزاء الخارجيه، لكن الذات الإلهيه المقدسه لا تشتمل على الأجزاء الخارجيه ولا الأجزاء العقليه، لايمكن تجزأته فى الخارج ولا فى إدراكنا وفهمنا. وكل من غفل عن هذه الحقيقه لم يظفر بالتوحيد الخالص، ومن هنا يتضح بأنّ مراده عليه السلام بقوله «كمال توحيده نفى الصفات عنه» ليس الصفات الكماليه؛ لأنّ كافه الصفات الكماليه من قبيل العلم والقدره والحياه وما إلى ذلك من الصفات ثابته له، بل المراد الصفات التى ألفناها وتعرفنا عليها وهى صفات المخلوقين المشوبه بالنقص. فالمخلوقات لها حظ من علم وقدره، غير أنّ علمها وقدرتها محدوده ناقصه مشوبه بالجهل والضعف والعجز، بينما الذات الإلهيه منزهه عن مثل هذا العلم والقدره وأفضل دليل على ذلك ما أورده الإمام عليه السلام فى ذيل هذه الخطبه بشأن الملائكه فوصفهم بقوله: «لا يتوهمون ربهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين» . أضف إلى ذلك فان صفات المخلوقات منفصله دائماً عن ذواتها، أو بعباره اُخرى فانّ صفاتها زائده على ذواتها. فالإنسان شىء وعلمه وقدرته آخر، وبناءً على هذا فوجوده مركب من هذين الشيئين، والحال أنّ صفات اللّه عين ذاته وليس هنالك من سبيل لهذا التركب. والواقع أنّ أعظم عقبه تعترض مسيره التوحيد إنّما تكمن فى قضيه

«القیـاس» ؛ أی قیاس صـفات اللّه بصـفات المخلوقات المفعمه بأنواع النقص والعیب، أو الاعتقاد بالصـفات الزائـده علی الـذات؛ الورطه التی وقعت فیها الأشاعره «فرقه من المسلمین» . (۱)

ولـذلک أردف الإمام علیه السـلام قائلاً: «لشـهاده کل صـفه - من الممکنات - أنّها غیر الموصوف وشـهاده کل موصوف - من الممکنات - أنّه غیر الصفه» .

فکلامه علیه السلام دلیل واضح وجلی فی أنّ الصفات الزائده علی الذات تشهد بلسان حالها أنّها غیر الموصوف، وکل موصوف یشـهد بأنّه لیس من الصـفات، اللّهم إلاّ أن نقول بأنّ صـفاته عین ذاته، ونؤمن بأنّ اللّه ذات جمیعها علم وجمیعها قـدره وجمیعها حیاه وأزلیه وأبدیه، وإن کان إدراک مثل هذا الاعتقاد متعذر علینا نحن المخلوقات الذین أنسـنا بصفات المخلوق فقط ونری أنّ الإنسان شیء وعلمه وقدرته شیئاً مضافاً للذات زائداً علیها، لأننا نلد من أمهاتنا ولیس لنا من علم وقدره ثم نحصل علیها لاحقاً.

ثم یواصـل الإمام علیه السـلام خطبته ویردفها بعباره قصـیره إلّاأنّها عمیقه المعنی فیقول: «فمن وصف اللّه سـبحانه فقـد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله» .

فالواقع أنّ کلام الإمام علیه السلام یفید أن اثبات الصفات التی تتصف بها المخلوقات للّه یستلزم الترکب فی وجوده سبحانه؛ أی کما أنّ المخلوق - الإنسان - مرکب من الذات والصـفات فان اللّه مرکب کذلک؛ بینما لا ینسـجم هذا المعنی وواجب الوجود، لأنّ کل مرکب یحتاج إلی أجزائه والحاجه تتناقض والغنی المطلق لواجب الوجود.

۱- ۱) الأشاعره هم أتباع «أبو الحسن الأشعری» الذین یؤمنون بالمعانی، والمراد بالمعانی هو أن مفهوم الصفات من قبیل العالمیه والغالبیه و. . . کالذات الإلهیه قدیمه أزلیه، کما أنّها فی نفس الوقت غیر الذات الإلهیه، وعلیه فهم یعتقدون بأزلیه بعض الأشـیاء، بعباره اُخری یقولون بتعـدد القـدماء، وهی العقیـده التی تتنافی تماماً والوحـدانیه الخالصه، ولـذلک ینفی أتباع أهل البیت علیهم السـلام - علی ضوء ما تلقوه عنهم من تعالیم کالذی جاء فی هذه الخطبه وسائر خطب نهج البلاغه وکلمات أئمه العصـمه علیهم السلام - هذه المعانی التی تمثل الصفات الزائده علی الذات، وقد أشارت العباره «لا شریک له ولا معانی» لهذا الأمر.

وهناک تفسیران آخران ذکرا لهذه العباره:

الأول: أننا إذا اعتبرنا صفاته سبحانه غیر ذاته، فانّ ذاته ستکون مرکبه، لأنّ الذات والصفات علی فرض التناقض ستشتملان علی جهات مشترکه ومتمایزه والذی یعبّر عنه «ما به الاشتراک» و «ما به الامتیاز» . لأنّ کلیهما مشترک فی الوجود وفی نفس الوقت متمایزان عن بعضهما، وفی هذه الحاله لابدّ أن نعتبر ذاته مرکبه من جهتین مختلفتین أیضاً.

الثانی: أن نؤمن بوحده الذات الإلهیه، ولا نعنی بها الوحده العددیه، بل یعنی مفهوم الوحده بالنسبه للذات الإلهیه أنّها منزهه عن الشبیه والمثیل والنظیر. وبشکل عام فانّ الوجود المطلق من کل الجهات یأبی أن یکون له شبیه ومثیل، فان قلنا بأنّ صفات اللّه کذاته أزلیه وأبدیه ومطلقه، نکون قد حددناه سبحانه من جانب وقلنا بشبیه له من جانب آخر (لابدّ من التأمل فی هذا الکلام) وهذا هو المعنی الذی کشف عنه الإمام علیه السلام فی إطار توضیحه للاخلاص، فقال «فمن وصف اللّه سبحانه» أی وصفه بصفات المخلوقین «فقد قرنه» بالأشیاء الاُخری «ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزاه ومن جزاه فقد جهله» لأنّه حین جزاه بمعنی جعل ذاته ترکبه من أجزاء وحقاً لم یعرف اللّه من اعتقد بترکب ذاته؛ وذلک لأنّه تصور کائناً علی شاکلته - من حیث الترکیب والمحدودیه - وأسماه اللّه.

ثم یقول علیه السلام: «ومن جهله فقد أشار إلیه، ومن أشار إلیه فقد حده، ومن حده فقد عده» . ویوجد احتمالان بشأن قوله علیه السلام: «ومن أشار إلیه» الأول أن یکون المراد بها الإشاره العقلیه، والثانی أن یکون المراد بها الإشاره العقلیه والحسیه. وتوضیح ذلک أنّ الإنسان إذا لم یعرف اللّه بتلک الحقیقه المطلقه اللامتناهیه فانّه سیمتلک فی ذهنه مفهوماً محدوداً وخاصاً عنه سبحانه، أو بتعبیر آخر فانّه سیشیر إلیه بالإشاره العقلیه، وبالطبع سیکون محدوداً فی هذه الحاله تصوراً، وذلک لتعذر إدراک وتصور اللامحدود واللامتناهی علی الإنسان المحدود والمتناهی. فالإنسان إنّما یدرک ما یحیط به من أشیاء یسعه تجسیمها فی فکره المحدود، وبالطبع فان مثل هذه الموجودات محدوده. وعلی هذا الضوء فان اللّه سیکون فی مصاف المعدودات والأشیاء القابله للعدد، لأنّ من لوازم المحدود هو إمکان تصور موجود آخر فی موضع آخر مثله.

والأول الوحيد الذى ليس له ثان من كان غير محدود من جميع الجهات ولا يسعه العدد. وعلى هذا الأساس فان مولى الموحدين – على بن أبى طالب عليه السلام – قد عكس حقيقه التوحيد فى هذه العباره القصيره ذات المعنى العميق، فوصف البارئ سبحانه بما يفوق الخيال والقياس والظن والوهم. وهى ذات الحقيقه التى كشف النقاب عنها الإمام الباقر عليه السلام حين قال: «كل ما ميزتموه باوهامكم فى أدق معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم» (۱).

والاحتمال الآخر مازال قائماً بأن يكون المراد «بالإشاره» الإشاره العقليه والإشاره الحسيه أيضاً؛ وذلك لأنّ اللّه ليس بجسم ولا عرض والاعتقاد بجسميه اللّه جهل محض، ونتيجه ذلك كون الذات الإلهيه محدوده لأنّ كل مشار إليه فهو محدود، فالمشار إليه لابدّ أن يكون فى جهه مخصوصه، وكل ما هو فى جهه فله حد وحدود.

سؤال

هنا يبرز سؤال يطرح نفسه: إذا تعذرت حتى الإشاره العقلانيه للّه، فانّ معنى ذلك تعطيل معرفه اللّه وإغلاق أبواب المعرفه بوجه الإنسان وبالتالى سوف لن يكون هناك من مفهوم لمعرفه اللّه. وذلك لأننا كلما حاولنا التوجه إلى تلك الذات المقدسه ارتطمنا بمخلوق من نسج أفكارنا، كلما أردنا الاقتراب منه لم نزدد إلّابعداً عنه، فما أحرانا والحاله هذه الا نقتحم ميدان المعرفه بغيه عدم الابتلاء بالشرك.

الجواب

إنّ الجواب على هذا السؤال يتضح من خلال الإلتفات إلى نقطه مهمّه – من شأنها أن تحل المشكله هنا وفى سائر الموارد – وهى أنّ المعرفه على نوعين: معرفه إجماليه ومعرفه تفصيليه، أو بتعبير آخر معرفه كنه الذات ومعرفه مبدأ الأفعال. فاننا حين نتأمل عالم الوجود بما يضم من العجائب والغرائب والكائنات بتلك الروعه والجمال والعظمه، بما فى ذلك وجودنا نحن الأفراد لنشعر بأنّ هنالك خالقاً ومدبراً لهذا الكون وهذا هو العلم الإجمالى الذى يمثل ذروه معرفه الإنسان باللّه (غايه مافى الأمر أننا كلما تعرفنا أكثر على أسرار الوجود وقفنا بصوره

۱- ۱) بحار الأنوار ۶۶ / ۲۹۳. [۱]

أعمق على عظمته وتعززت به معرفتنا الإجماليه أكثر فأكثر) إلّاأننا حين نعود بالسؤال لأنفسنا عن ماهيته وكيفيته ونحاول الاقتراب من حقيقه ذاته المقدسه لا نحظى سوى بالحيره والغموض؛ الأمر الذى يجعلنا نقول بأنّ السبيل إليه مفتوح على مصراعيه وفى نفس الوقت مؤصد ومغلق تماماً.

وهنا يمكننا إيضاح هذه المسأله بمثال بسيط. فالكل يعلم بوجود قوه الجاذبيه؛ لأنّ كل جسم يترك فى الهواء يسقط إلى الأرض بفعل جاذبيتها، ولولا هذه الجاذبيه لانعدم استقرار الأجسام على سطح الكره الأرضيه. ولا تقتصر معرفه الجاذبيه والعلم بوجودها على العلماء، بل يدركها حتى الصبيه والأطفال؛ ولكن ماهى حقيقه الجاذبيه، هل هى أمواج لا مرأيه أم ذرات مجهوله أم قوه أُخرى؟ والعجيب أنّ قوه الجاذبيه وخلافاً لكل ما نعرفه من قوانين عالم الماده، يبدو أنّها لا تحتاج من زمان للانتقال من نقطه إلى أُخرى، بل على خلاف الضوء الذى يمثل أسرع حركه فى عالم الماده، فى حين قد يحتاج إلى مدّه زمانيه تصل إلى ملايين السنين الضوئيه للانتقال فى الفضاء من نقطه معينه إلى نقطه أُخرى. إمّا قوه الجذب فتنتقل فى لحظه من أيه نقطه فى العالم إلى أُخرى، أو أنّها تمتلك حد أقل من السرعه يفوق ما سمعناه لحد الآن. فما هذه القوه التى تمتلك مثل هذه الآثار؟ وما حقيقه كنه هذه القوه؟ ليس هنالك من يسعه تقديم جواب شاف لهذه الاسئله. فاذا كان علمنا ومعرفتنا بشأن القوه الجاذبه – التى تعتبر أحد المخلوقات – تقتصر على المعرفه الإجماليه دون المعرفه التفصيليه، فأنى لنا توقع المعرفه بكنه الذات المقدسه لخالق عالم الماده وما ورائها من وجودات لا متناهيه؟ ! لكن مع ذلك فاننا نراه حاضراً وناظراً فى كل مكان ومقارناً لكل وجود فى العالم. امّا العباره «ومن حده فقد عده» فهى إشاره إلى أمر مهم يتضح من الكلام السابق وهو أنّ من حد اللّه وجب عليه أن يراه معدوداً، وبعباره أُخرى فانه يعتقد بإمكانيه وجود الشريك له. لأنّ المطلق من جميع الجهات فقط هو الذى يأبى الشبيه والمثيل والشريك؛ بينما إن كان محدوداً (مهما كانت عظمته وقدرته) كان له شبيهاً ومثيلاً خارج ذاته، وبتعبير آخر فليس هناك من ضير فى تصور موجودين محدودين أو أكثر (مهما بلغ كبرهما) ، بينما يستحيل تصور وجود ثان للمطلق من كل الجهات؛ وذلك لأنّ كل ما يتصور إنّما يعود إلى ذاته.

القسم الثالث: لیس کمثله شیء

اشاره

«وَ مَنْ قالَ «فِیمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قالَ «عَلامَ» ؟ فَقَدْ أَخْلَی مِنْهُ. کائِنٌ لا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لا عَنْ عَدَم، مَعَ کُلِّ شیء لا بِمُقارَنَهٍ، وَغَیْرُ کُلِّ شَیْءٍ لا بِمُزایَلَهٍ، فاعِلٌ لا بِمَعْنَی الْحَرَکاتِ وَالْآلَهِ، بَصِیرٌ إِذْ لا مَنْظُورَ إِلَیْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لا سَکَنَ یَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلا یَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ» .

الشرح والتفسیر لقد تعرض الإمام علیه السلام فی هذا القسم من الخطبه إلی عدّه نقاط حساسه ودقیقه بشأن مباحث التوحید بکلمات قلیله ومعان عمیقه یمکن إیجازها فی خمس:

۱ - کون الذات الإلهیه المطلقه منزهه عن المکان، فقد قال علیه السلام: «ومن قال فیم؟ فقد ضمنه» . فالکلمه (فی) إنّما تستعمل بشأن المکان الذی یحوی الشیء ویحیط به، من قبیل قولنا فلان فی الدار، والورد فی البستان وما إلی ذلک، ونتیجه ما تقدم هو محدودیه ذاته سبحانه، بینما أشرنا سابقاً إلی أنّ کافه أدله التوحید تفید کون الذات المقدسه مطلقه من جمیع الجهات.

وهکذا من سأل «علام» بشأن اللّه؟ (علی العرش، علی الکرسی، علی السموات) فقد حده لأنه أخلی منه سائر المواضع «ومن قال علام؟ فقد أخلی منه) . فمثل هذه الأسئله تستلزم کون الذات القدسیه محدوده، وهذا مالا ینسجم وکونه واجب الوجود. وبناءً علی هذا فکل من تصوره علی العرش أو علی السموات أو أی مکان آخر فقد جرد نفسه من التوحید الخالص، وفی الواقع فانّه یعبد مخلوقاً من نسج خیاله الفکری ویسمیه اللّه. فقد ذهب بعض الجهال إلی

أنّ الشريفه «الرَّحْمنُ عَلی العَرْشِ اسْتَوی» (۱)دلیل علی جسمیه اللّه وأنّه علی العرش، بینما تفید کلمه «استوی» معنی السیطره علی الشیء ولا تقتصر علی معنی التربع علی الشیء أو الاستقرار علیه، بل هناک تعبیر کنائی معروف ومتداول بشأن تزعم الاُمور والأخذ بزمامها فی مقابل اعتزال السلطه وانفلات القدره، فیقال «اسْتَوی عَلی العَرْشِ» فی مقابل «ثل عرشه» ولا یراد کسر عرش السلطه أو التربع علیه. وعلیه فالذی تفیده الآیه الکریمه «اسْتَوی عَلی العَرْشِ» هو استقرار حکومته وسلطته سبحانه علی العرش. علی کل حال یبدو من السذاجه والسخریه الاستدلال بهذه الآیه علی جسمیته سبحانه.

۲ - یشرح الإمام علیه السلام فی هذه العباره «کائن لا عن حدث» أزلیته سبحانه وکون ذاته غنیه عن الحدود من ناحیه الزمان، ثم یقول علیه السلام: «موجود لا عن عدم» وهذا هو الفارق بینه وبین جمیع المخلوقات المسبوقه بالعدم والحدوث، بینما لم تسبق الذات الإلهیه بمثل ذلک العدم والحدوث. بل لا یمکن وصفه بصفتی «الکائن» و «الموجود» دون تنقیه مفهومها من صفات المخلوقات المسبوقه بالعدم. (۲)

۳ - العباره الاُخری تضمنت إشاره رائعه إلی کیفیه الرابطه السائده بین المخلوقات والخالق والممکنات بواجب الوجود، حیث قال علیه السلام: «مع کل شیء لا بمقارنه وغیر کل شیء لا بمزایله» . لقد ذهب أغلب الناس وحتی أغلب الفلاسفه والعلماء إلی أنّ الرابطه التی

۱- ۱) سوره طه / ۵. [۱]

۲- ۲) لقد ذهب بعض شرّاح النهج إلی أنّ العبارتین المذکورتین إنّما تبینان موضوعاً واحداً، بینما اعتبر البعض الآخر - مثل ابن أبی الحدید - أن قوله علیه السلام: «کائن لا عن حدث» إشاره إلی الحدوث الزمانی فی العباره الاولی، ولم ینف حدوثه الذاتی الا فی کلمته الثانیه بغض النظر عن الزمان لأنّه واجب الوجود. (شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱ / ۷۹) . [۲] فی حین ذهب آخرون إلی عکس ذلک ففسروا العباره الاولی بنفی الحدوث الذاتی أو الذاتی والزمانی، والعباره الثانیه بنفی الحدوث الزمانی. (شرح نهج البلاغه لابن میثم، ۱ / ۱۲۷) . [۳] ولکن لم یقم دلیل واضح علی أی من هذا التفاوت، لأن مفرده الحدوث عاده ما تطلق علی الحدوث الزمانی، کما یمکن حملها علی الحدوث الذاتی أیضاً، وهکذا یمکن إطلاق نقطه العدم علی العدم الذاتی والتی غالباً ما تطلق علی العدم الزمانی. وعلیه تبدو هاتان العبارتان متأکدتان فی معناهما وهو نفی الحدوث الزمانی والذاتی؛ علی أنّهما تنفیان أی حدوث وعدم عن الذات الإلهیه سواءً بالنسبه للذات والزمان.

تسود المخلوقات باللّه، هی رابطه بین وجودین مستقلین فی أنّ أحدهما مخلوق للآخر، کوجود الشعله العظیمه والشمعه الصغیره التی نوقدها من تلک الشعله، فی حین الحقیقه شیء آخر تماماً. فالفارق بین المخلوق والخالق هو لیس من قبیل الفارق بین وجود ضعیف وقوی قط، بل الفارق هو فارق بین وجود مستقل من جمیع الجهات ووجود تابع. فعالم الوجود برمته تابع له ویتغذی فی کل آن من نور وجوده علیه. فاللّه سبحانه لیس منفصلاً عن عالم الوجودکما أنّه لیس عین الموجودات (کما ذهب إلی ذلک الصوفیه التی تقول بوحده الوجود والموجود) ، وأنّ التوحید الواقعی إنّما یتوقف علی إدراک هذه الحقیقه. ویمکن إیضاح هذه الحقیقه بهذا المثال (رغم النقص الذی یشوب مثل هذه الأمثله) . فشعاع الشمس رغم وجوده وکونه غیر قرص الشمس، إلّاأنّه متصل بها تابع لها، هو غیرها لکن لا علی نحو المغایره وبمعنی الانفصال والاستقلال، ومعها ولکن لیس بمعنی الالتحام والاتحاد. وهما لاشک فیه أن ارتباط موجودات هذا العالم بالذات الإلهیه المقدسه أکثر قرباً وتبعیه ممّا صدره هذا المثال، والحق لا یمکن العثور علی مثال دقیق فی هذا العالم لتصویر عمق هذه التبعیه والوحده وفی نفس الوقت الثنائیه (أی الوحده فی الکثره) . رغم أنّ الأمثله ومنها المثال المذکور - أو کالتصورات الذهنیه للإنسان التابعه من روحه وغیر المنفصله عنها وفی نفس الوقت تابعه لها ولیس لها من مفهوم دونها - یمکنها أن توضح إلی حد ما هذا الموضوع.

۴ - تناول الإمام علیه السلام صفه اُخری من صفات الذات الإلهیه المقدسه، فقد قال علیه السلام: «فاعل لا بمعنی الحرکات والآله» . لقد جرت المحاورات الیومیه عاده علی الاصطلاح بالفاعل علی الفرد الذی یقوم ببعض الأعمال من خلال حرکات الید والرجل أو الرأس والرقبه وسائر الأعضاء، ولما کانت قدره الإنسان وسائر الکائنات محدوده وتعذر الإتیان بکافه الأفعال والأعمال علی هذه الأعضاء، فانّه یستعین ببعض الوسائل والأدوات لیسد بها ذلک النقص الذی یشوب قدرته، فهو یستعین بالمطرقه لدق المسمار، وبالمنشار لنشر الخشب وبالمکائن والآلات الضخمه لنقل الأحمال الثقلیه من مکان إلی آخر، وکل هذه الاُمور هی من آثار الأجسام والجسمانیات.

ولما کان اللّه منزهاً عن الجسمیه، وقدرته غنیه مطلقه خارجه عن الحد والحدود فان فاعلیته لا تعنی القیام بالحرکات أبداً، کما أنّ قدرته المطلقه أغنته عن الاستعانه بالأدوات والآلات. فاللّه سبحانه فاعل قبل أن تخلق الآله ولو کان محتاجاً للآله لعجز عن خلقه لاولی

الأشياء، وبعباره اُخرى فان فعله إبداع. نعم فهو قادر على خلق عالم الوجود أو اعدامه فى طرفه عين أو أقرب بإرادته وقوله (كن) ، كما له خلقه تدريجياً أو فى أيه مدّه نبتغيها إرادته. والذى يجدر الالتفات إليه هنا هو أننا حين نصفه سبحانه بأنّه فاعل فلا ينبغى أن نقارن فاعليته بذواتنا وأنّها تستعين بالادوات والآلات. وبالطبع فانّ هذا الكلام لا يعنى أن ليس للّه من ملائكه تتولى تدبير الأمر والتى وصفها القرآن «. . . فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» .

فقد جرت عادته على ايجاد الحوادث عن طريق الأسباب، لان إرادته شاءت ذلك لامحتاج لها.

۵ - ثم قال الإمام عليه السلام: «بصير إذ لا منظور إليه من خلقه» .

صحيح أن مفرده بصير مشتقه من ماده البصر، إلّاأنّها تطلق بالمعنى المجازى على اللّه سبحانه لا الحقيقى. فكونه بصيراً يعنى عليماً بجميع الأشياء القابله للرؤيه وحتى الأشياء التى ترى ولم تخلق بعد. وبناءً على هذا فان بصيرته تعود إلى علمه اللامتناهى، حيث نعلم جميعاً بأنّ علمه أزلى. وأخيراً فقد تحدث الإمام عليه السلام عن وحدانيته سبحانه فى غناه عن الأنيس فقال: «متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده» (۱)

وتوضيح ذلك هو أنّ الناس وسائر الكائنات الحيه وبحكم كون قدرتها محدوده فى نيل المنافع ودفع الاضرار فانّها مضطره للاستعانه ببنى جنسها ومن غيرها لتشعر بالأمن تجاه بعض الأخطار التى تهددها. وهنا يتفاقم شعور الإنسان بالاستيحاش لوحدته، بينما يأنس بوجود سائر الأفراد إلى جانبه ولاسيما أثناء تعرضه للأخطار والآفات والبلايا والأمراض والأوبئه. وأحياناً يندفع الإنسان الضيق النظر ليقارن اللّه بنفسه فيشعر بالدهشه والذهول كيف يكون اللّه وحيداً قبل ايجاده لهذه المخلوقات، وكيف لا يكون له من أنيس يسكن إليه، وأخيراً كيف يشعر بالاستئناس بهذه الوحده؟ ! غافلاً عن أنّه وجود مطلق لا يحتاج الاستعانه

---

۱ - ۱) هناك احتمالان بشأن «إذ» الوارده فى العباره؛ الاحتمال الأول: هل هى ظرفيه تشير إلى عدم وجود شىء خلق فى الأزل ولم تكن سوى ذاته المقدسه ليأنس بها ويستوحش لفقدها؟ أم إن «إذ» هنا بمقام التعليل، يعنى كان وما زال واحداً لأنّه لم يكن هناك من وجود، حيث لا يحتاج إلى أحد؟ يبدو أنّ الاحتمال الثانى هو الأقوى. كما إن «لا» فى قوله «لا يستوحش» زائده وردت للتأكيد، بينما ذهب البعض إلى أنّها جمله استئنافيه.

بأحد، وليس له من خشيه لعدو ليستعين عليه بظهير، كما ليس له من صنو يستأنس به. ولذلك كان وسيكون متوحداً.

ويتضح ممّا ذكرنا سابقاً أن لمفرده «المتوحد» مفهوم يختلف عن مفهوم «الواحد» و «الأحد» .

تأمّلات

اشاره

لقد تضمنت هذه العبارات العميقه المعانى والعظيمه المضامين عدّه معطيات ودروس قيمه من شأنها حل أغلب المشاكل العقائديه على مستوى «معرفه اللّه وأسمائه وصفاته» ومنها:

١ – علاقه الخلق بالخالق ومسأله «وحده الوجود» !

لقد كثر الكلام فى أوساط الفلاسفه والعلماء بشأن كيفيه الرابطه بين الخالق والمخلوق، فقد أفرط البعض منهم حتى اعتقد بأنّ الخالق هو عين المخلوق إثر رؤيتهم القائمه على أساس وحده الوجود والموجود. فهم يقولون ليس هنالك أثر من وجود شخصى واحد فى عالم الوجود وكل ماسواه ترشحات من ذاته، أو بتعبير آخر: هناك شىء واحد فقط أمّا الكثره والتعدد فهى خيالات وظنون وسراب يحسبه الظمآن ماء. أحياناً يستعيضون عن الوحده والاتحاد بقولهم بالحلول على أنّه ذات حلت فى كافه الأشياء وتتخذ لها شكلاً فى كل وقت بينما يشعر الجهال بالازدواج والحال ليس الكل إلّاشىء واحد لا غير. (١)وزبده القول أنّهم يرون عالم الوجود بمثابه بحر وقطراته سائر الموجودات. وبعباره أُخرى فان أى ازدواجيه فى هذا العالم ليست سوى ضرباً من الخيال والوهم. بل يعتقد البعض منهم أنّ الفرد لا يعدّ صوفياً

---

١ – ١) هذه هى عقيده أغلب المتصوفه، وشاهد ذلك العباره المشهوره التى يطلقها زعماء هذه الفرقه «إنى أنا اللّه» وأعظم من ذلك ما يرددوه من قولهم «سبحانى ما أعظم شأنى» ، امّا البعض الآخر فقد نظم أبياتاً من الشعر وصرح فيها بقوله «أن الصنميه والوثنيه هى ذات العبوديه» ! كما ورد فى الأشعار الطائشه للمولوى التى تصور اللّه بشكل صنم عيّار (وهو عباره عن موجود مشكوك) يتلبس يوماً بهيئه آدم! ويوماً بهيئه نوح وآخر موسى وعيسى! وأخيراً بشكل محمد صلى الله عليه و آله كما يتلبس بهيئه على وسيفه ذو الفقار! وبالتالى بشكل منصور الذى اعتلى أعواد المشنقه! (نقلاً بتلخيص عن العارف الصوفى وماذا يقولان / ١١٧) .

حقيقياً مالم يؤمن بوحده الوجود والموجود، وذلك لأنّ وحده الوجود تشكل الركيزه الأصليه لقضيه التصوف!

وبالطبع فانّ بعض كلماتهم يمكن حملها على المعانى الصحيحه والصائبه من قبيل أنّ الوجود الحقيقى القائم بالذات فى العالم واحد وكل ما سواه تابع له مستمد وجوده منه (كما أوردنا ذلك سابقاً فى التشبيه بالمعانى الأسميه والحرفيه) أو كل ما عدا الذات الإلهيه المقدسه - الوجود المطلق من جميع الجهات - يمثل موجودات صغيره ضئيله ليس لها شأناً يذكر ولكن لا يعنى ذلك أنّها لا تمتلك وجوداً واقعياً حقيقياً. ولكن الذى لا شك فيه هو أنّ بعض أقوالهم وعقائدهم لا يمكن تبريرها والتماس التفسير الصائب لها، فهم يصرحون بأن ليس فى عالم الوجود أكثر من وجود واحد وكل ما سواه سراب وخيال، وأبعد من ذلك تصريحهم بأنّ الوثنيه وعباده الأصنام لو خرجت عن شكلها المحدود فهى عين عباده اللّه، لأنّ كل العالم هو، وهو كل العالم. فهذا الكلام يستتبع لوازم فاسده ليست بخافيه على أحد على ضوء العقائد والتعاليم الإسلاميه، ناهيك عن تعارضها والوجدان بل البديهيات وانكارها للعله والمعلول والخالق والمخلوق والعابد والمعبود، وذلك لأنّه لم يعدّ هناك من مفهوم للفارق بين المعبود والعبد والشارع والمكلف، بل حتى الجنّه والنار وأهلهما، فكلها واحده وكلها عين ذاته وما هذه الكثره والتعدد الا وهم وخيال ولو أزيلت هذه الغشاوه عن أبصارنا فسوف لا نرى إلّا وجوده سبحانه! إلى جانب ذلك فان من لوازم ذلك القول بجسميه اللّه والحلول وما إلى ذلك. وعليه فعقائدهم لا تنسجم مع الوجدانيات والأدله العقليه ولا تتفق مع العقائد الإسلاميه وتعاليم القرآن الكريم، ومن هنا انبرى المرحوم المحقق اليزدى (ره) - الفقيه المعروف - ليكتب فى عروته الوثقى فى مبحث الكفار: «لا إشكال فى نجاسه الغلاه (۱)والخوارج والنواصب وأمّا المجسِّمه والمجبِّره والقائلين بوحده الوجود من الصوفيه إذا التزموا بأحكام الإسلام فالأقوى عدم نجاستهم إلّامع العلم بالتزامهم بلوازم مذهبهم من المفاسد» (۲).

۱- ۱) «الغلاه» هم المغالون فى الأئمه عليهم السلام ولا سيما على عليه السلام فعدوه هو اللّه أو أنّه اتحد به. و «الخوارج» هم أصحاب النهروان الذين أسماهم النبى صلى الله عليه و آله بالمارقين وقد قتلهم الإمام شر قتله فى النهروان. وأمّا «النواصب» فهم أعداء أهل البيت عليهم السلام.

۲- ۲) العروه الوثقى، [۱] بحث نجاسه الكافر، المسأله ۲.

وتتضمن المسأله أمرين مهمين يجدر الإلتفات إليهما: أحدهما عطف أصحاب عقيده وحده الوجود على المجبره والمجسمه وجعل الجميع بمنزله واحده، والآخر بان عقائدهم تنطوى على مفاسد دينيه إذا التزموا بها خرجوا من ربقه الإسلام وإن لم يلتزموا بها فهم مسلمون. فالكلام يفيد بما لا يقبل الشك أنّ مذهب هؤلاء يتصف ببعض المفاسد التى يؤدى الالتزام بها إلى الخروج عن صف المسلمين. أمّا الجدير بالذكر هو أنّ كافه العلماء الذين كتبوا حاشيه على العروه الوثقى - حيث جرت عاده العلماء الكشف عن اجتهادهم وقدره استنباطهم للأحكام الشرعيه من مصادرها المقرره على كتابه تعليقه على العروه الوثقى - قد أقروا بما أورده صاحب العروه أو أضافوا لما ذكره بعض القيود (من قبيل قولهم بما لا يوجب إنكار التوحيد والرساله) (۱).

وللوقوف على عمق المفاسد التى انطوت عليها هذه المسأله، نرى من الضرورى هنا الإشاره إلى نموذج ورد فى الدفتر الرابع للشاعر المثنوى حين نقل قصه طويله بشأن قول «بايزيد» سبحانى ما أعظم شأنى، فقد واجه اعتراضاً من صحبه، فقال لهم: «لا إله إلّاأنا فاعبدون» فقالوا له ما تقول؟ ! قال: سأقول ذلك ثانيه فاحملوا السكاكين واطعنونى بها. فشهر صحبه سكاكينهم وجعلوا يطعنونه، إلّاأنّهم شعروا بأن كل طعنه كانت تمزق أجسادهم لا جسده. فهذه الاسطوره الخرافيه من شأنها الإشاره إلى مدى الاندفاع والتيه الذى بلغه أصحاب هذا المسلك.

وأخيراً نختتم هذا الموضوع بما أورده أحد المعاصرين من شرّاح نهج البلاغه إذ قال بهذا الخصوص: انّ هذا المذهب (القائل بوحده الوجود بمعنى وحده الموجود) إنّما يتنكر لكافه القوانين العقليه والأُسس الوجدانيه وروح الأديان الإلهيه، ويرفع من شأن عالم الوجود ليبلغ به المرتبه الوجوديه الإلهيه أو ينزل بالوجود الإلهى إلى الحضيض فيسويه بسائر مخلوقاته، ويبدو أن مثل هذا المذهب إلى الأذهان والأذواق والهروب من الإشكالات أقرب منه إلى التعقل والالمام بالواقعيات. (۲)

۱- ۱) للوقف على المزيد راجع الكتاب مصباح الهدى ۱/۴۱۰ للمرحوم آيه الله الشيخ محمد تقى الآملى (الفقيه والفيلسوف المعروف) و كذلك تقريرات المرحوم تقريرات المرحوم آيه الله الخوئى ۳/۸۱-۸۲.

۲- ۲) ترجمه و تفسير نهج البلاغه، الاستاذ الجعفرى ۲/۶۴.

۲ – انحراف الجهال عن حقیقه صفات اللّه

لو تأملنا بدقّه وأجلنا الفکر فی کلماته علیه السلام لاکتشفنا مدی قطعه الطریق أمام أی انحراف عن مبدأ التوحید وحقیقه صفات اللّه، واتضح لدینا المفهوم الحقیقی لقوله سبحانه وتعالی «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِیدِ» (۱)و «وَهُوَ مَعَکُمْ أَیْنَما کُنْتُمْ» (۲)و «وَما یَکُونُ مِنْ نَجْوی ثَلاثَهٍ إِلّا هُوَ رابِعُهُمْ» (۳)و «اللّهُ نُورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ» (۴)و «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ یَحُولُ بَیْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ» (۵)وما إلی ذلک من المضامین القرآنیه الشریفه.

فهذه المسأله وإضافه لاکمالها الأبحاث المتعلقه بوحده الوجود – بمعناها الصحیح – من شأنها أن تقف حائلاً أمام أی انحراف فی فهم الصفات الإلهیه. إلّاأنّ أصحاب الضلاله قد وطأوا وادیاً لا یجر علیهم سوی الخجل والخیبه، ومنهم طائفه «المجسمه» التی أضفت صفات الممکنات علی اللّه تبارک وتعالی فصوروه کجسم من الأجسام وقد انطوی علی بعض الأعضاء من قبیل الجسم والید والرجل والشعر المجعد ومن باب أولی أن یحدوه بالمکان والزمان فذهب البعض إلی إمکانیه رؤیته سبحانه فی الدنیا، بینما اقتصر بها البعض الآخر علی الآخره.

فقد قال المحقق الدوانی – من مشاهیر الفلاسفه – طبق نقل بحار الأنوار – أنّ: «المشبهه منهم من قال: إنّه جسم حقیقه، ثم افترقوا فقال بعضهم: إنّه مرکب من لحم ودم وقال بعضهم: هو نور متلألیء کالسبیکه البیضاء، طوله سبعه أشبار بشبر نفسه، ومنهم من قال: إنّه علی صوره إنسان، فمنهم من یقول: إنّه شاب أمرد جعد قطط، ومنهم من قال: إنّه شیخ أشمط الرأس» . (۶)

والأدهی من ذلک أنّهم قالوا ببعض الصفات الجسمیه للّه سبحانه من خلال ما نقلوه من

۱– ۱) سوره ق / ۱۶. [۱]

۲– ۲) سوره الحدید / ۴. [۲]

۳– ۳) سوره المجادله / ۷. [۳]

۴– ۴) سوره النور / ۳۶. [۴]

۵– ۵) سوره الانفال / ۲۴. [۵]

۶– ۶) بحارالأنوار ۳/۲۸۹. [۶]

روایات عن النبی صلی الله علیه و آله - وهی روایات موضوعه بالطبع - وصحیحه. ومن ذلک أنّه سئل ابن عباس: هل رأی محمد صلی الله علیه و آله ربّه؟ قال: بلی، فسئل: کیف رآه؟ قال: رآه علی کرسی ذهبی مفروش بالذهب ویحمله أربعه من الملائکه فی حدیقه خضراء (۱).

وبغض النظر عمّا سبق فقد شحن «صحیح البخاری» و «سنن ابن ماجه» وغیرها بالروایات التی صرّحت بأنّ اللّه سیری فی یوم القیامه (۲)، حتی أنّ بعض الروایات صرّحت بأنّ أهل الجنّه سیرونه کما یری القمر بدراً (۳)والحق أنّ مثل هذه الروایات دفعت بالکثیر من علماء العامه للاعتقاد برؤیه اللّه یوم القیامه والاستماته فی الدفاع عن هذه العقیده. بینما هذا القرآن یهتف آناء اللیل والنهار «لا تُدْرِکُهُ الأَبْصارُ» (۴)وقد خاطب سبحانه کلیمه موسی علیه السلام قائلاً «لَنْ تَرانِی» (۵)ونعلم بأن «لن» نافیه أبدیه. وقد تصدی الإمام علی علیه السلام لبیان هذه المسأله فی خطبه الأشباح، فقال علیه السلام: «والرادع أناسی الأبصار عن أن تناله أو تدرکه أو تبصره» (۶). کما قال علیه السلام فی خطبه اُخری ببلاغته وفصاحته الجلیه: «الحمد للّه الذی لا تدرکه الشواهد ولا تحویه المشاهد ولا تراه النواظر ولا تحجبه السواتر» (۷). وناهیک عمّا تقدم فان هذه العقائد تمثل مخالفه صریحه لما یحکم به العقل؛ وذلک لأنّ الرؤیه لو کانت جائزه علی اللّه لکان جسماً له مکان وجهه، الأمر الذی یعنی محدویته وتغیره وبالتالی سلبه وجوب الوجود وجعله من ممکناته. وهنا یأتی دور عبارات أمیر المؤمنین الإمام علی علیه السلام ومنها العباره السابقه لتکون کالشمس فی رابعه النهار فتمیط اللثام عن الحقائق وتسحق العقائد الباطله والخرافیه وتستعرض الدروس القیمه فی التوحید ومعرفه الصفات الإلهیه. ولما جرت العاده أن یقابل

۱- ۱) توحید ابن خزیمه / ۲۱۷ ([۱]طبق نقل بحوث فی الملل والنحل) ۱ / ۱۴۵.

۲- ۲) صحیح البخاری ۶ / ۵۶. تفسیر سوره النساء؛ سنن ابن ماجه ج ۱ مقدمه الباب ۱۳ ح ۱۷۷.

۳ - ۳) للوقوف علی هذه الروایات الموضوعه یقیناً وکذلک تفنید هذه الروایات واستعراض الأدله التی تضمنتها الآیات والروایات المعتبره التی صرّحت باستحاله رؤیه اللّه فی الدنیا والآخره، راجع من التفسیر الموضوعی للقرآن نفحات القرآن ۴/۲۴۱ - ۲۵۱. [۲]

۴- ۴) سوره الانعام / ۱۰۳. [۳]

۵- ۵) سوره الاعراف / ۱۴۳. [۴]

۶- ۶) نهج البلاغه، الخطبه ۹۱. [۵]

۷- ۷) نهج البلاغه، الخطبه ۱۸۵. [۶]

کـل إفراط بتفریـط فقـد انبرت طائفه بوجه المجسـمه التی نزلت باللّه سـبحانه إلی مرتبه الجسم فاعتمـدت عقیـده التعطیل لتقول باسـتحاله معرفه اللّه لاـ علی مسـتوی کنه ذاته ولاـ أوصافه، ولا تحسن سوی المفاهیم السـلبیه من صـفات اللّه، فکل ما نفهمه من قولنـا أنّه عـالم هو أنّه لیس بجاهـل، امّـا عـالمیته المطلقه فهی خـافیه علینـا تمامـاً، وعلیه فمن مواضع فخر الإنسان أن یودع مسأله معرفه اللّه بوتقه النسـیان ولاـ یقترب من هـذا الوادی الـذی ینطوی علی ظلمـات دامسه ویتنـاقض والتعالیم القرآنیه المسـلمه التی تقودنا إلی معرفه اللّه.

ونختتم بحثنا بعبارات اُخری أوردها الإمام علیه السـلام فی نهج البلاغه بهذا الخصوص فقال: «لم یطلع العقول علی تحدید صفته ولم یحجبهـا عن واجب معرفته فهو الـذی تشـهد له أعلام الوجود علی إقرار قلب ذی الجحود تعالی اللّه عمّا یقول المشـبهون به والجاحدون له علواً کبیراً» (۱).

فـالحق أنّ هـذا التعبیر هو الخط المعتـدل الفاصل بین الإفراط والتفریط (المشـبهه والمعطله) فی معرفه اللّه. هـذا وقـد شـحن نهج البلاغه بالکلمات البلیغه الرائعه التی تضـمنتها خطبه علیه السـلام بشأن صـفات اللّه والسبیل الصـحیح لتوحیده سبحانه، وسنتعرض فی أبحاثنا القادمه لخطبه علیه السلام بهذا الخصوص.

۳ – نفی الحدوث الذاتی والزمانی للذات القدسیه

تفیـد عباراته علیه السـلام بهـذا الشأن أنّ الـذات الإلهیه منزهه عن الحدوث الذاتی والحدوث الزمانی. والمراد بالحدوث الزمانی هو وجود الشـیء فی الزمان، أو بتعبیر آخر مرور المـدّه الزمانیه علی شـیء لم یکن موجوداً ثم یوجـد. وهذا هو المعنی المتصور بعـد خلقه عـالم الماده؛ لانّ الزمان انبثق من خلال خلقه العالم المادی بحیث أصـبح هناک مفهوم للحـدوث والعـدم الزمانی. أمّا الحدوث الذاتی فالمراد به الشیء الحادث فی ذاته بغض النظر عن ظهور عالم الماده، أو

۱- ۱) نهج البلاغه، الخطبه ۴۹. [۱]

بتعبیر آخر لا ـ یترشح وجوده من باطن ذاته، بل یکون تابعاً ومعلولاً ـ لوجود آخر، ومن المسلم به أن لیس من سبیل لهذین الحدوثین إلی الذات المقدسه الواجبه الوجود فی الماضی والمستقبل، بل وجوده هو الوجود الاصلی (علیک بالدقه والتأمل) .

۴ – هل یصح اطلاق لفظ «الموجود» علی اللّه؟

هل یمکن اطلاق لفظ «الموجود» علی اللّه؟ یبدو من تعبیره علیه السلام: «موجود لا عن عدم» إمکانیه اطلاق هذا اللفظ علی الذات الإلهیه المقدسه، ولکن من المسلم به أن المفهوم الأصلی لهذا اللفظ الذی ورد بصیغه اسم المفعول والذی یعنی أن الآخر هو الذی منحه الوجود، لا یصدق علی ذاته المقدسه، فالموجود هنا یشتمل علی مفهوم آخر وهو یتضمن معنی ذی الوجود؛ وهو المعنی الذی صرّح به فی بعض شروح نهج البلاغه، بحیث یطلق الموجود تاره علی الماهیات الممکنه التی اتصفت بالوجود، کما یطلق تاره اُخری ویراد به أصل الوجود (۱). وقد ورد هذا التعبیر (الموجود) فی بعض روایات أصول الکافی أیضاً. (۲)

۱- ۱) مفتاح السعاده فی شرح نهج البلاغه ۱ / ۱۳۹. [۱]

۲- ۲) أصول الکافی /۱ باب أدنی المعرفه، ح ۱؛ أیضا ۱، باب النهی عن الصفه، ح ۱؛ أیضاً ۱، باب جوامع التوحید، ح ۴.

القسم الرابع: تصدر الكلام بشأن خلق العالم

اشاره

«أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً بِلا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا وَلا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا وَلا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا وَلا هَمامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيها أَحالَ الْأَشْياءَ لِأَوْقاتِها وَلاَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفاتِهَا وَغَرَّزَ غَرائِزَهَا وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا عَالِماً بِهَا قَبْلَ ابْتِدائِها مُحِيطاً بِحُدُودِها وَانْتِهائِها عارِفاً بِقَرائِنِها وَأَحْنائِها» .

الشرح والتفسير لقد تضمنت بدايه هذه الخطبه المهمه إشارات دقيقه عميقه المعانى إلى معرفه اللّه وصفاته والتى تمثل أولى مراحل المعرفه الإنسانيه، ثم طرق عليه السلام بعد ذلك إلى خلق العالم وكيفيه ابتداء الخلق والعجائب التى انطوت عليها السماء والأرض، وإن كانت مكمله للأبحاث السابقه بشأن صفات اللّه. فقد قال عليه السلام: «أنشأ (۱)الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً بلا رويه (۲)أجالها (۳)ولا تجربه استفادها ولا حركه أحدثه ولا همامه (۴)نفس اضطرب فيها.

۱- ۱) «أنشأ» من ماده «إنشاء» بمعنى الايجاد وان ذكروا لها عدّه معان.

۲- ۲) «رويه» بمعنى الرى من الماء كما ورد فى مقاييس اللغه، الا انّها تستعمل بمعنى التفكير المصحوب بالدقه. وكأنه يروى فكره بشأن تلك المسأله، أو رى تلك المسأله بفكره واداء حق التفكير.

۳- ۳) «أجال» من ماده جولان بمعنى الحركه والتجوال.

۴- ۴) «همامه» : لقد ذكر شرّاح ومفسروا نهج البلاغه [۱]لهذه المفرده عدّه معان. فقد عناها البعض بالرغبه القطعيه الباطنيه بالشىء بحيث ينزعج لفقدانها (شرح ابن ميثم البحرانى ۱ / ۱۳۲) . [۲] بينما ذهب البعض الآخر إلى أنها تعنى الترديد فى القيام بعمل (منهاج البراعه ۱ / ۵۱) . [۳] وقال آخرون انّها تعنى الاهتمام بالشىء (شرح مغنيه۱/۲۷) . [۴] وقال ابن أبى الحديد فى شرحه المعروف لنهج البلاغه: وقوله عليه السلام: «ولا همامه نفس اضطرب فيها» فيه رد على المجوس والثنويه القائلين بالهمامه الذين يعتقدون بأنّ النورالأعظم حين هم بمجابهه الظلمه بدا عليه الشك والترديد فخرج من ذاته بشىء يسمى بالهمامه. أمّا فى اللغه - كما ورد فى لسان العرب - فالهمامه تعنى الضعف والوهن والفتور ولذلك يطلق على كل رجل أو امرأه عجوز اسم «هِم» و «هِمه» . ويبدو ممّا ذكر أن «الهمامه» الوارده فى العباره إنّما تعنى الضعف والعجز فى العزم والإراده بحيث يتعذر على الشخص اتخاذ القرار، أو أنّه يتخذ القرار بصعوبه.

فالإمام علیه السلام یبین البون الشاسع بین الخلق الإلهی والأعمال والأفعال التی تصدر عن المخلوقات. فالإنسان مثلاً إذا أراد أن یقوم بعمل ولم یکن لهذا العمل من سابقه وظن فکره وتأمله لینطلق إلیه، وإن کان له سابقه احتذی بتجربته وتجارب الآخرین کما یعمد إلی خزینه الذهنی والفکری بشأن ترتیب مقدمات العمل بغیه التوصل إلی نتائجه وکیفیه أدائه، وأحیاناً یتیه فی ترددیه وحیرته بحیث یحکم رأیه ویقوم بالعمل علی أساسه. ولیس هنالک من سبیل لأی من هذه الحالات والاحتمالات للذات الإلهیه المقدسه، فما من حاجه إلی الفکر والتأمل ولا إلی التجارب السابقه ولا الحرکه الفکریه استناداً إلی ترتیب المقدمات والحصول علی النتائج ولا الترددید والاضطراب فی الأعمال والقرارات. فلیس وجود الشیء إلّاإرادته «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ» (۱). بعباره اخری فان هذه الاحتمالات الأربع إنّما تتعلق بحصیله أعمال الأفراد الذین له حظ محدود من العلم والقدره، ولازمه ذلک الحاجه وأفکار الآخرین وتجاربهم والشعور بالاضطراب والقلق. ولا سبیل لهذه الحالات إلی من خرج علمه وقدرته عن الحدود حین الخلق.

ویتّضح بجلاء ممّا قیل أنّ المراد بالحرکه فی العباره المذکوره إنّما هی حرکه الفکر فی باطن النفس. ولکن هناک معنی آخر ساقه بعض المفسرون للحرکه علی أنّ المراد بها الحرکه الجسمیه الخارجیه التی تعدّ من لوازم الأجسام واللّه أعظم وأجل وأسمی من الجسم والجسمانیات. ویبدو أن المعنی الأول أنسب من الثانی؛ لأنّ الحالات الثلاث الأُخری التی وردت قبل وبعد العباره المذکوره کلها مرتبطه باتخاذ القرار والتفکر والتأمل قبل الإتیان بالعمل.

وزبده الکلام أنّ أفعال اللّه لیست من جنس أفعال العباد وتختلف عنها تماماً، وذلک لأنّ

۱- ۱) سوره یس / ۸۲. [۱]

أفعاله سبحانه تستند إلى علمه المطلق بمصالح الأشياء ومفاسدها ومعرفته الكامله بالنظام الأحسن للخلقه والقدره التامه على جميع الأشياء، وإرادته قاطعه تامه لا لبس فيها ولا ترديد ولا تأمل وتفكير فى إفاضه الوجود على الموجودات، وإرادته كانت وما زالت نافذه فى الخلق.

ثم أشار عليه السلام إلى كيفيه خلق الموجودات والتدبير الإلهى فى ظهور الأشياء طبق الخطط والبرامج المنظمه فقال عليه السلام: «أحال الأشياء لأوقاتها» أى أنّ اللّه جعل لخلق كل موجود وقتاً معيناً (وذلك لأنّ خلقه قائم على أساس التدريج والتخطيط الزمانى بغيه إيضاح عظمه تدبيره وقدرته الفريده الفائقه) . فلما فرغ من الإشاره إلى التصنيف الزمانى لخلقه الموجودات، تطرق عليه السلام إلى نظامها الخاص الداخلى والتركيبى فقال عليه السلام: «ولاءم (۱)بين مختلفاتها» . وهذا من عجائب عالم الخلقه، فقد ألف اللّه سبحانه بين مختلف الموجودات لتبدو متسقه وكأنّها شىء واحد، فقد لائم بين البارد والحار والظلمه والنور والموت والحياه والماء والنار. لقد خلق النار من الشجر الأخضر وخلق الإنسان والحيوان والنبات مركباً من مواد تامه الاختلاف ذات طبائع متنوعه.

وأبعد من ذلك فقد أوجد رابطه عميقه محكمه بين الروح والجسم وهما ينتميان إلى عالمين مختلفين تماماً؛ أحدهما مجرّد ونورانى وشفاف للغايه والآخر مادى وظلمانى وخشن للغايه. ثم قال عليه السلام: «وغرز (۲)غرائزها» .

فقد أودعها اللّه سبحانه طبائعها ثم جعل لكل موجود طبيعته والهمه غريزته. وهذا فى الحقيقه من الحكمه الإلهيه البالغه التى أودعت كل موجود صورته الطبيعيه المنبعثه منه دون الحاجه إلى محرك خارجى، ولولا الدوافع الذاتيه لهذه الموجودات لانقطعت استمراريه

۱- ۱) «لام» و «لائم» من ماده «لأم» بمعنى الجمع والإصلاح وضم شىء إلى شىء آخر والملائمه بينهما، ومن هنا اطلق على الدرع اسم «لأمه» على وزن «رحمه» لالتحام حلقاتها وتداخلها مع بعضها.

۲- ۲) «غرّز» من ماده «غرز» على وزن «قرص» تعنى فى الأصل غرس الأُبره أو الجعل والادخال، ثم اطلقت فيما بعد على الطبائع التى أودعت الإنسان أو سائر الكائنات الحيه، وكأنّ هذه الطبائع بمثابه البذور التى غرست فى أرض الوجود الإنسانى.

الأشياء ولسادها الاضطراب والفوضى. وهناك اليوم تعبيران مختلفان بشأن هذه الدوافع الذاتيه فى الإنسان أو سائر الموجودات، فأحياناً يطلق عليها اسم الفطره وأنّ معرفه اللّه مودعه فى الفطره الإنسانيه. . وأحياناً اُخرى يعبر عنها بالغريزه. فمثلاً- يقولون أنّ للإنسان غريزه جنسيه، أو يقولون بأن لحركات الحيوانات عموماً صبغه غريزيه. وهذا فى الواقع اصطلاح استعمله العلماء بهذا الشأن. أحدهما بشأن الدوافع التى تتسم بالبعد الفكرى (الفطره) والآخر بخصوص تلك التى ليس لها بعداً فكرياً أو لها بعد عاطفى (الغريزه) . إلّاأنّ كليهما يعنى الخلقه على أساس المعنى اللغوى.

ثم قال عليه السلام: «والزمها (١)أشباحها» . وقد تضاربت أقوال المفسرين - لنهج البلاغه - بشأن هذه العباره، فذهب البعض ومنهم ابن أبى الحديد الذى قال ان الضمير المنصوب فى «الزمها» عائد إلى الغرائز؛ أى ألزم الغرائز أشباحها، أى أشخاصها لأنّ كلا- مطبوع على غريزه لازمه، وبالنتيجه فان العباره تأكيد على ثبوت غرائز الموجودات. بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بالعباره وجود التشخصات الخاصه لكل موجود، أى أنّ اللّه سبحانه قد وهب كل موجود بعض الخصائص والمميزات، وبعد أن كان لها بعداً كلياً فى علم اللّه فقد تبلورت فى الخارج على هيئه جزئيات وأشخاص وعلى ضوء هذا التفسير فان الضمير فى ألزمها يعود إلى (الإشياء) كما ذكر البعض كلا التفسيرين على نحو الاحتمال. ولكن لما كان التفسير الأول لا يتضمن انسجام الضمير وما ذهب إليه، إضافه إلى كون العباره تتخذ طابع التأكيد لا بيان موضوع جديد، فانّ الذى يبدو أنّ التفسير الثانى أصح وأصوب من التفسير الأول. وتوضيح ذلك أن اللّه تبارك وتعالى قد وهب كل موجود نوعين من الخصائص. الخصائص التى أودعت باطن ذاتها والتى عبر عنها الإمام عليه السلام بالغرائز، والخصائص فى الجوانب الظاهريه من قبيل الزمان والمكان وسائر الجزئيات والتى عبر عنها الإمام عليه السلام بقوله «ألزمها أشباحها» وعلى هذا

---

١ - ١) «أشباح» جمع «شبح» طبق ما أورده أغلب أرباب اللغه بمعنى الشخص فى الأصل، كما وردت بمعنى ظهور الشىء واتضاحه، ومن هنا يطلق الشبح اليوم على الموجود الذى يتراءى ظله ثم يظهر فجأه.

الأساس يكون الحق واستناداً لحكمته البالغه فی افاضته للخصائص الباطنيه والظاهريه لكل موجود ليقوم بوظائفه الخاصه به على ما يرام ويتميز عن سائر الموجودات.

تنبيه

الهدايه الفطريه والتكوينيه لكافه موجودات العالم

لقد تضمنت عبارته عليه السلام إشاره لنقطه مهمّه طالما ورد التأكيد عليها كراراً فی القرآن: وهی أنّ لكافه موجودات عالم الخلقه والماده تصنيف زمانی خاص وفی نفس الوقت الذی يحكمها التضاد والاختلاف إلّاأنّها منسجمه مع بعضها البعض ومكمله لها وأنّها مهديه على الدوام طبق نظمها الذاتی الباطنی والظاهری وأنّها تنطلق كقافله منتظمه ومنسجمه نحو هدفها النهائی دون أی تعثر وانحراف، بل تسير إليه على نحو الدقه دون أن تخطأه. فتفتح الزهور وتحمل أوراق الأشجار للفاكهه والثمار فی فصلی الربيع، ذبولهاوجفافها وتساقطها فی فصلی الخريف والشتاء، حركه الشمس فی الابراج الاثنی عشر، تعاقب الليل والنهار، دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وما اودع الإنسان من قوی باطنيه وظاهريه كلها شواهد على الهدايه التكوينيه الإلهيه، والتی صرّح بها القرآن على لسان موسی عليه السلام: «رَبُّنا الَّذِی أَعْطی كُلَّ شَیءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدی» (۱)وقال: «فِطْرَهَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها» (۲)و «وَ إِنْ مِنْ شَیءٍ إِلّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» . (۳)

وهذا فی الحقيقه يمثل آيه من آياته سبحانه فی عالم الوجود التی تجعل الإنسان أكثر معرفه بالهدايه التكوينيه والنظم والتصنيف الزمانی والتأليف بين الاضداد والمختلفات كلما تعمق فی التفكير بهذا العالم.

۱- ۱) سوره طه / ۵۰. [۱]

۲- ۲) سوره الروم / ۳۰. [۲]

۳- ۳) سوره الحجر / ۲۱. [۳]

ثم قال عليه السلام: «عالماً بها قبل ابتدائها محيطاً بحدودها وانتهائها عارفاً بقرائنها (۱)وأحنائها (۲)» (۳).

والواقع أنّ هذه العبارات الثلاث قد جاءت بمثابه دليل أو إيضاح للعبارات السابقه، وذلك لأنّ من أراد أن يخلق موجوداً فی وقته المناسب ويلائم بين الأشياء المختلفه ويودعها غرائزها الباطنيه ولوازمها الظاهريه فانه يحتاج إلى علم جامع كامل من جانب وإلى إحاطه وقدره تامه وشامله من جانب آخر. ولذلك قال عليه السلام: «عالماً بها قبل ابتدائها. . .» ولا يقتصر علمه على ابتدائها وانتهائها فحسب، بل هو عالم محيط بلوازمها وعللها وآثارها أيضاً. ومن المفروغ منه أن من كان عالماً بهذه الاُمور قادراً على الإتيان بها، فان له أن يضع كل شیء فی موضعه ومكانه ويفيض على كل منها لوازمه ويسوقه فی مسيرته الوجوديه إلى كماله المنشود.

تأمّلان

۱ – هل يصطلح بالعارف على اللّه؟

لقد تحفظ بعض مفسری نهج البلاغه على وصف اللّه سبحانه بالعارف. ويبدو أنّ هذا الترديد ينبع من أمرين: الأول ما أورده «الراغب» فی «المفردات» من أنّ المعرفه والعرفان تعنی إدراك الشیء من خلال التفكر والتأمل والتدبر فی آثاره، أو بتعبير آخر إنّما يطلق اسم المعرفه على العلم المحدود الذی يتأتی عن طريق التفكير، ومن المسلم به أنّ العلم الإلهی ليس كذلك. والثانی الحديث الذی روی عن النبی صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أنّ له (تعالى) تسعه وتسعين

---

۱ – ۱) «قرائن» جمع «قرينه» بمعنى المصاحب والرفيق، ولذلك يقال لزوجه الرجل قرينته (الصحاح والقاموس وسائر الكتب اللغويه) ، بينما ذهب بعض شراح نهج البلاغه [۱]كابن أبی الحديد إلى أنّ القرائن جمع قرونه (على وزن معونه) وهی النفس ولكن يبدو المعنى الأول أنسب بالاستناد إلى التعبيرات التی وردت فی الجمله.

۲– ۲) «أحناء» جمع «حِنْو» على وزن فعل «وحنو» على وزن حرف وتطلق على كل شیء فيه اعوجاج وانحناء – على ضوء ماورد فی المقاييس ولسان العرب – كعظم الفك والاضلاع. ثم وردت بمعنى الجوانب أيضاً (وذلك لأن جوانب وأطراف الأشياء غالباً ما تشتمل على انحناءات) .

۳– ۳) لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الضمائر التی وردت فی هذه العبارات إنّما تعود إلى الأشياء لا الغرائز كما صرح بذلك بعض شرّاح نهج البلاغه؛ [۲] وذلك لعدم وجود الانسجام بين الاحتمال الثانی ومضمون الجمله.

اسماً من أحصاها دخل الجنه» حيث يجمع العلماء على أنّ اسم العارف لم تكن وارده ضمن هذه التسعه والتسعين إسماً (۱)إلّاأن الدراسه الإجماليه تفيد أنّ هذا الوصف قد اطلق كراراً على اللّه فى الروايات الإسلاميه، وبالاضافه إلى نهج البلاغه الذى تعرض هنا لهذا الأمر بصوره وصفيه وفى موضع آخر بصوره فعليه، فقد ورد هذا الوصف كثيراً فى الروايات التى نقلها أصول الكافى. (۲)

ويشير هذا الأمر إلى أنّ مفرده المعرفه وان كانت فى الأصل تعنى المحدوديه أو الحاجه إلى التفكر والتدبر، غير أنّها اتسعت أثر كثره الاستعمال حتى صارت تطلق على كل نوع من العلم والمعرفه، وإن لم تكن وليده الفكر والتدبر.

أمّا بشأن الروايات المرتبطه بالتسع وتسعين اسماً للّه، فينبغى القول أنّ هذه الروايه لا تقصر الأسماء على تسعه وتسعين أبداً، بل هى تشير فى الحقيقه إلى صفات اللّه وأسمائه الحسنى، ولذلك صرّحت بعض الروايات بألف اسم للبارئ سبحانه، وأخيراً أى دليل أعظم من أن يستفيد الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغه من هذا الاسم أو مشتقاته بالنسبه للّه وهو الأعرف والأعلم أكثر من غيره بخصوص أسماء اللّه وصفاته.

۲ – كيفيه علم اللّه بالموجودات قبل ايجادها

إنّ أحد أعقد المباحث الفلسفيه والعقائديه هو بحث «علم اللّه بالموجودات قبل ايجادها» . فاننا نعلم بأنّ اللّه سبحانه عالم بالحوادث التى ستقع، وهذا ما ورد التأكيد عليه فى الآيات القرآنيه الشريفه، وهو ما ورد فى العباره المذكوره، ومن جانب آخر فان علم اللّه ليس من قبيل «العلم الحصولى» ؛ أى ليس هنالك من انعكاس للصوره الذهنيه للأشياء فى ذاته؛ وذلك لأنّه ليس له من «ذهن» كالمخلوقات، فعلمه لا يتأتى من خلال انعكاس صور الموجودات، بل

---

۱ – ۱) لقد أورد ابن ميثم هذا الموضوع بصيغه اشكال ثم أجاب عنه بان أسماء اللّه أكثر من هذا العدد وقد ذكر عدّه شواهد على مدعاه (شرح نهج البلاغه، لابن ميثم ۱ / ۱۳۷) . جدير بالذكر ان هذا الحديث قد ورد فى الدر المنثور عن صحيح البخارى وصحيح مسلم ومسند أحمد وسنن الترمذى وسائر المصادر الروائيه ۳ / ۱۴۷ (نفحات القرآن ۴ / ۴۶) .
۲– ۲) أصول الكافى ۱ / ۹۱، باب النسبه، ح ۲ وص ۱۱۳، باب حدوث الأسماء، ح ۲.

علمه «علم حضوری» ؛ أی أنّ المخلوقات حاضره عنده، ونعلم أن لیس هناک من معنی للعلم الحضوری بشأن الأشیاء التی لم تظهر للوجود؛ بل هذا الإشکال وارد حتی بخصوص الموجودات التی زالت وانعدمت فی الماضی؛ فان کان لنا من علم بها بفضل صورها الذهنیه التی تبلورت فی أعماقنا وأفکارنا. ولکن کیف لمن لیس له ذهن وصور باطنیه ولیس من سبیل للحوادث إلی ذاته المقدسه أن یحیط بها؟ ! علی سبیل المثال: لقد زالت صوره فرعون ورهطه وانقطع تأریخهم، ولیس لنا سوی استحضار صورتهم فی أذهاننا، ولکن ما کیفیه علم اللّه به وهو لیس من قبیل علمنا؟ فهل یمکن القول بأنّه لیس عالماً بالماضی؟ أم لیس له من علم بالمستقبل؟ أبداً لا یمکن ذلک! إذن إن کان علیماً فما کیفیه هذا العلم؟

لقد أثارت هذه المسأله الجدل فی أوساط الفلاسفه والعلماء فقدموا عدّه أجوبه بهذا الشأن، سنقتصر هنا علی الإشاره إلی بعضها:

۱ – إنّ الله کان ومازال عالماً بکافه الأشیاء بذاته التی تعتبر عله لجمیعها، وبعباره اُخری فانّ لذاته أعظم الحضور لدی لذاته، وهذا العلم بذاته هو علم إجمالی بکافه حوادث العالم وموجوداته قبل الایجاد وبعده. وتوضیح ذلک أننا لو علمنا علی نحو الدقه بعله الأشیاء فان مثل هذا العلم سیقود بالنتیجه إلی العلم بنتائجها ومعلولاتها؛ وذلک لأنّ کل عله تشتمل علی کافه کمالات المعلول وزیاده، ولما کان اللّه عله جمیع الأشیاء ویعلمها بذاته ویحیط بها، وفی الواقع فان هذا نوع من الکشف التفصیلی تجاه جمیع الأشیاء من خلال العلم الاجمالی. ویمکن توضیح هذا الکلام بالقول: إنّ الحوادث الماضیه لم تنعدم بالمره أبداً وإنما لها وجود وحضور فی عمق حادث الحاضر. کما أنّ الحوادث المستقبلیه لیست معزوله عن الحوادث الحاضره فهی مرتبطه بها ونابعه منها. وعلی هذا الأساس فانّ الماضی والحاضر والمستقبل إنّما یوجد سلسله من العلل والمعالیل بحیث أنّ العلم باحدی حلقاتها انّما یعنی العلم بما قبلها وما بعدها من حلقات. علی سبیل المثال لو علمنا بدقّه الأوضاع الجویه للکره الأرضیه والعوامل المؤدیه لظهور الأجواء الفعلیه وأحطنا بکافه جزئیات وروابط عللها ومعالیلها، فاننا سنستطیع التعرف بدقه علی أوضاع الأجواء لما قبل أو بعد آلاف السنین؛ وذلک لأنّ ملف حوادث الماضی والمستقبل موجوده فی الحاضر. فالیوم یحمل انعکاساً دقیقاً عن الأمس،

والغـد عن اليوم والعلم التام بجزئيات اليوم بمعنى العلم التام بالحوادث الماضـيه والمسـتقبليه. فاذا التفتنا إلى هذه الحقيقه وهو أنّ اللّه سـبحاه المصـدر الأصـلى لجميع حوادث الأمس واليوم والغـد وأنّ له العلم بـذاته المقـدسه، فان علينا أن نقر بأنّه عالم أيضـاً بحوادث المسـتقبل والحاضـر والماضـى. وبـالطبع فانّ آثار كل موجود مهما كان إنّما تتبع إراده اللّه وأمره، إلّاأنّ سـنته جرت فى منح الموجودات القدره على القيام بفعاليتها، فاذا شاء جردها منها. (۱)

۲ - الإجـابه الثـانيه الـتى يمكن إيرادهـا فى هـذا المجـال أنّه يمكن لعلمنـا تصور الأمس واليوم والغـد، وذلـك لأننـا موجودات محـدوده. أمّا بالنسـبه للّه الـذى لا حدد لذاته فليس هنالك من مفهوم للأمس واليوم والغد لديه، بل إنّ كافه الأشـياء والحوادث حاضره عنده بجميع جزئياتها وخصوصياتها.

ويمكننا الاستشهاد بمثال على هذا الكلام:

افرض أنّ هناك فرداً فى زنزانه مظلمه ليس لها سوى نافـذه صـغيره على الخارج. فاذا مرت قافله من الجمال من هـذه النافذه فانه سيشاهد فى بدايه الأمر رأس وعنق جمل واحد ثم يرى رجليه وذنبه ومن ثم سائر الجمال فى هذه القافله. فصـغر النافذه هو الذى يشـكل السـبب الذى يجعله يعيش حاله من الماضـى والحاضـر والمستقبل، بينما يختلف هذا الموضوع تماماً بالنسبه لذلك الفرد الواقف على سطح فى محيط مكشوف خارج تلك الزنزانه وينظر إلى الصحراء، فهو يرى قافله الجمال معاً خلال حركتها.

---

۱ - ۱) إنّ من أورد هـذا الجواب لحل الإشـكال المـذكور قـد واجه هـذا السؤال: وهو أنّ لازمه هـذا الكلام أنّ ليس للّه من علم بكـثره الموجـودات بوصـف الكـثره قبـل وجودهـا، لأـنّه ليس هنالـك مـن كـثره فى ذاتـه، أو بتعبير آخر، أنّ علمـه متفـاوت بـالموجودات قبـل وجودهـا وبعـده: فقـد كـان سابقـاً على نحو العلم الإجمـالى، ولاحقـاً على نحو العلم التفصـيلى، والعجيب أنّ بعضهم قد اعترف بهذا التفاوت.

القسم الخامس: كيفيه بدايه خلقه العالم

اشاره

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ» .

الشرح والتفسير لقد تناول الإمام عليه السلام بدايه انبثاق الخلق فقال عليه السلام: «ثم أنشأ سبحانه فتق (۱)الأجواء (۲)» وهو يشير إلى شق الطبقات الجويه، ثم فتح جوانبها وأطرافها «وشق (۳)الأرجاء (۴)» وأوجد الفضاء والهواء «وسكائك (۵)الهواء (۶)» . فقد أشير إلى فتق الأجواء ثم ايجاد أطرافها وجوانبها

۱- ۱) «فتق» على وزن مشق بمعنى الشق والضجوه بين شيئين وهى ضد الرتق (كما أورد ذلك الراغب فى مفرداته) . ويقال للصبح «فتيق» ، لأنّه يشق الافق ويظهر، وقال صاحب لسان العرب انّه يطلق «فتيق اللسان» على الفرد الخطيب والفصيح اللسان، لأنّه يتحلى بلسان طلق ذرب.

۲- ۲) «أجواء» جمع «جو» بمعنى - حسب قول المفردات ولسان العرب - الفضاء الحاصل بين السماء والأرض.

۳- ۳) «شق» بمعنى الفتحه فى الشىء، ومن هنا اطلق الشقاق على الاختلاف الذى يحدث بين الناس ويفصلهم عن بعضهم البعض الآخر.

۴- ۴) «أرجاء» جمع «رجا» (دون همزه» تعنى حسب «مقاييس اللغه» أطراف البئر أو أطراف أى شىء آخر، الرجاء بالهمزه فيعنى الأمل. بينما يعتقد البعض من قبيل كاتب «التحقيق» أنّ معناها الأصلى الشىء الذى يرجى وقوعه فى الجوانب الأطراف، ولذلك يطلق على هذه الجوانب والأطراف المرجوه «رجا» دون همزه.

۵- ۵) «سكائك» جمع «سكاكه» على وزن خلاصه، قال صاحب لسان العرب أنّها تعنى الفضاء الواقع بين السماء الأرض، وقال ابن أبى الحديد هى أعلى الفضاء.

۶- ۶) «الهواء» بمعنى الخالى والساقط، ولذلك يطلق لفظ الهواء على كل شىء خالٍ، ومن ذلك الفضاء بين السماء والأرض. وأمّا سبب إطلاق لفظه «الهوى» على الشهوات والنزوات النفسيه فهى أنّها تشكل مصدر سقوط الإنسان فى الدنيا والآخره (مقاييس اللغه، مفردات الراغب، لسان العرب) . ويبدو ان اطلاق هذه المفرده على الغاز اللامرئى المركب من الاوكسجين والاوزون إنّما هو من الاستعمالات الجديده والذى يناسب أيضاً المعنى الأصلى، لأنّه يبدو موضعاً خالياً (و إن ورد بهذا المعنى فى بعض الروايات أيضاً) .

ومن ثم طبقاتها. وتشير العباره بأجمعها إلى أنّ الخلق الأول فى عالم الماده كان خلق فضاء العالم، الفضاء الذى يسعه استيعاب الكرات السماويه والمنظومات وما إلى ذلك، بالضبط كالصفحه الورقيه التى يعدها الرسام الماهر مسبقاً لرسم ما يشاء. ومن هنا يتضح أنّ كلمه «ثم» فى العباره لا- تفيد معنى الترتيب التكوينى، بل تفيد الترتيب والتأخير البيانى؛ لأنّه قد أشير فى العبارات السابقه إلى خلق أنواع الموجودات والكائنات، ومن المتيقن ألا تكون قد أعقبت بخلق الفضاء ثم كريات السماء والأرض. وفى الواقع فقد تضمنت العبارات السابقه أبحاثاً بشأن خلق الموجودات بينما تكفلت هذه العباره شرح تلك الأبحاث وتفصيلها. على كل حال فانّ ظاهر هذه العباره تفيد أن الفضاء أول مخلوق فى عالم الماده، غير أنّ هناك ترديد لدى بعض الفلاسفه والمتكلمين بشأن الفضاء فى أنّه أمر وجودى أم عدمى؟ فهناك من يعتقد كما أنّ الزمان قد ظهر بعد انبثاق الموجودات وحركتها (لأنّ الزمان هو وحده الحركه) فان المكان هوالآخر قد حصل بعد ظهور الأجسام المختلفه ومقارنتها مع بعضها. والحال يتعذر علينا تصور عدم وجود مكان مطلق إثر ظهور أول جسم إلى الوجود. فلو أردنا أن نبنى عماره ذات عدّه طبقات فاننا نحتاج إلى فضاء تشغله تلك العماره كحاجتنا إلى مكان على الأرض نبنيها عليه، وإذا أردنا أن نبنى عماره أكبر فانّها ستحتاج إلى فضاء أوسع. والخلاصه فاننا نؤمن بما أورده الإمام عليه السلام بقوله «ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء وشق الأرجاء وسكائك الهواء» ونوكل الاستغراق فى هذا البحث إلى محله.

تأمّل: هل العالم المادى حادث؟

هناك كلام كثير يدور بين الفلاسفه والعلماء بشأن العالم فهل العالم المادى حادث أم قديم أزلى؟ فالبعض يرى أنّه قديم وأزلى بينما يعتقد الأعم الأغلب أنّه حادث. امّا دليل القائلين بالأزليه والقدم فانما يستند إلى الذات الإلهيه المقدسه القديمه وكل ما سواها فهو حادث ومخلوق وتابع لذاته المقدسه. وأمّا أنصار عقيده حدوث العالم فأحياناً يستدلون بالأدله الفلسفيه على مدعاهم وأحياناً أُخرى بالادله العلميه. فبرهان الحركه والسكون من الأدله

الفلسفيه المعروفه التى تقول بأن عالم الماده دائماً فى حاله حركه وسكون، والحركه والسكون من «الاُمور الحادثه» وما كان معروضاً للحركه والسكون فهو حادث أيضاً. ويمكن ايراد هذا الدليل بتعبير أوسع وأشمل وهو أنّ عالم الماده دائماً فى حاله تغيير، والتغيير والتبدل علامه على الحدوث، لأنّه لو كان أزلياً وهو مسرح على الدوام للتغير والتبدل فان ذلك سيكون جمع بين الحدوث والقدم، أى لابدّ أن نرى التغييرات وهى من الاُمور الحادثه أزليه، وهذا تناقض صريح. ويتضح هنا أكثر فأكثر اقرار هذا الدليل للحركه الجوهريه التى تقول بأنّ الحركه كامنه فى ذات الأشياء، بل هى عين ذاتها؛ لأنّ وجود الحركه هذا الأمر الحادث فى الأزل لا معنى له. ونترك دراسه وتحليل هذا الدليل إلى الأبحاث الفلسفيه الوارده بهذا الشأن. الدليل العلمى فهو الدليل الذى يقول بأنّ العالم فى حاله تآكل دائميه وقد قامت الأدله والبراهين العلميه التى تثبت ذلك، ويصدق هذا الأمر على التيارات والثوابت والأرض وما كان على سطحها. فالتآكل المستمر دليل على أن هناك نهايه وخاتمه لعالم الماده. لأنّ التآكل لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهايه، فاذا قبلنا أنّ للعالم المادى نهايه، يجب أن نذعن بأن له بدايه. لأن الشىء لا يكون أزلياً مالم يكن أبدياً. فالأبديه تعنى اللانهايه، والشىء اللامنتهى ليس بمحدود، وإذا كان ليس بمحدود فلا بدايه له، وعليه فالشىء إذا لم يكن أبدياً سوف لن يكون أزلياً. ويمكن ايراد هذه الكلمه بصيغه اُخرى وهى أنّ العالم لو كان أزلياً وفى حاله تآكل، فلابدّ أن يكون هذا التآكل قد أنهى عمر العالم لأنّ تناهى التآكل يساوى العدم. وبتعبير آخر على ضوء آخر النظريات العلميه أنّ العالم المادى يسير نحو الروتينيه. فالذرات تتلاشى تدريجياً وتتحول إلى طاقه، والطاقه تسير نحو الروتينيه (بالضبط كشعله النار التى توقدها فى غرفه فتتحول ماده النار إلى حراره فتنتشر هذه الحراره تدريجياً فى وسط الغرفه حتى تكون بالتالى شيئاً روتينياً لا أثر له) . وكلما مرت لا نهايه الزمان على العالم ستحصل هذه الحاله؛ أى تحول كافه المواد إلى طاقه وبالتالى تتحول هذه الطاقه الفعاله إلى طاقه روتينيه وباهته.

لكن لا يعنى هذا الكلام أنّ زماناً قد مرّ ولم يكن للّه من خلق وأنّ ذاته الفياضه قد توقفت عن هذا الفيض، بل بالعكس فان عمليه الخلق مستمره، إلّاأنّ المخلوقات كانت دائماً تشهد حاله التغير والتبدل وأنّ جميع هذه المخلوقات تابعه لذاته المقدسه، أو بتعبير آخر كان له

حدوثاً ذاتیاً لا زمانیاً. وذلک لعدم إمکانیه تصور الحدوث الزمانی للجمیع. وما ورد فی الروایه التی قالت: «کان اللّه ولا شیء معه» (۱)إنّما یراد بها أنّه لم یکن شیء مصاحباً لذاته بل مخلوقاً لها (لابدّ من التأمل) .

۱- ۱) توحید الصدوق / ۶۶، کما ورد شبیه هذا المضمون فی / ۱۴۵ - ۲۲۶.

القسم السادس: الماء كان أول مخلوق

«فَأَجْرَى فِيهَا ماءً مُتَلاطِماً تَيّارُهُ مُتَراكِماً زَخّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعاصِفَهِ وَالزَّعْزَعِ الْقاصِفَهِ فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ، الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِها فَتِيقٌ وَالْماءُ مِنْ فَوْقِها دَفِيقٌ» .

الشرح والتفسير ما يستفاد من كلمات أمير المؤمنين على عليه السلام ولاسيما فى هذه العبارات وما سيتبعها فى توضيح كيفيه خلق العالم هو أنّ اللّه سبحانه قد خلق ابتداءً الماء - أو بتعبير آخر - مائعاً يشبه الماء ثم حمله على ريح عاتيه شديده، وقد أمرت هذه الريح أن تحفظ هذا المائع وتحول دون تشتته وتفرقه. ثم هبت ريح شديده اُخرى بهدف ايجاد أمواج فى ذلك المائع العظيم والواسع فجعلت الريح تلك الأمواج أعظم وأشد ثم دكتها على بعضها، ثم تموج ذلك المائع تمويجاً شديداً حتى ارتفع فى الفضاء، فخلق منه السموات السبع. جدير بالذكر أنّ الماء والريح والعاصفه وما شابه ذلك - فى ذلك الوقت الذى لم يكن فيه ماء ولا ريح ولا عاصفه - كنايه عن موجودات شبيهه بما نراه اليوم من ماء وريح وهواء، وذلك لأنّ واضعى المفردات قد جعلوا هذه الكلمات لمثل هذه الاُمور، فلم يضعوا أيه مفرده لما حدث أوائل خلقه العالم. وان أدنى تأمل يجعل من الممكن تفسير ما ورد من عباراته عليه السلام على ضوء آخر الفرضيات والنظريات التى طرحها العلماء المعاصرون بهذا الشأن، ولا نقول إنّ هذا هو مراد الإمام عليه السلام على سبيل القطع، بل نحتمل أن يكون تفسيره كذلك.

فآخر الفرضيات التى توصل إليها العلماء بشأن بدايه ظهور العالم، هو أنّ العالم برمته فى

البدایه کان بهیئه کتله غازیه عظیمه شبیهه بالمائع، کما یمکن الاصطلاح علیها باسم «الدخان» ، أو بتعبیر آخر کانت الطبقات العلیا من العالم دخاناً، وکان هذا الدخان یتخذ شکل المائع بفعل حاله الضغط کلما إقترب من مرکز العالم.

أمّا الشیء الذی تکفل بحفظ تلک الکتله العظیمه للغایه إنّما تمثل بالجاذبیه التی تحکم جمیع ذرات العالم، وقد سلطت هذه الجاذبیه علی ذلک الغاز المائع فشدته وحالت دون خروجه من حدوده. ثم ابتدأت هذه الکتله العظیمه بالدوران حول نفسها (أو أنّها کانت تدور حول نفسها منذ البدایه) وهنا ظهرت قوه الطرد المرکزیه. (۱)وقد أدت قوه الطرد المرکزیه هذه بتلک الکتله العظیمه من ذلک الغاز المضغوط أن تقذف فی الفضاء الخالی، وعلی حد تعبیر نهج البلاغه کما سیأتی فی العبارات التالیه من هذه الخطبه «فأمرها بتصفیق الماء الزخار وإثاره موج البحار فمخضته مخض السقاء وعصفت به عصفها بالفضاء» ثم ظهرت منها المنظومات والکواکب والکرات الصغیره والکبیره للعالم؛ الأمر الذی نعته القرآن ونهج البلاغه بالسموات السبع. طبعاً کل ما نرید أن نقوله - دون الاصرار علی هذا الموضوع - هو الانسجام القائم بین عبارته علیه السلام والفرضیات والنظریات العلمیه الوارده بذات الشأن، حیث یمکن استیعاب کلام الإمام علی علیه السلام علی ضوء النظریات والاطروحات العلمیه المعاصره بخصوص ظهور السموات والارضین والکواکب والاجرام السماویه وسائر الکرات. وننتقل الآن إلی أصل عبارته، فقد قال الإمام علیه السلام: «فاجری فیها ماء متلاطماً (۲)تیاره (۳)» .

«التلاطم» بمعنی اصدام الأمواج ببعضها، والتیار یعنی الموج، ولا سیما الأمواج التی یقذفها الماء خارجاً، أفلیس هذا الماء المتلاطم والمتدفق هو تلک الغازات الأولیه المضغوطه التی تمثل الماده الأولیه للعالم علی ضوء نظریات العلماء واطروحاتهم؟ ثم أکد الإمام علی علیه السلام علی شده

۱- ۱) کل شیء یدور حول نفسه انّما یتعرض إلی قوه تحاول طرده من المرکز، کالشعله التی ندورها بایدینا فاذا ترکناها فجأه قذفت إلی نقطه بعیده، وما هذا إلّالوجود قوه الطرد المرکزیه، وکلما تضاعفت هذه القوه فان شده القذف خارجاً تتناسب طردیاً وازدیاد تلک القوه.

۲- ۲) «متلاطم» من ماده «لطم» علی وزن ختم بمعنی صفع الوجه بالید، ثم استخدمت هذه المفرده لاحقاً بمعنی اصطدام الأمواج مع بعضها.

۳- ۳) «التیار» بمعنی أمواج البحر التی یقذف بها الماء، وقد أطلقها البعض (مقاییس اللغه ولسان العرب) علی کل نوع من الأمواج.

تدفق ذلک الماء وعظم تلاطمه فقال: «متراکم (۱)زخاره (۲)» .

ثم أضاف علیه السلام: «حمله علی متن الریح العاصفه (۳)والزعزعه (۴)القاصفه (۵)» .

فالعاصف بمعنی الضاربه والکاسره والزعزع بمعنی الضطربه والشدیده الهبوب وکذلک القاصفه التی تهلک الناس بشده هبوبها، وکأنّ کل هذه المفردات تأکیدات متتالیه لبیان قوه تلک الریح وسعتها وشمولیتها. ثم اُمرت هذه العاصفه العظیمه المرعبه بحفظ أجزاء الماء مع بعضها البعض ضمن حدودها «فأمرها برده، وسلطها علی شده (۶)، وقرنا إلی حده» . أو لیست هذه العاصفه العظیمه والشدیده إشاره إلی أمواج الجاذبیه التی سلطها اللّه علی جمیع ذرات عالم الماده والتی کانت سبباً لتماسک أجزائها وعدم تشتتها وتناثرها، وتقییدها بالحرکه فی إطار حدودها؟ فهل هناک من تعبیر أروع وأدق من الریح العاصفه القاصفه لتبیین الأمواج العظیمه للجاذبیه فی ظل تلک الأجواء.

وقد حصلت کل هذه الاُمور و «الهواء من تحتها فتیق (۷)والماء من فوقها دفیق (۸)» والفتیق من ماده فتق بمعنی المفتوق؛ المفتوح، ودفیق من ماده دفق بمعنی الحرکه السریعه.

۱- ۱) «متراکم» من ماده «رکم» علی وزن رزم بمعنی تراکم شیء والقاء بعضه علی بعض، وتطلق علی الغیوم والرمال والمیاه وحتی الجموع الغفیره من الناس التی تتجمع فی موضع (المفردات، لسان العرب ومقاییس اللغه) .

۲- ۲) «زخار» من ماده «زخر» و «زخور» بمعنی الامتداد والارتفاع، کما یطلق علی امتلاء البحر وتلاطمه.

۳- ۳) «عاصفه» من ماده «عصف» علی وزن عصر بمعنی الخفه والسرعه، ومن هنا یطلق العصف علی قشور الحبوب التی تکسر بسرعه، کما یقال «عاصف» و «معصف» للشیء الذی یحطم سائر الأشیاء وینعمها (المفردات، لسان العرب ومقاییس اللغه) .

۴- ۴) «زعزع» علی وزن زمزم بمعنی الحرکه والاضطراب والاهتزاز، کما تستعمل بمعنی الشدید (مقاییس اللغه ولسان العرب) .

۵- ۵) «قاصفه» من ماده «قصف» علی وزن حذف بمعنی کسر الشیء، ومن هنا یطلق القاصف علی العواصف الشدیده التی تکسر السفن فی البحار وکذلک الرعد والبرق الشدید الکاسر (المفردات، لسان العرب ومقاییس اللغه) .

۶- ۶) «شدّ» علی وزن مدّ بمعنی قوه الشیء وقدرته، ولذلک یصطلح بالشدید علی الفرد القوی (ولا سیما القوی فی الحرب) . کما تستعمل هذه المفرده بمعنی ربط العقده وأحکام وثاقها (سواء کانت فی البدن أو فی القوی الباطنیه والروحیه أو فی المصیبه والعذاب) . (لسان العرب، المفردات ومقاییس اللغه) .

۷- ۷) «فتیق» من ماده «فتق» ذکرناها سابقاً.

۸- ۸) «دفیق» من ماده «دفق» علی وزن دفن بمعنی دفع الشیء إلی الإمام، کما تستعمل بمعنی السرعه. ولذلک یطلق «الادفق» علی الناقه السریعه.

نعم إنّ هـذه الأـمواج المتـدفقه انّما تحـد بواسـطه تلك الريـح العاصـفه، فتحول دنها ودون تجاوزها لحـدودها - وهنا يبرز هـذا السؤال: كيف تظهر تلك الأمواج المتدفقه على سطح الماء رغم وجود تلك الريح العاصفه الحائله والمانعه، فالمعروف أنّ تلك الأـمواج عاده ما تظهر بفعل حركه الرياح والعواصف، رغم أنّ الرياح هنا تلعب دور المانع والحائل لتلك الأمواج، إذن ما العامل الذى يقف وراء حركه الأمواج.

يبـدو أنّ العامـل الـذى يقف وراء ظهور هـذه الأمواج هو شـىء كامن فى باطنها بحيث يجعله يتلاطم على الـدوام. ولكن ليسـت لدينا رؤيه واضـحه لماهيه هذا العامل، إلّاأنّه ينسجم تماماً والنظريات التى أوردها العلماء المعاصرون بهذا الشأن، فهم يقولون أن انفجـارات نوويه متواصـله وقعت فى جوف الغـازات الاـولى ذات الطبيعه المـائعيه، وهى هـذه الانفجارات التى تحـدث اليوم فى الشـمس. فهـذه الانفجارات العظيمه قضت على سـكون واسـتقرار هـذه الغازات المائعيه وأوجـدت تلك التلاطمات فى أمواجها المتدفقه.

ولابد لنا من متابعه المقطع الآخر لاكمال هذا القسم فنقف على الصوره الدقيقه التى رسمها الإمام عليه السلام لإنبثاق الخليقه.

ص:٨٦

القسم السابع: دور العواصف فی انبثاق الخلقه

اشاره

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهـا وَأَدامَ مُرَبَّهـا وَأَعْصَفَ مَجْراها وَأَبْعَدَ مَنْشَأَهَا فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْماءِ الزَّخّارِ وَإِثارَهِ مَوْجِ الْبِحارِ فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقاءِ وعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَها بِالْفَضاءِ. تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ وَساجِيَهُ إِلَى مائِرِهِ حَتَّى عَبَّ عُبابُهُ ورَمَى بِالزَّبَدِ رُكامُهُ فَرَفَعَهُ فِي هَواءٍ مُنْفَتِقٍ وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَواتٍ جَعَلَ سُفْلاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً وعُلْياهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَسَمْكاً مَرْفُوعاً بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُها وَلا دِسارٍ يَنْظِمُها ثُمَّ زَيَّنَها بِزِينَهِ الْكَواكِبِ وضِياءِ الثَّواقِبِ وَأَجْرَى فِيها سِراجاً مُسْتَطِيراً وَقَمَراً مُنِيراً فِي فَلَكٍ دائِرٍ وَسَقْفٍ سائِرٍ وَرَقِيمٍ مائِرٍ» .

الشرح والتفسير كما أوردنا فانّ هذه الكلمات امتداد لعباراته السابقه ونتجه بادئ ذی بدء إلی فهم التعبيرات الدقيقه والعميقه فی كلام الإمام عليه السلام دون اصدار حكم بشأنها، ثم نتحدث بعد ذلك عن مدی انسجامها مع آراء ونظريات العلماء المعاصرين بخصوص مسأله خلق العالم. فالإمام يشير فی كلامه إلی عدّه مراحل. فقال عليه السلام: «ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم (۱)مهبها (۲)» .

فالريح العقيم هی الريح الخاليه من السحب التی تؤدی إلی نزول المطر، وبالتالی فهی لا

۱- ۱) «اعتقم» من ماده «عُقم» علی وزن قفل بمعنی الجفاف المانع من قبول الأثر، ويطلق العقيم علی المرأه التی لا تتقبل نطفه الرجل، كما تأتی بمعنی الضيق أيضاً كما ورد فی المفردات ولسان العرب ومقاييس اللغه.

۲- ۲) مهبها من الهبوب علی وزن السجود الحركه بالنسبه للسيف والاضطراب ومن هنا تطلق علی هبوب الرياح.

تلقح سحاباً ولا شجراً. ثم وصفها علیه السلام بملازمتها للماء وعدم انفصالها عنه فقال: «وأدام مربّها (۱)» خلافاً للریاح العادیه التی تهب أحیاناً وتسکن أحیاناً اُخری؛ ریح شدیده عاتیه (تختلف کلیاً عن الریاح والعواصف الاعتیادیه) فقال علیه السلام: «وأعصف (۲)مجریها» . وهی ریح تهب من مکان سحیق ولیست علی غرار الریح الاعتیادیه التی تنطلق من أماکن قریبه (وأبعد منشاها) .

ثم أشار فی المرحله الثانیه إلی مهمّه هذه الریاح «فامرها بتصفیق (۳)الماء الزخار، واثاره موج البحار» فقامت هذه الریح العاتیه العظیمه بمخض الماء کقراب السقّاء «فمخضته (۴)مخض السقاء» . «وعصفت به عصفها بالفضاء» ثم قال علیه السلام: «ترد أوله إلی آخره وساجیه (۵)إلی مائره (۶)» .

وقال علیه السلام فی المرحله الثالثه بشأن تراکم المیاه وارتفاعها «حتی عب عبا (۷)» بمعنی ارتفع أعلاه «ورمی بالزبد رکامه (۸)» . ثم قال علیه السلام فی المرحله الرابعه: «فرفعه فی هواء منفتق وجو منفهق (۹)» فخلق منها تبارک وتعالی السموات السبع «فسوی منه سبع سموات» حیث جعل الأقسام السفلی، کالأمواج المکفوفه الممسوکه والطبقات العلیا کالسقف المحفوظ «جعل

---

۱ - ۱) «مرب» من ماده «ربّ» التی تعنی فی الأصل التربیه، وتطلق الرب علی المربی والمالک والخالق (وهو مصدر له معنی الفاعلیه) ویفید معنی الاستمرار والملازمه إذا جاء من باب الأفعال (إرباب) لأنّ التربیه متعذره دون الاستمرار) . وبناءً علی هذا فانّ «مربّ» مصدر میمی بمعنی الدوام والبقاء.

۲- ۲) «أعصف» من ماده «عصف» علی وزن عصر، بمعنی السرعه والحرکه والشده کما ذکرنا.

۳- ۳) «تصفیق» من ماده «صفق» علی وزن سقف بمعنی تقلیب الشیء بعضه علی بعض بحیث یصاحبه الصوت، ومن هنا اطلق التصفیق علی ضرب الکفین - وهی هنا بمعنی تحریک المیاه وتقلیبها علی بعضها (لسان العرب، مقاییس اللغه، شرح محمد عبده) .

۴- ۴) «مَخَضَ» من ماده «مخض» علی وزن قرض بمعنی تحریک الموائع فی ظروفها، ولذلک یستعمل هذا التعبیر أثناء تحریک اللبن فی القربه لفصل الزبده عنه.

۵- ۵) «ساجی» من ماده «سجو» علی وزن سهو بمعنی السکون والهدوء.

۶- ۶) «مائر» من ماده «مور» علی وزن فور بمعنی الحرکه السریعه، وتطلق هذه المفرده علی الجاده أیضاً لأن الناس یتحرکون علیها ذهاباً وإیاباً.

۷- ۷) «عباب» من ماده «عب» بمعنی شرب الماء سریعاً دون تریث، ومن هنا اطلق العباب علی الماء الکثیر والمطر الغزیر والسیل العظیم، وهی هنا بمعنی تراکم المیاه علی بعضها.

۸- ۸) «رکام» أشرنا إلی معناها سابقاً (ما تراکم منه بعضه علی بعض) .

۹- ۹) «منفهق» من ماده «فهق» علی وزن فرق بمعنی المفتوح الواسع، ولذلک یصطلح بالمنفهق علی الجزء الواسع من الوادی والوعاء المملوء بالماء.

سفلاهن موجاً مکفوفاً (۱)وعلیاهن سقفا محفوظاً وسمکاً (۲)مرفوعاً» .

ثم أشار علیه السلام إلی عدم وجود الأعمده التی تحملها ولا المسامیر التی تحکم وثاقها فقال: «بغیر عمد (۳)یدعمها (۴)ولا دسار ینظمها (۵)» وأخیراً تأتی المرحله الأخیره - الخامسه - «ثم زینها بزینه الکواکب وضیاء الثواقب (۶)» . ثم أشار علیه السلام إلی القمر والشمس وتحرک کل منهما ضمن مداره «واجری فیها سراجاً مستطیرا (۷)وقمراً منیراً فی فلک دائر وسقف سائر ورقیم (۸)مائر» .

تأمّلات

۱ - دراسه العباره علی ضوء الفرضیات المعاصره

للعلماء المعاصرین نظریات متعدده لا تتجاوز حدود الفرضیات بشأن خلق العالم؛ حیث لم یکن هناک مخلوق قبل ملیارات السنین لیشهد کیفیه ظهور العالم، مع ذلک هناک بعض الشواهد والقرائن التی تؤید صحه بعض هذه الفرضیات. امّا العبارات التی ساقها الإمام علیه السلام فهی تنطبق تماماً علی بعض الفرضیات المعروفه، سنتعرض لها الآن دون الاصرار علی أنّ الإمام علیه السلام إنّما أراد هذه الفرضیات. فکما أسلفنا فی الأبحاث السابقه أن العالم کان فی البدایه کتله ضخمه من الغازات المتراکمه الکثیره الشبه بالمائعات بحیث یصح نعتها بالماء، کما یصح

---

۱ - ۱) «مکفوف» من ماده «کف» علی وزن سد بمعنی قبض الشیء وجمعه، ولذلک اطلق علی راحه الید الکف لأنّها سبب قبض الید، کما یطلق المکفوف علی الأعمی لقبض بصره.

۲ - ۲) «سمک» بمعنی الارتفاع ولهذا یسمی السقف بالسمک لارتفاعه.

۳ - ۳) «عمد» علی وزن سبد وعُمُد کلاهما جمع «عمود» بمعنی الدعامه.

۴ - ۴) «یدعم» من ماده «دعم» علی وزن فهم بمعنی دعامه الشیء ودعام ودعامه بمعنی الخشب الذی یحمل الأشیاء ویشدها، وتطلق علی الشیء والشخص الداعم.

۵ - ۵) «دسار» بمعنی المسمار والحبل الذی یربط به الشیء.

۶ - ۶) «ثواقب» من ماده «ثقب» علی وزن سقف بمعنی الشیء؛ ثقب الشیء واختراقه ومن هنا اطلق الثواقب علی الکواکب المضیئه المنیره، فکأنّ نورها یثقب البصر وینفذ فیه، أو أنّ نورها یخترق السماء لیصلنا.

۷ - ۷) «مستطیر» من ماده «طیر» بمعنی انتشار الشیء فی الهواء، ثم استعمل کل شیء سریع وکذلک الطیور. ومستطیر بمعنی واسع ومنتشر. ومن هنا یقال استطار الفجر، أی انتشر ضوءه.

۸ - ۸) «رقیم» من ماده «رقم» بمعنی الخط والکتابه، کما وردت هذه المفرده بمعنی الکتاب. وهو اسم من أسماء الفلک وسمی به لأنّه مرقوم بالکواکب.

الاصطلاح عليها بالدخان على ضوء التصريحات القرآنيه. وقد سلط خالق العالم عليه قوتين عظيمتين، حيث عبر عنهما فى العباره المذكوره بالريح:

قوه الجاذبيه التى حفظته متماسكاً وحاله دون تشتته وزواله، والقوه الدافعه التى تدفعه إلى الخارج إثر الحركه الدورانيه حول نفسه وبفعل قوه الطرد المركزيه، وهذه هى الريح والعاصفه الثانيه. فاذا أقررنا بالحركه الدورانيه للعالم الأول على أنّها كانت متذبذبه تشتد أحياناً وتنخفض أحياناً اُخرى فمن الطبيعى أن تكون قد ظهرت تلك الأمواج العظيمه فى تلك الكتله الغازيه العظيمه الشبيهه بالمائع بحث تراكمت تلك الأمواج على الدوام ثم أخذت بالتساقط. وفى الختام فان الطبقات الأكثر خفه والأقل وزناً – والتى ورد التعبير عنها بالزبد من قبل الإمام عليه السلام – قد قذف بها نحو الفضاء الخارجى (أنّ مفرده «الزبد» تطلق على ما يطفو من الماء، وكذلك على الزبده التى تطفو لخفتها على سطح محتويات القربه) .

وبهذا فقد اشتدت الحركه الدورانيه، فانفصلت أجزاء كبيره من هذه الكتله العظيمه وانطلقت إلى الفضاء، فما كان منها أكثر شده بلغ نقاطاً مرتفعه وأمّا ما كان منها أقل شده فقد بلغ نقاطاً أوطئ. لكن الأجزاء التى بلغت نقاطاً مرتفعه أصبحت على هيئه سقف محفوظ وذلك بفعل قوه الجاذبيه التى لم تدعها تفلت تماماً، بينما أصبحت الأجزاء السفلى الأقل ضغطاً موجاً مكفوفاً حسب تعبير الإمام عليه السلام.

ثم ظهرت فى ذلك الفضاء المترامى السموات السبع (التى سنتناولها بالحديث لاحقاً) دون أن تكون هناك عمد ترفعها ومسامير تنظمها وتحكم وثاقها، ولم تستقر فى مواقعها وتتزن فى حركتها ضمن مداراتها سوى من خلال تعادل القوتين الجاذبه والدافعه. كان الفضاء آنذاك مملوءاً بالكرات الصغيره والكبيره، فانطلقت قطع متناثره من هذه الأمواج إلى الخارج، وقد انجذبت القطع الصغيره تدريجياً نحو الكرات الكبيره بحكم الجاذبيه فأصبح الفضاء وأضاءت النجوم وزينت بالكواكب وأشرقت الشمس واضيء القمر وأخذت الأجرام تتحرك ضمن أغلفتها ومداراتها.

لقد ورد فى بعض الفرضيات بشأن ظهور العالم أنّ العامل الذى أدى إلى انفصال المنظومات والكرات السماويه عن الكتله الاولى إنّما يعزى إلى الانفجار الداخلى العظيم والذى

ظل سببه مجهولاً غامضاً لحد الآن. فالقى الانفجار المذكور بأجزاء عظيمه من الكتله الغازيه الاولى الشبيهه بالمائع إلى الفضاء وكون الكرات والمنظومات ولعل قوله عليه السلام: «ثم انشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها وأدام مربها وأعصف مجراها وأبعد منشأها فامرها بتصفيق الماء الزخار. . .» إشاره إلى هذا الانفجار العظيم الذى انطلق من أعماق الماده الاولى. لكن وكما قلنا سابقاً فان الهدف من هذا الكلام هو ايضاح مدى انسجام عبارات الخطبه مع الفرضيات الوارده بشأن ظهور العالم ولا يمثل إصدار حكم بهذا الشأن أبداً.

٢ – كيفيه ظهور العالم

تعد مسأله كيفيه ظهور العالم من أعقد المسائل التى واجهها العلماء والمفكرون. فالمسأله المذكوره تعود إلى ماقبل ملياردات السنوات، ولعلها القضيه التى لم تطرق فكر أحد؛ الأمر الذى حير كبار العلماء والمفكرين رغم الجهود المفنيه والتحقيقات والفرضيات الضخمه التى توصلوا إليها فى هذا المجال وبالتالى لم يكن أمامهم سوى الاعتراف بالعجز عن سير تحور هذه المسأله. إلّاأنّ روح حب الاستطلاع والتعرف على المجهول التى تسود الفكر البشرى لم تدعه يقف مكتوف الايدى حيال هذه القضيه والصمت إزائها. فالواقع أنّ لسان حال العلماء هو إننا وإن عجزنا عن بلوغ كنه هذا الموضوع، غير أننا نرغب برسم صوره فى أذهاننا من شأنها إشباع حب تطلعنا واقتحامنا لهذا الأمر. وبالطبع فانّ الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه قد اكتفت بإشارات مقتضيه بالنسبه لهذا الموضوع؛ الأمر الذى لا يؤدى إلّاإلى رسم صوره باهته فى الذهن لا ترقى إلى إماطه اللثام عن طبيعتها وكنه حقيقتها. على كل حال فان العبارات الوارده فى هذه الخطبه انّما تتناغم وما ورد فى خطبته رقم ٢١١ التى قال فيها عليه السلام: «وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعته أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبساً جامداً ثم فطر منه اطباقا ففتقها سبع سموات، بعد ارتتاقها» .

من جانب آخر فقد شحنت الروايات الإسلاميه بعده أبحاث بهذا الشأن، والواضح أنّ أغلب هذه الروايات تنسجم وخطب نهج البلاغه الوارده بهذا الخصوص مع فارق جاء فى

أغلبها وهو تصريحها بأنّ الزبد أول شيء ظهر على الماء ثم انبعث منه البخار أو الدخان الذى كوّن السموات. (۱)

ولكن وكما أوردنا آنفاً فانه ليس هنالك من تضارب بين هذه العبارات، لأنّ الماده الاولى على الأقوى كانت عباره عن غازات مائعيه مضغوطه يصدق عليها وصف الماء والبخار والدخان بالنظر لمراحلها المختلفه. والجدير بالكذر هنا هو أنّه ليس هناك من تضاد بين الروايات التى صرّحت بأنّ أول ما خلق اللّه الماء، أو الشيء الأول الذى خلقه اللّه كان نور النبى صلى الله عليه و آله أو العقل؛ وذلك لأنّ بعض الروايات تحدثت عن خلق عالم الماده بينما تحدث البعض الآخر عن خلق عالم المجردات والأرواح. كما يتبيّن عدم وجود التناقض بين ما أوردناه من مضامين الروايات وما صرّحت به الآيه ۱۱ من سوره فصلت التى قالت: «ثم استوى إلى السماء وهى دخان» .

۳ – الفرضيات السائده بشأن العالم أبان نزول القرآن

الطريف أنّه كانت هناك نظريتين بشأن ظهور العالم فى الوسط الذى نزل فيه القرآن – أو بعباره أدق فى العصر الذى نزل فيه القرآن –: الاولى نظريه «بطليموس» التى سادت المحافل العلميه لخمسه عشر قرناً واستمرت حتى أواخر القرون الوسطى. وعلى ضوء هذه النظريه فانّ الأرض كانت مركز العالم وتدور حولها تسعه أفلاك؛ وهى أفلاك تشبه الأغطيه البصليه وشفافه وبلوريه ومتراكمه بعضها، وكان كل كوكب سيّار (عطارد، الزهره، المريخ، المشترى وزحل) فى فلك، كما كان لكل من الشمس والقمر فلكهما. واضافه إلى هذه الأفلاك السبع، هناك فلك يرتبط بالكواكب الثابته (المراد بالكواكب الثابته هى تلك الكواكب التى تطلع معاً وتغرب معاً دون أن تغير مواقعها فى السماء بخلاف الكواكب الخمس التى ذكرناها) . وبعد الفلك الثامن؛ أى فلك الثوابت هناك فلك الاطلس الذى ليس له أى كوكب، امّا مهمته فهى

۱– ۱) للوقوف على هذه الروايات، انظر ۳ / ۱۰ و۵۷ من بحار الأنوار، طبعه بيروت. وردت أغلب الأحاديث فى ج ۵۷.

سوق العالم العلوى للدوران حول الأرض، وهو الفلك الذى يسمى أيضاً بفلك الأفلاك.

أمّا الفرضيه الاُخرى فهى الفرضيه التى تستمد قوتها من فرضيه بطليموس بشأن العالم وتفسره على أساس العقول العشره.

وعلى ضوء هذه النظريه التى طرحها جمع من الفلاسفه اليونانيين فان اللّه لم يخلق بادئ ذى بدء سوى شيء واحد هو العقل (الملك أو الروح العظيمه والمجرده التى اصطلح عليها بالعقل) . وقد خلق هذا العقل شيئين هما العقل الثانى والفلك التاسع، ثم خلق العقل الثانى العقل الثالث والفلك الثامن، وهكذا خلق عشره عقول وتسعه أفلاك، ثم قام العقل العاشر بخلق موجودات هذا العالم. والواقع ليس هنالك من دليل على هذه السلسله من الفرضيات، وهكذا هو الحال بالنسبه لفرضيه بطليموس رغم ذلك فقد كانت هذه الفرضيات هى السائده لقرون. أمّا القرآن والروايات الإسلاميه فقد رفضت الفرضيه الاولى - فرضيه بطليموس - كما رفضت الفرضيه الثانيه - فرضيه العقول العشره -؛ وذلك لأننا لم نر أثر لهما فى الآيات والروايات المعروفه - ولا سيما فى نهج البلاغه -، وهذا بدوره يمثل أحد الأدله والشواهد على استقلاليه القرآن وعظمه الأخبار الإسلاميه واستنادها إلى الوحى لا إلى الأفكار البشريه، وإلّا لاصطبغت بصبغتها. (1)

وقد رأينا الانسجام التام بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام وسائر الروايات الإسلاميه بشأن ظهور العالم. فالمحور الأصلى فى الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه إنّما كان الحديث عن السموات السبع لا الأفلاك التسع ولا العقول العشره، وسنتناول لاحقاً تفسير السموات السبع.

لكن من المؤسف أنّ قدماء شرّاح نهج البلاغه - ممن تأثروا بفرضيه العقول العشره ونظريه بطليموس بشأن ظهور العالم - قد سحبوا هذه الفرضيات على شرح نهج البلاغه

۱- ۱) لقد أشارت بعض الآيات القرآنيه إلى حركه الأرض من قبيل الآيه ۸۸ من سوره النمل « [۱]وترى الجبال تحسبها جامده وهى تمر مر السحاب صنع اللّه الذى اتقن كل شيء» والآيه ۲۵ من سوره المرسلات « [۲]الم نجعل الأرض كفاتا» . (وطبق بعض التفاسير فان الآيه ۴۰ من سوره يس « [۳]لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون» تدل على أنّ الشمس والقمر يسبحان فى الفضاء العلوى. للوقوف أكثر على التفاصيل. انظر تفسير الأمثل. [۴]

فسعوا جاهدين لحمل الخطبه المذكوره عليها دونما أيه ضروره أو حاجه إلى ذلك؛ فهى لم تكن سوى فرضيات وقد ثبت بطلانها اليوم.

فقد أثبتت التحقيقات والمشاهدات العلميه وتجارب علماء الفلك عدم وجود فلك بالمعنى الذى ذهب إليه بطليموس، وأنّ الكواكب الثابته والسياره والتى يفوق عددها بكثير ممّا ظنه القدماء وأنّها تدور فى فضاء خال (وَ أنّ السيارات إنّما تدور حول الشمس لا- حول الأرض والثوابت على المحاور الأخرى) وأنّ الأرض ليت مركزاً للعالم فحسب، بل هى سياره صغيره من سيارات المنظومه الشمسيه وهذه الأُخرى منظومه صغيره من بين ملايين بل مليارات منظومات العالم العلوى. أمّا أنصار فرضيه العقول العشره ورغم تأثرها بفرضيه بطليموس - التى سلم اليوم ببطلانها - إلّاأنّهم يستندون إلى قاعدّه من القواعد العقليه «والتى تصرح بان الواحد لا يصدر منه إلّاواحد» لإثبات صحه فرضيتهم ولا نرى هنا من ضروره للاستغراق فى شرح هذه القاعدّه.

ولما كانت هذه القاعدّه تفتقر إلى الدليل من وجهه نظر أغلب العلماء، فانّ أسسها تعتبر جوفاء لا قيمه لها. (۱)

۴ - ما المراد بالسموات السبع؟

لم يقتصر الحديث عن السموات السبع على نهج البلاغه - فى هذه الخطبه والخطبه ۲۱۱ - فحسب بل سبقه القرآن الكريم للحديث عن هذا الموضوع (۲).

وهناك عدّه تفاسير أوردها العلماء القدماء بشأن السموات السبع، ولا نروح الخوض فيها

۱- ۱) لقد أشار المرحوم «الخواجه نصير الدين الطوسى» فى كتابه «تجريد الاعتقاد» إلى الأدله الخمسه لفرضيه العقول العشره فيفندها جميعاً ويقول فى عباره قصيره «وأدله وجوده مدخوله» . وللوقوف أكثر على هذا الموضوع راجع كلام الخواجه والعلّامه الحلى بهذا الشأن.

۲- ۲) الطريف أنّ القرآن أشار إلى السموات السبع فى سبع من آياته، وهى الآيه ۲۹ من سوره البقره، ۴۴ من سوره الاسراء، الآيه ۸۶ من سوره المؤمنون، الآيه ۱۲ من سوره فصلت، الآيه ۱۲ من سوره الطلاق، الآيه ۳ من سوره الملك والآيه ۱۵ من سوره نوح. كما وردت بعض الآيات التى أشارت بعبارات أُخرى إلى هذا الأمر.

جميعاً؛ الا ان التفسير الوحيد الذى يبدو صحيحاً من بينها هو ذلك الذى قال بأنّ المراد بالسموات السبع هو المعنى الواقعى لهذه الكلمه؛ فالسماء هى مجموعه من الكواكب والنجوم فى العالم العلوى، والسبع هو العدد سبعه المعروف ولا يراد به الكثره، غايه مافى الأمر أنّ الذى نفهمه من الآيات القرآنيه هو أن ما نشاهده من كواكب وسيارات ثابته ومتحركه كلها مرتبطه بالسماء الاولى. وبناءً على هذا فان وراء هذه السماء العظيمه سته سموات عظيمه أخر لم يتسنى لحد الآن للعلم البشرى التوصل إلى معرفتها.

والآيه السادسه من سوره الصافات تؤيد هذا المعنى: «إِنّا زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَهٍ الْكَواكِبِ» ، كما ورد هذا المعنى فى الآيه ١٢ من سوره فصلت «وَزَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ» ، وجاء فى الآيه الخامسه من سوره الملك «وَلَقَدْ زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ» . والطريف فى الأمر أنّ المرحوم العلّامه المجلسى قد ذكر هذا التفسير - فى بحار الانوار - على أنّه إحتمال اقتدح فى ذهنه، أو استنتاجه من الآيات والروايات كما يعبر عن ذلك اليوم. (١)

وهنا لابدّ من القول بأنّ الأجهزه العلميه لم تتمكن حتى اليوم من إماطه اللثام عن هذه العوالم الست، إلّاانّ الدليل لم يقم على نفيها علمياً، ولعل العلم يكشف أسرار هذا الموضوع مستقبلاً، بل أفادت كشوف العلماء الفلكيين أنّ هناك أشباحاً ترى من بعيد تفيد وجود عوالم اُخرى، على سبيل أوردت بعض المجلات الفضائيه نقلاً عن المراصد الجويه المعروفه «بالومار» قولها: لقد تمكن ناظور مرصد بالومار من كشف ملايين المجرات التى يبعد بعضها عنا ألف مليون سنه ضوئيه. لكن هناك فضاء عظيم ومهيب مظلم بعد تلك المسافه البالغه ألف مليون سنه ضوئيه، غير أنّه يتعذر رؤيه مافيه من أشياء. ومما لاشك فيه أنّ ذلك الفضاء المهيب والمظلم يضم مئات الملايين من المجرات بحيث تكفلت جاذبيتها بحفظ البسيطه التى نعيش على وجهها. وما هذه الدنيا العظيمه التى تغص بمئات آلاف الملايين من المجرات إلّاذره تافهه لا قيمه لها مقارنه بدنيا أعظم وأوسع ولسنا متأكدين لحد الآن من وجود دنيا اُخرى

١- ١) بحار الأنوار ٥٥ / ٧٨. [١]

عظیمه فیما وراء هـذه الدنیا. (۱)ونخلص ممّا سبق إلی أنّ العوالم التی تمّ کشفها من قبل البشریه ورغم عظمتها وما تنطوی علیه من أسرار وأعاجیب لیست إلّاجزءاً ضئیلاً من عالم ضخم عملاق، ولعل المستقبل سیکشف النقاب عن العوالم الست الاُخری.

۵ – کیفیه علم الإمام علیه السلام بهذه الاُمور

ما تجدر الإشاره إلیه هنا هو أنّ عبارات الإمام علیه السـلام بشأن ظهور العالم لم ترد بصیغه فرضیه واحتمال أبداً، بل صورها علیه السلام وکأنّه یشهد ذلک الظهور، وهذا دلیل علی استناد علمه إلی خزانه علم الغیب الإلهی أو تعلیمات النبی صلی الله علیه و آله – التی تسـتند إلی الوحی حتی تحـدث ابن أبی الحدیـد بهـذا الشـأن فقـال: «إنّ أمیر المؤمنین علی علیه السـلام کان یعرف آراء المتقـدمین والمتأخرین، ویعلم العلوم کلها ولیس ذلک ببعیـد من فضائله ومناقبه علیه السـلام (۲)» . وکیف لاـ یکون الإمام علیه السلام کذلک وهو القائل: «أنا بطرق السماء أعلم منّی بطرق الأرض» . (۳)

۱– ۱) مجله الفضاء ۵۶ / آذار عام ۱۹۷۲ م.

۲– ۲) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱ / ۸۰. [۱]

۳– ۳) نهج البلاغه، الخطبه ۱۸۹. [۲]

القسم الثامن: عالم الملائكه

اشاره

«ثُمَّ فَتَقَ ما بَيْنَ السَّمواتِ الْعُلا فَمَلأَهُنَّ أَطْواراً مِنْ مَلائِكَتِهِ، مِنْهُمْ سُجُودٌ لا يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لا يَنْتَصِبُونَ، وَصافُّونَ لا يَتَزايَلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لا يَسْأَمُونَ، لا يَغْشاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَلا سَهْوُ الْعُقُولِ وَلا فَتْرَةُ الْأَبْدانِ وَلا غَفْلَهُ النِّسْيانِ وَمِنْهُمْ أُمَناءُ عَلَى وَحْيِهِ، وَأَلْسِنَهٌ إِلَى رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضائِهِ وَأَمْرِهِ، وَمِنْهُمُ الْحَفَظَهُ لِعِبادِهِ وَالسَّدَنَهُ لِأَبْوابِ جِنانِهِ، وَمِنْهُمُ الثّابِتَهُ فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدامُهُمْ، وَالْمارِقَهُ مِنَ السَّماءِ الْعُلْيا أَعْناقُهُمْ وَالْخارِجَهُ مِنَ الْأَقْطارِ أَرْكانُهُمْ، وَالْمُناسِبَهُ لِقَوائِمِ الْعَرْشِ أَكْتافُهُمْ ناكِسَهٌ دُونَهُ أَبْصارُهُمْ مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَهٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّهِ وَأَسْتارُ الْقُدْرَهِ، لا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ وَلا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفاتِ الْمَصْنُوعِينَ وَلا يَحُدُّونَهُ بِالْأَماكِنِ وَلا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظائِرِ» .

الشرح والتفسير يواصل الإمام عليه السلام خطبته التى تطرق فيها إلى خلق السموات وكيفيه ظهور العالم، فيتحدث عن خلق الموجودات السماويه وملائكه العالم العلوى فيشير بعبارات قصيره بليغه إلى أصناف الملائكه وصفاتهم وخصائصهم وطبيعه أنشطتهم ومهامهم وعظم خلقتهم ومدى علو معرفتهم، فالواقع هو أنّ هذا القسم من الخطبه يختص بالتعريف بالملائكه. فاستهل كلامه

قائلاً: «ثم فتق مابين السموات العلا» (۱)فالذی یستفاد من هذا التعبیر أنّه کانت هناک فواصل بین السموات وقد التحمت فی البدایه ثم ما لبثت أن انفصلت، وهذا بالضبط علی الخلاف ممّا تضمنته نظریه بطلیموس فی أن السموات کأغطیه البصل متراکمه علی بعضها دون وجود أیه فجوه. ثم قال الإمام علیه السلام: «فملأهن أطواراً (۲)من ملائکته (۳)» . وقد ورد نظیر هذه العباره فی الخطبه رقم ۹۱ المعروفه بخطبه الأشباح حیث قال: «وملأ بهم فروج فجاجها وحشا بهم فتوق أجوائها» کما ورد فی موضع آخر من هذه الخطبه قوله: «ولیس فی أطباق السماء موضع اهاب إلّاوعلیه ملک ساجد أو ساع حافد» .

ثم یتطرق علیه السلام إلی أصناف، أو بعباره أدق أطوار الملائکه فیقسمهم إلی أربعه أقسام:

القسم الأول: أرباب العباده، ثم یقسم هؤلاء إلی أقسام، فمنهم من هو ساجد أبداً لم یقم من سجوده لیرکع «منهم سجود (۴)لا یرکعون» ، ومنهم من هو راکع أبداً لم ینتصب قط «ورکوع لا ینتصبون» ومنهم الصافون فی الصلاه بین یدی خالقهم لا یتزایلون «وصافون (۵)لا یتزایلون» . ذهب البعض إلی أنّ «صافون» هنا بمعنی الصف فی العباده، بینما ذهب البعض الآخر إلی انّ معناها فتح أجنحتهم فی السماء بدلیل الآیه القرآنیه القائله: «أَوَ لَمْ یَرَوْا إِلی الطَّیْرِ فَوْقَهُمْ صافّاتٍ» (۶). وهناک إحتمال آخر أن یکون المراد بها الوقوف فی صفوف منظمه والاستعداد لطاعه أوامر اللّه وامتثالها.

إلّا انّ الاحتمال الأول أکثر انسجاماً مع الجمل السابقه واللاحقه، والواقع أنّهم یمارسون الحالات الثلاث لعبادتنا فی القیام والرکوع والسجود. فالتعبیر بصافین إمّا أنّه إشاره للصفوف

۱- ۱) «العلا» جمع «علیا» بمعنی الأعلی والأشرف.

۲- ۲) «أطوار» جمع «طور» علی وزن قول بمعنی الصنف، کما تعنی الحد والحاله أیضاً.

۳- ۳) ان الضمیر «هن» فی العباره کما یشیر ظاهرها یعود إلی السموات، إلّاأنّ المراد الفواصل بین السموات بدلیل قوله «ثم فتق. . .» وفاء التفریع فی «فملأهن» .

۴- ۴) «سجود» جمع «ساجد» ، کالرکوع جمع راکع.

۵- ۵) «صافون» جمع «صاف» علی وزن حاد من ماده «صف» بمعنی المساواه وقد اقتبست فی الأصل من «صفصف» بمعنی الأرض المستویه.

۶- ۶) سوره الملک / ۱۹. [۱]

المنظمه للملائکه، أو القیام المنظم لکل منها. وهذا عین ما ورد فی خطبته علیه السلام فی وصف المتقین لهمام «أمّا اللیل فصافون أقدامهم تالین لاجزاء القرآن» (۱). وأخیراً المسبحون الذین لا یملون التسبیح والتحمید له سبحانه «ومسبحون لا یسأمون» . فظاهر هذه الجمله یفید أنّ هؤلاء طائفه اُخری غیر الطوائف الثلاث القائمه والراکعه والساجده (و ان ذهب بعض شرّاح نهج البلاغه إلی أنّ المسبحین هم الطوائف المذکوره سابقاً، حیث یمکن الاستشهاد ببعض الروایات التی تؤید ماذهبوا إلیه. فقد روی أنّه سئل النبی صلی الله علیه و آله: کیف صلاه الملائکه؟ فأطرق رسول اللّه صلی الله علیه و آله حتی نزل علیه جبرئیل علیه السلام فقال له: «أنّ أهل السماء الدنیا سجود إلی یوم القیامه یقولون سبحان ذی الملک والملکوت وأهل السماء الثانیه رکوع إلی یوم القیامه یقولون سبحانه ذی العزه وأهل الجبروت وأهل السماء الثالثه قیام إلی یوم القیامه یقولون سبحان الحی الذی لا یموت» (۲).

لکن هل المراد بهذا السجود والرکوع والقیام ذات أعمالنا فی السجود والرکوع والقیام أم إشاره إلی درجات خضوع الملائکه وعبادتهم حسب مراتبهم ومقاماتهم، المسأله محل بحث ونقاش. فاذا اعتبرنا الملائکه أجساماً لطیفه ولهم أیدی وأرجل ووجوه وجبهات فان المعنی الأول أنسب، وإن نفینا عنهم الأجسام، أو أقررنا بأن لهم جسم غیر أنّه لیس علی غرار أجسامنا فان المعنی الثانی هو الأنسب (وسنتحدث فی الأبحاث القادمه عن هذا الأمر) .

علی کل حال فانّ هذه المجموعه من الملائکه منهمکه فی عباده اللّه وتسبیحه وتقدیسه وکأن مهمتهم مقتصره علی العباده فقط. والواقع هو أنّ هذه آیه بیّنه من آیاته سبحانه وعظمه مقامه وعلو شأنه وعدم حاجته إلی عباده العباد، وبعباره اُخری فانّ المحتمل أنّ فلسفه خلقه هؤلاء الملائکه هو عدم اغترار العباد من الناس بعبادتهم ولیعلموا علی فرض المحال أنّه لو کان بحاجه إلی العباده فانّ هناک الملائکه المنهمکین بالعباده فلا ینبغی أن یتصور عباد اللّه فی الأرض ان عبادتهم أو عدمها لیست لها أدنی تأثیر علی کبریاء اللّه وعظمته، ولو کفروا جمیعاً لما ضره ذلک ذره «إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ اللّهَ غَنِیٌّ عَنْکُمْ» (۳). ثم أشار علیه السلام إلی صفات هؤلاء الملائکه

۱- ۱) نهج البلاغه، الخطبه ۱۹۳. [۱]

۲- ۲) بحار الانوار ۵۹ / ۱۹۸. [۲]

۳- ۳) سوره الزمر / ۷. [۳]

فقال علیه السلام: «لا یغشاهم نوم العیون ولا سهو العقول ولا فتره الأبدان ولا غفله النسیان» . علی العکس من الناس الذین یشعرون تدریجیاً بالفتور من جراء تکرار العباده فیخالطهم النعاس فیصاب الجسم بالوهن والضعف ویعرض لهم السهو والنسیان.

إلّا أنّ الملائکه بعیدون کل البعد عن هذه الحالات والعوارض. فهم علی درجه من العشق للعباده والاستغراق فی المناجاه والتسبیح بحیث لا یعرض علیهم النوم والغفله والفتور قط. وبعباره اُخری فان الفتور فی إداء الوظائف إنّما یستند إلی اُمور لیست لها من سبیل إلی الملائکه أبداً. فأحیاناً تتمثل تلک الاُمور بالتعب وغفو العین وسهو العقول وضعف البدن وأحیاناً اُخری بالغفله والنسیان ولما کانت أی من هذه الاُمور لیست لها من سبیل إلی الملائکه، فانّهم لا یفترو فی عبادتهم قط.

ثم یعرض علیه السلام إلی القسم الثانی من الملائکه وهم السفراء بینه تعالی وبین المکلفین من البشر بتحمل الوحی الإلهی إلی الرسل «ومنهم اُمناء علی وحیه والسنه إلی رسله ومختلفون بقضائه وأمره» فهم فی الواقع الواسطه بین اللّه والأنبیاء. ونفهم من هذه العباره أنّ السفاره الإلهی لا تقتصر علی جبرئیل علیه السلام، بل هو فی الحقیقه زعیم سفراء اللّه، القرآن بدوره أشار إلی هذا الصنف من الملائکه: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّکَ بِالحَقِّ» (۱)، وقال فی آیه اُخری: «قُلْ مَنْ کانَ عَدُوّاً لِجِبْرِیلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلی قَلْبِکَ بِإِذنِ اللّهِ» (۲)، کما أشار أحیاناً إلی الملائکه من حمله الوحی فقال: «یُنَزِّلُ المَلائِکَهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» (۳).

کما أشارت بعض الروایات الإسلامیه وسائر خطب نهج البلاغه إلی هذا المعنی أیضاً. وهنا لابدّ من الإشاره إلی أنّ المراد بالقضاء والأمر الإلهی الوارد فی العباره التی نخوض فیها هو الأحکام والأوامر الدینیه الشرعیه، لا القضاء والأوامر التکوینیه التی احتملها البعض

۱- ۱) سوره النحل / ۱۰۲. [۱]

۲- ۲) سوره البقره / ۹۷. [۲]

۳- ۳) سوره النحل / ۲. [۳]

من شارحی نهج البلاغه؛ وذلک لعدم انسجام هذا الاحتمال والعبارات السابقه - التی طرحت مسأله اُمناء الوحی -، امّا مختلفون هنا فقد جاءت من ماده الاختلاف بمعنی الذهاب والایاب والتردد علی الأماکن.

ثم أشار علیه السلام إلی القسم الثالث من الملائکه «ومنهم الحفظه لعباده والسدنه (۱)لأبواب جنانه» . «حفظه» جمع حافظ بمعنی الحارس، ویمکن أن یکون لها هنا معنیان: أحدهما حفظهما للعباد بمراقبه أعمالهم واحصائها وتسجیلها، کما أشارت إلی ذلک الآیه الرابعه من سوره الطارق القائله «وَ إِنَّ عَلَیْکُمْ لَحافِظِینَ * کِراماً کاتِبِینَ» وضرب آخر من هؤلاء الملائکه الذین یحفظون البشر من المهالک والورطات والبلاء، ولولا ذلک لکان الإنسان مسرحاً للفناء والزوال والاعطاب، وهذا ما صرّحت به الآیه الحادیه عشره من سوره الرعد: «لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ یَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ» .

ولکن یبدو أنّ المعنی الأول أنسب بالالتفات إلی العبارات السابقه التی تحدثت عن الوحی والتکالیف الشرعیه، والعباره اللاحقه التی أشارت إلی الجنّه وجزاء الأعمال، وإن لم یستبعد الجمع بین المعنیین عن مفهوم العباره.

أمّا مفرده سدنه فهی جمع سادن بمعنی البواب، وجنان علی وزن کتاب واحدها جنه، والذی یستفاد من هذه العباره إنّ للّه عدّه جنان، ذهب بعض شرّاح نهج البلاغه إلی أنّها ثمانیه کما وصفها القرآن وهی «جنّه النعیم، جنّه الفردوس، جنهالخلد، جنّه المأوی، جنّه عدن، دار السلام، دار القرار وجنّه عرضها السموات والأرض» (۲).

أمّا فائده وجود الملائکه الذین یحفظون أعمال العباد، فقد قیل بأنّ الإنسان یشعر بالمسؤولیه أکثر لوجودهم ویکون أعظم مراقبه لنفسه وأحرص فی سلوکه وتعامله، وذلک لأنّ الهدف الأسمی هو تربیه الإنسان وتهذیبه وإبعاده عن الرذیله والانحراف.

وأمّا القسم الرابع من الملائکه فهم حمله العرش، الذین وصفهم علیه السلام بقوله «ومنهم الثابته

۱- ۱) «سدنه» جمع «سادن» بمعنی الخادم والبواب.

۲- ۲) شرح نهج البلاغه لابن میثم ۱ / ۱۵۸ وشرح نهج البلاغه للمرحوم المیرزا حبیب اللّه الخوئی ۲ / ۲۶.

فی الأرضین السفلی أقدامهم والمارقه من السماء العیا أعناقهم والخارجه من الأقطار أرکانهم والمناسبه لقوائم العرش أکتافهم ناکسه (۱)دونه أبصارهم متلفعون (۲)تحته بأجنحتهم مضروبه بینهم وبین من دونهم حجب العزه وأستار القدره» ثم یستغرق علیه السلام أکثر فی التعرض لصفاتهم فیقول: «لا یتوهمون ربّهم بالتصویر ولا یجرون علیه صفات المصنوعین ولا یحدونه بالاماکن ولا یشیرون إلیه بالنظائر» (۳). أجل فقدرتهم لیست قدره جسمانیه، بل یتمتعون بقدره روحانیه خارقه متعذره علی الإنسان، ومن هنا أوکلت لهم مهمّه حمل العرش. والواقع أنّهم بلغوا أعظم مقامات التوحید بحیث أصبحوا قدوه فی التوحید لکافه عباد اللّه ولا سیما أولیاء اللّه البارزین من الناس. فهم لا یرون من مثیل وشبیه ونظیر للّه قط، کما لا یرون من حدود لذاته وصفاته سبحانه، حتی أنّهم یرونه أعظم من الخیال والقیاس والظن والوهم؛ وذلک لأنّ کل ما یتصوره الإنسان أو الملک إنّما هو مخلوق للّه واللّه أعظم من أن یکون مخلوقاً. أمّا المراد بالعرش وحمله العرش وماهیه وظائفهم والمفاهیم التی وردت فی هذه العبارات، فهذا ما سنتناوله فی هذه الأبحاث.

تأمّلات

۱ – ماهیه الملائکه!

هنالک عدّه أبحاث تضمنتها الآیات القرآنیه بشأن الملائکه وصفاتهم وخصائصهم وأفعالهم والمهام المختلفه الموکله إلیهم. کما شحنت الروایات الإسلامیه بالأخبار التی تتحدث عن الملائکه ومقاماتهم وصفاتهم وأعمالهم، غیر انّه لم یرد البحث فی التحدث عن ماهیتهم، ومن هنا کثر الکلام بین العلماء والمتکلمین بهذا الشأن. فیری علماء الکلام، بل أغلب علماء الإسلام أنّ الملائکه موجودات ذات أجسام لطیفه.

---

۱ – ۱) «ناکسه» من ماده «نکس» علی وزن عکس بمعنی الانقلاب رأساً علی عقب ولذلک یطلق المنکوس علی الولید الذی یسقط علی رجلیه.

۲ – ۲) «متلفعون» من ماده «لفع» علی وزن نفع بمعنی الاشتمال علی الشیء والالتفاف به، ومن هنا یقال للمرأه حین تلف علیها عباءها «تلفعت المرأه» .

۳– ۳) «نظائر» جمع «نظیر» بمعنی المثل.

كما وردت بعض العبارات التى أشارت إلى النور على أنّه الماده الأصليه لخلقه الملائكه، فقد وردت العباره المعروفه بشأنهم فى أغلب المصادر الإسلاميه التى وصفتهم قائله: «الملك جسم نورى. . .» . أمّا المرحوم العلّامه المجلسى فقد قال: «ترى الإماميه بل جميع المسلمين سوى طائفه قليله من الفلاسفه أنّ الملائكه هم أجسام لطيفه نورانيه ولها أن تأتى بأشكال مختلفه. . . وانّ الأنبياء والأوصياء العصومين كانوا يرونهم» (۱). وبعباره اُخرى فانّ الملائكه أجسام نوريه والجن أجسام ناريه والانس أجسام كثيفه. امّا ما عليه جمع من الفلاسفه فهو أنّ الملائكه مجردون من الجسم والجسمانيات وأنّ لهم أوصاف لا يستوعبها الجسم. وقد نقل المرحوم «الشارح الخوئى» فى «منهاج البراعه» عدّه أقوال بهذا الخصوص بلغت سته أقوال، إلّاأنّ أصحاب هذه الأقوال هم قله قليله جداً.

لاشك أنّ وجود الملائكه - ولا سيما بالالتفات إلى تلك الصفات والمقامات والأعمال التى ذكرها القرآن - لمن الاُمور الغيبيه التى لا يمكن إثباتها وبتلك الخصائص والصفات إلّامن خلال الأدله النقليه.

فالقرآن يصف خصائصهم على أنّهم:

۱ - موجودات عاقله ذات شعور.

۲ - لا يعصون اللّه وهم بأمره يعملون.

۳ - إنّ اللّه قد أوكل لهم عدّه وظائف ومهام. فمنهم حمله العرش، ومدبرات الأمر، والمأموره بقبض الأرواح، حفظه أعمال البشر، حفظه الإنسان من المهالك والأخطار، المدد الإلهى لنصره المؤمنين فى المعارك، عذاب الأقوام الظالمه والطاغيه ومبلغى الوحى إلى الأنبياء.

۴ - اختلاف مقامات الملائكه وتفاوتهم فى الدرجات.

۵ - المداومه على تسبيح اللّه وتقديسه وتمجيده.

۶ - تمثلهم أحياناً بهيئه البشر وما شاكل ذلك للأنبياء وبعض العباد الصالحين كمريم عليها السلام.

وما إلى ذلك من أوصاف يتعذر إحصائها فى هذا البحث. وبحث ماهيه الملائكه فى أنّها

۱- ۱) بحار الأنوار ۵۶ / ۲۰۲ (باب حقيقه الملائكه) . [۱]

مجرده عن الجسم أو غير مجرده ليس من ورائه طائل، إلّاأنّ ظاهر الآيات والروايات - إذا لم نطرح لها توجيها وتفسيراً خاصاً - هو أنّ الملائكه ليس من قبيل المواد الكثيفه والعناصر الخشنه، مع ذلك فهم ليسوا مجردات مطلقه، لتضافر الروايات والآيات التى صرّحت بعروض الزمان والمكان والأوصاف الأُخرى الملازمه للأجسام عليهم. وهذا ما تؤكده عبارات الإمام عليه السلام فى هذا القسم من خطبته وكذلك ما ورد فى خطبته المعروفه بالأشباح. ولكن على كل حال فانّ الإيمان بالملائكه على نحو الإجمال لمن الأُمور التى أكد عليها القرآن الكريم، فقد ورد فى الآيه ٢٨٥ من سوره البقره قوله تعالى: «آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» . (١)

الجدير بالذكر هنا هو أنّ بعض المغفلين وارضاءً لأُولئك الذين ينكرون عوالم الغيب فقد عمدوا إلى تفسير الملائكه بالقوى والطاقات التى تختزنها الطبيعه الإنسانيه وسائر الموجودات والكائنات، والحال أنّ أدنى تأمل ونظره إجماليه للآيات القرآنيه تفيد رفض هذه الفكره تماماً؛ كيف لا وقد ثبتت بعض الصفات للملائكه من قبيل العقل والشعور والإيمان والاخلاص والعصمه.

٢ - أصناف الملائكه

الملائكه على أصناف وأقسام عديده على ضوء ما أشارت الآيات والروايات، وقد وردت فى هذه الخطبه الأصناف الأربعه الرئيسيه منهم «أرباب العباده والسفراء وحفظه العباد كالكرام الكاتبين ومنهم سدنه الجنان وحمله العرش» . ولكن وكما ذكرنا سابقاً فانّ الآيات القرآنيه قد أشارت إلى الأصناف الأُخرى من الملائكه، ومنهم الموكلون بعذاب الامم الطاغيه الظالمه، والموكلون بالامدادات الغيبيه ونصره المؤمنين ومدبرات الأمر وقبضه الأرواح، غير أنّه يمكن اختصار جميع هذه الطوائف فى مدبرات الأمر التى تتولى إداره شؤون

١- ١) سوره بقره / ٢٨٥. [١]

العالم. فقد اقتضت السنه الإلهيه وجرت بغيه اظهار قدرته وعظمته وتحقق أهدافه وأغراضه أن تسند إداره شؤون العالم إلى الملائكه المأتمرين بأوامر اللّه والبعيدين كل البعد عن الوهن والضعف والفتور والسهو والنسيان والتباطؤ فى الطاعه ولكل صنف من أصناف الملائكه وظيفته المختصه به.

والحق أنّ الإنسان إذا تأمل أقسام وأصناف الملائكه وسعه وعظمه الوظائف الموكله إليها يشعر بالتصاغر والحقاره ويتساءل من أكون فى خضم هذا العالم الواسع المليء بعمال اللّه وجنوده الذين لا يفترون عن عبادته وطاعته وامتثال أوامره؟ واين تكون عبادتى وطاعتى من هذه العباده والطاعه التى تؤديها الملائكه؟ وما قيمه قوتى وقدرتى مقارنه بقوه الملائكه وقدرتها؟ والخلاصه فانه يقف على عظمه هذا العالم والأعظم منه خالقه من جانب وحقارته ودنو موضعه من جانب آخر، وهذه إحدى حكم وفلسفه وجود الملائكه.

٣ – العرش وحملته

لقد أشارت الآيات القرآنيه عشرين مره إلى العرش الإلهى، كما كثرت الأبحاث التى تضمنتها الروايات الإسلاميه الوارده بهذا الشأن، وعلى ضوء بعض هذه الروايات فانّ عظمه العرش متعذره على التصور البشرى، حتى قيل بهذا الخصوص: ما السموات والأرضين وما فيها مقابل العرش إلّاحلقه فى صحراء عظيمه.

كما صرّحت بعض الروايات بأنّ أعظم ملائكه اللّه يعجزون عن بلوغ ساق العرش وانّ أسرعوا فى تحليقهم إلى يوم القيامه. كا جاء فى الخبر أنّ اللّه خلق للعرش ألف لسان وضمنه صوره جميع مخلوقاته فى الصحارى والبحار.

كما روى أنّ اللّه حين خلق العرش، أمر الملائكه بحمله، فما استطاعوا أن يحملوه، فخلق ملائكه، فعجزوا عن حمله، فحمله اللّه بقدرته، ثم أمر سبحانه ثمان من الملائكه المأمورين بحمل العرش أن احملوه.

فقالوا: وهل يسعنا حمله وقد عجزت الملائكه. فأمروا بذكر اللّه والقول «لاحول ولا قوّه

إلّا باللّه العلی العظیم» والصلوات علی محمد وآله، فلما فعلوا سهل علیهم حمله. (۱)

وتشیر کل هذه الکنایات إلی عظمه عرشه سبحانه، أمّا ماهیه العرش، فهی من الاُمور التی کثر البحث فیها بین العلماء، ونری ان الاستغراق فی شرح هذا الأمر إنّما یبعدنا عن الهدف الأصلی، ولذلک نکتفی بإشاره مختصره إلی هذا الموضوع:

فقد کان للملوک والسلاطین عرشان، أحدهما منخفض یعتلونه فی الأیام الاعتیادیه ویسیرون شؤون الحکم ودفه اُمور البلاد، وآخر مرتفع یرتقونه فی الأیام الخاصه والمرام المهمه والکبیره. وقد اصطلحت الآداب العربیه علی الأول بالکرسی والثانی بالعرش، وقد درجت هذه الآداب علی التعبیر بالعرش کنایه عن القدره والسلطه وإن افتقر العرش للدعامات المرتفعه، کما هناک المعنی الکنائی الآخر الذی یشیر إلی فقدان السلطه والذی جسدته العباره المشهوره «ثل عرشه» . وللّه هذان العرشان فی الامره والحکومه کونه سلطان عالم الوجود (وبالطبع لما کان اللّه لیس بجسم ولا فی زمره الجسمانیات فالمفهوم الکنائی هو المراد هنا من العرش والکرسی) .

علی کل حال یبرز هذا السؤال: ما کنه هذا العرش الإلهی؟ ومن التفاسیر التی یمکن ایرادها بهذا الشأن هو أنّ عالم الماده والسموات والأرضین والمنظومات والمجرات کلها بمثابه الکرسی وعرشه المنخفض کما أشار إلی ذلک القرآن الکریم بقوله: «وَسِعَ کُرْسِیُّهُ السَّمواتِ وَالأَرْضَ» ، والمراد بالعرش هو العالم الکامن وراء عالم الماده (الماده الکثیفه والغلیظه) ، التی لا تحیط بعالم الماده فحسب، بل لیس عالم الماده أمامه سوی مقدار تافه لا أهمیه له. امّا حمله العرش فمما لاشک فیه انهم لیسوا ملائکه غلاظ الهیکل وأقویاء الجسم والبنیه بحیث یحملون علی أکتافهم دعائم العرش الذی استوی علیه الرحمن؛ لأنّ للعرش - کما أشرنا سابقاً - معنی کنائی والقرائن العقلیه التی تفید تنزه اللّه عن الجسم والجسمانیه إنّما تؤید صحه هذا المعنی، وعلیه فحمله العرش ملائکه عظام ذوی مقامات رفیعه ولیس لهم من شبیه أو نظیر ولهم تدبیر عالم ما وراء الطبیعه وتنفیذ أوامره سبحانه فی کل مکان، امّا التعبیرات

---

۱ - ۱) منهاج البراعه فی شرح نهج البلاغه ۲ / ۳۲ - ۳۵، وقد أورد المرحوم العلّامه المجلسی الروایات المرتبطه بالعرش والکرسی فی المجلد ۵۵ من بحار الأنوار، ومنها الروایات السابقه فی ص ۵، ۱۷ و ۵۵.

التی ساقها الإمام فی أوصافهم بقوله «الثابته فی الأرضین السفلی أقدامهم، والمارقه من السماء العلیا أعناقهم، والخارجه من الأقطار أرکانهم، والمناسبه لقوائم العرش أکتافهم» فکل هذه تفید مدی قدرتهم فی تدبیر شؤون العالم. طبعاً یجب علینا أن نحمل الألفاظ أینما وردت علی معانیها الحقیقیه، إلّاأنّه یتعذر علینا ذلک الحمل ولا یبقی أمامنا سوی المعنی الکنائی کالذی أوردناه بشأن الآیه القرآنیه المبارکه «یَدُ اللّهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ» إذا کانت هناک القرائن العقلیه المسلمه. نعم لقد نهض هؤلاء الملائکه بالقیام بهذه الأُمور بالاستناد إلی قوتهم وقدرتهم، بل بحول اللّه وقوته، کما ینهمکون بالتسبیح والتقدیس وعدم الفتور عن ذکر اللّه، وهذا ما صورته الآیه السابعه من سوره المؤمن التی أکدت إلی جانب ذلک علی دعائهم واستغفارهم للمؤمنین «الَّذِینَ یَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَیُؤْمِنُونَ بِهِ وَیَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِینَ آمَنُوا» .

۴ – عصمه الملائکه

یتمتع الملائکه بصفات جمّه وقد تکفلت عباراته المذکوره (الوارده بشأن الطائفه من الملائکه المشغوله بالعباده) ببیان بعض هذه الصفات: «لا یغشاهم نوم العیون، ولا سهو العقول، ولا فتره الأبدان» . کما أشار القرآن إلی تنزههم عن الذنوب والمعاصی «بَلْ عِبادٌ مُکْرَمُونَ * لایَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ» (۱)، ووصف الموکلین بالعذاب منهم «لا یَعْصُونَ اللّهَ ما أَمَرَهُمْ» (۲).

طبعاً یتصور البعض أنّه لیس هنالک من مفهوم لعصمه الملائکه من عدمها، إلّاأنّ هذا التصور لا یبدو صحیحاً؛ صحیح أنّ الملائکه لا تنطوی علی دوافع الذنب والمعصیه من قبیل الشهوه والغضب (أو أنّها ضعیفه جداً فیهم) ، ولکن لا ینبغی الغفله عن أنّهم فاعلون ومختارون ولهم القدره علی ارتکاب المخالفه، بل إنّ الآیات القرآنیه تصرح بمدی خشیتهم من

۱– ۱) سوره الأنبیاء / ۲۶ – ۲۷. [۱]

۲– ۲) سوره التحریم / ۶. [۲]

العقاب الإلهی «وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ» (۱)، فالآیه الشریفه تکشف عن عصمتهم وطهارتهم من المعاصی فی ذات الوقت الذی یسعهم ارتکابها. ومن هنا تتضح مغازی بعض الروایات التی صرّحت بتباطؤ بعض الملائکه فی امتثال أوامر الحق وعقابهم علی هذا التباطؤ بصفته یمثل ترک الاولی الذی یصدق علی الأنبیاء، ونعلم جمیعاً بأنّ ترک الاولی لا یعدّ ذنباً قط، بل قد یکون عملاً مستحباً، إلّاأنّه یعتبر ترک الاولی مقارنه بعمل یفوقه، ونوکل الخوض فی تفاصیل هذا الموضوع إلی أبحاثه المختصه به.

۵ – مقام معرفه حمله العرش

یفهم من العبارات الوارده بهذا الشأن أنّ العامل الذی جعل حمله العرش مؤهلین للقیام بهذه المسؤولیه الخطیره لا یقتصر علی قوتهم وقدرتهم، بل یمتد ذلک إلی سعه وسمو مستوی معرفتهم باللّه تبارک وتعالی. فقد بلغوا أعظم مقامات التوحید ونفی کافه أشکال الشرک والشبیه والمثیل للحق تعالی، ومن هنا استحقوا أهلیه تحمل تلک المهمّه العظیمه؛ الأمر الذی یعتبر درساً لابدّ أن یتعلمه العباد وذوی المعرفه باللّه.

۱- ۱) سوره الأنبیاء / ۲۸. [۱]

القسم التاسع: خلق آدم علیه السلام

اشاره

«ثُمَّ جَمَعَ سُبْحانَهُ مِنْ حَزْنِ الْأَرْضِ وَسَهْلِها، وَعَذْبِها وَسَبَخِها، تُرْبَةً سَنَّها بِالْماءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلاطَها بِالْبَلَّهِ حَتَّى لَزَبَتْ فَجَبَلَ مِنْها صُورَةً ذاتَ أَحْناءٍ وَوُصُولٍ، وَأَعْضاءٍ وَفُصُولٍ، أَجْمَدَها حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَها حَتَّى صَلْصَلَتْ لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ، ثُمَّ نَفَخَ فِيها مِنْ رُوحِهِ، فَمَثُلَتْ إِنْساناً ذا أَذْهانٍ يُجِيلُها، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِها، وَجَوارِحَ يَخْتَدِمُها وَأَدَواتٍ يُقَلِّبُها وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِها بَيْنَ الْحَقِّ وَالْباطِلِ وَالْأَذْواقِ وَالْمَشامِّ وَالْأَلْوانِ وَالْأَجْناسِ، مَعْجُوناً بِطِينَةِ الْأَلْوانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْأَشْباهِ الْمُؤْتَلِفَةِ وَالْأَضْدادِ الْمُتَعادِيَةِ، وَالْأَخْلاطِ الْمُتَبايِنَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْبَلَّهِ وَالْجُمُودِ» .

الشرح والتفسیر بعد الإشارات البلیغه التی وردت فی الأقسام السابقه من هذه الخطبه العمیقه المضامین بشأن خلق العالم والسموات والأرض تناولت خطبه الإمام علیه السلام هنا خلق العالم والسموات ثم عرجت هنا إلی سائر مخلوقات هذا العالم ومن بینها خلق الإنسان ومراحله المختلفه والتی قسمها علیه السلام إلی خمس مراحل تکتنف تمام مسیره حیاته وهی:

۱ - خلقه آدم من ناحیه الجسم والروح (یعنی فی مرحلتین) .

۲ - سجود الملائکه لآدم وتمرد ابلیس.

۳ - إسکان آدم الجنّه ثم بیان ترک الاولی الذی صدر من آدم علیه السلام وندمه وتوبته وأخیراً قبول توبته واخراجه من الجنّه والهبوط إلی الأرض.

ص:۱۰۹

۴ – لقد أصبح لآدم ذريه ثم تكاثرت هذه الذريه فكونت المجتمعات البشريه ثم بعث اللّه أنبيائه عليهم السلام بكتبه السماويه المقدسه من أجل هدايه الناس وتنظيم شؤون المجتمعات البشريه والأخذ بأيديها إلى حيث السمو الروحى والرفعه والكمال.

۵ – المجتمعات البشريه من جانبها خطت خطوات عريضه نحو التكامل حتى تأهلت لتقبل الدين الخاتم حيث اصطفى اللّه رسوله محمد صلى الله عليه و آله فبعثه بالقرآن الكريم لهدايه الإنسانيه وانقاذها من خلال اطروحته التى تتضمن السعاده والفلاح، ثم تحدث الإمام عليه السلام عن القرآن.

مراحل خلقه آدم عليه السلام من الناحيه الجسميه والروحيه

قال الإمام عليه السلام بشأن خلق جسم آدم عليه السلام: «ثم جمع سبحانه من حزن (۱)الأرض وسهلها وعذبها (۲)وسبخها (۳)تربه» . فالعباره تشير إلى خلق الإنسان من التراب من جهه، كما تشير من جهه اُخرى أن ذلك التراب مركب من جميع المواد المختلفه على وجه الأرض لتنطوى على مختلف الاستعدادات وتشمل التنوعات والتقلبات التى تحتاجها المجتمعات البشريه فى مختلف مجالات حياتها، ثم أشارت إلى ماده اُخرى هى الماء والتى اختلطت بالتراب فقال عليه السلام بهذا الشأن «سنها (۴)بالماء حتى خلصت ولاطها (۵)بالبله حتى لزبت (۶)» .

فالواقع أنّ دور الماء هو خلط تلك الأجزاء المختلفه مع بعضها وتخليصها من شوائبها وارساء الوشيجه والرابطه بين هذه الأجزاء. ثم أشار عليه السلام إلى مسأله تبلور خلقه الإنسان من ذلك التراب والطين فقال عليه السلام: «فجبل منها صوره ذات أحناء (۷)ووصول وأعضاء وفصول» . فى الواقع «أحنا» جمع «حنو» إشاره إلى انحناءات البدن من قبيل انحناء الأضلاع

۱– ۱) «حزْن» على وزن «وزن» بمعنى المواضع الوعره على الأرض، كما يطلق الحُزن أو الحَزَن على الهم والغم، لأنه نوع وعوره فى روح الإنسان.

۲– ۲) «عذب» على وزن «جذب» بمعنى الماء الطاهر والحلو الصالح للشرب.

۳– ۳) «سبخ» وجمعها سباخ بمعنى ما ملح من الأرض.

۴– ۴) «سنّ» من ماده «سن» على وزن ظن بمعنى صب الماء على شىء، كما تأتى بمعنى نعومه الشىء.

۵– ۵) «لاط» من ماده «لوط» على وزن صوت بمعنى خلط الشىء وعجنه.

۶– ۶) «لزبت» من ماده «لزوب» على وزن سكوت بمعنى التصق وثبت واشتد.

۷– ۷) «أحنا» جمع «حنو» على وزن حرص بمعنى الانحناء والجوانب والأطراف.

والفـك العلوى والسـفلى وراحه القـدم بحيث يتكيف البـدن للقيام بمختلف الأعمال والفعاليات، وذلك لتعـذر قيامه بمثل هـذه الأفعـال التى يمارسـها اليوم لو كـان البـدن على هيئه جسم هندسـى مكعب أو مـا شـابه ذلك. أمّا العباره «وأعضاء وفصول» فهى تشـير إلى الأعضـاء المختلفه التى ترتبـط مع بعضـها من خلال المفاصل؛ الأمر الـذى أكسب البـدن القـدره العمليه على ممارسـه مختلف الانشـطه فلو كانت يـد الإنسان على سبيل المثال مسـتويه ذات عضو واحـد وعظم واحدلا تقوى على أداء الفعاليات التى تؤديها الآن، بينما نعلم أنّ البارئ سـبحانه جعلها عدّه عظام وغضاريف وعدّه أعضاء متصـله مع بعضـها البعض الآخر؛ الأمر الذى جعـل كل اصـبع بل كل سـلاميه من أصابعه واضافه لليـد تتمتع بعمليه خاصه وهـذه بـدورها تعـدّ آيه من آيات حكمته وعظمته سبحانه. ثم أشار الإمام عليه السـلام إلى مرحله لاحقه فقال: «اجمدها حتى استمسـكت واصلدها (١)حتى صلصلت (٢)» وبذلك فقـد أعـد الإنسان إعداداً تاماً من الناحه البدنيه بحيث يسـير إلى الغايه المعينه المرسومه له «لوقت معدود وأجل معلوم (٣)» . فقد روى فى بعض الروايـات عـن الإمـام البـاقر عليـه السـلام أن هـذه الحـاله دامـت أربعين سـنه، فكـان جسـد آدم ملقى فى موضع والملائكه تمر به وتقول لأى أمر خلقت؟ (۴)

ولعل هذه المدّه الزمانيه - كما صرّح بذلك بعض المحققين - كانت اختباراً للملائكه أو إرشاداً وتعليماً للناس بالتأنى فى الأُمور وعـدم الاسـتعجال فيها. وهنا جاءت المرحله الثانيه؛ مرحله نفـخ الروح فى الجسد ليتحول إلى هذه الطبيعه الإنسانيه التى زود فيها الإنسـان بقوى العقـل والإدراك التى تسوقه لممـارسه الأعمال: «ثم نفـخ فيها من روحه فمثلت (۵)إنسانـاً ذا أذهان يجيلها» (۶). العباره «ذا أذهان يجيلها» إشاره إلى مختلف القوى العقليه والذهنيه التى

١- ١) «أصلد» من ماده «صلد» على وزن صبر بمعنى أحكم وجعل الشىء صلباً أصلتاً.

٢ - ٢) «صـلصل» من مـاده «صلصـله» بمعنى اليبوسه والجفـاف بحيث تخرج منها الأصوات بمجرّد ملامسـتها لشـىء، كما وردت بمعنى الجاف والمحكم.

٣- ٣) اللاـم فى «لوقت معـدود» بمعنى إلى. ذهب البعض إلى أنّها لام التعليل، بينما احتمل البعض أنّ المراد بهـذه العباره هو أنّ هـذا الوضع سيسـتمر إلى قيام الساعه ثم تتفككك بعد ذلك أعضاء البدن تماماً، إلّاانّ هذا الاحتمال يبدو مسـتبعداً للغايه، لأنّه من المراحل المختلفه لخلق الإنسان ولم تطرح لحد الآن قضيه نفخ الروح.

۴- ۴) «فبقى أربعين سنه ملقى تمر به الملائكه فتقول لأمر ما خلقت؟» . منهاج البراعه ٢ / ۴۴.

۵- ۵) «مثلت» من ماده «مثول» على وزن حصول بمعنى استوت وقامت.

۶- ۶) «يجيل» من ماده «اجاله» (مصدر باب أفعال من جول وجولان بمعنى يدور) .

زود بها الإنسان ویوظف کلاً منها فی مجال من مجالات حیاته بحیث یلائم بینها جمیعاً فی مسیرته نحو الهدف المنشود (والقوی المذکوره عباره عن قوه الإدراک وقوه الحفظ وقوه الخیال و. . .) . وهنا لابدّ من الالتفات إلی أنّ الذهن فی الأصل یعنی القوه، ثم استعمل بمعنی العقل والفهم والدرایه وسائر القوی العقلانیه، فالعباره تشیر إلی أنّ الإمام علیه السلام قد عنی مختلف هذه القوی معتبراً کل واحده منها نعمه وعنایه من العنایات الإلهیه ثم قال علیه السلام: «وفکر یتصرف بها» . قد یتصور أحیاناً أنّ هذا التعبیر من قبیل العطف التفسیری والتعبیر الآخر لمفهوم العباره السابقه، غیر أنّ الظاهر هو أنّ کل عباره من العبارتین تشیر إلی حقیقه: فالعباره «ذا أذهان یجیلها» إشاره إلی مراحل المعرفه والتصور والتصدیق وفهم وإدراک الحقائق، وأمّا العباره «وفکر یتصرف بها» فهی إشاره إلی الأفکار التی تخضع لمرحله التطبیق ویتصرف الإنسان بواسطتها فی مختلف الأشیاء (لابدّ من الالتفات هنا إلی أنّ الفکر فی الأصل یعنی الحرکه الفکریه وتوظیف الذهن) . علی کل حال فقد جاءت مفرده «فکر» بصیغه الجمع (کالأذهان بصیغه الجمع) لتفیدان القوی العقلیه والأفکار الإنسانیه کثیره للغایه ومتنوعه، وهذه نقطه مهمّه أکدها کبار الفلاسفه والمفکرین وعلماء النفس، وإلیها تعزی الفوارق فی الاستعدادات الفکریه لافراد البشریه. فربما کان هناک الأفراد الأقوی فی قسم منها وأضعف فی القسم الآخر بینما هنالک العکس، فالمسأله تنطوی علی أسرار ورموز عجیبه للغایه، وکلما غاص الإنسان فی کنهها تعرف أکثر علی عظمه الحق خالق هذه القوی الذهنیه والفکریه. ثم یتطرق علیه السلام بعد ذلک إلی شیئین یسهمان فی ایصال الإنسان إلی هدفه المطلوب وهما الجوارح والأدوات التی زوده بها اللّه سبحانه لتسه له تحقیق ما یصبو إلیه «وجوارح یختدمها (۱)وأدوات یقلبها» . فالواقع هو أنّه یجتاز أربع مراحل لبلوغ الهدف: تمثلت المرحله الاولی بالمعرفه والإدراک والتصور والتصدیق ومرحله الفکر ومن ثم ائتمار الأعضاء والجوارح، وأخیراً الاستعانه بالأدوات المختلفه التی خلقها اللّه فی هذا العالم حین لا تجدی الأعضاء والجوارح بمفردها نفعاً، کما أنّ کل مرحله من هذه المراحل الأربع متنوعه تتفرع منها عدّه فروع. ولما

۱- ۱) «یختدم» من ماده «اختدام» بمعنی الاستخدام.

كـان بلوغ الأهـداف المرسومه يتطلب تشـخيصاً وتمييزاً للحق من الباطـل والصواب من عـدمه وكافه المحسوسات المختلفه، فانّه يتحـدث عن إحـدى قوى النفس المهمّه والتى تعتبر فى الواقع المرحله الخـامسه، ألاـ وهى قوه التميز ولاـ يراد بهـا سوى المعرفه «ومعرفه يفرق بهـا بين الحق والباطـل» . كمـا يتمكن بواسـطه هـذه القوه من تمييز المحسوسـات من قبيل الأطعمه والأذواق و. . . «والأـذواق والمشـام والألوان والأجناس» (١). والواقـع ان قـدره التميز والتشـخيص والمعرفه لمن أهم قـوى الإنسـان العقليه الـتى تشـمل الاُمور المعنويه كالحق والباطل كما تشمل الاُمور الماديه المحسوسه كالألوان والمشام والأذواق. فهل قوّه التميز هذه هى قوه مسـتقله، أم داخله فى مفهوم الذهن والفكر فى العباره السابقه؟ يبدو من كلامه عليه السلام أنّها قوّه مستقله، جدير بالذكر أنّ الحـديث تطرق لأـربعه أصـناف من الاُـمور المـاديه والمحسوسه وهى: الأـذواق، المشـام، الأـلوان والأجنـاس التى تشـير هنا إلى مختلـف أنـواع الموجودات (٢). من قبيـل مختلـف أنـواع النباتـات، الطيـور والحيوانـات ومـا إلى ذلـك، امّـا عـدم الإشـاره إلى المسـموعات (الأصوات) والملموسات فلأن بيان الأقسام الثلاث كان على نحو المثال، فذهن كل مسـتمع سـينتقل إلى بقيه ذلك من خلاـل الأقسـام الثلاـث المـذكوره. ثم ينتقل الإمام على عليه السـلام ليشـير إلى أهمّ خصائص الإنسان التى تشـكل المصـدر الرئيسـى لأـغلب ظواهر حيـاته فيقول: «معجوناً (٣)بطينه الأـلوان المختلفه» . ولعـل هـذه العبـاره إشـاره إلى اختلاف ألوان الناس وأعراقهـم المتفـاوته، أو اختلاـف لـون أجزاء البـدن حيث إنّ بعضـها تـام البيـاض (كبيـاض العين والعظـام) والآـخر تـام السـواد (كالشـعر) وسـائر الأـلوان الـتى يكسـبه خلطهـا جمالاً ـ خاصـاً، كمـا يمكن أن يكـون المراد بهـا معنى أوسع بحيث يشـمل سـائر الاستعدادات والغرائز المختلفه. ثم أضاف الإمام عليه السلام قائلاً: «والأشباه المؤتلفه» من قبيل الأورده والشرايين والأعصاب

---

١ – ١) أنّ العبـاره «والأـذواق والمشـام والأـلوان والأجنـاس» هى عطف على عبـاره الحق والباطـل، بينما عـدها البعض عطفاً على المعرفه. فى حين يفيد التأمل فى كلامه عليه السلام أن المعنى الأول هو الأنسب. وعلى ضوء المعنى الأول فان قوّه التميز المعرفه ستشمل كل هذه الاُمور، امّا على أساس المعنى الثانى فانّ المعرفه تعدّ من النعم الإلهيه، كما أن قوّه الشامه والباصره والذائقه هى نعمه اُخرى (لابدّ من التأمل هنا) .

٢ – ٢) «الجنس» فى اللغه بمعنى الأقسـام والأـنواع المختلفه، وهنـاك القرائن الوارده فى خطب نهـج البلاغه التى تـدل على هـذا المعنى ومنها الخطبه رقم ٩١.

٣– ٣) «معجوناً» حال للإنسان الذى ورد فى العباره السابقه.

والعظام التی تشبه إلی حدّ بعید بضها البعض الآخر، وفی نفس الوقت تقوم بعده وظائف ومهام. وأخیراً قال علیه السلام: «والاضداد المتعادیه والأخلاط المتباینه من الحر والبرد والبله والجمود» (۱). والعباره إشاره إلی الطبائع الرباعیه المعروفه فی الطب التقلیدی، والأطباء المعاصرون وأن تنکروا لهذه الطبائع لفظاً، غیر أنّهم اوردوها بتعابیر اُخری من قبیل الاستعاضه عن الحراره والبروده بارتفاع ضغط الدم وانخفاضه، کما یصطلحون بزیاده ماء الجسم وقلته بدلاً من البله والجمود.

علی کل حال فان عبارات الإمام علیه السلام آنفه الذکر إنّما تشیر إلی قضیه مهمّه فی أنّ اللّه سبحانه قد خلق جسم الإنسان (بل جسمه وروحه) مرکباً من مواد مختلفه وکیفیات متنوعه واستعدادات وغرائز متباینه، وأنّ هذه الفوارق والتباینات شکلت أساس التفاوت فی أسالیب التفکیر لدی أفراد الجنس البشری؛ الأمر الذی أدی فی خاتمه المطاف إلی تلبیه مختلف حاجات الجماعات البشریه واشغال المناصب الاجتماعیه علی ضوء تلک الاستعدادات بحیث تنتظم الاُمور ویوضع کل شیء فی موضعه فیتسق النظام العام، ولا یسع المقام الخوض أکثر فی تفاصیل هذا الموضوع.

تأمّلات

۱ – خلق آدم علیه السلام

نفهم من العبارات التی تضمنتها خطبه الإمام علیه السلام أنّ خلق آدم علیه السلام قد تمّ بصوره مستقله متکامله علی هذه الصوره التی نحن علیها الیوم دون أن یطوی مراحل النشوء والارتقاء من الکائنات الحیه المتسافله؛ الأمر الذی أکده القرآن کراراً علی لسان آیاته الشریفه. طبعاً کلنا نعلم بأن «القرآن الکریم» وکذلک «نهج البلاغه» لیسا من قبیل کتب العلوم الطبیعیه، بل هما کتابان تکفلا بهدایه الإنسان وتهذیبه بالدرجه الأساس إلی جانب الإشاره حسب المقام وما

۱- ۱) یمکن أن تکون جمله «من الحر والبرد» بیاناً للاخلاط المتباینه، أو للأضداد والأخلاط معاً.

يتناسب وأبحاثه العقائديه والتربويه إلى بعض مسائل العلوم الطبيعيه. امّا النظريه السائده اليوم فى الأوساط العلميه بشأن خلق الإنسان فهى نظريه «تكامل الأنواع» . ويرى أنصار هذه النظريه أنّ كافه أنواع الكائنات الحيه لم تكن سابقاً كما هى عليه اليوم، بل كانت موجودات بسيطه أحاديه الخليه ثم تكاملت بعد أن سبحت فى مياه المحيطات وغاصت فى أعماق البحار لتتكامل تدريجياً فتغيرت من نوع إلى آخر من خلال تغييرها لأشكالها فانتقلت من البحار إلى الصحارى. والإنسان هو أحد هذه الكائنات الذى قطع مسيرته التكامليه بعد أن اجتاز تلك المرحله التى كان فيها قرداً بشكل إنسان، وعليه فقد انحدر الإنسان من تلك الكائنات المتسافله. وبالطبع فان أنصار هذه الفرضيه قد انقسموا إلى عدّه طوائف، فمنها اتباع «لاماركّ» و «داروين» و «الداروينيه الحديثه» وطائفه «موتاسيون» (نظريه الطفره) وما إلى ذلك من الطوائف التى تقدم كل منها أدلتها على صحه نظريتها بهذا الشأن.

ويقف مقابل هؤلاء، أتباع ثبوت الأنواع حيث يقولون بأنّ أنواع الكائنات الحيه قد ظهر كل منها بصوره منفصله منذ البدايه بهذه الهيئه الحاضره، كما أقاموا أدلتهم وبراهينهم التى تعرض بالنقد للأدله التى اعتمدتها نظريه التطور والتكامل، ولا يسعنا الخوض فى تفاصيل هذه النظريه. ونكتفى هنا بالإشاره بصوره مقتضبه للمواضيع التاليه:

١ - يستفاد من القرآن الكريم وكذلك خطب نهج البلاغه مسأله ثبوت الأنواع على الأقل بالنسبه للإنسان، بينما لم ترد مثل هذه التصريحات بشأن سائر أنواع الكائنات - رغم أنّ بعض أنصار فرضيه التطور والتكامل التى تشمل الإنسان بشكل عام يصرون على توجيه الآيات القرآنيه وعبارات خطب نهج البلاغه بحيث تنسجم ونظريه النشوء والارتقاء، حتى ذهبوا إلى أنّ هذه الآيات والخطب أدله على مزاعمهم. إلّاأنّ المتتبع المحايد يذعن بأنّ هذه المزاعم تنطوى على تكلفات وحرج لا يمكن قبولها إلّامن خلاله.

٢ - إنّ قضيه التكامل والارتقاء أو ثبوت الأنواع ليست من قبيل القضايا التى يمكن إثباتها من خلال التجربه والأدله الحسيه والعقليه، وذلك لأنّ جذورها قد امتدت لملايين السنين السابقه، وعليه فان كل ما يورده أنصارها أو مخالفوها إنّما هى فرضيات وأدلتها ليست سوى

أدله ظنيه، وبناءً على ماتقوم فانه يتعذر القول بنفى آيات خلقه الإنسان وعبارات نهج البلاغه وفقاً لأقوال هؤلاء.

وبعباره اُخرى: ان العلوم تجد سبيلها وتعتمد معاييرها فى مثل هذه الفرضيات دون أن تقدح فى التعاليم الدينيه، ومن هنا كانت الفرضيات العلميه تشهد التغيير والتحول على الدوام، فلعل الغد يفرز كشف قرائن جديده بحيث تحظى فرضيه ثبوت الأنواع بأنصار أكثر. على سبيل المثال فقد طالعتنا الصحافه فى هذه الأواخر بخبر يفيد العثور على جماجم بشريه تعود لما قبل مليونى سنه وهى لا تفرق كثيراً مع الإنسان المعاصر؛ الأمر الذى زعزع مرتكزات فرضيه التكامل، وذلك لأنّ أصحاب هذه الفرضيه يزعمون أنّ الإنسان الذى كان يعيش قبل مئات الآلاف من السنين لم يكن بهذه الصوره التى عليها الإنسان اليوم أبداً. فالنتيجه التى يمكن أن نخلص إليها ممّا سبق أنّ هذه الفرضيات ليس لها من صمود واستقرار وغالباً ما تتزلزل أسسها ودعائمها بفعل الاكتشافات والاختراعات الحديثه، ولكن حيث ليس من سبيل سوى هذا فى العلوم الطبيعيه بصفته دعامه يعتمد عليها حتى تأتى فرضيه اُخرى فتطرد سابقتها وتقتحم الميدان. والخلاصه فانّ التعامل مع الفرضيات يختلف عنه تماماً مع المسائل العلميه القطعيه؛ فالمسائل العلميه القطعيه من قبيل تركب الماء من ذرتين أوكسجين وذره هيدروجين هى من اُمور الحس والتجربه والتى يمكن البرهنه عليها من خلال الأدله القطعيه، امّا الفرضيات فهى حدسيات تبرهن بسلسله من القرائن الظنيه، وهى تحظى بالقبول والتأييد مالم تقم القرائن العلميه المخالفه لها، دون أن يدعى أحد قطعيتها (۱).

۲ – التركيب المزدوج للجسم والروح

يستفاد ممّا مرّ معنا فى هذه الخطبه المسنجمه والآيات القرآنيه أنّ الإنسان خلق من عنصرين: العنصر المادى المركب من الماء والتراب (أبسط مواد العالم) والعنصر الآخر هو الروح الإلهيه الساميه، وهذا هو سر التضاد الباطنى للإنسان حيث تتنازعه الدوافع التى

۱- ۱) راجع من أجل الوقوف بصوره أعمق كتاب «الداروينيه وآخر فرضيات التكامل» . كما استعرضنا ذلك بصوره مقتضبه فى تفسيرنا الأمثل ۱۱ / الآيه ذيل الآيات ۲۶ حتى ۴۴ من سوره الحجر.

تسوقه إلى العالم المادى وتلك التى تدفعه إلى العالم الملائكى. فهو يتصف بالخلق والطبيعه الحيوانيه من جانب ويتحلى بالطبيعه الملكوتيه والروحانيه من جانب آخر. ولهذا أيضاً فهو يتمتع بقوس صعودى ونزولى تكاملى غايه فى العظمه بحيث زود بالملكات والاستعدادات التى تبلغ به فى قوس الصعود درجه «أعلى عليين» بينما يهبط فى النزول والانحطاط إلى «أسفل السافلين» وليت هناك مثل هذه الميزه فى الكائنات سوى للإنسان ولا تمنح سوى للمطهرين من الأفراد فتكسبهم قيمه ومنزله رفيعه، ولا غرو فقد تماسك وحفظ نفسه مقابل جميع عوامل الانحطاط وعناصر التسافل والانسياق نحو الماده والماديه وقد اجتاز كافه العقبات والمطبات. ولعل الملائكه عجزت عن إدراك ذلك الأمر قبل خلق آدم فظنت التكرار فى هذا الخلق دون حصول جديد، فحسبوا أنّ هذه الخلقه تحصيل حاصل من خلال تسبيحهم وتقديسهم. والمهم فى الأمر هو أنّ اللّه سبحانه قد نسب الروح التى نفخها فى آدم إليه سبحانه فقال: «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى» (۱). ونعرف على نحو البداهه أن ليس للّه من جسم ولا روح، وأنّه يهدف إلى بيان عظمه الأشياء التى يضيفها إلى نفسه من قبيل «بيت اللّه» و «شهر اللّه» فالهدف هو أن هذه الروح الآدميه تتمتع بآثار من صفات اللّه كالعلم والقدره والخلاقيه والابداع. والواقع هو أنّ اللّه قد نفخ فى آدم أشرف وأفضل روح، ولذلك نعت نفسه سبحانه بأحسن الخالقين فقال: «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ» (۲)ويالها من مصيبه أليمه ومفجعه أن يحث الإنسان الخطى نحو السقوط بحيث يتحول إلى ما يجعله أسوأ من الانعام «أُولئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» (۳)فى حين يمتلك مثل هذه الاستعدادات والقدرات والإمكانات التى تبلغ به الكمال والمقام الذى ينتظره ويؤهله لأن يتميز على كافه المخلوقات فيرتدى التاج العظيم الذى يكرمه على من سواه «وَلَقَدْ كَرَّمْنا. . .» .

۳ – الإنسان، اُعجوبه عالم الكون

يعتبر الإنسان – فى الحقيقه – من أعجب ظواهر عالم الوجود، وقد تضمن كلام الإمام عليه السلام

۱– ۱) سوره الحجر / ۲۹. [۱]

۲– ۲) سوره المؤمنون / ۱۴. [۲]

۳– ۳) سوره الأعراف / ۱۷۹. [۳]

إشاره إلى غيض من فيض أسرار الوجود: الاشتمال على الجوارح والأعضاء المتنوعه والقوى المختلفه والقدرات المتفاوته، والتركيب من العناصر المتضاده والتشكل من عدّه عوامل عجنت بصوره بالغه التعقيد بحيث جمع فيه كل شيء، حتى أصبح فى الواقع نموذج مصغر لجميع عالم الوجود، وعالم صغير يضاهى العالم الكبير. أتزعم أنّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فهذه الميزه التى يتحلى بها الإنسان تجعلنا نتعرف بصوره أعمق على أهميه خلقه من جانب، كما تلفت انتباهنا إلى مدى عظمه خالقه من جانب آخر، فمراد الإمام عليه السلام من هذه الميزه الفريده للإنسان إنّما يكمن فى الإشاره إلى عظمه الخالق وعظمه المخلوق.

ص:١١٨

القسم العاشر: بدايه انحراف ابليس

اشاره

«وَ اسْتَأْدَى اللّه سُبْحَانَهُ الْمَلائِكَهَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ فِى الْإِذْعانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ فَقالَ سُبْحانَهُ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ اعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّهُ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَهُ وَتَعَزَّزَ بِخِلْقَهِ النّارِ وَاسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصالِ فَأَعْطاهُ اللّه النَّظِرَهَ اسْتِحْقاقاً لِلسُّخْطَهِ وَاسْتِتْماماً لِلْبَلِيَّهِ وَإِنْجازاً لِلْعِدَهِ فَقالَ فَإِنَّک مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» .

الشرح والتفسير ما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيانه لقضيه خلق آدم حتى تطرق إلى موضوع آخر ذا صله وثيقه به مستخلصاً منه الدروس والعبر التى يمكن أن تحتذيها البشريه جمعاء فى مسيرتها إلى اللّه، فقال عليه السلام: «واستأدى اللّه سبحانه الملائكه وديعته لديهم وعهد وصيته إليهم فى الاذعان بالسجود له والخنوع (۱)لتكرمته فقال سبحان اسجدوا لآدم فسجدوا الّا إبليس» فالذى تفيده العباره أنّ اللّه قد أخذ عهد الملائكه مسبقاً بالسجود لآدم حين خلقه؛ الأمر الذى وردت الإشارات إليه فى القرآن الكريم ومنها الآيه ۷۰ و۷۱ من سوره ص: «إِذ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِكَهِ إِنِّى خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ» . (۲)فقد كانت الملائكه تدرک أنّ الوفاء بذلک العهد إنّما يحصل حين خلق آدم وتكامله بهذه

۱- ۱) «خنوع» بمعنى الخضوع والتواضع حسب «المقاييس» وأورد الآخرون ما يشبه هذا المعنى أيضاً.

۲- ۲) سوره ص / ۷۰ -۷۱. [۱]

الصوره الإنسانيه، ولذلك أمرهم اللّه سبحانه لما أتم خلقه بالسجود «اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ» (۱).

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغه أنّ هذا الأمر قد يكون مستغرباً لدى الملائكه ويثير اندهاشهم ولعلهم يتساهلون فى امتثاله لولا تلك المقدمه بذلك العهد الذى أخذ عليهم، ولذلك أعدهم اللّه سبحانه لهذا الأمر مسبقاً ليعلم أنّ مثل هذه المقدمات ضروريه فى الأوامر المهمّه. ثم يتطرق عليه السلام إلى الدوافع التى وقفت وراء تمرد ابليس فقال عليه السلام: «اعترته الحميه (۲)وغلبت عليه الشقوه وتعزز بخلقه النار واستوهن خلق الصلصال» . فالواقع أنّ العامل الأصلى لتمرده إنّما كان تلوثه الباطنى والذى عبر عنه بالشقوه إلى جانب الكبر والغرور والحميه والأنانيه التى تفرزها طبيعه ذلك الدنس الباطنى والذى غلب على فكره وأعمى بصيرته ليصده عن رؤيه الواقع فيغتر بخلقه النار ويراها أعظم شأناً من خلقه الطين والتراب؛ التراب الذى يعتبر مصدر جميع الخيرات والبركات والمنافع والفوائد، بالتالى حسب أن علمه ومعرفته إنّما تفوق حكمه اللّه - طبعاً لا يبدو هذا الحكم غريباً من الأفراد الذين يغرقون فى مثل هذا الحجب؛ فالإنسان الأنانى المضروب عليه بحجاب الغرور قد يرى القبه حبه والحبه قبه أحياناً، فعباقره الفكر وجهابذه العلم إذا ما ابتلوا بالغرور والأنانيه وحب الذات ربما يرتكبون أفضع الأخطاء والزلات. فالمراد بالشقاوه هنا تلك الموانع الباطنيه والصفات الرذيله التى كانت لدى الشيطان، وهى الموانع والصفات الاختياريه النابعه من أفعاله السابقه وهى ليست شقوه ذاتيه وغير اختياريه؛ لأنّ الشقاوه تقابل السعاده. وتعنى السعاده توفير الإمكانات وتمهيد السبيل من أجل الحركه نحو الصلاح والشقاوه تعنى المطبات والصعوبات التى تعترض هذا السبيل؛ والمهم أنّ كل هذه الاُمور إنّما تنبع من ذات أفعال الإنسان وسائر الموجودات المختاره لا- أنّها تستند إلى العوامل الجبريه والقهريه. على كل حال فان ابليس قد ارتكب هذه المعصيه الكبرى والخطأ الجسيم ليسقط

۱- ۱) سوره البقره / ۳۴. [۱]

۲- ۲) «الحميه» من ماده «حمى» على وزن نهى معناها الأصلى الحراره التى تنتج من الشمس والنار والمواد الاُخرى أو من داخل جسم الإنسان، كما يعبر أحياناً بالحميه عن القوه الغضبيه حيث إنّ حاله الإنسان تشتعل آنذاك، ويطلق الحمى على حراره البدن حين الارتفاع.

بالمره فيطرد من حظيره القرب الإلهى حتى أصبح من ألعن خلق اللّه وأبعدهم عن رحمته بفعل تلك المعصيه الخطيره؛ غير أنّ هذه اللعنه والطرد من الرحمه لم تكن لتوقظه فتمادى فى غيه وغروره واستناداً لسيره المغرورين والمتعصبين من ذوى الأنفه والحميه فقد باشر عملاً قبيحاً آخر تمثل بتوعده باغواء آدم وذريته، ثم سأل اللّه ويداقع اشباع غريزه غضبه وحسده النظره إلى يوم القيامه ليرتكب معصيه أُخرى أفدح من سابقتها «قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (۱). فاستجاب اللّه له لثلاث؛ استحقاقاً للغضب، وإكمالاً لابتلاء العباد وتمحيصهم وأخيراً انجاز ما وعده به «فأعطاه اللّه النظره استحقاقاً للسخطه واستتماماً للبليه وانجازاً للعده» ، ولكن ليس على ضوء ما سأل، بل جعل لذلك أجلاً معيناً «فقال أنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم» (۲). أمّا ما المراد بيوم الوقت المعلوم فهناك كلام واختلاف بين مفسرى القرآن ونهج البلاغه.

فذهب البعض إلى أنّ المراد بذلك انتهاء العالم وانقطاع مدّه التكليف (وعلى ضوء هذا المعنى فقد كانت الموافقه على بعض سؤال ابليس، لأنّه سأل النظره إلى يوم القيامه بينما أجيب بالنظره إلى ختام الدنيا) . بينما ذهب البعض الآخر أنّ المراد بذلك زمان معيّن وهو انقطاع عمر ابليس؛ الأمر الذى لا يعلمه إلّااللّه؛ وإلّا لو أعلنه آنذاك لكان إغراءً لابليس بالتمرد وارتكاب المعاصى. وأخيراً فقد احتمل البعض أنّ المراد يوم القيامه؛ لأنّ الآيه الخمسين من سوره الواقعه عبرت باليوم المعلوم عن يوم القيامه «قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ» . إلّاانّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً، لأنّه وعلى ضوء هذا التفسير قد استجيب لجميع طلباته، فى حين يفيد ظاهر الآيات القرآنيه أنّه لم يستجب إلّالبعض طلباته، أضف إلى ذلك فانّ الآيه التى وردت فى البحث قالت «يوم الوقت المعلوم» بينما قالت الآيه الوارده فى سوره الواقعه «يَوْمٍ مَعْلُومٍ» فالآيتان متفاوتتان، وعليه فالتفسير الصحيح هو التفسير الأول أو الثانى. من جانب آخر فقد جاء فى الحديث أنّ المراد بيوم الوقت المعلوم هو زمان ظهور إمام العصر والزمان المهدى (عج) والذى ينهى بدوره عمر ابليس (۳). وبالطبع

۱- ۱) سوره الحجر / ۳۶. [۱]

۲- ۲) إشاره إلى آيه ۳۷ و۳۸ من سوره الحجر « [۲]قالَ فَإِنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ * إِلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ» .

۳- ۳) تفسير نور الثقلين ۳ / ۱۴ ح ۴۶.

فان هذا لن يؤدى إلى اجتثاث جذور الذنب والمعصيه عن العالم بالمره وتنتفى قضيه الطاعه والامتحان الإلهى؛ لأنّ العامل الأصلى إنّما يكمن فى هوى النفس الذى يبقى سائداً فى الإنسان، بل حتى عامل انحراف الشيطان إنّما يعزى إلى هوى نفسه. (۱)

تأمّلات

۱ – عظمه مقام الإنسان

إنّ الآيات القرآنيه التى تناولت قضيه سجود الملائكه للإنسان فى عدّه سور لتشكل أحد الأدله المهمّه على أن الإنسان يمثل أفضل موجود فى عالم الخلقه وأشرف مخلوقات اللّه سبحانه (۲)، كما تشير هذه الآيات إلى سجود جميع الملائكه دون استثناء وخضوعها لآدم عليه السلام، وهذا بدوره دليل واضح على أفضليته عليه السلام حتى على الملائكه، ويبدو أنّ الهدف من هذه التأكيدات القرآنيه المستمره الفات انتباه الإنسان إلى عظم شخصيته الإلهيه والمعنويه؛ الأمر الذى يلعب دوراً مهماً فى تربيه النفس البشريه وتهذيبها وهدايتها.

۲ – كيف كان السجود لآدم؟

هناك عدّه أبحاث لدى المفسرين بشأن كيفيه السجود، وهل يجوز السجود لغير اللّه تعالى. يرى البعض أنّ ذلك السجود لم يكن إلّااللّه تعالى، غير أنّه حصل أمام آدم بينما كان معلولاً لخلق هذا الكائن العجيب؛ فى حين ذهب البعض الآخر إلى أنّ السجود كان لآدم، إلّاانّه لم يكن سجود العباده المختص باللّه تبارك وتعالى، بل كان سجود خضوع واكرام واحترام. وجاء فى كتاب عيون الأخبار عن كتاب الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «كان سجودهم للّه تعالى عبوديةً ولآدم إكراماً وطاعه لكوننا فى صلبه» (۳). فالذى يستفاد من هذا الحديث أن

۱- ۱) لقد تكفلت المناجاه الثانيه من المناجاه الخمسه عشر للإمام على بن الحسين عليهما السلام ببيان كيفيه تأثير هوى النفس وكذلك تأثير الشيطان فى انحراف الإنسان بصوره مفصله.

۲- ۲) سوره البقره / ۳۴ وسوره الاعراف / ۱۱ وسوره الاسراء / ۶۱ وسوره الكهف / ۵۰ وسوره طه / ۱۱۶.

۳- ۳) نور الثقلين ۱ / ۵۸. [۱]

السجده كانت تنطوى على بعدين؛ أحدهما عباه اللّه والآخر تكريم آدم عليه السلام. وشبيه ماذكر سابقاً هو ماورد فى الآيه ١٠٠ من سوره يوسف «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلى العَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً» . فقد جاء فى الحديث الذى روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام بشأن الآيه السابقه أنّه قال: «أمّا سجود يعقوب وولده فانّه لم يكن ليوسف وإنّما كان من يعقوب وولده طاعه للّه وتحيه ليوسف كما كان السجود من الملائكه لآدم» .

٣ – أسئله واستفسارات بشأن خلق الشيطان

هنالك عدّه أسئله واستفسارات بشأن خلق الشيطان وسوابقه وتمرده على الأوامر الإلهيه ومن ثم امهاله حتى الزمان المعلوم، وبالطبع فانّ المقام لا يسع الاسهاب والوقوف على التفاصيل، ولذلك سنقتصر على التعرض بأطناب لهذه المواضيع.

سؤال:

مهل ابليس من الملائكه؟ إنّ كان الجواب بالإيجاب فلم ارتكب تلك المعصيه الخطيره مع أن الملائكه معصومون، وإن كان الجواب بالنفى فى أنّه لم يكن من الملائكه، فما عله ذكره فى عداد الملائكه على لسان الآيات القرآنيه؟

جواب:

يقيناً لم يكن من الملائكه، فقد صرّح القرآن قائلاً: «كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (١)، إلّا أنّه قد اصطف مع الملائكه أثر جهوده فى الطاعه والعبوديه ولذلك عد واحد منهم، ولهذا السبب أيضاً وردت بعض خطب نهج البلاغه بما فيها الخطبه رقم ١٩٢ المسماه بالقاصعه التى عبرت بالملك عن ابليس؛ وناهيك عن ذلك فقد صرّح نفسه قائلاً: «خَلَقْتَنِى مِنْ نارٍ» (٢)ونعلم جميعاً بأنّ الجن قد خلقوا من النار لا الملائكه، وهذا ما صرّحت به الآيه الخامسه عشره من سوره الرحمن «وَخَلَقَ الْجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ» ، وقد أشارت بعض روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المعنى أيضاً (٣). أضف إلى ذلك فقد أشار القرآن إلى ذريه ابليس وولده

١- ١) سوره الكهف / ٥٠. [١]

٢- ٢) سوره ص / ٧٦. [٢]

٣- ٣) مجمع البيان ١ / ٨٢، ذيل الآيه ٣٤ من سوره البقره. [٣]

«أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِی وَهُمْ لَکَمْ عَدُوٌّ» (۱)بینما لیست للملائکه من ذریه.

سؤال:

کیف جاز علی اللّه سبحانه أن یسلط ابلیس علی الناس حتی أنّهم سلبوا قدره الدفاع؟ أضف إلی ذلک فما الضروره فی الاغواء والضلال؟ ومنحه تلک المدّه الطویله من العمر والمهله لیسعی سعیه فی اغواء بنی آدم وتوظیف کافه إمکاناته فی سبیل تحقیق هذا الهدف؟ جواب:

أولاً: أنّ الشیطان قد خلق طاهراً عفیفاً وقد جدّ لسنوات من أجل صون قدسیته وطهّره حتی قادته طاعته وعبودیته لأن یکون فی مصاف الملائکه، إلّاأنّه فی نهایه الأمر وأثر حبّه لذاته وکبره وغروره واستغلاله لحریته قد سلک سبیل الضلال فسقط إلی الحضیض.

ثانیاً: من الضروری الالتفات إلی نقطه مهمّه وهی أنّ نفوذ الوساوس الشیطانیه إلی باطن الإنسان لیس نفوذاً عبثیاً وإجبارییاً؛ بل إنّ الإنسان هو الذی یفسح المجال بإرادته واختیاره لهذا النفوذ سیجعله یستحوذ علی نفسه، حیث یمنح الشیطان تأشیره الدخول إلی حدود قلبه وهذا ما عبّر عنه القرآن الکریم بقوله: «إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ إِلّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِن الغاوِینَ» (۲).

وقال فی موضع آخر «إِنَّما سُلْطانُهُ عَلی الَّذِینَ یَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِینَ هُمْ بِهِ مُشْرِکُونَ» . (۳)

ثالثاً: لقد تضمنت عبارات الإمام علی علیه السلام رداً لطیفاً رائعاً علی السؤال المذکور حیث قال: «فأعطاه اللّه النظره استحقاقاً لسخطه واستتماماً للبلیه وانجازاً للعده» ؛ أی أنّ اللّه قد أجزل عقابه بمنحه هذه المهله من جانب؛ لأنّ الآیات القرآنیه تفید التحذیر الإلهی الشدید والمتکرر لأُولئک الذین یسیرون باتجاه الذنوب والمعاصی؛ فاذا فاد التحذیر وأثّر بهم ورجعوا عن غیّهم کان ذلک خیراً وإلّا أمهلهم ووکلهم إلی أنفسهم لیکون عذابهم أشد: «وَلا یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا أَ نَّما نُمْلِی لَهُمْ خَیْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِی لَهُمْ لِیَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ

۱- ۱) سوره الکهف / ۵۰. [۱]

۲- ۲) سوره الحجر / ۴۲. [۲]

۳- ۳) سوره الحجر / ۱۰۰. [۳]

«مُهِينٌ» (۱)، ومن جانب آخر فانّ وجود الشيطان يشكل اختباراً وامتحاناً ضخماً للناس، وبعباره اُخرى فانّه يمثل جسر الأفراد المؤمنين نحو السمو والتكامل - لأنّ وجود هذا العدو المقتدر بالنسبه للمؤمنين الذين يرومون انتهاج سبيل الحق ليس فقط لايستبطن أى ضرر فحسب، بل سيكون وسيله للتسامى والتكامل؛ حيث إننا نعلم بأنّ السمو والتكامل إنّما يتمّ عاده فى ظل التضاد وإذا ما رأى الإنسان نفسه أمام عدو شرس فانه سيوظف كافه طاقاته وقدراته ونبوغاته، وبعباره اُخرى فان وجود هذا العدو القوى سيؤدى بالإنسان إلى ممارسه مزيد من الحركه والجهد؛ الأمر الذى يقوده بالتالى إلى السمو والرقى والتكامل. بينما لايزيد هذا الأمر مرضى القلوب والآثمين المنحرفين سوى انحرافاً وبؤساً وشقاءً، والحق أنّهم استحقوا ذلك بما كسبت أيديهم: «لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَهً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالقاسِيَهِ قُلُوبُهُمْ» فالهدف هو أنّ اللّه يختبر اُولئك القاسيه قلوبهم وفيها مرض بالقاءات الشيطان، «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ» (۲).

سؤال:

كيف كانت شبهه ابليس بالتعزز بخلقه النار فيرى نفسه أفضل من آدم وبالتالى يعترض على حكمه اللّه؟ ونقول فى الجواب أنّ حب الذات والغرور تعدّ من أضخم الحجب التى تحول دون رؤيه الحقائق والواقعيات؛ وهذا ما حصل لابليس، فلم يدفعه ذلك إلى التمرد والعصيان فحسب، بل اعترض على الحكمه الإلهيه ليجعل ذلك حجه احتج بها فى شرف عنصره على عنصر آدم، فكيف أسجد لهذا الموجود الذى خلقته من طين بينما خلقتنى من النار، فقد ذهبت به الظنون إلى أفضليه النار على التراب، بينما لا يخفى أنّ التراب ينبوع مختلف الخيرات والبركات ومصدر جميع المواد الحيويه والمهمه والوسيله الرئيسيه لمواصله الحياه، كما يضم فى طياته أنواع المعادن والفلزات والجواهر وليس النار كذلك. صحيح أنّ النار والحراره تعتبر من سائر الوسائل

۱- ۱) سوره آل عمران / ۱۷۸؛ [۱]سوره الروم / ۴۱. [۲]

۲- ۲) سوره الحج / ۵۳ - ۵۴. [۳]

الحياتيه الضـروريه، لكن ممّا لاشك فيه أن الدور الأساسى إنّما تقوم به المواد الموجوده فى التراب والنار ليست سوى وسيله من أجل تكامل هذه المواد.

لقد صرّحت بعض الروايات (۱)أنّ وحده من أكاذيب ابليس هو زعمه بأنّ النار أفضل من التراب، والحال إننا نعلم بأنّ النار عاده مـا تتولـد من احتكـاك الأشـجار أو من المواد الـدهنيه وانّ أصـل الأشـجار هو الـتراب، كمـا أنّ الـدهون النبـاتيه والحيوانيه إنّما تسـتخرج بواسـطه من الأرض. أضف إلى ذلك أنّ امتياز آدم لم يقتصـر على أفضليه عنصر التراب؛ بل تكرمته إنّما استندت إلى عامـل أصـلى تمثـل بتلـك الروح العظيمه التى نفخت فيه «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى» . ولنفترض جـدلاً أنّ المـاده الاـولى فى خلقه الشيطان كانت أفضل من مثيلتها لدى آدم، فان هذا الأمر هو الآخر لا يقوى دليلاً على تمرده وعدم امتثاله لأمر اللّه بالسجود لآدم بفضـل تلـك الروح الإـلهيه التى حلت فيه واكسـبته ذلـك المقـام العظيم، ولعل الشـيطان كان يعلم بكل هـذه الاُمور إلّاأنّ الكبر والغرور والعجب وحب الذات أعمى بصره وبصيرته عن الاذعان للحق.

۴ – تبريرات جوفاء

لقد حاول بعض الفلاسفه – كما نقل ذلك ابن ميثم البحرانى رحمه الله فى شرحه لنهج البلاغه – أن يبرروا ويأولوا كافه تفاصيل قصه خلق آدم وسـجود الملائكه وتمرد ابليس وعـدم امتثاله لأمر اللّه ليحملوها على مفاهيم لا تنسـجم وظواهر تلك القصه. ومن ذلـك أنّهم قـالوا أنّ المراد بالملائكه الـذين اُمروا بالسـجود لآدم هو القوى البـدنيه المأموره بالخضوع أمام النفس العاقله (الروح البشـريه) ، والمراد بـابليس القوه الوهميه وجنود ابليس هى القوى النـابعه من الوهم وهوى النفس والتى تتعارض والقوى العقليه، امّـا المقصود بالجنّه التى طرد منها آدم فانّما يراد بها المعارف الحقه وأنوار الكبرياء الإلهيه! وما إلى ذلك من التأويلات الجوفاء التى لا أساس لها من الصحه. (۲)

۱– ۱) تفسير نور الثقلين ۴ / ۴۷۲ ح ۹۳.

۲– ۲) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ۱ / ۱۹۰ فصاعداً.

هذا نموذج من التفسير بالرأى الذى ورد النهى عنه فى الأحاديث والروايات على أنّه سبب السقوط والابتعاد عن اللّه سبحانه.

فكلنا نعلم بأنّ التفسير بالرأى وتحميل الأحكام الذهنيه المسبقه على الآيات والروايات يعدّ على الدوام من أهم الوسائل التى تمسك بها المحرفون والمتصنعون المتلبسون بالدين الذين لا يألون جهداً فى توجيه الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه بما ينسجم ورغباتهم ونزعاتهم، كما نعلم بأنّ الباب لو فتح أمام تفسير الآيات والروايات بالرأى فسوف لن يبقى هناك من أصول مسلمه ومبانى وأحكام قانونيه ثابته وسيصبح كل شىء تابع للأفكار الخاطئه والأهواء الضاله لهذا وذاك، بل سيهجر الكتاب والسنه ويصبحان طينه بيد المنحرفين والمغرضين يصنعون منها ما شاءت أهوائهم ورغباتهم. ومن هنا طالعنا إصرار كبار محققى الإسلام والباحثين بضروره استخدام القواعد المسلمه لباب الألفاظ فى فهم معانى الكتاب والسنه. فالألفاظ لابدّ أن تحمل على معانيها الحقيقيه، اللّهم إلّاأن تكون هناك قرائن جليه تدعو لحملها على المعانى المجازيه؛ ويراد بها القرائن المقبوله لدى العرف والعقلاء الذين يستندون إليها فى إقامه أدلتهم وبراهينهم (۱).

وأخيراً فان ذكر قصه ابليس وعاقبته كما وردت فى عبارات الإمام على عليه السلام لتنطوى على الدروس والعبر التى ينبغى أن تحتذيها البشريه فى مسيرتها فينظروا بعين الاعتبار إلى نتائج الكبر والغرور وحب الذات والحميه والعاقبه المشؤومه لابليس وطرده من ماقم القرب لتلاحقه اللعنات والشقاء الأبدى، فتكون على حذر من سلوك هذا الطريق الخطير. ونختتم الحديث بما أورده العالم الجليل المرحوم مغنيه فى شرحه لنهج البلاغه فقد خلص إلى عدّه دروس من قصه ابليس منها:

۱ - من حسد صاحب فضيله أو عادى إنساناً لرياسته وعمله فانّه على دين ابليس ومن رهطه يوم القيامه.

۲ - ليس هنالك من سبيل لمعرفه الدين والأخلاق الحميده سوى سبيل واحد وهو

۱- ۱) راجع كتاب التفسير بالرأى لآيه اللّه مكارم الشيرازى بشأن هذا الموضوع.

التسليم للحق والثبات عليه مهما كانت النتيجه.

۳ - أنّ أغلب الناس يصرون على الباطل لا على أساس عدم معرفتهم به، بل بسبب العناد واللجاجه ضد مخالفيهم، وهذا الاصرار الخاطئ إنّما ينتهى بهم إلى أسوأ العواقب. فلو تاب ابليس ورجع عن خطأه لقبل اللّه توبته وقد كان له مثل هذا الاستعداد، إلّاأنّه كان يعتقد بشرط وهو ألا يأمره اللّه بالسجود لآدم ثانيه بينما اشترط اللّه قبول توبته بذلك الشرط. (۱)

۱- ۱) فى ظلال نهج البلاغه ۱ / ۵۱. [۱]

القسم الحادی عشر: عاقبه آدم

اشاره

«ثُمَّ أَسْکَنَ سُبْحانَهُ آدَمَ داراً أَرْغَدَ فِیها عَیْشَهُ وَآمَنَ فِیها مَحَلَّتَهُ وَحَذَّرَهُ إِبْلِیسَ وَعَداوَتَهُ فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفاسَهً عَلَیْهِ بِدارِ الْمُقامِ وَمُرافَقَهِ الْأَبْرارِ فَباعَ الْیَقِینَ بِشَکِّهِ وَالْعَزِیمَهَ بِوَهْنِهِ وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً وَبِالاغْتِرارِ نَدَماً ثُمَّ بَسَطَ اللّهُ سُبْحانَهُ لَهُ فِی تَوْبَتِهِ وَلَقّاهُ کَلِمَهَ رَحْمَتِهِ وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَی جَنَّتِهِ وَأَهْبَطَهُ إِلَی دارِ الْبَلِیَّهِ وَتَناسُلِ الذُّرِّیَّهِ» .

الشرح والتفسیر کان الحدیث فی مامضی عن اختبار الملائکه وتمرد ابلیس، بینما تطرق الحدیث هنا عن امتحان آدم والنتیجه التی تمخض عنها هذا الامتحان. ونقول هنا ما تفیده بعض الآیات القرآنیه هو أنّ آدم قد خلق للعیش فی الأرض. فقد قال سبحانه وتعالی فی الآیه ۳۰ من سوره البقره «إِنِّی جاعِلٌ فِی الأَرضِ خَلِیفَهً» ، کما أشارت الآیه ۳۶ من نفس السوره إلی المراد بالأرض موضع غیر الجنّه (الجنّه بأی معنی کانت) : «وَقُلنا اهْبِطُوا بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَکُمْ فِی الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلی حِینٍ» .

علی کل حال کان لابدّ لآدم من دوره تدریبیه وامتحان إلهی یمده بتجربه لیتعرف علی المفاهیم من قبیل الأمر والنهی والتکلیف والطاعه والمعصیه والندم والتوبه ویتعرف عن قرب علی عدوه، ومن هنا أسکنه اللّه الجنّه وأباح له التمتع بنعیمها ولم یحظر علیه سوی الاقتراب من تلک الشجره، إلّاأنّ وساوس الشیطان ومکره وحیله قد أثرت فی آدم ودفعته إلی ترک الاولی، فتناول من تلک الشجره ویهبط من الجنّه؛ الأمر الذی أدی بالتالی إلی یقظته وعودته

إلی اللّه فی التوبه والإنـابه، فاحفه اللّه بلطفه وعنایته فالهمه کیفیه التوبه، فتاب اللّه علیه ووعـده بالعوده إلی الجنّه، فکان من الآثار الوضـعیه لفعل آدم أن یحرم من تلک النعم والدعه فی الجنّه لأن یهبط إلی الأرض فیمارس الحیاه المملیئه بالتعب والمشقه. ما مر معنا لحد الآن نظره کلیه عامه إلی خطبه الإمام بشأن قصه آدم علیه السلام، ونخوض الآن فی شرح تفاصیل الخطبه.

قال علیه السـلام: «ثم اسکن سبحانه آدم داراً أرغد (۱)فیها عیشه» ثم قال علیه السـلام: «وآمن فیها محلته» فی إشاره واضحه إلی أنّ البارئ سـبحانه قد أفاض علیه رکنین رئیسـیین من الأرکان المهمّه للحیاه وهما: الأمن ووفور النعمه. والواقع هو أنّ الإمام علیه السـلام قد استوحی ذلک المعنی من الآیه ۳۵ من سوره البقره: «وَقُلْنـا یا آدَمُ اسْـکُنْ أَنْتَ وَزَوْجُکَ الجَنَّهَ وَکُلا مِنْها رَغَـداً حَیْثُ شِئْتُما» . کما حـذر اللّه سـبحانه آدم علیه السـلام من عدوه ابلیس «وحذره ابلیس عداوته» وبذلک فقد أرشده إلی سبیل السـعاده والفلاح، کما أتم علیه الحجه بابانته لطرق البؤس والشـقاء. وهذا ما صـرحت به الآیه ۱۷ من سوره طه إذ قـالت: «فَقُلْنا یا آدَمُ إِنَّ هـذا عَـدُوٌّ لَکَ وَلِزَوْجِکَ فَلا یُخْرِجَنَّکُما مِنَ الجَنَّهِ فَتَشْـقی» واتماماً للحجه أکثر فقد دله علی الشـجره التی لا ینبغی إلیه الاقتراب منهـا، بینمـا أبـاح له التمتع بثمـار کافه أشـجار الجنّه، غیر أنّ آدم علیه السـلام وبسـبب عـدم امتلاکه التجربه الکافیه بشأن مکائد الشیطان وحبائله قد آل أمره إلی الوقوع فی مصیده الشیطان، فأشار الإمام علیه السلام إلی هذه المسأله بقوله: «فاغتره عدوه نفاسه (۲)علیه بـدار المقـام ومرافقه الأبرار» . ویبـدو أن هـذه هی الوظیفه التی نهض بها الشـیطان، حیث یسـعی للاقتراب من الصالحین والخیرین لیوسوس لهم ویسلبهم النعم والإلهیه ویقودهم نحو البؤس والشقاء. ثم أشار علیه السلام إلی الأمر الرئیسی فی خطأ آدم علیه السلام: «فباع الیقین بشکه» کما ضعف تجاه الوساوس

---

۱ – ۱) «أرغـد» من مـاده «الرغـد» بمعنی الحیـاه الرغیـده الوادعه، کمـا ترد بمعنی النعمه الوافره بالنسـبه للإنسـان والحیوان أیضـاً (المفردات ومقاییس اللغه) .

۲ – ۲) «نفـاسه» من ماده «النفس» علی وزن «حبس» بمعنی الروح، ولما کان التنفس مصـدر الحیاه فقـد اسـتخدمت هـذه المفرده لذلک المعنی، ثم وردت «المنافسه» بمعنی السـعی من أجل الوصول إلی مکانه مهمّه، لأنّ الإنسان یجهد نفسه فی ذلک السعی، ومن هنا استعملت «النفاسه» بمعنی الحسد والبخل (المفردات ومقاییس اللغه ولسان العرب) .

الشیطانیه التی کان ینبغی له مجابهتها بعزمه الراسخ «والعزیمه بوهنه» (۱)والعباره إشاره للآیه ۱۱۵ من سوره طه «وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلی آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِیَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» . (۲)نعم صحیح أنّ الشیطان أقسم لهما بأنّه لا یرید بهما إلّاالنصیحه والخیر «وَقاسَمَهُما إِنِّی لَکُما لَمِنَ النّاصِحِینَ» (۳)ولکن هل کان علی آدم أن یثق بوعد اللّه القائم علی الیقین أم یصغی إلی کلام الشیطان القائم علی أساس الشک والوهم؟ لاشک إن نسیان هذه الحقیقه وإغفالها جعلت آدم یقدم علی تلک المعامله التی لا تنطوی سوی علی الغبن والضرر فضعف عزیمته فی طاعه اللّه. وهذا بحد ذاته درس وعبره لکافه بنی آدم فی ضروره الاستناد إلی عوامل الیقین فی جمیع معاملاتهم واجتناب طرق الشک والغموض والابهام فی مراعاه الاحتیاط وعدم اقتحام أی میدان دون دراسه ظروفه وملابساته، وذلک لأنّ الشیاطین درجت علی تنمیق سبلها المفسده بما یکسبها ظاهراً أنیقا فی حین لا تستبطن سوی النار المستعره التی أوقدها لبنی آدم. أجل هنالک الدروس والعبر القیمه فی قصه آدم والتی لابدّ للبشریه من وضعها نصب عینها فی حیاتها حتی قیام الساعه.

ثم تطرق علیه السلام إلی النتائج المریره التی أفرزتها تلک المعامله فقال: «واستبدل بالجذل» (۴)وجلا (۵)وبالاغترار ندما» . وهنا نسأل ماهی الحوادث التی دفعت بآدم للالتفات إلی خطأه وبالتالی حسرته وندمه

۱- ۱) هناک احتمالان حول رجوع الضمیر فی «شکه» و «وهنه» ، فقد صرّح أغلب شرّاح نهج البلاغه بأنّ الضمیر یعود إلی آدم؛ أی أن آدم علیه السلام باع یقینه بشکه وعزمه بوهنه وضعفه. بینما الاحتمال الآخر أن یکون الضمیر عائداً إلی إبلیس فی المفردتین وذلک لأنّه هو الذی أوجد هذا الشک والوهن، ففی الواقع هو اضافه إلی السبب لا مفعول. لکن یبدو الاحتمال الأول أصوب من الثانی.

۲- ۲) سوره طه / ۱۱۵. [۱]

۳- ۳) سوره الاعراف / ۲۱. [۲]

۴- ۴) «الجذل» علی وزن الجدل بمعنی الفرح والسرور کما وردت فی صحاح اللغه، وقال صاحب المقاییس أنّ الجذل علی وزن الجسم بمعنی جذر الشجره الذی یقومها ویمنحها الاستقامه، ومن هنا کانت قامه الفرحان مستویه بینما کانت قامه المغموم منحنیه، کما تطلق أحیاناً علی الأرض اللزجه، إلّاأنّها استعملت بمعنی الفرح.

۵- ۵) «وجل» علی وزن أجل بمعنی الخوف والخشیه.

على ما فرط منه؟ يبدو أنّ الإمام عليه السلام أجمل عبارته بهذا الشأن، بينما تصدى القرآن الكريم فى أكثر من آيه لشرح التفاصيل: فحين استسلم آدم لوساوس الشيطان وأكل من تلك الشجره المحظوره، لم تمر عليه مدّه حتى نزع عنه لباس الجنّه وبدت سوأته التى قدر لها أن تخفى، فشعر بالخجل من الملائكه وطفق يخصف عليها من ورق الجنّه، ثم أعقب ذلك ما تلقاه من أمر بالهبوط من الجنّه على أنّه يمثل جزاء كل من يولى ظهره لأوامر اللّه ويستجيب لوساوس الشيطان. إلّاأنّ آدم عليه السلام وخلافاً لسلوك الشيطان وتجربته الخاطئه، لم يصر على خطأه ويركب رأسه ويواصل معصيته، فأقبل فوراً على اللّه سائله بلطفه ورحمته أن يتوب عليه، فعلمه كيفيه التوبه ثم وعده العوده ثانيه إلى الجنّه «ثم بسط اللّه سبحانه له فى توبته ولقاه كلمه رحمته ووعده المرد إلى جنّته» (۱). على كل حال فان قبول التوبه لم يبق على آدم فى الجنّه، حيث لم يعدّ هنالك من مبرر لمواصله حياته فيها، فقد تعلم ما كان ينبغى عليه تعلمه وجرب ما كان لابدّ له من تجربته. ولذلك أهبطه اللّه إلى دار الدنيا - الامتحان -؛ دار التزاوج والذريه «وأهبطه إلى دار البليه وتناسل الذريه» . فالذى يستشف بوضوح من هذه العباره أنّ الدنيا دار البلاء والامتحان، وما مر فى الجنّه كان تحضيراً لخوض هذا الامتحان، كما لا مكان فى الجنّه للتزاوج والتناسل، بل ذلك من مختصات الدنيا.

تأمّلات

۱ - ما كانت جنّه آدم؟

ذهب جماعه إلى أنّ الجنّه التى سكنها آدم عليه السلام كانت جنّه الخلد التى وعد اللّه عباده

۱- ۱) هناك كلام فى الضمير «جنته» هل يعود إلى اللّه أم إلى آدم. فلو كان عائداً إلى آدم، فان ظاهر العباره يفيد إرجاعه إلى الجنّه [۱]التى كان فيها عليه السلام، وإن عاد الضمير إلى اللّه فلا لزوم أن تكون تلك الجنّه [۲]التى كان فيها آدم، ويمكن أن تكون جنّه آدم جنّه دنيويه أو الجنّه [۳]التى سيعود إليها وهى الجنّه [۴]الأخرويه كجنّه الخلد، لكن الظاهر أن الضمير يرجع إلى لفظ الجلاله بقرينه الضمير فى توبته ورحمته، رغم أنّ ظاهر كلمه (مردّ) يفيد العودهتلك الجنّه، [۵] ويمكن أن تكون مطلق الجنّه، [۶] بعباره اُخرى ليس هنالك من منافاه بين نوع الجنّه [۷]مع المفرده «مردّ» .

الصالحين، بينما ذهبت جماعه اُخرى إلى أنّها كانت جنّه دنيويه غنيه بحدائقها وبساتينها، وقد استدلت هذه الجماعه ببعض الأدله فيما اعتقدت:

بادئ ذى بـدء أنّ الجنّه الموعوده بعـد القيامه هى جنّه خالـده لا يعتريها الخروج. وقد يقال فاذا كانت كذلك فأنى لابليس الذى يفيض كفراً وعناداً وطغياناً أن يدخل هذه الروضه المقدسه؟

فـاذا قيـل بـأن إبليس لم يوسوس لآـدم فى الجنّه قـط، بـل وسوس له وقـد وقف خارجـاً على بابهـا، قلنا بانّ ذلك لا ينسـجم وما صرّحت به الآيه ۳۶ من سوره البقره التى قالت: «وَقُلنا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» التى تشمل آدم وحواء وابليس معاً.

أضف إلى ذلك فقد صرّحت الروايات الكثيره الوارده عن أئمه أهل البيت عليهم السلام أنّ تلك الجنّه كانت من جنان الدنيا.

فقد جاء عن حسين بن بشار أنّه قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن جنّه آدم، فقال عليه السلام: «جنّه من جنان الدنيا يطلع عليها الشمس والقمر ولو كانت من جنان الخلد ما خرج منها أبداً» (۱).

كما أورد المرحوم الكلينى فى الكافى عن حسـين بن ميسـر مثل هـذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السـلام (۲)- امّا الإشكال الوحيـد الذى يرد على هذا الكلام فانما يكمن فى العباره السابقه من هذه الخطبه «نفاسه عليه بدار المقام» ، لكن من الممكن أن يكون معنى هـذه العبـاره هو أنّه لو لم يرتكب هـذه المخـالفه لبقى مـدّه طويله فى هـذه الجنّه ثم يهبـط إلى الأرض، إلّاأنّه تركه للاولى أسـرع فى إخراجه من الجنّه وهبوطه إلى الأرض، أو أن يقال أنّه أراد سـبحانه أن يحرم آدم من جنّه الخلد، فلو كان آدم مطيعاً لأوامر اللّه لالتمس طريقه إلى تلك الجنّه.

۲ – هل اقترف آدم معصيه؟

يرى أولئك الذين يجوزون ارتكاب الذنب على الأنبياء - ولاسيما فى مثل هذه الاُمور - أنّ

۱- ۱) بحار الانوار ۱۱ / ۱۴۳، ح ۱۲. [۱]

۲- ۲) الكافى ۳ / ۲۴۷، باب جنّه الدنيا، ح ۲.

آدم علیه السلام قد ارتکب المعصیه، بینما لا یری أتباع مدرسه أهل البیت علیهم السلام الذین یؤمنون بعصمه الأنبیاء عن کل خطأ وزلل - سواء فی باب العقائد وتبلیغ الأحکام الشرعیه أو فی باب الأعمال والأفعال الیومیه قبل النبوّه وبعدها - (۱).

أنّ آدم علیه السلام قد قارف أیه معصیه وأن نهی اللّه لآدم علیه السلام عن تلک الشجره المحظوره لم یکن نهیاً تحریمیاً، بل کان فعلاً مکروهاً، ولما کان مقام الأنبیاء ولاسیما آدم علیه السلام الذی سجدت له الملائکه لمن العلو والرفعه بحیث لا یتوقع ارتکابهم للمکروه، فان فعلوا ذلک آخذهم الحق سبحانه فحسنات الأبرار سیئات المقربین - وبعباره اُخری الذنوب علی قسمین: ذنوب مطلقه وذنوب نسبیه. الذنوب المطلقه هی الذنوب لدی الجمیع من قبیل الکذب والسرقه وشرب الخمر، أمّا الذنوب النسبیه فهی لیست بذنوب لدی عامه الناس، بل قد تکون مستحبه لدی البعض من الناس، بینما نفس هذه الأعمال المستحبه والمباحه قد یطلق علیها اسم المعصیه فیما إذا صدرت من المقربین الذین یستبعد أن یقوموا بمثل هذه الأفعال، إلّاأنّها لیست من قبیل الذنوب المطلقه بل الذنوب النسبیه والمراد بها هنا «ترک الاولی» . کما ذهبت جماعه إلی النهی عن تلک الشجره المحظوره علی آدم علیه السلام کان نهیاً إرشادیاً لا نهیاً مولویاً، علی غرار نصائح الطبیب وإرشاداته حین ینصح مریضه بعدم تناول الطعام الفلانی خشیه من استفحال المرض وازدیاد مدته. فمن البدیهی أنّ مخالفه نصائح الطبیب لا تعتبر اهانه له ولا تعدّ معصیه لأوامره، بل ستجر تلک المخالفه علی صاحبها مزیداً من الألم والمعاناه.

وهذا هو المعنی الذی أشارت إلیه بعض الآیات القرآنیه بشأن قصه آدم علیه السلام: «فَقُلْنا یا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَکَ وَلِزَوْجِکَ فَلا یُخْرِجَنَّکُما مِنَ الجَنَّهِ فَتَشْقی» (۲).

وقد ورد فی بعض الروایات أنّ آدم علیه السلام لم یتناول من تلک الشجره المحظوره، بل أکل من شجره مشابهه لها، ولذلک قال لهما الشیطان فی ضمن وساوسه إنّ اللّه لم ینهکما عن هذه الشجره

---

۱ - ۱) قال ابن أبی الحدید: تعتقد الإمامیه لایجوز علی اللّه أن یبعث نبیاً وقد ارتکب المعاصی قبل نبوته سواء الکبیره أو الصغیره، عمداً أو سهواً؛ وتختص هذه العقیده بالإمایمه، أمّا أصحابنا فلا یرون امتناع الکبائر علی النبی قبل نبوّته. وأضاف ابن أبی الحدید وهذا ما یعتقده الإمامیه بالنسبه لأئمتهم الاثنی عشر حیث یرون لهم عصمه مطلقه کعصمه الأنبیاء (شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۷ / ۱۰) . [۱]

۲- ۲) سوره طه / ۱۱۷. [۲]

«وَقالَ ما نَهیکَما رَبُّکَما عَنْ هـذِهِ الشَّجَرَهِ» (۱). أضف إلی ذلـک فهناک نقطه مهمّه لابـدّ من الالتفات لها والتی تکمن فی قسم الشیطان لاثبات حسن نیته فی دعوتهما للأکل من تلک الشجره «وَقاسَمَهُما إِنِّی لَکُما لَمِنَ النّاصِحِینَ» (۲)ولم یکن آدم وحواء آنذاک سمعا من یقسم کاذباً؛ الأمر الذی جعلهما یصغیان إلی وساوس الشیطان.

بالطبع لو تأملا قلیلاً لاکتشفا کذب الشیطان؛ لأنّ اللّه سبحانه قد حذرهما سابقاً مکائده وأنّه عدو لهما، ومن الواضح أنّه لایمکن الوثوق بکلام العدو وإن عززه بالإیمان المغلظه.

۳ – ماحقیقه الشجره المحظوره؟

اختلفت أقوال المفسرین بشأن الشجره المحظوره علی آدم علیه السلام هل کانت شجره خارجیه اعتیادیه أم مسأله معنویه أخلاقیه، وإن کانت ماديه أو معنویه فما هی هذه الشجره؟

نتناول هذه القضیه بالبحث المقتضب رغم أنّ أمیر المؤمنین علیه السلام لم یتعرض فی خطبته لتلک الشجره حیث وردت الإشارات فیها إلی قصه إبلیس ووساوسه لآدم علیه السلام.

فقد أشار القرآن الکریم فی سته مواضع إلی تلک الشجره المحظوره دون الخوض فی ماهیه تلک الشجره، غیر أنّ الأخبار والروایات الإسلامیه وکلمات المفسرین قد تضمنت أبحاثاً مسهبه بهذا الخصوص – حیث فسرها البعض بشجره الحنطه (وهنا لابدّ من الالتفات إلی أنّ الشجره تطلق علی النبات أیضاً، وهذا ما صرّحت به الآیه ۱۴۶ من سوره یونس: «وَأَنْبَتْنا عَلَیْهِ شَجَرَهً مِنْ یَقْطِینٍ» . فی حین فسرها البعض الآخر بشجره العنب والنخیل والکافور أیضاً. (۳)

وأخیراً فسرها البعض معنویاً علی أنّ تلک الشجره کانت علم آل محمد صلی الله علیه و آله وقیل بل العلم بصوره مطلقه کما قیل کانت الحسد. وقد ورد عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام حین سئل عن عله اختلاف الروایات بهذا الشأن أنّه قال: «کلّه صحیح، لأنّ اشجار الجنان لیست من

۱– ۱) تفسیر نور الثقلین ۲ / ۱۱ ح ۳۴؛ [۱]سوره الاعراف / ۲۰. [۲]

۲– ۲) سوره الأعراف / ۲۱. [۳]

۳– ۳) انظر تفسیر نور الثقلین ۱ / ۶۰؛ [۴] الدر المنثور ۱ / ۵۲ و۵۳ وذیل الآیه ۳۵ من سوره البقره.

قبیل أشجار الدنیا. فشجره الجنّه تحمل أنواع الثمار. ولما کرم اللّه آدم علیه السلام واسجد له الملائکه واسکنه الجنّه حدث نفسه: هل خلق اللّه خلقاً أکرم منّی؟ فأراه اللّه مقام محمد وآل محمد صلی الله علیه و آله فتمنی أن یبلغ مقامهم» (۱). جدیر بالذکر أنّ التوراه صرّحت بأنّ الشجره المحظوره کانت شجره العلم والمعرفه (معرفه الحسن من القبیح) وشجره الحیاه الخالده وقد نهی اللّه آدم وحواء من التناول من تلک الشجره فیحصلا علی المعرفه ویصبحا خالدین کاللّه. (۲)

وتکفی هذه العباره لوحدها فی إثبات تحریف التوراه الفعلیه عن التوراه الحقیقیه، حیث تثبت أنّها من وضع الأفراد والجهال الذین یرون العلم والمعرفه مثلبه علی آدم وأنّه استحق الطرد من الجنّه بسبب هذا الذنب. وکأن الجنّه لا تسع ذوی العلم والمعرفه، وهنا لابدّ من الإشاره إلی أنّ بعض الروایات التی ذهبت إلی أنّ الشجره المحظوره کانت شجره العلم والمعرفه إنّما هی روایات موضوعه أخذت عن التوراه المحرفه.

۴ – الکلمات التی تاب اللّه بها علی آدم علیه السلام.

لقد تحدث الإمام علیه السلام فی الخطبه عن تلقی آدم علیه السلام لکلمه الرحمه من اللّه سبحانه دون الدخول فی تفاصیل هذه الکلمه. القرآن من جانبه أیضاً أشار من بعید إلی هذه المسأله دون الحدیث عن ماهیتها وکنهها. إلّاأنّ الذی یفهم من هذه التعابیر أن تلک الکلمات کانت تتضمن مسائل مهمه، فقد صرّح البعض بأنّ المراد بالکلمات هو الاعتراف بالخطأ، وهذا ما أشارت إلیه الآیه ۲۳ من سوره الأعراف: «رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَکُونَنَّ مِنَ الخاسِرِینَ» . کما استدل البعض الآخر علی هذا الاعتراف بالتقصیر وطلب المغفره بالعباره: «لا إله إلّاأنت سبحانک وبحمدک عملت سوءاً وظلمت نفسی فاغفر لی أنّک خیر الغافرین» (۳)وقد ورد مثل هذا المعنی فی بعض الروایات عن الإمام الباقر أو الصادق علیهما السلام. (۴)

بینما صرّحت أغلب الروایات بأنّ تلک الکلمات کانت أسماء محمد وعلی وفاطمه والحسن

۱- ۱) نور الثقلین ۱ / ۶۰ ([۱]بتلخیص) .

۲- ۲) التوراه، سفر التکوین، الفصل الثانی، رقم ۱۷.

۳- ۳) بحار الأنوار ۱۱ / ۱۸۱. [۲]

۴- ۴) تفسیر نور الثقلین ۱ / ۶۷. [۳]

والحسین علیهم السلام. فقد جاء فی کتاب الخصال أن ابن عباس قال: سألت النبی صلی الله علیه و آله عن الکلمات التی تلقاها آدم من ربّه فقال صلی الله علیه و آله: «سأله بحق محمد وعلی وفاطمه والحسن والحسین إلّاتبت علیه فتاب اللّه علیه إنّه هو التواب الرحیم» (۱).

جدیر ذکره أنّ هذا المعنی مع فارق طفیف قد ورد فی «الدر المنثور» التفسیر الروائی المشهور لدی العامه. (۲)کما جاء فی روایه اُخری عن تفسیر الإمام الحسن العسکری علیه السلام أنّ آدم علیه السلام حین ارتکب الخطیئه وطلب المغفره من اللّه، سأله أن یقبل توبته بعد أن اعترف بذنبه. فقال له الحق سبحانه ألم أعلمک أن تدعونی بمحمد وآل محمد لکل شده نزلت بک؟ فقال آدم علیه السلام: اللّهم بلی. فقال اللّه: ادعنی بهؤلاء محمد وعلی وفاطمه والحسن والحسین علیهم السلام لأقبل عذرک وأعطیک ما ترید. (۳)

وفی حدیث آخر عن عائشه عن النبی صلی الله علیه و آله أنّ الکلمات التی تلقاها آدم علیه السلام هی: «اللّهم إنّک تعلم سری وعلانیتی فاقبل معذرتی وتعلم حاجتی فاعطنی سؤلی وتعلم ما فی نفسی فاغفر لی ذنبی اللّهم آنی أسألک ایماناً یباشر قلبی ویقیناً صادقاً حتی أعلم أنّه لا یصیبنی إلّاما کتبت لی وارضنی بما قسمت لی» (۴)

ونری هنا أن لیس هناک من تضارب فی هذه الروایات، فلعل آدم علیه السلام قد تضرع بهذا الدعاء إلی جانب توسله بالنبی وعلی وفاطمه والحسن والحسین علیهم السلام.

وأخیراً فقد فسرها البعض بالحاله المعنویه لآدم علیه السلام ومدی انشداده للّه سبحانه؛ الأمر الذی رافق توسله بالنبی صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام.

وبالطبع فلیس هنالک من منافاه بین عدم علم آدم علیه السلام بهذه الکلمات قبل التعلیم الإلهی مع علمه بالأسماء، لأنّ الاحتمال القوی هو أنّ العلم بالأسماء یعنی العلم والالمام بأسرار الخلیقه وهذا غیر المقوله الاُخری التی تتناول سبل تزکیه النفس وتهذیبها وتدارک التقصیر والسیر إلی اللّه تبارک وتعالی.

۱- ۱) کتاب الخصال نقلاً عن تفسیر الثقلین ۱ / ۶۸.

۲- ۲) تفسیر الدر المنثور ۱ / ۶۰ (ذیل الآیه ۳۷ من سوره البقره) .

۳- ۳) شرح نهج البلاغه للمرحوم الخوئی ۲ / ۱۱۸.

۴- ۴) تفسیر الدر المنثور ۱ / ۵۹. [۱]

القسم الثانى عشر: بعثه الأنبياء وعظم مسؤوليتهم

اشاره

«وَ اصْطَفَى سُبْحانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِياءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثاقَهُمْ وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسالَهِ أَمانَتَهُمْ لَمّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللّهِ إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ وَاتَّخَذُوا الْأَنْدادَ مَعَهُ وَاجْتالَتْهُمُ الشَّياطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبادَتِهِ فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَواتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِياءَهُ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثاقَ فِطْرَتِهِ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفائِنَ الْعُقُولِ وَيُرُوهُمْ آياتِ الْمَقْدِرَهِ: مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ وَمِهادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ وَمَعايِشَ تُحْيِيهِمْ وَآجالٍ تُفْنِيهِمْ وَأَوْصابٍ تُهْرِمُهُمْ وَأَحْداثٍ تَتابَعُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُخْلِ اللّهُ سُبْحانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتابٍ مُنْزَلٍ أَوْ حُجَّهٍ لازِمَهٍ أَوْ مَحَجَّهٍ قائِمَهٍ. رُسُلٌ لا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّهُ عَدَدِهِمْ وَلا كَثْرَهُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ مِنْ سابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ أَوْ غابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ. عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ وَمَضَتِ الدُّهُورُ وَسَلَفَتِ الْآباءُ وَخَلَفَتِ الْأَبْناءُ» .

الشرح والتفسير لقد تحدث الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من خطبته عن قضيه بعث الأنبياء. وهى المرحله التى أعقبت مرحله خلق آدم وممارسه للحياه على الأرض، وقد تطرق الإمام عليه السلام بادئ ذى بدء إلى عله بعث الأنبياء وارسال الرسل، ثم أشار إلى ماهيه مضمون دعوات الأنبياء ورسالاتهم، إلى جانب استعراض الخطوط الرئيسيه لتعاليمهم وإرشاداتهم، وأخيراً خصائص الأنبياء وصمودهم أمام الصعاب والمشاكل والأطار العام الذى كان يحكم علاقاتهم فيما بينهم وكيفيه

إرتباط بعضهم مع البعض الآخر. فقد استهل كلامه عليه السلام بهذا الشأن قائلاً: «واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحى ميثاقهم (۱)وعلى تبليغ الرساله أمانتهم» .

وعلى هذا الأساس فانّ الأنبياء قد عاهدوا اللّه منذ بدايه الوحى برعايته وايصاله إلى الناس على أنّه أمانه وعهد فى أعناقهم.

نعم لقد تقبل الأنبياء عليهم السلام هذه المسؤوليه العظيمه فجدّوا واجتهدوا فى حملها وايصالها إلى الناس كأمانه ووديعه الهيه. أمّا الحديث بشأن بعض الاُمور من قبيل: كيف اختار اللّه هذه الصفوه من الأنبياء، وما حقيقه الوحى، وكيف يوحى للبعض بينما لا يوحى للبعض الآخر منهم، فنوكله إلى موضعه (۲).

والواقع هو أنّ العباره المذكوره إشاره للآيه: «وَ إِذ أَخَذنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً» (۳).

ثم أشار عليه السلام إلى السبب الرئيسى لبعثه الأنبياء فقال: «لما بدل أكثر خلقه عهد اللّه إليهم فجهلوا حقّه واتخذوا الأنداد (۴)معه واجتالتهم (۵)الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته» .

فالواقع لقد كانت إنعدام معرفه هؤلاء باللّه سبحانه سبباً لأنّ يهووا فى أوديه الشرك الرهيبه ومن ثم تتلقفهم الشياطين فتصدهم عن طاعه اللّه وعبادته. أمّا بشأن المراد بهذه العدّه وماهيه العهد الإلهى، فقد أشار أغلب المفسرين وشرّاح نهج البلاغه إلى أنّ المراد به ميثاق عالم الذر، ويمكن اعتبار ذلك إشاره إلى الفطره (۶)التى تطرق لها الإمام عليه السلام فى عباراته اللاحقه.

۱- ۱) «الميثاق» كما ورد فى صحاح اللغه من ماده «الوثوق» بمعنى الاعتماد على أمانه الشخص. ومن هنا أطلق على الميثاق اسم العهد، لأنّه يدعو إلى الاطمئنان والوثوق (طبعاً كان الأصل موثاق ثم بدلت الواو بالياء) .

۲- ۲) انظر التفسير الموضوعى «نفحات القرآن» ۷ / ۳۱۷.

۳- ۳) سوره الأحزاب / ۷. [۱]

۴- ۴) «أنداد» جمع «ند» على (وزن) ضد بمعنى المثل، وأراد هنا المعبودين من دونه سبحانه وتعالى، بينما قال صاحب المقاييس أنّها تعنى الانفصال والهروب والمخالفه. ولهذا قال اللغويون بأن الند لا يطلق على كل مثل، بل تطلق على المثل الذى يتخذ مساراً يخالف آخر فى أعماله وأفعاله كالفرد الذى يماثل آخر إلّاأنّه يحاربه.

۵- ۵) «اجتال» من ماده «جولان» بمعنى العصر، إلّاأنّها اقترنت بالحرف (عن) فى عباره الإمام عليه السلام فعنت الانصراف عن الشىء، ومعناها هنا صرفتهم عن قصدهم.

۶- ۶) لقد ذكر هذا الاحتمال فى الأبحاث المتعلقه بعالم الذر، حيث يمكن أن يكون تفسيرها بالمسائل الفطريه والاستعدادات الإلهيه التى أودعها اللّه الذات الإنسانيه. وللوقوف أكثر على هذا الموضوع، راجع تفسير الأمثل ۷ / ۴. [۲]

وبعباره اُخرى فان اللّه قد خلق الإنسان على هذه الفطره الطاهره التى تجعله يتعرف على حقيقه التوحيد فى باطنه ويتطلع إلى الخير وينبذ الشر. ولو بقيت هذه الفطره السليمه على حالها لحفت العنايات الإلهيه الإنسانيه جمعاء ولهدتها إلى السمو والكمال ولسهل لهم الأنبياء السبل إلى ذلك الكمال ولقل حجم المسؤوليه التى نهض بعبئها هؤلاء العظام، غير أن الانحراف عن الفطره سواء على مستوى المعارف التوحيديه لينتهى بالنزوع نحو الشرك والوثنيه وعلى المستوى العملى ليقود الاستسلام إلى الأهواء والشياطين، قد أدى إلى مواتره بعث اللّه للأنبياء وتحملهم لتلك المسؤوليات الخطيره بغيه إعاده البشريه إلى فطرتها الأصليه، وهذا ما تطرق له الإمام عليه السلام فى العبارات اللاحقه من الخطبه والتى أشار فيها إلى عظم مسؤوليات الأنبياء وما اتصفوا به من خصال عمليه ومكارم أخلاقيه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى فلسفه بعثه الأنبياء فقال: «فبعث فيهم رسله وواتر (۱)إليهم أنبيائه ليستادوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسى نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول» .

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى أربعه أهداف رئيسيه تقف وراء بعث الأنبياء. أولها: طلب أداء ميثاق الفطره فقد ذكرنا أن اللّه سبحانه قد أودع المعارف التوحيديه فطره الإنسان التى تقوده بصوره طبيعيه - مالم تدنس وتلوث وتتعرف على الانحراف ودون نشأه صاحبها وولادته على الشرك بفعل انحداره من والدين مشركين - إلى عباده الواحد الأحد وسوف يتطلع إلى الصالحات ويعشق الحق والعدل فى ظل هذه الفطره السليمه الموحده، فقد جاء الأنبياء ليعيدوا الأفراد المنحرفين إلى هذه الفطره التوحيديه المودعه لديهم.

الهدف الثانى: لتذكير الناس بنعم اللّه التى اعترتها الغفله والنسيان، فالإنسان ينطوى على نعم ماديه ومعنويه جمه ولو استغلها كما ينبغى فانّه سيشيد صروح سعادته وفلاحه فى حين سيفقد مثل هذه السعاه إذا ما نساها وتجاهل استعمالها واستغلالها. ومثله كمثل الفلاح

۱- ۱) «واتر» من ماده «وتر» بمعنى الفرد فى مقابل الشفع بمعنى الزوج، وجاءت هنا بمعنى الواحد؛ أى أنّ الأنبياء قد أتوا الواحد تلو الآخر من أجل هدايه الناس. وقال البعض معناها الموالاه مع الفاصله، كأن يقال «واتر ما عليه من الصوم» ؛ أى صام يوماً وأفطر آخر، فى قبال «متدارك» الذى يعنى الموالاه دون تخلل الفاصله.

الـذى لا يسـتفيد من المياه لسـقى أشـجار حـديقته ولا يقطف ثمار أشـجاره حين الحصاد. فاذا ما جاء أحدهم وذكره بهذه النعم المنسيه فانه يكون قد أسدى له أعظم خدمه، وهذا ما ينهض به الأنبياء.

الهـدف الثـالث: اتمـام الحجه على الناس من خلال الأدله العقليه - إلى جانب المسائل الفطريه - وإرشادهم إلى الكمال فى ظل التعاليم السماويه والأوامر والأحكام الشرعيه.

الهـدف الرابع: «يثيروا لهم دفائن العقول» ليكشـفوا للناس كنوز العلوم والمعارف الكامنه فى عقولهم، فقـد أودع اللّه هذه العقول كنوزاً عظيمه قيمه لو ظهرت واسـتغلت لشـهدت العلوم والمعارف نهضه عظيمه وجباره، غير أن هذه الكنوز اختفت واسـتترت اثر هـذه الغفله والتعاليم الفاسـده والـذنوب والمعاصـى والتلوث الأخلاقى، ومن هنا فان إحـدى وظائف الأنبياء تكمن فى ازاله هـذه الحجب واثاره تلك الكنوز المفعمه بالعلوم والمعارف.

ثم أشار الإمام عليه السـلام إلى الهـدف الخامس فى اسـتعراض الآيات الإلهيه للناس فى عالم الخلقه فقال عليه السـلام: «ويروهم آيـات المقـدره» ثم يشـير عليه السـلام إلى هـذه الآيات فيقول: «من سـقف فوقهم مرفوع ومهاد تحتهم موضوع ومعايش تحييهم وآجال تفنيهم وأوصاب (١)تهرمهم (٢)وأحداث تتابع عليهم» .

والواقع هى أنّ هذه الاُمور تمثل سلسـله من أسـرار الخلقه فى السـماء والأرض وعوامل الحياه وأسـباب الفناء والألم والعناء والتى تـذكر كل واحـده منها الإنسان باللّه سـبحانه وتعالى إضافه إلى الحوادث والوقائع التى تـدعو الإنسان إلى اليقظه والاعتبار، وعليه فـان الأنبيـاء يحملون إلى النـاس تعـاليم سـاميه ومفـاهيم نبيله من شأن كل منها رفع المسـتوى العلمى والمعرفى لـدى الإنسان أو ايقاظه من غفلته وجعله يتحلى بالفطنه والذكاء. ثم قال عليه السـلام: «ولم يخل اللّه سبحانه خلقه من نبى مرسل أو كتاب منزل أو حجه لازمه أو محجه قائمه» . فالعباره

١- ١) «أوصاب» من ماده «وصب» بمعنى مرض مزمن، والواصب يطلق على الشـىء الموجود دائماً حسب المفردات، وجاءت هنا بمعنى المتاعب والمشاكل والمعاناه.

٢- ٢) «تهرمهم» من ماده «هرم» على وزن حرم بمعنى الكهوله والعجز.

تشیر إلی أربعه مواضیع لا یعدم الوجود بعضها طرفه عین أبدا؛ الأمر الذی یتمّ الحجه علی الناس.

۱ - وجود الأنبیاء - سواء من کان له کتاب سماوی أم لم یکن - الذی یتضمن هدایه البشریه وانتشالها من غفلتها واتمام الحجه علیها.

۲ - الکتب السماویه المتداوله بین الأمم رغم وفاه الأنبیاء الذین أتوا بها.

۳ - الأوصیاء وأئمه العصمه والذین عبر عنهم الإمام علیه السلام بقوله «حجه لازمه» . وهناک من احتمل أنّ المراد بالحجه اللازمه دلیل العقل، لکن یبدو هذا الاحتمال مستبعداً لأنّه لا یکفی فی هدایه الناس، ولا مانع من الجمع بینهما فی هذه العباره.

۴ - سنه الأنبیاء والأوصیاء والأئمه والتی عبر عنها بالمحجه القائمه، حیث عنوا المحجه بالطریق الواضح والمستقیم - سواء الظاهری أو الباطنی - الذی یوصل الإنسان إلی هدفه المنشود (۱)وبهذا فان الحق سبحانه قد أتم حجته علی کافه الأُمم والمجتمعات البشریه فی جمیع الأعصار والأمصار وأمدهم بأسباب الهدایه، ثم تطرق علیه السلام لخصائص هؤلاء الأنبیاء فقال: «رسل لا تقصر بهم قله عددهم ولا کثره المکذبین لهم» . أجل کانوا مثلاً فی الرجوله والأقدام والشجاعه بحیث کان أحدهم یصمد بوجه الآلاف من خصوم الدعوه فیلقی بالنار فتشمله عنایه اللّه ورحمته لیخرج منها سالماً مرفوع الرأس، ویحطم الآخر الاصنام ثم یحتج بالأدله القاطعه التی تفند عقائدهم الباطله وتثبت صحه دعواه. کما کان البعض یحاصر من قبل جموع الکفر والشرک بید عزلاء وقد شهر خصومهم سیوفهم فلم یضعفوا ویهنوا ووقفوا بکل صمود وشموخ. والجدیر بالذکر فی خصائص الأنبیاء التأکید هنا علی صمودهم وشهامتهم. ثم یواصل علیه السلام حدیثه عن الأنبیاء وکیفیه ارتباط بعضهم بالبعض الآخر ووحده رسالتهم وهدفهم فقال: «من سابق سمی له من بعده أو غابر (۲)عرفه من قبله» . فقد حدد علیه السلام فی هذه العباره اسلوب من أسالیب التعرف علی الأنبیاء فی أن یقوم نبی ببشاره قومه

۱- ۱) التحقیق فی کلمات القرآن الکریم، ماده الحج.

۲- ۲) «غابر» من ماده «غبار» و «غبور» بمعنی الشیء المتبقی، ومن هنا یطلق علی الحلیب المتبقی فی الثدی اسم الغبره، کما یطلق الغبار علی التراب المتبقی فی الهواء، ویقال الغابر للأشخاص والأزمنه الماضیه (راجع المقاییس والمفردات ولسان العرب) .

بالنبی الذی یأتی من بعده وبهذا یعرف النبی من خلال البشاره به. (۱)

ثم یشیر علیه السلام إلی ثبوت هذه السنه قائلاً: «علی ذلک نسلت (۲)القرون ومضت الدهور وسلفت الآباء وخلقت الأبناء» .

تأمّلات

۱ – الأنبیاء بمثابه المزارعین

ما تفیده عباره أمیر المؤمنین علیه السلام أنّ القدره الإلهیه المطلقه قد أودعت الذات الإنسانیه قابلیه کافه أسباب الخیر والصلاح والفلاح، وقد نشرت کافه البذور والریاحین العطره ساحه قلب الإنسانیه الخصبه. والأنبیاء من جانبهم یقومون بری هذه البذور لتنبت أشجاراً محمله بالثمار والفاکهه فیستثیروا هذه الکنوز الکامنه فی النفس البشریه «لیستأدوهم میثاق فطرته ویذکروهم منسی نعمته. . . ویثیروا لهم دفائن العقول» واستناداً لهذا فان الأنبیاء لا یمنحون الإنسان شیئاً خارجاً عن وجوده، بل ینمون ما لدیه ویظهروا له مکنونه، حتی ذهب البعض إلی أنّ التعالیم والمفاهیم التی تلقی علی الإنسان إنّما تمثل تذکیراً له، فالعلوم والمعارف قد اودعت النفس البشریه وما وظیفه المعلمین – سواء الأنبیاء أو امتداداتهم – سوی إثاره هذه المعارف من خلال تعالیمهم، وکأنّ هذه المعارف مصادر میاه جوفیه تشق طریقها إلی سطح الأرض بعد الحفر والتنقیب ولعل التعبیر بالتذکیر الذی ورد علی لسان الآیات القرآنیه «لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ» و «وَذَکِّرْ فَإِنَّ الذِّکْری تَنْفَعُ المُؤْمِنِینَ» شاهداً علی صحه المعنی الذی أوردناه. والواقع أن هذا البحث متشعب وشامل لا یسعنا استیعابه فی هذه العجاله.

۲ – حوادث الاعتبار والیقظه

لقد تضمنت العباره المذکوره إشاره إلی حقیقه وهی أنّ الأنبیاء وإلی جانب تعلیمهم

---

۱ – ۱) لقد ورد الفعل «سمی» بصیغه المجهول فی بعض نسخ نهج البلاغه وما ذکرناه سابقاً یتفق وهذه النسخه، أمّا إذا ذکر بصیغه المعلوم تصبح العباره بهذا الشکل «من سابق سمی له من بعده» إلّاانّ الاحتمال الأول أنسب.

۲ – ۲) «نسلت» القرون من ماده «نسل» بمعنی تکاثر الأولاد، والعباره کنایه رائعه عن توالی القرون وکأن کل قرن قد ولد من القرن السابق.

الناس المعارف الإلهيه الحقه وبيان آيات القدره وعظمه خالق الوجود، فانهم يلفتون انتباه الناس إلى الحوادث ذات الدروس والعبر من قبيل حلول الأجل وانتهاء العمر وآجال النعم الماديه واستعراض المحن والخطوب والوقائع الشديده. فالعبارات الوارده فى الخطبه إشاره أُخرى لفلسفه الأحداث الخطيره التى تنطوى عليها الحياه البشريه، بحيث لولا هذه الأحداث لغطت البشريه فى سبات عميق وحجاب من الغفله يتعذر معه صحوتها وافاقتها من سيادتها. (۱)

۳ – دور الدين فى الحياه

الدرس الآخر الذى تعرضت له الخطبه هو دور الدين فى حياه الإنسان ولولا الأنبياء لتاهت البشريه فى غياهب الشرك والوثنيه وعباده الأصنام ولاستحوذت عليها الشياطين وحالت دون عبوديتها ومعرفتها باللّه، وذلك لأنّ العقل بمفرده لا يسعه الأخذ بيد الإنسان إلى السعاده بعد تجاوز موانع الطريق ومعوقاته.

صحيح أنّ العقل نور خالد إلّاأنّ شعاعه باهت خافت مالم يستند إلى ضياء الوحى الذى يخترق المكان ولا يقف عند حدود فيهديه فى اجتياز ظلمات الطريق. ومن هنا تتضح جسامه الخطأ الذى أصاب البراهمه الذين تنكروا لبعثه الأنبياء وارسال الرسل. ولو كان العقل يدرك كافه أسرار الإنسان الباطنيه والظاهريه ويحيط بالعلاقه التى تحكم الماضى والحاضر والمستقبل ولا يخطئ فى تشخيصه للأحداث لأمكن القول بالاكتفاء بإدراكه وفهمه لكافه وقائع الحياه فى هذا العالم والعالم الآخر، غير أنّ محدوديه هذا الفهم والإدراك وضآله المعاليم مقارنه بالمجاهيل (وهى المعاليم التى تتسم بالسعه والشموليه) لا تجعل من الصواب الاستناد إليها بمفردها.

طبعاً لا ننكر أنّ العقل هو حجه اللّه؛ الأمر الذى أكده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه، بل تواترت الروايات التى صرّحت بأنّه «الرسول الباطنى» حيث ورد فى الحديث المروى عن الإمام

۱- ۱) للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع، انظر كتاب نفحات القرآن ۴ / ۴۴۰ فصاعداً.

الكـاظم عليه السـلام أنّه قـال: «إنّ للّه على النـاس حجتين حجه ظـاهره وحجه بـاطنه، فأمّا الحجه الظاهره فالرسل والأنبياء والأئمه عليهم السلام وأمّا الباطنه فالعقول» (۱). مع ذلك فرساله هـذا الرسول الباطن محدوده، بينما ليست كذلك رساله الرسول الظاهر الـذى يسـتند إلى الوحى والعلم الإلهى المطلق. وبناءً على ما تقـدم فقد اتضح الرد على البراهمه السوفسـطائيين الذين يقولون: ما يـأتى به الأنبيـاء لاـ يخرج عن حالتين: امّا أن يـدرك العقول ما يقوله أو لا يـدرك، فان أدركه العقل فلا حاجه للأنبياء، وإن لم يـدركه فو ليس بمعقول ولاـ يمكن قبوله لأـن الإنسـان لا يقبل قبط ما لايعقل. والإشـكال الـذى يرد على هـذا الاسـتدلال هو أن هؤلاـء لم يفرقوا بين اللامعقول والمجهول، وكأنّهم تصوروا أنّ العقل يـدرك جميع الأشـياء، والحال لـدينا تصـنيف ثلاثى بشأن المواضـيع المطروحه. فالمواضـيع التى تعرض علينـا إمّا أن تكن موافقه لحكم العقل أو مخالفه له أو مجهوله. ولا يسـعنا هنا إلّاأنّ نقول بكل تأكيد أن أغلب الموضوعات من قبيل القسم الثالث؛ أى هى من قبيل المجاهيل التى كرست رساله الأنبياء وظيفتها فى هـذا المجال. أضف إلى ذلك فغالبنا ما يعترينا هاجس الخطأ والزلل فى إدراكاتنا العقليه؛ ومن هنا برزت حاجتنا الملحه للأنبياء، وبعبـاره أُخرى إلى تأييـد العقـل بالنقـل الـذى يسـعه منحنـا السـكينه والاطمئنان فى إدراكاتنا العقليه ويزيل الوساوس والهواجس ويأخذ بأيدينا إلى السبيل القويم.

۴ – لا تخلو الأرض من حجه

لقـد أكـد الإمام على عليه السـلام على حقيقه أُخرى وهى عـدم خلو الأرض من الحجه الإلهيه الظاهريه أو الباطنيه «ولم يخل اللّه سبحـانه خلقه من نبى مرسل أو كتاب منزل أو حجه لازمه أو محجه قائمه» والطريف فى كلام الإمام عليه السـلام أنّه قرن الكتب السـماويه بالأنبياء والحجج الإلهيه والسيره المعتبره. نعم وراء كل كتاب سماوى نبى من أنبياء اللّه يكشف أسراره ويوضح معالمه ويبيّن أحكامه إلى جانب إجراءه وتنفيذ مفاهيمه، كما يواصل نهجه بواسطه سنته

۱- ۱) أصول الكافى ۱ / ۱۶. [۱]

واستخلافه للوصی والإمام من بعده ليحفظ رسالته ويواصل نهجه. وهذه من أهم عقائدنا فی هذا المجال، حيث ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام أنّه قال: «لو لم يبق فی الأرض إلّااثنان لكان أحدهما الحجه» (۱). وهو الأمر الذی أكده أمير المؤمنين عليه السلام فی قصار كلماته: «اللّهم بلی لا تخلو الأرض من قائم للّه بحجه إمّا ظاهراً مشهوراً وإمّا خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج اللّه وبيناته» (۲).

۵ – مميزات الأنبياء

إنّ الأنبياء الذين يبعثهم اللّه من أجل هدايه الخلق ليسوا من قبيل الأفراد العاديين، بل يتصفون بجميع الخصال والمميزات اللازمه لقيامهم بوظيفتهم الرساليه الخطيره ومنها البساله والشجاعه الفائقه فی ابلاغ الرساله والصمود بوجه خصوم الدعوه من الأقوام الجاهله والمعانده والذود عن هذه الرساله إلی حد الاستماته والشهاده فی سبيل تحقيق أهداف الرساله. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فی تصدی الأنبياء لخصومهم والمكذبين والمستهزئين من أعدائهم؛ الأمر الذی يشاهد بوضوح فی تاريخ الأنبياء ولاسيما خاتمهم المصطفی صلی الله عليه و آله: «رسل لا تقصر بهم قلّه عددهم ولا كثره المكذبين لهم» . كما أكد القرآن الكريم علی تحلی الأنبياء بصفتهم مبلغی الرسالات بهذه الصفه: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلّا اللّهَ» (۳).

والذی يفهم من عباره الإمام عليه السلام – كما صرّح بذلك صاحب منهاج البراعه – أن التقيه لاتجوز علی الأنبياء، ومن هنا يتضح بطلان ما نسبه الفخر الرازی للشيعه الإماميه من أنّها لا تجوّز علی الأنبياء حتی إظهار الكفر تقيه. (۴)بل الأمر أبعد من ذلك لأنّ التقيه حرام علی الأئمه بل وحتی الأفراد العاديين فی الحالات التی يتعرض فيها الدين للخطر، بعباره اُخری قد تكون التقيه واجباً وقد تكون حراماً. فاذا كان تركها يؤدی إلی سفك الدماء دون حلها فهی واجبه،

۱– ۱) الكافی ۱ / ۱۷۹. [۱]

۲– ۲) نهج البلاغه، [۲] الكلمات القصار، ۱۴۷.

۳– ۳) سوره الأحزاب / ۳۹. [۳]

۴– ۴) منهاج البراعه ۲ / ۱۶۰.

كـأن تقـع جمـاعه مـن المسـلمين فى يـد الأعـداء بحيث يراق دمهم إذا أظهروا إسـلامهم، فهنـا يجب عليهم اخفـاء دينهم كى لا يمكنوا العـدو من قتلهم، فى حين قـد يؤدى اخفاء الـدين والافصاح عن العقيـده أحياناً إلى ضـعف المسـلمين وذلتهم، ففى هذه الحـاله يحرم على الأفراد كتم دينهم وعليهم أن يكشـفوا عنها بكل شـجاعه مهما كلف الأمر (وما واقعه كربلاء عنك ببعيـد التى جسد فيها الإمام الحسين وصحبه الكرام حرمه التقيه حفظاً للدين) .

ولما كان كتم الأنبياء لمعتقداتهم يهدد أصل رسالتهم كانت وظيفتهم ترك التقيه. جدير ذكره أنّ التقيه ليست من المفاهيم التى تقتصـر على الشيعه أو المسلمين فحسب، بل مفهوم من المفاهيم العقلائيه الذى يدعو الإنسان إلى حفظ نفسه وعدم هدر دمه إذا لم يكن هناك من جدوى لابداء عقيدته. (۱)

---

۱ - ۱) راجع كتـاب القواعـد الفقهيه ۱ / ۳۸۳، قاعـدّه التقيه للوقـوف بصـوره أشـمل على مفهوم التقيه وتقسـيمها إلى الأحكـام الخمسه (الواجب والحرام والمستحب والمكروه والمباح) والآيات والروايات الوارده بهذا الشأن.

القسم الثالث عشر: بزوغ شمس الإسلام

اشاره

«إِلَى أَنْ بَعَثَ اللّهُ سُبْحانَهُ مُحَمَّداً رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه و آله لِإِنْجازِ عِدَتِهِ وَإِتْمامِ نُبُوَّتِهِ مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثاقُهُ مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ، كَرِيماً مِيلادُهُ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ وَأَهْواءٌ مُنْتَشِرَةٌ وَطَرائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ فَهَداهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلالَهِ وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكانِهِ مِنَ الْجَهالَهِ ثُمَّ اخْتارَ سُبْحانَهُ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله لِقاءَهُ وَرَضِيَ لَهُ ما عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنْ دارِ الدُّنْيا وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقامِ الْبَلْوَى فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً صلى الله عليه و آله وَخَلَّفَ فِيكُمْ ما خَلَّفَتِ الْأَنْبِياءُ فِي أُمَمِها إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلًا بِغَيْرِ طَرِيقٍ واضِحٍ وَلا عَلَمٍ قائِمٍ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبه إلى أربعه اُمور:

١ – قضيه بعثه نبى الإسلام محمد صلى الله عليه و آله وبعض خصائصه وصفاته وفضائله وعلائم نبوته.

٢ – الوضع الذى كانت تعيشه الاُمّه أبان انبثاق الدعوه الإسلاميه من حيث الانحرافات الدينيه والعقائديه وانقاذها من تلك الظلمات بنور رساله النبى صلى الله عليه و آله.

٣ – رحيل النبى صلى الله عليه و آله من الدنيا.

٤ – الارث الذى خلفه النبى صلى الله عليه و آله للاُمّه (القرآن الكريم) .

فقد قال علیه السلام: «إلی أن بعث اللّه سبحانه محمداً صلی الله علیه و آله لانجاز (۱)عدته واتمام نبوته (۲)» .

ثم أشار إلی شمه من فضائله والمیثاق الذی أخذ من النبیین من قبله بالبشاره به «مأخوذاً علی النبیین میثاقه مشهوره سماته (۳)، کریماً میلاده» ولعل العباره الأخیره إشاره إلی کرامه آبائه وأجداده، أو برکات ولادته التی عمت أرجاء العالم، فقد صرّحت بعض السیر التأریخیه بتهاوی أوثان الکعبه وانطفاء نار المجوس وجفاف بحیره ساوه التی کانت تحظی بعباده بعض الناس وتهدم قصور بعض الجبابره تزامناً مع الولاده المیمونه للنبی الأکرم صلی الله علیه و آله وکل هذه الأحداث دلاله واضحه علی بدایه عصر جدید بانطلاقه شراره التوحید والوقوف بوجه کافه مظاهر الشرک والالحاد. ثم قال علیه السلام: «وأهل الأرض یومئذ ملل متفرقه وأهواء منتشره وطرائف متشتته بین مشبه للّه بخلقه أو ملحد فی اسمه أو مشیر إلی غیره» .

«ملحد» من ماده «لحد» علی وزن مهد بمعنی الحفره الواقعه علی جانب ومن هنا اطلق علی مثل هذه الحفره اسم اللحد، کما أطلق الالحاد علی کل عمل یخرج عن حاله الاعتدال ویجنح نحو الإفراط والتفریط، ومن هنا نعتت الوثنیه والشرک بالالحاد. وعلیه فالمراد بقوله علیه السلام: «ملحد فی اسمه» هو ما أشرنا إلیه سابقاً من نعت الأصنام بأسماء اللّه، علی سبیل المثال کانوا یسمون أحد الأصنام باللات والآخر بالعزی والثالث بمناه، وهی الأسماء التی اشتقت علی التوالی من أسماء اللّه والعزیز والمنان، أو أن یکون المراد منها اضفاء صفات اللّه علی المخلوقین، ولا مانع من الجمع بین التفسیرین. ثم قال علیه السلام: «فهداهم به من الضلاله وانقذهم بمکانه من الجهاله، ثم اختار سبحانه لمحمد صلی الله علیه و آله لقائه، ورضی له ما عنده، وأکرمه عن دار الدنیا ورغب به عن مقام البلوی» (۴).

۱- ۱) «انجاز» من ماده «نجز» علی وزن رجز بمعنی الانهاء وتحقیق الشیء.

۲- ۲) الضمیر فی (نبوته) یعود إلی النبی، أمّا الضمیر فی (عدته) ففیه احتمالان: أن یکون عائداً علی اللّه أو عائداً علی النبی، إلّاأنّ الأول أنسب، وذلک لأن بعثه النبی کانت وعداً إلهیاً وعد بها نبی اللّه إبراهیم الخلیل علیه السلام وسائر الأنبیاء، کما یحتمل أن یکون الضمیران عائدین للّه سبحانه.

۳- ۳) «سماته» جمع «سمه» بمعنی العلامه.

۴- ۴) إذا تعدت رغب بحرف فی عنت الرغبه فی الشیء والاقبال علیه، بینما تعنی العزوف عن الشیء والانصراف عنه، حیث یکون معنی العباره أن اللّه لم یرد لنبیه أن یعیش صعاب الدنیا أکثر من هذا الحد، فقبضه من هذا العالم الدنی لیضمه إلی جواره فی العالم العلوی.

أجل فقد قبضه إليه قبض اختيار وكرامه «فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه و آله» وقد ورث أمته ما ورثت الأنبياء من قبله اُممها «وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء فى اُممها» - فالأنبياء لم يتركوا اُممهم من بعدهم سدى، بل أضاءوا له معالم الطريق ونصبوا عليهم الحجج «إذ لم يتركوهم هملاً» (۱)بغير طريق واضح ولا علم قائم» . من البداهه أن يكون مراد الإمام عليه السلام من هذه العباره ما ورد فى حديث الثقلين الذى تواترت الروايات بشأنه حيث قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «إنّى مخلف فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتى أهل بيتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً وقد نبأنى اللطيف الخبير إنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض» . (۲)

وبالطبع فانّ الإمام عليه السلام واصل حديثه فى بحث جامع عن كتاب اللّه (القرآن الكريم) إلّاأنّه لم يتطرق إلى العتره، حيث تعرض بصوره مفصله - كما سنشير لاحقاً - إلى العتره فى عدّه خطب من نهج البلاغه. ولعل عبارته عليه السلام: «علم قائم» فى آخر كلامه إشاره إلى الأوصياء. على كل حال فان حرص الأنبياء على اُممهم لم يقتصر على حياتهم، بل كانوا قلقين على مستقبلهم إلى حد يفوق قلق الوالد الشفيق حال احتضاره على ولده الصغير؛ ومن هنا يتعذر تصور ترك الأنبياء لاممهم دون استخلافهم لأوصياءهم عليهم لكى لا تذهب مساعيهم فى إرشاد الاُمّه وهدايتها أدراج الرياح.

تأمّلان

۱ - الأديان قبل البعثه البنويه

لقد تضمنت عبارته عليه السلام إشارات مقتضبه عميقه المعنى بشأن أديان العرب وغير العرب فى العصر الجاهلى وقبل البعثه النبويه. بحيث صرّح المؤرخون والمحققون بأنّ العرب وعلى غرار سائر الأقوام كانت تعيش عدّه أديان ومذاهب لا يحصى عددها إلى جانب الانحرافات والخرافات الجمه. وقد قال ابن أبى الحديد - الشارح المعروف لنهج البلاغه - بشأن أديان

۱- ۱) «هملاً» من ماده «همل» على وزن حمل بمعنى ترك الشىء إلى جانب اهماله وعدم الاهتمام به.

۲- ۲) راجع كتاب «نفحات القرآن» المجلد التاسع [۱]للوقوف على أسناد حديث الثقلين [۲]وتواتره عند علماء الفريقين.

العرب فی الجاهلیه: فأمّا الأُمّه التی بعث النبی محمد صلی الله علیه و آله فیها فهم العرب، وکانوا أصنافاً شتی، فمنهم معطله ومنهم غیر معطله، فأمّا المعطله منهم، فبعضهم أنکر الخالق والبعث والاعاده، وقالوا ما قال القرآن العزیز عنهم: «ما هِیَ إِلّا حَیاتُنا الدُّنْیا نَمُوتُ وَنَحْیا وَما یُهْلِکُنا إِلّا الدَّهْرُ» (۱)فجعلوا الجامع لهم الطبع، والمهلک لهم الدهر. وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنکر البعث. وهم الذین أخبر سبحانه عنهم بقوله: «قالَ مَنْ یُحْیِ العِظامَ وَهِیَ رَمِیمٌ» (۲).

ومنهم من لا یطلق علیها لفظ الشریک، ویجعلها وسائل وذرائع إلی الخالق سبحانه، وهم الذین قالوا: «ما نَعْبُدُهُمْ إِلّا لِیُقَرِّبُونا إِلی اللّهِ زُلْفی» (۳). وکان فی العرب مشبهه ومجسمه، منهم أمیه بن الصلت، وهو القائل:

من فوق عرش جالس قد حط رجلیه إلی کرسیه منصوب وذهب بعض متکلمی المجسمه إلی أنّ البارئ تعالی مرکب من أعضاء علی حروف المعجم. وقال بعضهم: إنّه ینزل علی حمار فی صوره غلام أمرد، فی رجلیه نعلان من ذهب، وعلی وجهه فراش من ذهب یتطایر. وقال بعضهم: إنّه فی صوره غلام أمرد صبیح الوجه، علیه کساء أسود، ملتحف به. (۴)

وأمّا الذین لیسوا بمعطله من العرب؛ فالقلیل منهم، وهم المتألهون أصحاب الورع والتحرج عن القبائح کعبد اللّه، وعبد المطلب وابنه أبی طالب، وزید بن عمرو بن نفیل، وقس بن ساعدّه الابادی، وعامر بن الظرب العدوانی وجماعه غیر هؤلاء. (۵)أمّا البعض الآخر من شرّاح نهج البلاغه فقد صنفوا علماء العرب إلی عدّه طوائف منهم العارفین بالانساب، ومفسری الأحلام ومتخصصین فی علم الأنواء (نوع من التنجیم المشوب بالخرافات) والکهنه الذین یوحون إلی الناس بأنّهم یخبرون عن مغیبات المستقبل. أمّا من غیر العرب کان البراهمه الذین عاشوا فی الهند ینکرون کافه الأدیان ولا یؤمنون سوی بالأحکام العقلیه. وطائفه اُخری من عبده الکواکب والشمس والقمر التی تمثل أنواعاً من الوثنیه (۶).

۱- ۱) سوره الجاثیه / ۲۴. [۱]

۲- ۲) سوره یس / ۷۸. [۲]

۳- ۳) سوره الزمر / ۳. [۳]

۴- ۴) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۳ / ۲۲۷. [۴]

۵- ۵) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱ / ۱۱۷. [۵]

۶- ۶) شرح نهج البلاغه لابن میثم ۱/۲۰۵.

وإلى جانب هـذه الطائفه هناك اليهود والنصارى والمجوس. وقـد شـهدت كل طائفه منهم انحرافاً عقائـدياً، فالمجوس قالت باله الخير والشـر. وقـد انطوت المجوسـيه – الـتى قـد تكون فى بـدايتها منسوبه لبعض الأنبيـاء – على خرافـات جمه حتى ذهب بعض المحققين إلى أنّهم يعتقدون باله الخير واله الشر الذين تقاتلا حتى تدخلت الملائكه فأصلحت ذات بينهما بشرط تفويض العالم السفلى لاله الشر مدّه سبعه آلاف سنه (ويفوض العالم العلوى لاله الخير) . (۱)

بينمـا ابتليت النصـرانيه بـالتثليث (الأقـانيم الثلاث) كما حرفت اليهود كتاب التوراه وشـحنته بالانحرافات والخرافات التى لا يسـعنا الخـوض فيهـا فى هـذه الابحـاث. فقـد أوجز الإمـام جميـع هـذه الطوائـف فى ثلاثـ: الاـولى: المشـبهه الـتى جعلت للّه شـريكاً، كـالمجوس والنصـارى، أو أولئك الـذين يجعلون للّه صـفات المخلوقين كاليهود. الثانيه: أولئك الـذين عـدلوا باسـمه إلى غيره كـأغلب الوثنيين الـذين أسـموا أوثـانهم بأسـماء اللّه سـبحانه فجعلوهم شـفعائهم عنـد اللّه. الثـالثه: أولئـك الـذين عبـدوا غير اللّه كالـدهريه التى تعتقـد بأنّ الطبيعه هى خالقه الوجود، أو عبـده الأصـنام والكواكب والشـمس والقمر التى ترى الاصاله للكواكب والأصنام؛ أى تراها هى اللّه.

أجل لقد بعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى ظل هذه الأوضاع ليحمل مشعل الهدايه ويضىء الظلمات بنور القرآن. لقد أتى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله تلـك الاُمم بأسـمى مفـاهيم التوحيـد وأعظم المعـارف والعلوم وأرصن الصـفات الإلـهيه، حيث جـاءهم بـالحنيفيه السـمحاء الخـاليه من الأسـاطير والخرافـات والانحرافات التى سادت سائر الأديان، ولم تهـدف قوانينه وتعاليمه سوى إلى حمايه المحرومين والمستضـعفين وبسط العـدل والقسط وحتى أوجز القرآن الكريم وظيفته فى انقاذ الاُمّه من الضـلال المـبين وتعليمهـا الحكمه وتهـذيب نفوس أبناءهـا: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيـاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَهَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ» (۲).

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن ميثم، ۱ / ۲۰۶.

۲- ۲) سوره الجمعه / ۲. [۱]

نعم لقد ظهرت معالم الدين الحق بظهور هذا النبى الكريم وانهارت الأساطير والخرافات لتشهد البشريه عصرها الجديد؛ الحقيقه التى أذعن لها الأعداء فضلاً عن الأصدقاء والفضل ما شهدت به الأعداء. فقد تناول الكاتب الانجليزى المعروف «برناردشو» هذا الأمر ليصف دين محمد بأنّه الدين الوحيد الذى يصلح لقياده البشريه ويتكيف مع حياتها على مدى التأريخ بحيث يسعه استقطاب جميع الشعوب والأقوام، كما ذهب إلى القول بأن محمد منقذ البشريه جمعاء ولو قدر لزعيم على غراره أن ينهض بقياده العالم اليوم لتغلب على كافه المشاكل التى تعانى منها الإنسانيه ولقادها إلى السعاده والسلام، فمحمد أكمل إنسان عرفه الماضى والحاضر ولا يتصور أن يجود الزمان بمثله فى المستقبل. (۱)

۲ – آفاق الأنبياء المستقبليه

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه أن تفكير الأنبياء والرسل لا يقتصر على عصرهم، بل يفكرون بمستقبل الأُمّه ومصيرها بعد وفاتهم، ومن هنا جهدوا فى تبيين كل مامن شأنه هدايتهم فى المستقبل، فلم يألوا جهداً فى إضاءه معالم الطريق وبيان سبل النجاه. ولا شك أن نبى الإسلام لم يكن بدعا من الرسل فى هذا الشأن. أو يمكن تصور تركه للأُمّه بعد رحيلها عنها؟ أفكان يسعه وداع الأُمّه وايكالها إلى نفسها دون دليل على الطريق؟ أو ليس حديث الثقلين المتواتر لدى الشيعه والسنه والذى قال فيه: «إنّى مخلف فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتى أهل بيتى» نموذج من نماذج إضاءه الطريق للأُمّه من بعده و صونها من اللبس و الانحراف؟

۱- ۱) فى ضلال نهج البلاغه۱/۶۳.

القسم الرابع عشر: خصائص القرآن

اشاره

«كِتابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ: مُبَيِّناً حَلالَهُ وَحَرامَهُ وَفَرائِضَهُ وَفَضائِلَهُ وَناسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ وَرُخَصَهُ وَعَزائِمَهُ وَخاصَّهُ وَعامَّهُ وَعِبَرَهُ وَأَمْثالَهُ وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشابِهَهُ، مُفَسِّراً مُجْمَلَهُ وَمُبَيِّناً غَوامِضَهُ، بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثاقُ عِلْمِهِ وَمُوَسَّعٍ عَلَى الْعِبادِ فِي جَهْلِهِ وَبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي الْكِتابِ فَرْضُهُ وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَّهِ نَسْخُهُ وَواجِبٍ فِي السُّنَّهِ أَخْذُهُ وَمُرَخَّصٍ فِي الْكِتابِ تَرْكُهُ وَبَيْنَ واجِبٍ بِوَقْتِهِ وَزائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ وَمُبايَنٌ بَيْنَ مَحارِمِهِ مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرانَهُ أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرانَهُ وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْناهُ مُوَسَّعٍ فِي أَقْصاهُ» .

الشرح والتفسير لقد بحثت أهميه القرآن الكريم وعظمته كراراً ومراراً فی خطب نهج البلاغه بحيث تناولت كل خطبه جانباً من الجوانب القرآنيه.

وقد أشار الإمام عليه السلام بشكل جامع إلى شموليه القرآن وخطوطه العريضه فی هذه العبارات، فقد هدف الإمام عليه السلام لبيان حقيقه مهمّه وهی أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله رحل عن الأُمّه بعد أنّ ورثها كتاب اللّه الذی نظم جميع شؤون حياه الأُمّه الماديه والمعنويه؛ الفرديه والاجتماعيه فی كافه الميادين والمجالات؛ فقد قال عليه السلام: «كتاب ربّكم فيكم» (۱)ثم أشار عليه السلام إلى أربعه عشر نقطه بشأن شموليه القرآن وخصائصه:

۱- ۱) كتاب منصوب بصفته عطف بيان للحرف مافی الجمله (خلف فيكم ما خلفت الأنبياء) أو أنّه مفعول لفعل تقديره (خلف) أو (أعنی) .

١ - اتضاح الحلال والحرام والواجب والمستحب «مبيناً حلاله وحرامه وفرائضه وفضائله» . والعباره إشاره إلى الأحكام الإسلاميه الخمس المعروفه، فالفرائض إلى تشيرالواجبات، والفضائل إلى المستحبات، والحرام إلى المحرمات وأخيراً الحلال الذى يشمل المباحاه والمكروهات. (١)

٢ - بيان الناسخ والمنسوخ «وناسخه ومنسوخه» .

المراد بالناسخ والمنسوخ الأحكام الجديده التى تزيل الأحكام القديمه والتى تقتصر على عصر الرساله حين نزول الوحى الذى كان يعنى إمكانيه تغيير الأحكام. فبعض الأحكام وإن كانت مطلقه فى ظاهرها، غير أنّها مقيده باطنياً ومختصه بزمان معين، فاذا انتهى ذلك الزمان نفد حكمها بحكم جديد آخر يطلق عليه اسم الناسخ من قبيل التصدق قبل مناجاه النبى صلى الله عليه و آله: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً» (٢). فقد كان هذا الأمر امتحاناً للمسلمين لم يعمل به سوى أمير المؤمنين عليه السلام حتى نسخ بقوله تعالى: «أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاهَ وَآتُوا الزَّكاهَ وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ» (٣).

٣ - «ورخصه وعزائمه» . فلعل هذه العباره إشاره إلى ما تعارف اليوم فى علم الفقه والأصول بأن حكم الواجب أو الحرام إذا رفع قد يستبدل بحكم الاباحه كقوله: «وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا» (٤). فمن المسلم به أنّ الصيد ليس واجباً بعد الخروج من الاحرام، بل مباح، وأحياناً يستبدل بحكم ضده، كقوله: «وَ إِذا ضَرَبْتُ فِى الأَرضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاهِ» (٥)ومعلوم أنّ صلاه القصر فى السفر واجبه ليست مباحه، فيقال للاولى

١- ١) وردت كلمه «مبيناً» بصيغه اسم الفاعل وهى حال لفاعل خلق (أى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله) والضمير فى حلاله وحرامه و. . يعود على القرآن بينما ذهب بعض شرّاح النهج إلى أن مبيناً وسائر الأوصاف التى وردت لاحقاً من قبيل مفسراً هى حال لكتاب اللّه، والضمائر فى حلاله وحرامه و. . . تعود إلى كتاب اللّه أو ربّكم، إلّااانّ القول الأول أنسب.

٢- ٢) سوره المجادله / ١٢. [١]

٣- ٣) سوره المجادله / ١٣. [٢]

٤- ٤) سوره المائده / ٢. [٣]

٥- ٥) سوره النساء / ١٠١. [٤]

رخصه وذلک لجواز طرفی العمل ویقال للثانیه عزیمه حیث یجب علی المکلف جزم عزمه بالعمل. وهنالک إحتمال آخر فی تفسیر هاتین المفردتین، کأن یکون المراد بالرخص الأحکام الواجبه أو المحرمه التی استثنیت فی بعض الموارد من قبیل قوله: «فَمَنِ اضْطُرَّ غَیْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَیْهِ» (۱). أمّا العزائم فهی الأحکام التی لا سبیل إلی الاستثناء الیها، کقوله: «وَاعْبُدُوا اللّهَ وَلا تُشْرِکُوا بِهِ شَیْئاً» (۲).

۴ - «وخاصه وعامه» ، فالخاص هو الحکم الذی لا یشمل کافه المسلمین کحکم الحج الذی یختص بمن له الاستطاعه «وَلِلّهِ عَلی النّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلاً» (۳)والعام هو الحکم الذی یشمل جمیع المسلمین کاقامه الصلاه «وأقیموا الصلاه» . وقیل أیضاً بأ المراد بالخاص الآیات التی لها ظاهر عام غیر أنّ المراد بها حاله خاصه کآیه الولایه: «إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاهَ وَیُؤْتُونَ الزَّکاهَ وَهُمْ راکِعُونَ» (۴). حیث نعلم بوجود مصداق واحد لهذه الآیه فقط وهو أمیر المؤمنین علی علیه السلام.

أمّا العام فیراد به الآیات ذات العموم والتی تشمل الجمیع کقوله عز وجل: «وَالسّارِقُ وَالسّارِقَهُ فَاقْطَعُوا أَیْدِیَهُمْا» (۵).

۵ - «وعبره وأمثاله» ، عبر من ماده عبره وقد اشتقت من العبور، ولذلک یصطلح بالعبره علی الحادثه التی تعرض للإنسان ویتخطاها، والقرآن الکریم ملیء بالدروس والعبر بشأن تواریخ الأنبیاء والأمم السالفه حیث تتضمن کل حادثه من تلک الحوادث المعانی والدروس للقیمه التی تستفیدها البشریه فی مسیرتها الحیاتیه.

أمّا الأمثال فقد تکون إشاره إلی الأمثال التی وردت فی القرآن الکریم بتلک الکثره من قبیل: «ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً کَلِمَهً طَیِّبَهً کَشَجَرَهٍ طَیِّبَهٍ» (۶)، کما یمکن أن تکون إشاره إلی بعض

۱- ۱) سوره البقره / ۱۷۳. [۱]

۲- ۲) سوره النساء / ۳۶. [۲]

۳- ۳) سوره آل عمران / ۹۷. [۳]

۴- ۴) سوره المائده / ۵۵. [۴]

۵- ۵) سوره المائده / ۳۸. [۵]

۶- ۶) سوره إبراهیم / ۲۴. [۶]

الأفراد الذين أصبحت سيرتهم وحياتهم مثلاً يحتذى به كقوله عز من قائل: «وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَهَ فِرْعَوْنَ إِذ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنّهِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظّالِمِينَ» (۱).

۶ - كما بيّن القرآن أحكام المطلق والمقيّد «ومرسله ومحدوده» فالمطلق الأحكام التى بيّنت دون قيد أو شرط كقوله سبحانه: «وَأَحَلَّ اللّهُ البَيْعَ» (۲)وأمّا المقيد فهو الحكم الذى وضعت له بعض القيود والحدود كقوله: «تِجارَهً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ» (۳).

ومن الواضح أنّ الجمع بين المطلق والمقيّد يتطلب منا تقييد المطلق بواسطه المقيّد، ففى المثال المذكور لا تصح المعامله إلّابتراضى الطرفين. ويمكن أن يكون المراد بالمطلق الأحكام الخاليه من القيود والشروط، فى حين الأحكام المقيّده هى الأحكام المحدّده بالقيود والشروط من قبيل كفاره القسم التى جاء فيها «أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَهٍ» (۴)، بينما جاء فى كفاره القتل الخطأ «فَتَحْرِيرُ رَقَبَهٍ مُؤْمِنَهٍ» (۵).

۷ - «ومحكمه ومتشابهه» . فالمراد بالمحكم الآيات الواضحه الدلاله التى لا تحتمل سوى وجه واحد كقوله سبحانه: «قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ» بينما تحتمل الآيات المتشابهه عدّه وجوه، وإن أمكن بيانها من خلال سائر الآيات القرآنيه كقوله: «إِلى رَبِّها ناظِرَهٌ» (۶)حيث يزال ابهام هذه الآيه وغموضها من خلال الآيات التى نزهت اللّه عن المكان والزمان والجهه والجسم والرؤيه وما إلى ذلك كقوله: «لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ» (۷).

۸ - من الخصائص الأُخرى هى بيان لمجمل القرآن وغوامضه من خلال السنّه النبويه «مفسراً مجمله ومبيناً غوامضه» . فالمجمل الآيات التيى تأمر باقامه الصلاه ولم تشر إلى أركانها وعدد ركعاتها فيقوم النبى صلى الله عليه و آله بشرحها، أمّا المراد بالغوامض الحروف القرآنيه المقطعه

۱- ۱) سوره التحريم / ۱۱. [۱]

۲- ۲) سوره البقره / ۲۷۵. [۲]

۳- ۳) سوره النساء / ۲۹. [۳]

۴- ۴) سوره المائده / ۸۹. [۴]

۵- ۵) سوره النساء / ۹۲. [۵]

۶- ۶) سوره القيامه / ۲۳. [۶]

۷- ۷) سوره الانعام / ۱۰۳. [۷]

والتی بیّنت بواسطه الأحادیث النبویه. ولعل الفارق بین الغوامض والمتشابهات هو أن المتشابهات تنطوی علی معان ومفاهیم للوهله الاولی بینما یکتنف الاولی الابهام کالمثال السابق.

۹ - هناک بعض الحقائق القرآنیه التی أخذ المیثاق علی معرفتها ولا یعذر أحد بجهلها فی حین یعذر فی بعضها الآخر: «بین مأخوذ میثاق علمه وموسع علی العباد فی جهله» فالحقائق التی لا یعذر أحد بجهلها من قبیل آیات التوحید والصفات الإلهیه التی تجب معرفتها علی جمیع المؤمنین، والثانیه من قبیل الذات الإلهیه التی لیس لأحد من سبیل إلی معرفتها وکذلک مسأله المعاد والقیامه التی ینبغی الإیمان بها، فی حین لیست هنالک من ضروره للإلمام بالتفاصیل المتعلقه بالجنّه والنار.

۱۰ - وهناک بعض الأحکام القرآنیه المختصه بزمان معیّن والتی نسختها السنّه النبویه «وبین مثبت فی الکتاب فرضه ومعلوم فی السنّه نسخه» من قبیل عقاب المرأه المحصنه بالحبس المؤبد إذا ارتکبت فاحشه الزنا «وَاللّاتِی یَأْتِینَ الفاحِشَهَ مِنْ نِسائِکُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَیْهِنَّ أَرْبَعَهً مِنْکُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِکُوهُنَّ فِی البُیُوتِ حَتّی یَتَوَفّاهُنَّ المَوْتُ أَوْ یَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِیلاً» (۱)ثم نسخت السنّه النبویه هذا الحکم بالأحادیث التی وردت فی باب رجم المحصنه.

۱۱ - الآیات الناسخه للسنّه بشأن بعض الأحکام التی صرّحت السنّه بالعمل بها بینما أجازت الآیات القرآنیه ترکها «وواجب فی السنّه أخذه ومرخص فی الکتاب ترکه» من قبیل حکم الصوم فی بدایه التشریع حیث لم یکن یسع الصائم الافطار سوی أوائل اللیل، فاذا نام وأفاق لم یجز له تناول شیء من المفطرات، غیر أن هذه السنّه النبویه نسخت فیما بعد بالآیه القرآنیه الشریفه: «. . . وَکُلُوا وَاشْرَبُوا حَتّی یَتَبَیَّنَ لَکُمُ الخَیْطُ الأَبْیَضُ مِنَ الخَیْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ» (۲).

۱۲ - الأحکام الواجبه لبعض الأوقات «وبین واجب بوقته وزائل فی مستقبله»

۱- ۱) سوره النساء / ۱۵. [۱]

۲- ۲) سوره البقره / ۱۷۸. [۲]

فالعباره تشیر إلی الواجب المؤقت وغیر المؤقت؛ الواجب المؤقت من قبیل صوم شهر رمضان وارتفاعه فی غیر هذا الشهر، خلافاً للتکالیف الدائمیه کالأمر بالمعروف والنهی عن المنکر وإقامه الحق والعدل الواجبه علی الدوام (۱). وذهب البعض إلی أنّ العباره تشیر إلی بعض الواجبات کالحج الذی یجب علی المکلف لمره واحده فی العمر ثم یزول، واستدلوا علی ذلک بالهجره التی وجبت علی المسلمین فی بدایه انبثاق الدعوه الإسلامیه - حیث کان المسلمون یعیشون حاله من المحدودیه - ثم زال هذا الوجوب بعد فتح مکه، وإن کانت الهجره علی حالها إلی یومنا هذا فی المناطق التی تشهد الحاله المکیه قبل الهجره.

۱۳ - فرز أنواع المحرمات عن بعضها وبیان کل واحده منها فی إشاره إلی الکبائر التی توعد اللّه مرتکبیها والصغائر التی وعد بمغفرتها «ومباین (۲)بین محارمه من کبیر أوعد علیه نیرانّه أو صغیر أرصد له غفرانه» فالکبائر من قبیل الشرک وقتل النفس التی صرّحت الآیات القرآنیه بتوعد مرتکبیها بالعذاب، فقد ورد فی الآیه ۷۲ من سوره المائده بخصوص الشرک «وَمَنْ یُشْرِکْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَیْهِ الجَنَّهَ وَمَأْواهُ النّارُ» وفی الآیه ۹۳ من سوره النساء بشأن قتل النفس «وَمَنْ یَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فیها» وأمّا الصغائر فمن قبیل اللمم الوارده فی الآیه ۳۲ من سوره النجم «الَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبائِرَ الإِثْمِ وَالفَواحِشَ إِلّا اللَّمَمَ» حیث ذهب بعض المفسرین إلی أنّ المراد باللمم انعقاد النیه علی المعصیه دون الإتیان بها أو المعاصی عدیمه الأهمیه.

۱۴ - الأعمال التی یقبل القلیل منها وورد الحث علی کثیرها «وبین مقبول فی أدناه، موسع فی أقصاه» . فالعباره تشیر إلی الأعمال التی ورد التأکید علی الإتیان بقلیلها وللأُمّه الاتیان بالمزید.

وقد استدل بعض شرّاح نهج البلاغه علی ذلک بتلاوه القرآن «فَاقْرَءُوا ما تَیَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ» (۳). فقراءه الیسیر من القرآن مؤکده وترک للناس قراءه الکثیر (وهذا ما نلمسه

۱- ۱) هناک محذوف فی هذه العباره، ففی الحاله الثانیه یکون تقدیر العباره کالآتی: «وبین ما یکون واجباً دائما» .

۲ - ۲) مباین خبر لمبتدأ محذوف تقیر الجمله هو مباین، والضمیر هو یعود إلی الکتاب، وهنالک إحتمال آخر إلّاأنّ الذی أوردناه هو الأنسب.

۳- ۳) سوره المزمل / ۲۰. [۱]

بوضوح فی أواخر سوره المزمل) . وبالمقابل هنالک الأحکام الإلزامیه التی لا یسیر ولا کثیر فیها من قبیل صوم شهر رمضان، حیث یلزم المکلف بصوم شهر معیّن دون زیاده أو نقیصه (الآیات ۱۸۳ إلی ۱۸۵ من سوره البقره) .

تأمّلات

۱ – شمولیه القرآن

المسأله الاولی التی تطالعنا فی کلام الإمام علیه السلام شمولیه القرآن الکریم، أو بعباره اُخری اعجاز القرآن من حیث المضمون؛ لأن خاض من خلال النقاط الأربعه عشر بشأن القرآن فی تفاصیله الدقیقه وتنوع مضامینه علی جمیع المستویات فی إطار تلبیته لمتطلبات الإنسان و احتیاجاته من حیث الاُمور العقائدیه والقضایا العلمیه والأخلاقیه والأحکام الواجبه والمحرمه والعلاقه القائمه بین القرآن والسنه والأحکام الثابته والمؤقته والعام والخاص والمطلق والمقیّد والناسخ والمنسوخ، حیث یفید تأمل هذه الاُمور مدی حساسیه المضامین القرآنیه المدروسه والتی تنسجم ومتطلبات الإنسانیه. فالمضامین الرصینه الدقیقه والعمیقه المتنوعه والشامله – کما أشرنا إلی ذلک فی بحث اعجاز القرآن – تمثل أحد أبعاد اعجاز القرآن فأدنی لإنسان اُمی تربی فی وسط الجهل والظلام أن یأتی بمثل هذا الکتاب مکتفیاً بما یملیه علیه فکره دون الاستناد إلی فیوضات الغیب والوحی؛ الکتاب الذی غص بالدروس والعبر والأمثال الرائعه البلیغه والأحکام الجامعه والمعارف الجمه العمیقه. والطریف فی الأمر أنّ الإمام علیه السلام بهذا البیان القصیر قد استعرض دوره جامعه فی الاُصول الفقهیه وأشار إلی موضوعات واسعه لم تتکامل فی علم الاُصول إلّابعد قرون طویله، ثم فصل الأحکام عن بعضها البعض لیمیط اللثام عن القواعد المتعلقه بالحلال والحرام والناسخ والمنسوخ والرخصه والعزیمه والخاص والعام والمطلق والمقید والمحکم والمتشابه والمجمل والمبین والمؤقت وغیر المؤقت والواجب والمستحب المؤکد والمستحب غیر المؤکد.

۲ – من عنده علم الکتاب؟

یفهم من عباراته علیه السلام أنّ النبی صلی الله علیه و آله موظف بتبیین بعض مجملات القرآن الکریم وإزاله

غوامضه بما لا يـدع لأحـد من مجال للشك، ولهـذا قال القرآن المجيد: «وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ» (۱). قد يقتدح فى الأذهان سؤالاً: كيف يحتاج القرآن إلى تفسير مجمله وإزاله غوامضه وتبيين مبهمه وقد نزل هدايه للناس ولابدّ للعامه من فهمه وإدراكه؟

وللإجابه على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى أمرين:

الأول: إن القرآن بفضـله يتضـمن سلسـله من القوانين والأحكام الإسـلاميه لا يسـعه أن يخوض فى التفاصـيل، فهو يشير إلى هذه القوانين على نحو العموم بينما يفوض شرحها والخوض فى تفاصيلها إلى النبى صلى الله عليه و آله. على سبيل المثال فقد وردت أحكـام الصـلاه والحـج والصوم وبعض كلياتهـا فى القرآن الكريم، ونعلم جميعـاً أنّ هـذه العبادات تشـتمل على شـرائط واركان وفروع كثيره يحتاج شـرح كل ركن منها إلى كتاب مستقل، بل هناك الأُمور التى تتطلب عدّه مجلدات من قبيل الأُمور المرتبطه بالمعاملات والقضاء والحدود والشهادات والسياسات الإسلاميه بصوره عامه.

الثانى: أنّ حاجه الأُمّه للنبى صـلى الله عليه و آله فى تبيين المبهمات وتفسـير المجملات تؤدى إلى تعزيز إرتباطها بالسـنّه النبويه؛ الارتبـاط الـذى يهـديها وينير معالم طريقها فى جميع الميادين، وبعباره أُخرى فان القرآن ليس بـدعاً من الكتب التى يتطلب فهم بعض مواضـيعها من قبل الطلاب وجود المعلم، الـذى يسـعه ايضاح الحقائق لتلامـذته من خلال الرابطه السائده بينهما. وهنا يبدو هـذا السؤال: هل يوجد مثل هذا المعلم الإلهى فى الوسط الإسـلامى بعد رحيل النبى صـلى الله عليه و آله أم لا؟ لاشك. لابدّ أن يسـتمر وجود مثل هذا المعلم وإلّا بقيت المشاكل على حالها دون حل وبيان. ومن هنا اعتقدت الشيعه بوجود الإمام المعصوم فى كل عصـر والذى لديه علم الكتاب، وهذا ما يراد بالعتره الوارده فى حديث الثقلين المتواتر المروى عن رسول اللّه صـلى الله عليه و آله، والتى أشـار إلى امتنـاع مفارقتهـا للكتـاب إلى يوم القيـامه، فقال صـلى الله عليه و آله: «إنّى تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً وإنّهما لن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض» (۲).

۱- ۱) سوره الحشر / ۷. [۱]

۲- ۲) لقـد ورد هذا الحديث بعده تعابير فى مصادر الشـيعه والسـنّه، فراجع احقاق الحق، ۹ / ۳۰۹ - ۳۷۵؛ [۲]بحار الانوار ۲۳ / ۱۱۸، ۱۳۲، ۱۳۳، ۱۳۴، ۱۵۵؛ رساله الثقلين ۹. [۳]

۳ – معیار التمییز بین الکبائر والصغائر

هناک اختلاف بین العلماء بشأن الکبائر والصغائر. فقد اعتبرهما البعض من قبیل الاُمور النسبیه التی تخضع للمقارنه فی أهمیتها، فما کانت أهمیتها کبیره فهی من الکبائر وما کانت أهمیتها صغیره فهی من الصغائر (وقد نسب المرحوم الطبرسی فی مجمع البیان هذا القول إلی الشیعه، ویبدو أنّه أراد بعض علماء الشیعه، لأنّ أغلبهم یری غیر ذلک کما سنشیر لاحقاً) . وقال البعض الآخر أنّ الکبیره کما یتضح من اسمها هی المعصیه الکبیره حقاً والتی تحظی بأهمیه لدی الشرع والعقل کقتل النفس وغصب حقوق الآخرین والربا والزنا – ولعل هذا هو الدلیل الذی جعل الروایات الوارده عن أهل البیت علیهم السلام تصرح بأنّ المعیار فی الکبائر هو الوعید بالعذاب الإلهی علی ارتکابها، فقد جاء فی الحدیث المعروف الذی روی عن الإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الرضا علیه السلام انّه قال: «الکبائر التی أوجب اللّه عز وجل علیها النار» (۱)ویتضح ممّا مر معنا أنّ الصغائر مالیست لها مثل هذه الأهمیه. وقد وردت بعض الأحادیث التی أشارت إلی أنّ الکبائر سبع وقیل عشرون.

۴ – الناسخ والمنسوخ وفلسفتهما

لعل هذین الحکمین یثیران الجدل والذهول لدی أغلب الناس وتعجبهم من کیفیه اشتمال القرآن علی الآیات الناسخه والمنسوخه (فالمراد باناسخ والمنسوخ هو الحکم الذی یلغی حکماً آخر من قبیل استقبال الکعبه فی الصلاه التی نسخت حکم استقبال بیت المقدس فی الصلاه) . وقد تزول هذه الدهشه والذهول بالنسبه للناسخ والمنسوخ فی القوانین الوضعیه التی یشرعها أفراد البشر؛ لأهم قد یسنون الیوم قانوناً ویکتشفون غداً بعض أخطائه فیعمدون إلی نسخه، ولکن ما بال القوانین التی یشرعها الحکیم سبحانه؟

یمکن خلاصه الإجابه علی السؤال المذکور فی جمله واحده وهی أنّ علم اللّه المطلق لا یعتریه التغییر قط، غیر أنّ بعض الموضوعات تتغیر بمرور الزمان. علی سبیل المثال قد یکون

۱– ۱) تفسیر نور الثقلین ۱ / ۴۷۳. [۱]

هناک دواء هو شفاء لمرض اليوم، إلّاأنّه قد يصبح خطراً ومضاعفاً لذلک المرض بعيد مدّه من الزمان. فالطبيب ينصح المريض باستعمال ذلک الدواء إلّاأنّه ينسخه فيما بعد ويحظر استعماله على المريض. ويصدق هذا الكلام فى الأُمور الدينيه على القبله مثلاً- فقد تنطوى الصلاه إلى بيت المقدس يوماً على منافع ومصالح معينه إذا كانت الكعبه بؤره للأصنام والأوثان واتخذت لنفسها بعداً قومياً بحيث يدعو استقبالها فى الصلاه أبان انبثاق الدعوه الإسلاميه إلى بعض المشاكل، فى حين تنتفى هذه المشاكل بالصلاه ثلاث عشره سنه إلى بيت المقدس. بينما تتحول الكعبه إلى مركز للتوحيد بعيد الهجره إلى المدينه فتنطوى الصلاه إلى جانبها على مصالح جمه وتنعدم الأضرار.

فالواقع هو أنّ أغلب أحكام النسخ من هذا القبيل؛ وبالطبع فانّ مباحث النسخ واسعه جداً لا يسعها المقام ولذلک نكتفى بهذه الإشاره العابره إلى فلسفه النسخ. (۱)

۵ – تأريخ الأُمم الماضيه والأمثال القرآنيه

يشغل تأريخ الأُمم السابقه ولا- سيما أنبياء اللّه حيزاً مهما من القرآن الكريم المفعم بالدروس والعبر والتجارب القيّمه التى تحتذيها البشريه فى كل عصر ومصر؛ الأمر الذى جعل القرآن يتابع حركه الأنبياء فى مختلف السور ويسلط الضوء على تأريخ أحدهم أحياناً (كسرده لوقائع النبى إبراهيم ونوح وموسى وعيسى عليهم السلام) ويكرر قصته فى أكثر من سوره، وبالطبع لا نرى كلمه التكرار مناسبه هنا حيث إنّ القرآن يعرض لزاويه من زوايا هذه القصص فى كل مره، فقد قال عز من قائل: «لَقَدْ كانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَهٌ لِأُولِى الأَلبابِ» (۲). وأحياناً أبعد من ذلک واضافه إلى التأريخ يدعو البشريه لتأمل آثار الأقوام السابقه والذى يعتبر بحد ذاته نوعاً من أنواع التأريخ التكوينى والحى «قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَهُ الَّذِينَ مِنْ قَبلُ» (۳).

۱- ۱) راجع تفسير الأمثل ۱ / ۳۹۰ ذيل الآيه ۱۰۶ من سوره البقره.

۲- ۲) سوره يوسف / ۱۱۱. [۱]

۳- ۳) سوره الروم / ۴۲. [۲]

وإلى جانب القصص والتأريخ فقد درج القرآن على استعمال الأمثال بغيه هدايه الناس؛ وقد تكون هذه الأمثال نماذج حيه واقعيه مستقاه من حياه بعض الأفراد تاره، وتاره اُخرى تشبيهات بالاُمور الطبيعيه فى عالم النبات والحيوان وما شاكل ذلك. وقد انطوت هـذه الأمثال على جماليه وروعه فى الـدقه والتصوير بحيث غـدت من معاجز القرآن التى يقود التأمل فيها والتدبر إلى العوده إلى العقل والرشد «وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنّاسِ فِى هذا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (۱).

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه إلى شموليه القرآن الكريم مؤكداً على تدبر قصصه وأمثاله.

۱- ۱) سوره الزمر / ۲۷. [۱]

القسم الخامس عشر: أهميه فريضه الحج

اشاره

«وَ فَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرامِ الَّذِى جَعَلَهُ قِبْلَهً لِلْأَنامِ يَرِدُونَهُ وُرُودَ الْأَنْعامِ وَيَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الْحَمامِ وَجَعَلَهُ سُبْحانَهُ عَلامَهً لِتَواضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ وَإِذْعانِهِمْ لِعِزَّتِهِ وَاخْتارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمّاعاً أَجابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ وَوَقَفُوا مَواقِفَ أَنْبِيائِهِ وَتَشَبَّهُوا بِمَلائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ يُحْرِزُونَ الْأَرْباحَ فِى مَتْجَرِ عِبادَتِهِ وَيَتَبادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ جَعَلَهُ سُبْحانَهُ وَتَعالَى لِلْإِسْلامِ عَلَماً وَلِلْعائِذِينَ حَرَماً فَرَضَ حَقَّهُ وَأَوْجَبَ حَجَّهُ وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفادَتَهُ فَقالَ سُبْحانَهُ: «وَلِلّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ»» .

الشرح والتفسير

لا يعلم أى الأحكام الدينيه أشار إليها الإمام عليه السلام بعد بيانه لخصائص القرآن، لأننا نعلم بأنّ السيد الرضى - جامع نهج البلاغه - لم يروم ذكر خطبه عليه السلام بصوره كامله بقدر ما كان يختار منها بعض القطوف، مع ذلك فان التأكيد على فريضه الحج من بين سائر الفرائض الإسلاميه المختلفه والفرديه وفى خطبه تكفلت بالحديث عن بدايه نشوء الخليقه والمراحل المختلفه لسير الإنسان منذ انطلاقته حتى انبثاق الدعوه الإسلاميه بظهور خاتم الأنبياء محمد المصطفى صلى الله عليه و آله إنّما يتضمن معناً ومفهوماً خاصاً، كما يفيد أن حج بيت اللّه الحرام يمثل عصاره الفكر الإسلامى وشموليته للمسائل المهمّه الفرديه والاجتماعيه والتربويه والأخلاقيه والسياسيه، وهذا ما سنتطرق إليه فى آخر البحث. ونخوض الآن فى تفسير هذا القسم من الخطبه:

فقد أشار الإمام علیه السلام فی البدایه إلی مسأله وجوب الحج، حیث اعتمد عبارات فی غایه الروعه واللطافه بغیه حث المسلمین علی أداء هذه الفریضه الإلهیه العظیمه، فقال علیه السلام: «وفرض علیکم حج بیته الحرام» ثم کشف عن صفه هذا البیت بقوله «الذی جعله قبله للأنام» (۱)فهی القبله التی یتجه إلیها المسلمون فی صلواتهم الیومیه علی أنّها رمز وحده جمیع المسلمین الذین ینظمون صفوفهم فی الاتجاه الیها. ثم یتطرق علیه السلام إلی وصف الشعائر والمراسم التی یؤدیها عشاق الحق فیشبههم علیه السلام بالعطاش الذین یردون علی الماء العذب والطیور التی تبحث عن الملاذ «یردونه (۲)وورود الانعام ویألهون (۳)إلیه ولوه الحمام (۴)» .

حقاً أنّ من أدرک معنی الحج فانّه یرد البیت علی هذه الشاکله فتکاد روحه وقلبه تسبقه إلی البیت فیعیش الوفاده علیه بکل کیانه ویستعید به من شر الشیاطین وأهواء النفس وتبعات الذنوب فیلبی دعوه الحبیب ویسعی بین الصفا والمروه ویحلق فی أجواء الکعبه التی تفیض بالمعنویات. أمّا التشبیه بالانعام فلعله إشاره إلی التواضع المطلق الذی یستشعره الحجاج تجاه بیت اللّه أو حاله الاضطراب حین الاقبال علی الکعبه والطواف، أمّا التعبیر بالحمام فذلک لأنّه یرمز إلی الحب والسلام والوئام.

جدیر بالذکر أنّ مراسم الحج تستهل بالاحرام والتلبیه التی تفید اجابه الدعوه الإلهیه، فاللّه سبحانه قد دعی زوار بیته الحرام للضیافه وقد تقاطر علیه الضیوف بقلوب مفعمه بالعشق لتعیش القرب الإلهی وهم یلمسون معانی الورع والتقوی والانس بالمحبوب. ثم

۱- ۱) «أنام» فسرها البعض بالناس، والبعض الآخر بالموجودات العاقله التی تعیش علی الأرض من الإنس والجن. وعلی ضوء التفسیر الأول یصبح مفهوم العباره اختصاص القبله بالناس، بینما تکون قبله الانس والجن حسب التفسیر الثانی. وقیل هی مشتقه من ماده ونام بمعنی الصوت ثم اطلقت فیما بعد علی جمیع الکائنات الحیه ولا سیما الانس والجن (تاج العروس، ماده أنم) .

۲- ۲) «یردون» من ماده «ورود» بمعنی دخول الحیوانات علی حیاضها عند عطشها ثم اطلق علی کل دخول لمکان.

۳- ۳) «یألهون» من ماده «أَلَه، ألوهاً» بمعنی العباده. بناءً علی هذا یألهون بمعنی یعبدون، کما قیل إنّ مادته تعنی الحیره؛ لأنّ الإنسان یتحیر حین یفکر فی ذات اللّه وصفاته. وقیل أصله (وله) وقد استدلت واوه بالهمزه (ویؤید هذا المعنی ورود کلمه الولوه فی العباره بصیغه المفعول المطلق) والوله بمعنی التضرع بلهفه.

۴- ۴) «الحمام» بالفتح بمعنی الطیور والحمام بالکسر بمعنی الموت، وقد أرید المعنی الأول فی العباره (أی الحمام بالفتح) .

خاض علیه السلام فی جانب من الجوانب الفلسفیه لشعیره الحج فقال: «وجعله سبحانه علامه لتواضعهم لعظمته واذعانهم لعزته» . فأعمال الحج من مناسک ومراسم إنّما تشتمل علی أفعال غایه فی التواضع لعظمه اللّه قلما نجد نظیرها فی سائر الشعائر العبادیه. وهذا ما یتجسد بوضوح فی الاحرام والتخلی عن اللباس الفاخر والاکتفاء بثیاب الاحرام البیضاء غیر الموصوله والطواف فی الکعبه والسعی بین الصفا والمروه والوقوف علی جبل عرفه والتوقف فی منی والمشعر الحرام ورمی الجمرات والتقصیر ما إلی ذلک من الأعمال التی تحطم ما تعیشه النفس البشریه من غرور وکبر. ثم یشیر علیه السلام إلی أنّ الوقوف فی تلک المشاهد المشرفه والوفاده علی البیت لمن المفاخر الکبری والنعم الجزیله التی یمن اللّه بها علی بعض عباده فیقول علیه السلام: «واختار من خلقه سماعاً (۱)أجابوا إلیه (۲)دعوته وصدقوا کلمته» .

فقد ورد فی بعض الأحادیث الإسلامیه أنّ اللّه أمر خلیله إبراهیم علیه السلام لما فرغ من بناء الکعبه بدعوه الناس إلی الحج.

فقال علیه السلام: إنّ صوتی لا یبلغهم. فجاءه الخطاب: إنّما علیک دعوتهم وعلینا الابلاغ. فارتقی الخلیل علیه السلام المقام الذی کان ملاصقاً للکعبه آنذاک فجعل اصبعیه فی أذنیه وقد استقبل الشرق والغرب فنادی بأعلی صوته: «أیّها الناس کتب علیکم الحج إلی البیت العتیق فأجیبوا ربّکم» فناداه من خلف البحار السبع مابین المشرق والمغرب بل حتی النطف فی قرارات النساء وأصلاب الرجال ممن سمع صوته «ولبیک اللّهم لبیک» (۳). کما ورد فی الروایات أن من لبی حج بعدد تلبیته ومن لم یلب لم یحج (۴)ثم یواصل الإمام علیه السلام حدیثه عن فلسفه الحج وآثاره وبرکاته فیقول: «ووقفوا مواقف أنبیائه وتشبهوا بملائکته المطیفین بعرشه» .

ولعل التعبیر بمواقف الأنبیاء یشیر إلی کثره الأنبیاء من بعد إبراهیم بل حتی قبله طبقاً لبعض الروایات ممن حجوا البیت (۵)أمّا العباره التی صرّحت بتشبههم بالملائکه المطیفین

۱- ۱) «سماع» علی وزن طلاب جمع «سامع» کطلاب جمع طالب.

۲- ۲) لیس هنالک من فارق یذکر بشأن الضمیر فی (إلیه) ان کان عائداً لبیت اللّه أو إلی لفظ الجلاله.

۳- ۳) نور الثقلین ۳ / ۴۸۸، ح ۷۴. [۱]

۴- ۴) شرح نهج البلاغه للمرحوم الخوئی ۲ / ۲۴۹ نقلاً عن الکافی؛ بحار الانوار ۹۶ / ۱۸۷. [۲]

۵- ۵) ورد فی الأحادیث أنّ من الأنبیاء الذین حجوا البیت هم آدم ونوح وابراهیم وموسی ویونس وعیسی وسلیمان ونبی الإسلام صلی الله علیه و آله (شرح نهج البلاغه للمرحوم الخوئی ۲ / ۲۵۲) .

بعرشه، فقد جاء فی الخبر الصحیح أنّ فی السماء بیتاً یطوف به الملائکه طواف البشر بهذا البیت. (۱)ثم قال علیه السلام: «یحرزون (۲)الأرباح فی متجر عبادته ویتبادرون عنده موعد مغفرته» ویالها من تجاره عظیمه مربحه تلک التی یتطهر فیها الإنسان من جمیع ذنوبه إذا أتی بالعمل علی وجه الصحه؛ بل ورد أنّه یعود کیوم ولدته أمه ولا ذنب علیه کما صرّحت بذلک بعض الأحادیث الإسلامیه.

ثم قال علیه السلام: «جعله سبحانه وتعالی للإسلام علماً وللعائذین حرماً» .

فالواقع هو أنّ الکعبه تمثل الرایه الإسلامیه الخفاقه علی الدوام؛ الرایه التی یتمحور حولها المسلمون من أجل تحقیق استقلالهم ومجدهم وعزتهم. وکل عام تنفخ روح جدیده بمشاهدتها فی جسد المسلمین ویجری دم جدید فی عروقهم. وما إن یفرغ الإمام علیه السلام من ذکر هذه الفضائل حتی یشیر إلی وجوب حج البیت فیقول: «فرض حقّه وأوجب حجه وکتب علیکم وفادته (۳)فقال سبحانه: «وَلِلّهِ عَلی النّاسِ حِجُّ البَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلاً وَمَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِیٌّ عَنِ العالَمِینَ» .

تأمّلان

اشاره

هنالک عدّه مسائل ومباحث متعلقه بالحج لا یمکن استیعابها فی هذا البحث، وعلیه سنکتفی بالإشاره إلی بعض الاُمور التی تتمتع بأهمیه کبیره:

۱ – نبذه تأریخیه عن الکعبه

للکعبه – التی یطلق علیها اسم بیت اللّه الحرام أیضاً – تأریخ عریق یعود إلی زمان آدم علیه السلام

۱– ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱/۱۲۴. [۱]

۲– ۲) «یحرزون» من ماده «الاحراز» بمعنی الحفظ والادخار والخزن. ومن هنا یطلق الحرز علی الموضع المحفوظ کالصندوق والمخزن وما شابه ذلک.

۳– ۳) «وفاده» بمعنی البزوغ والطلوع، ثم أصبحت بمعنی النزول والدخول، کما یصطلح بالوفد علی الهیئه والجماعه التی ترد علی دوله أو زعیم أو فئه ذات مکانه.

حسب ما أشارت الروايات (۱)فآدم علیه السلام هو أول من بناها وطاف حولها، ثم اندرست فی الطوفان الذی عم الأرض زمان نبی اللّه نوح علیه السلام، ثم أعاد بنائها إبراهیم علیه السلام وولده إسماعیل - علی ضوء صریح الآیات القرآنیه کقوله سبحانه: «وَ إِذ یَرْفَعُ إِبْراهِیمُ القَواعِدَ مِنَ البَیْتِ وَ إِسْماعِیلُ. .» (۲)- فأدیا مراسم الحج حیث أصبحت الکعبه أول مرکز للتوحید للإنسانیه: «إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّهَ مُبارَکاً» (۳). وکما أشرنا سابقاً وعلی ضوء بعض الروایات الصحیحه أنّ فی السماء بیتاً یطوف به الملائکه طواف البشر بهذا البیت، وانّ البیت أول من عتق من الماء (۴)کما ورد هذا المعنی فی قصه دحو الأرض. وقد تظافرت الروایات - فی نهج البلاغه وغیره من المصادر الإسلامیه - التی کشفت عن عظمه الکعبه ومدی أهمیتها، ومنها ماروی عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال: «ما خلق اللّه عز وجل بقعه فی الأرض أحب إلیه منها - ثم أومأ بیده نحو الکعبه - ولا أکرم علی اللّه عز وجل منها» بل ورد فی مقدمه هذا الحدیث أنّ النظر إلیها عباده (۵)فالکعبه هی رمز الوحده الإسلامیه التی تتطلع إلیها الجماعه الإسلامیه فی العالم أجمع. جدیر ذکره بشأن أهمیه البیت أن زراره - من کبار صحابه الإمام الباقر والصادق علیهما السلام - دخل علی الإمام الصادق علیه السلام فقال: (جعلنی اللّه فداک أسألک فی الحج منذ أربعین عاماً فتفتینی» . فرد الإمام قائلاً: «یا زراره بیت یحج إلیه قبل آدم بألفی عام تریـد أن تفتی مسائله فی أربعین عاماً» (۶). فالذی یستفاد من هذا الحدیث أنّ الملائکه والمخلوقات التی عاشت علی الأرض قبل آدم علیه السلام کانت تحج البیت. ففی الحدیث أنّ آدم لما قضی مناسکه وطاف بالبیت لقیته الملائکه، فقالت: یا آدم لقد حججنا هذا البیت قبلک بألفی عام.

۱- ۱) بحار الأنوار ۱۲ / ۸۶.

۲- ۲) سوره البقره / ۱۲۷. [۱]

۳- ۳) سوره آل عمران / ۹۶. [۲]

۴- ۴) شرح نهج البلاغه للخوئی ۲ / ۲۳۵.

۵- ۵) فروع الکافی ۴ / ۲۴۰ (باب فضل النظر إلی الکعبه) . [۳]

۶- ۶) وسائل الشیعه ۸ / ۷ (باب وجوبه علی کل مکلف مستطیع) . [۴]

۲ – فلسفه الحج

لقد تضمنت عبارات الإمام علیه السلام إشارات عمیقه لفلسفه الحجح وما ینطوی علیه من أسرار. إلی جانب ذلک فقد وردت الروایات التی صرّحت بمثل هذا المعنی، والذی یخلص إلیه من مجموعها أنّ هذه المناسک العظیمه تشتمل علی أربعه جوانب هی:

الجانب الأخلاقی والعبادی، الجانب السیاسی والاجتماعی، الجانب الثقافی والجانب الاقتصادی.

أمّا الجانب الأخلاقی والعبادی الذی یمثل أهم جوانب فلسفه الحج بفضل تنبیه لتربیه النفس وتهذب الأخلاق والتحلی بالورع والتقوی والاخلاص. حیث صرّحت الروایات الإسلامیه بشأن من یحج البیت «یخرج من ذنوبه کهیئه یوم ولدته أمه» (۱). والروایه بدورها دلیل واضح علی مدی التأثیر الذی یلعبه الحج فی النفس الإنسانیه وتنقیتها من الذنوب والمعاصی التی دنست عفتها طیله العمر وهذه أعظم فائده یصیبها الوافد علی بیت اللّه. ولو التفت الحاج إلی أسرار المناسک التی یؤدیها والشعائر التی یؤتی بها فان کل خطوه ستجعله أکثر قرباً من اللّه لیری مولاه حاضراً فی کل مکان فهو معبوده الحق الذی لا یفارقه طرفه عین. أجل سیعود إلی الحیاه من جدید کیوم ولدته أمه.

ولا غرو فمن أدرک الحج بمعناه الحقیقی سیشعر بآثاره الروحیه والمعنویه إلی آخر عمره، ولعل هذا هو السبب فی وجوب الحج مره واحده طیله العمر.

وأمّا علی صعید الجانب السیاسی والاجتماعی فانّ الإتیان بمراسم الحج علی ضوء التعالیم الإسلامیه والحج الإبراهیمی الذی دعی الناس لامتثاله إنّما یؤدی إلی عزه المسلمین وتحکیم دعائم الدین وارساء أسس الأخاء والوحده وتنامی شوکه الدین وصلابته والوقوف بوجه الأعداء والمستکبرین واعلان البراءه من المشرکین والملحدین. کما یمنح هذا المؤتمر الإلهی العظیم الذی یعقد کل عام فی البیت العتیق المسلمین الفرصه الذهبیه فی إعاده بناء أنفسهم وتقویه أواصر الاخوه فیما بینهم ورص صفوفهم بما یحبط مؤامرات أعداء الدین وافشال

۱- ۱) بحار الأنوار ۹۹ / ۲۶. [۱]

خطط الشياطين، وما يؤسف له أنّ المسلمين لم يقفوا لحد الآن على عظمه الحج ويدركوا كنهه وإلّا لتمكنوا - فى ظل هذه الشعيره - من إسداء أعظم الخدمات للإسلام وتسديد أوجع الضربات إلى ركائز الشرك والكفر؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى الروايات الإسلاميه ولاسيما تلك التى وصفته: «لايزال الدين قائماً ماقامت الكعبه» (۱). وكأن أعداء الإسلام أدركوا الدور العظيم الذى يلعبه الحج على صعيد المسائل السياسيه فمارسوا أقصى ردود الفعل تجاهه بغيه الحؤول دون تحقيق أهدافه. فهذا «غلادستون» - رئيس وزراء بريطانيا - يخاطب مجلس العموم بأنّ المسيحيه مهدده بالخطر وسنعجز عن إصلاح العالم (طبعاً ليس الإصلاح من وجهه نظرهم سوى الاستعمار) مادام اسم محمد يذكر صباح مساء من على المآذن والقرآن هو دستور حياه المسلمين، الذين يقيمون مراسم الحج كل عام بهذا الشكل (۲). بل قيل أن غلادستون اختتم خطابه لمجلس العموم بقوله: يجب عليكم يا ساسه المسيحيه أن تزيلوا اسم محمد من آذان المسلمين فتنسونهم ذكره وتحرقون القرآن وتخربون الكعبه. وهناك جمله أُخرى معروفه أطلقها أحد زعماء النصرانيه فى الغرب قائلاً: «الويل للمسلمين إن غفلوا عن معنى الحج، الويل لمن سواهم إن فهموا معناه» . وبالبداهه أنّهم لا ينوون من هذا الاحراق ظاهر القرآن، كما أنّهم لن ينجحوا فى تخريب الكعبه، غير أنّهم يستطيعون وفى ظل غفله المسلمين من تحقيق مآربهم بالقضاء على أحكام الدين وافراغ الحج من محتواه الأصيل.

وأمّا بالنسبه للجانب الثقافى وعلى ضوء الأخبار الإسلاميه فان هذه المراسم سوف تؤدى إلى التعريف بالثراء الجم لرسول اللّه صلى الله عليه و آله والأئمه المعصومين عليهم السلام وستكون الفرصه مؤاتيه بفضل حضور علماء المسلمين ومفكريهم ومن كافه الاصقاع - بما فيهم كبار علماء الدين وكبار الأدباء والفنانين والمثقفين والكتاب الذين يتوافدون على البيت كل عام - لتبادل الأفكار والثقافات والانفتاح على تجارب الآخرين بما يسهم فى إحياء مفاهيم الدين ونشر تعاليم الرسول الكريم صلى الله عليه و آله والهداء الميامين من آله الطيبين الطاهرين.

وأخيراً الجانب الرابع الذى يشير إلى الفلسفه الاقتصاديه للحج. فقد وردت الروايات

۱- ۱) فروع الكافى ۴ / ۲۷۱ (باب أنّه لو ترك الناس الحج لجاءهم العذاب) . [۱]

۲- ۲) دليل الحرمين الشريفين ۱ / ۵۴ (نقلاً عن قول القمر) .

والأخبار التى تفيد أن من معطيات الحج تفعيل القدره الاقتصاديه للمسلمين وانقاذهم من الأزمات الماليه التى تعصف بحياتهم وحياه مجتمعاتهم. ولعل البعض لا يرى من رابطه من قريب أو بعيد بالجانب الاقتصادى، إلّاأنّ أدنى تأمل لهذه القضيه سيكشف بوضوح بأنّ الخطر العظيم الذى يهدد كيان المسلمين إنّما يتمثل اليوم بالتبعيه الاقتصاديه للأجانب، فما الضير فى اقامه المؤتمرات والندوات الاقتصاديه من قبل المعنيين والمتخصصين فى تلك الديار المقدسه بصفتها مراسم عباديه تهذف إلى انتشال المسلمين من مخالب الفقر والتبعيه وطرح المشاريع والبرامج الاقتصاديه التى من شأنها معالجه الأوضاع المزريه؟ ولا نرى لهذه القضيه من طابع فردى لتعالى الأصوات بالانشغال بزخارف الدنيا وحطامها الزائل، بل الهدف أنبل وأسمى حيث يكمن فى خدمه الإسلام والمسلمين فى هذا الجانب الحيوى. (۱)ويتضح من قوله عليه السلام: «ووقفوا مواقف أنبيائه وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح فى متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته» مدى الأهميه التى أولاها الإمام عليه السلام لحج بيت اللّه الحرام؛ ولا عجب فهى عباده اجتماعيه عامه تقسم فى طياتها الدنيا والآخره والأخلاق والمعنويات وعزه المسلمين وتنامى شوكتهم.

طبعاً واسع وشامل البحث المتعلق بالحج وأبعد ممّا ذكرنا إلّاأننا سنستغرق أكثر فى هذا الموضوع حين شرحنا لسائر خطب الإمام عليه السلام الوارده بهذا الشأن، ونكتفى هنا بهذا المقدار المتواضع.

۱- ۱) لقد أشارت الروايه التى نقلها هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السلام بصوره إجماليه إلى فلسفه هذه الجوانب الأربعه للحج (وسائل الشيعه ۸ / ۹) [۱] كما يمكن لمن أراد المزيد أن يراجع التفسير الأمثل / ۱۴ بشأن فلسفه الحج.

الخطبهالثانيه

اشاره

ومن خطبه له عليه السلام

بعد انصرافه من صفين وفيها حال الناس قبل البعثه وصفه آل النبى صلى الله عليه و آله ثم صفه قوم آخرين.

القسم الأول

اشاره

«أَحْمَدُهُ اسْتِتْماماً لِنِعْمَتِهِ وَاسْتِسْلاماً لِعِزَّتِهِ وَاسْتِعْصاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ. وَأَسْتَعِينُهُ فاقَةً إِلَى كِفايَتِهِ إِنَّهُ لا يَضِلُّ مَنْ هَداهُ وَلا يَئِلُ مَنْ عاداهُ وَلا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفاهُ فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ وَأَفْضَلُ مَا خُزِنَ وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شَهادَةً مُمْتَحَناً إِخْلاصُها مُعْتَقَداً مُصاصُها نَتَمَسَّكُ بِها أَبَداً ما أَبْقانا، وَنَدَّخِرُها لِأَهاوِيلِ ما يَلْقانا فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ وَفاتِحَةُ الْإِحْسانِ، وَمَرْضاةُ الرَّحْمَنِ، وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطانِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السّاطِعِ وَالضِّياءِ اللَّامِعِ، وَالْأَمْرِ الصّادِعِ، إِزاحَةً لِلشُّبُهاتِ وَاحْتِجاجاً بِالْبَيِّناتِ وتَحْذِيراً بِالْآياتِ وَتَخْوِيفاً بِالْمَثُلاتِ» .

ص:۱۷۵

نظره إلى الخطبه

تشتمل هذه الخطبه على خمسه مضامين (تبحث فى أربعه أقسام) :

المضمون الأول فى حمد اللّه والثناء عليه والملاذ بفضله وكرمه ورحمته، والثانى فى الشهاده للّه بالوحدانيه ومعطيات الإيمان بالتوحيد، والثالث فى الشهاده بالنبوه والعبوديه إلى جانب التذكير بفضائل النبى صلى الله عليه و آله واوضاع العصر الجاهلى والملمات والخطوب التى شهدها المجتمع الإسلامى آنذاك والجهود التى بذلها الرسول الكريم صلى الله عليه و آله من أجل مجابهه تلك الخطوب وتحمل المصاعب والويلات بهذا الشأن، والرابع فى منزله أهل البيت وعلو مقامهم وسمو مكانتهم واللجوء إليهم فى اُمور الدين، والمضمون الأخير الذى يواصل فيه المعنى المذكور بصيغه اُخرى محذراً الاُمّه من مقارنه أنفسها بهم، متطرقاً إلى عدم إمكانيه تشبه أى من الأفراد بهم ومستعرضاً لفضائلهم والاعراب عن الارتياح لعوده الحق السليب لأهله.

ظروف وملابسات الخطبه

كما مر علينا سابقاً فقد صرّح المرحوم السيد الشريف الرضى أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه بعد انصرافه من صفين.

ومضامين الخطبه ومعانيها تبدو منسجمه والمعنى المذكور؛ الحقيقه التى تجسدت فى استعراض حياه الاُمّه فى العصر الجاهلى حيث يحذرها من مغبه تكرار الجاهليه الاولى والحؤول دون تمكن من تبقى من رواد تلك الجاهليه الذين كانوا يشكلون غالبيه معسكر الشام فى صفين من تحقيق أطماعهم ومآربهم. كما يؤكد عليه السلام على ضروره تمسك الاُمّه بأهل بيت النبى صلى الله عليه و آله بغيه التحصن من الأخطار التى كانت تهدد الإسلام آنذاك، فهم الذين قال فيهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «إنّى مخلف فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتى أهل بيتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً وإنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض» فالنجاه بالتمسك بالكتاب والعتره معاً.

ومن هنا يتضح بطلان ماذهب إليه ابن أبى الحديد بشأن صدور الخطبه حيث قال: واعلم أنّ هذه الكلمات وهى قوله عليه السلام: «الآن إذا رجع الحق إلى أهله» إلى آخرها يبعد عندى أن

تکون مقوله عقیب انصرافه علیه السلام من صفین، لأنّه انصرف عنها وقتئذ مضطرب الأمر، منتشر الحبل، بواقعه التحکیم، ومکیده ابن العاص، وما تم لمعاویه علیه من الاستظهار، وما شاهد فی عسکره من الخذلان، وهذه الکلمات لا تقال فی مثل هذه الحال، وأخلق بها أن تکون قیلت فی ابتداء بیعته، قبل أن یخرج من المدینه إلی البصره، وأنّ الرضی رحمه اللّه تعالی نقل ماوجد، وحکی ماسمع والغلط من غیره، والوهم سابق له، وما ذکرناه واضح. (۱)

وقد صرّح بعض العلماء بأنّ هذا الکلام ینبغی ألا یقال بشأن فرد یعتبر علماً فی العلم وبحراً من الوقار واسطوره فی الجهاد والمقاومه. فانّ فرداً مثل علی علیه السلام لاتهزه هذه الحادثه وأنی للاضطراب والقلق من سبیل إلی هذه الروح الملحمیه والأفکار الربانیه التی کان یتحلی بها علی علیه السلام. بل بالعکس وکما أوردنا سابقاً فان الإمام علیه السلام یحذر - فی هذه الخطبه - الاُمّه من الاستسلام إلی الدعایات السامه والمشاریع الشیطانیه التی کان یمارسها ولاه الشام ومن مغبه العوده القهقری إلی العصر الجاهلی والصمود فی الذود عن الحق بعد أن عاد إلی أهله. وعلیه فلا یبدو رأی ابن أبی الحدید صائباً فی أن معاویه هو الذی انتصر فی المیدان ولا سیما قول الإمام علیه السلام: «الآن إذا راجع الحق إلی اهله» وذلک للأسباب التالیه:

أولاً: أنّ معاویه لم یکسب تلک المعرکه قط، غایه مافی الأمر أنّه نجی من هزیمه منکره بفعل خدعه عمرو بن العاص فما زال الإمام علیه السلام یری الحق (هو وأهل بیته) ویحذر الاُمّه من التغابی عنه إلی جانب الذود عنه وعدم زحزحته عن أهله.

ثانیاً: إنّ التحکیم الغادر لعمرو بن العاص - وخلافاً لما یراه الکثیرون - لم یحصل فی صفین بحضور الإمام علیه السلام بل وقع بعید بضعه أشهر، والطریف أنّ ابن أبی الحدید قد صرّح بهذا المعنی فی موضع آخر من شرحه. ونخلص ممّا سبق إلی أنّ الدلیل الذی حاول أن یتمسک به ابن أبی الحدید والذی تمثل بالجمله الأخیره فی الخطبه لإثبات صحه مدعاه فی أنّ الخطبه صدرت بعد موقعه صفین، هو دلیل باطل وشاهد عاری من الصحه.

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱ / ۱۴۳. [۱]

الشرح والتفسير

الركنان الأساسيان فى الإسلام

استهل الإمام عليه السلام الخطبه - كسائر خطبه - بحمد اللّه والثناء عليه، إلّاأنّه يكشف عن الدوافع الثلاث لهذا الحمد والثناء:

الأول الاستزاده من النعم الإلهيه، واظهار الاستسلام والخضوع للعزه الإلهيه والقدره المطلقه، وأخيراً الاعتصام بالطافه من المعاصى. فقد قال عليه السلام: «أحمده استتماماً (١)لنعمته واستسلاماً (٢)لعزته واستعصاماً (٣)من معصيته» . لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ مفهوم الحمد أشمل من الشكر، وبعباره اُخرى فانّ الشكر ممزوج بالمدح وهذا يدعو من جانب لاستزاده النعم الإلهيه كما قال سبحانه: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» (۴)ويشكل القيام بوظيفه العبوديه من جانب آخر وهذا هو التسليم مقابل عزه اللّه وأخيراً يوجب عنايات اللّه وألطافه الغيبيه فى حفظ الإنسان وعصمته من الذنوب والمعاصى. ثم يستعين عليه السلام باللّه بعد حمده والثناء عليه موعزاً ذلك إلى حاجته إليه سبحانه وعدم غناه عنه «واستعينه فاقه إلى كفايته» . أجل إذا رأى العبد نفسه محتاجاً لتلك الذات الغنيه وصاحب الكمال المطلق فانه يلجأ إلى الحق سبحانه ليشمله بفضله ورحمته ويعينه فى كافه شؤون حياته. آنذاك يشير إلى دليل آخر لهذه الاستعانه فيقول: «انّه لا يضل من هداه ولا يئل (۵)من عاداه ولا يفتقر من كفاه» . نعم فقدرته على درجه من القوه والعظمه بحيث لا يسع أحد الوقوف أمامها، وإن علمه ثاقب ليس للخطأ من سبيل إليه. وهناك إحتمال أيضاً أنّ الدوافع الثلاث دليل آخر على الحمد والثناء ودليل على الاستعانه أيضاً.

ثم يشير فى آخر العباره إلى دليل آخر يوجب الحمد للّه والثناء عليه «فانه أرجح ما وزن

١- ١) «استتمام» قد تعنى الاتمام أو المطالبه بالاتمام، وقد أريد بها هنا المعنى الثانى ويؤيد ذلك الجمله اللاحقه.

٢- ٢) «استسلام» بمعنى الانقياد والتسليم، وعناها بعض اللغويين بموافقه الظاهر للباطن بالنسبه للشىء والانقياد من لوازمها.

٣- ٣) «استعصام» بمعنى المطالبه والحفظ ودفع الاُمور المكروهه.

۴- ۴) سوره إبراهيم / ٧. [١]

۵- ۵) «يئل» من ماده «وأل» على وزن وعد بمعنى النجاه واللجوء والعوده.

وأفضل ما خزن» . والواقع هو أنّ الفوائد والآثار التى وردت فى العبارات السابقه إنّما تتعلق بهذا العالم، بينما ترتبط الفوائد الوارده فى العبارتين الاخيرتين بالعالم الآخر وزاد المعاد يوم القيامه، وهكذا يكون حمد اللّه والثناء عليه سبب النجاه فى الدنيا والآخره، وما أروع عبارات الإمام عليه السلام المقتضيه التى تضمنت تلك المعانى العميقه. فلا يبدو من العبث أن يصرح ابن أبى الحديد حين يتناول بالشرح هذه الخطبه فيذهل للكنايات والبديع وعذوبه التعبير الذى تضمنته عبارات الإمام عليه السلام قائلًا: «فسبحان من خصه بالفضائل التى لا تنتهى السنه الفقهاء إلى وصفها وجعله إمام كل ذى علم وقدوه كل صاحب خصيه» .

ثم يتطرق عليه السلام إلى الشهاده بالوحدانيه بصفتها تشكل مصدر جميع الفضائل والكمالات: «واشهد ان لا إله إلّااللّه وحده لا شريك له» وتمسك الإمام عليه السلام بالتوحيد على أنه دعامه كافه العقائد والأفكار الطاهره والأعمال الصالحه من جانب، ومن جانب آخر ليلتفت من يرى الوهيته عليه السلام إلى خطأ إعتقاده. ثم يضيف الإمام عليه السلام بأنّ شهادته هذه شهاده حقيقيه تستند إلى الاخلاص والتقوى وليست لقلقه لسان «شهاده ممتحنا (۱)اخلاصها معتقداً مصاصها (۲)» .

فهى شهاده حقه دائمه مادامت الحياه مدخره حيث الأهوال والخطوب «نتمسك بها أبداً ما أبقانا وندخرها لاهاويل (۳)ما يلقانا» .

فالإمام عليه السلام يعلن عن عمق إيمانه وإذعانه بحقيقه التوحيد فى كافه شؤون الحياه وعلى جميع المستويات؛ الحقيقه التى تجسدت فى سيرته عليه السلام والمشهوده فى كافه جوانب حياته حتى لم يتطرق الشرك إليه طرفه عين، فلم يسجد لصنم قط وكانت سكناته وحركاته فى ظل التوحيد البعيد عن أدنى شرك خفى. ثم يذكر عليه السلام أربعه دعائم لهذا الركن الركين فى الإسلام «فانها عزيمه الإيمان وفاتحه الاحسان ومرضاه الرحمن ومدحره (۴)الشيطان» .

۱- ۱) «ممتحن» من ماده «محن» على وزن وهن بمعنى الاختبار والامتحان، إلّاانّ بعض أرباب اللغه قالوا أصلها استخراج التراب حين حفر البئر.

۲ - ۲) «مصاص» من ماده «مص» على وزن نص بمعنى التذوق والامتصاص ومن هنا اصطلح بالمصاص على عصاره الشىء الممتص حين وروده بدن الإنسان.

۳- ۳) «الأهاويل» جمع أهوال «وهول» بمعنى الخشيه والخوف.

۴- ۴) «مدحره» من ماده «دحر» بمعنى الطرد والابعاد.

سنرى فى الأبحاث القادمه أنّ الإيمان بأى من أصول الدين إنّما هو إيمان أجوف مالم يستند إلى التوحيد، كما أنّ الصالحات بأجمعها إنّما تستقى من حقيقه التوحيد، ومن هنا كان مرضاه للّه ومدحره للشيطان، لأنّ الوسيله المهمّه الهدامه للشيطان إنّما تتمثل بالشرك سواء كان جلياً واضحاً أم مخفياً مستتراً.

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بفاتحه الاحسان هو الأجر والثواب الإلهى الذى التوحيد مفتاحه، غير أن التفسير الذى ذكرناه يبدو أكثر صحه من هذا. وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من هذه الشهاده الخالصه الحقه حتى يردفها بمتممتها التى تتمثل بالشهاده بالنبوه: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» . نعم فهو عبد اللّه قبل أن يكون رسوله، فليس من مجال لبلوغ مقام النبوه دون العبوديه، وفى هذا رد على أولئك الذين قد يبالغون فى مقام الرسول ليبلغوا درجه الإلوهيه. آنذاك يصف رساله ووظيفه النبى فيقول:

«أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور (۱)والكتاب المسطور والنور الساطع (۲) والضياء اللامع والأمر الصادع (۳)» . والواقع هنالك عدّه تفاسير بشأن هذه العبارات الست العميقه المعانى والأُمور التى تشير اليها. منها أنّ المراد بالدين المشهور هو الإسلام الحنيف والعلم المأثور المعجزات والكتاب المسطور القرآن الكريم والنور الساطع علوم النبى صلى الله عليه و آله والضياء اللامع سنته صلى الله عليه و آله والأمر الصادع - بقرينه الآيه الشريفه ۹۴ من سوره الحجر «فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ» (۴)- ترك التقيه واظهار التوحيد فى مقابل المشركين والكافرين. كما يحتمل أن يكون المراد بالضياء اللامع والنور الساطع تبيين القرآن الكريم، فالقرآن مصدر اشعاع أفكار المجتمعات الإنسانيه. ثم يخوض الإمام عليه السلام فى الهدف النهائى لرساله النبى صلى الله عليه و آله والقرآن والمعجزات والقوانين والأحكام الشرعيه، فيوضح أهداف النبى صلى الله عليه و آله فى ثلاث محاور: ازاله

۱- ۱) «المأثور» من ماده «أثر» بمعنى العلامه الباقيه من الشىء ولذلك يطلق على العلوم المتبقيه من الماضين «علم المأثور» .

۲- ۲) «الساطع» من ماده «سطوع» بمعنى الانتشار، فالنور الساطع هو النور الواسع المنتشر كما ورد بمعنى المرتفع.

۳- ۳) «صادع» من ماده «صدع» بمعنى الشق فى الجسم الصلب والمحكم ثم أطلق على كل شىء قاطع.

۴- ۴) سوره حجر / ۹۴. [۱]

الشبهات بالأدله والبراهين واستقطاب الخصوم من خلال إرشادها بالآيات البيّنات وتحذيرهم من العقاب الأليم ان هم تمادوا فى غيّهم وعصيانهم «إزاحه (۱)للشبهات واحتجاجاً بالبيّنات وتحذيراً بالآيات وتخويفاً بالمثلات (۲)» .

يمكن أن يكون المراد من قوله «ازاحه الشبهات» الحقائق التى تعززها البراهين والأدله الربانيّه والتى لا تدع مجالاً لشك أو شبهه، «واحتجاجاً بالبيّنات» المعجزات الحسيه بالنسبه لأُولئك الذين لا يسلمون سوى للاستدلالات العقليه والتى من شأنها سوقهم نحو الإيمان واليقين، «تحذيراً بالآيات» الوعيد بالعذاب الأُخروى «تخويف بالمثلات» الوعيد بالعذاب الدنيوى كما ورد ذلك فى بعض الآيات القرآنيه كقوله سبحانه وتعالى: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَهِ قَبْلَ الحَسَنَهِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المَثُلاتُ» . (۳)

تأمّلان

۱- التوحيد ركيزه الصالحات

تعتير الشهاده لله بالواحدانيه من الأُصول العقائديه المسلمه بالنسبه لسائر الاصول؛ إلّا أنّ هذا استنتاج ساذج لهذا الأصل الإسلامى المهم. فالتمعن فى المصادر الإسلاميه والتحليلات العقليه يدل على أن التوحيد أصل جار على سائر الأُصول والفروع، بعباره أُخرى فان كافه أصول الإسلام وفروعه تشكل بلوره لمفهوم التوحيد؛ ولا يقتصر هذا الأمر على المباحث العقائديه والعباديه فى المسائل الاجتماعيه والسياسيه والأخلاقيه بل تسرى روح التوحيد لتحكم جميع المجالات.

فالتوحيد على مستوى الذات والصفات والافعال والعبوديه لمن الأُمور المسلمه الواضحه ولا نقتصر به على نبيّنا دون سائر الأنبياء بحكم الآيه الشريفه «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» (۴)

۱- ۱) «ازاحه» من ماده «زيح» على وزن زيد بمعنى الأبعاد والاقصاء.

۲- ۲) «مثلات» جمع «مثله» على وزن عضله بمعنى البلاء والمصاب الذى يحل بالإنسان فيصبح مثالاً وعبره للآخرين (مفردات الراغب، تحقيق، الصحاح ومجمع البحرين) .

۳- ۳) سوره الرعد / ۶. [۱]

۴- ۴) سوره البقره / ۲۸۵. [۲]

وعليه فاننا نؤمن بأنّ جميع الأنبياء والمرسلين إنّما يتفقون فى أهدافهم ووحده رسالتهم وبرامجهم رغم أن بعض الأحكام والمشاريع والبرامج التى تلبس حللا جديده وتتخذ طابعا حديثا بفعل تطور المجتمعات البشريه وتقدم مسيرتها.

أمّا بالنسبه للمعاد وعلى ضوء الآيه الشريفه «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيامَهِ فَرْداً» (۱)فانّ الجميع سيقف بمفرده يوماً فى محكمه العدل الإلهى لينالوا جزائهم من ثواب أو عقاب يتناسب مع طبيعه أعمالهم وفقا لمعايير إلهيه واحده.

فالمجتمعات البشريه تنتمى إلى جذور واحده تحكمها أصول ثابته ومعينه، بل تحكم جميع عالم الوجود. والواقع صحيح أنّ هنالك تفاوتا فى القوانين الإلهيه فى الأديان السماويه من حيث آلياتها وتفرعاتها، إلّاأنّ مستقاها واحد، ومن هنا فاننا نؤمن بوحده دعوه الأنبياء للمجتمع العالمى الموحد، وأنّ العالم برمته سيشهد فى خاتمه المطاف حكومه العدل الإلهى.

أمّا على صعيد المسائل الأخلاقيه فليس هنالك من يتردد فى أنّ الفضائل الأخلاقيه إنّما تنبع من التوحيد بينما تنبع الرذائل من الشرك.

و عاده ما يتورط بالشرك الأفراد المرائين وأولئك الذين يصابون بأمراض الحسد والبخل و الحرص والتكبر، وإلّا فالفرد الذى يعيش توحيد الأفعال بكل كيانه وفى أعماقه ويؤمن بأنّ العزه والذله والرزق والحياه والممات والنصر والغلبه لله بيده وحده لايرى من مسوغ لان يستشعر قلبه معانى الرياء والحرص والبخل والحسد.

و زبده الكلام فانّ التوحيد ليس بمثابه حبه مسبحه بالنسبه لسائر الحبات، بل هو بمثابه الخيط الذى يشد الحبات إلى بعضها البعض الآخر.

و من هنا يتضح عمق كلمات الإمام عليه السلام بالنسبه لمفهوم التوحيد - فى الخطبه -، فالتوحيد هو الدعامه الرئيسيه للإيمان وانطلاقه الأعمال الصالحه ويستبطن رضى الرحمن وطرد

۱- ۱) سوره مريم / ۹۵. [۱]

الشيطان، وإذا ما أشرقت شمس التوحيد على جسم المجتمع البشرى وروحه فانّه سيتخذ طابعا متبلورا فى ظل أشعته الزاهره. وإذا رأينا أمير المؤمنين ومولى المتقين على عليه السلام الذى يمثل بدوره روح التوحيد لاينفك عن تكرار التعرض للتوحيد - فى خطب نهج البلاغه - وتعليم أتباع مدرسه أهل البيت الاخلاص فى التوحيد فإنّما يعزى ذلك إلى ضروره الابقاء على جذوه هذه الشعله الخالده متقده فى القلوب ورى أرض الحياه بهذه المياه العذبه لتورق ثمار أشجارها وتنضج فى ظل صبغه التوحيد الإلهيه.

و ممّا لا شك فيه أنّ الشهاده بالنبوه والالتفات إلى وظائفها ومسؤولياتها وكتبها السماويه إنّما يعدّ أفضل أرضيه خصبه لبلوره حقيقه التوحيد فى أعماق كيان الإنسانيه.

٢- التوحيد الخالص الذى طبع حياه أميرالمؤمنين عليه السلام

كان على عليه السلام مجسمه التوحيد ومظهره التام قبل أن يدعو الآخرين لهذه الحقيقه الخالصه.

لم يسجد لصنم طرفه عين طيله حياته قط ليلوث صفو روحه غبار الشرك. كان لا يفعل شيئا إلّاويرى الله فيه وقبله ومعه لايروم سوى رضاه.

كما وقف كالطود الشامخ يشد أزره ويذود عنه بغيه استتباب التوحيد والعبوديه. ولا يخفى على أحد موقفه فى الخندق ومبارزته لعمرو بن العاص، فقد صرعه الإمام عليه السلام وأو شك أن يقتله؛ وقد أصيب جيش الإسلام بالذهول حين رأى الإمام عليه السلام قد انصرف عن قتله (و لعله نهض من عنده وتركه لمدّه بعد أن تجول فى الميدان) ثم عاد إليه وقتله.

فلما سسئل عن عله ذلك قال عليه السلام: «قد كان شتم أمى وتفل فى وجهى فخشيت أن أضربه لحظ نفسى فتركته حتى سكن ما بى ثم قتله فى الله» (١)وقد وقف بكل قوه تجاه بعض أصحابه الذين اعترضوا عليه بالتسويه فى العطاء من بيت المال قال: «أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه! والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أم نجم فى السماء نجماً! لو كان المال لى لسويت بينهم، فكيف وإنّما المال مال الله» . (٢)ولما كان يقف للصلاه كان يستغرق فى صفات الله وجلاله وجماله بحيث لم يكن يرى سوى الله ولا يفكر فى سواه، حتى ورد فى الأخبار أن سهما أصاب رجله فى موقعه أحد وكان يصعب سله من رجله فأمر

١- ١) مناقب ابن شهر آشوب، ٢ / ١١٥ ([١]مستدرک الوسائل؛ ١٨ / ٢٨ [٢] وبحار الانوار، ۴١ / ۵١) . [٣]

٢- ٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٢۶. [۴]

رسول الله صلی الله علیه و آله سسله حین یقف للصلاه. فلما فرغ علیه السلام من صلاته قال لم أشعر بالسهم حین الصلاه. (۱)وما أکثر هذه التماذج التوحیدیه فی حیاه الإمام علیه السلام.

۱- ۱) کتاب «المناقب المرتضویه» تألیف المولی محمد صالح الکشفی الحنفی / ۳۶۴، طبعه یومبای (مطابق نقل احقاق الحق ۸ / ۶۰۲) .

القسم الثانی: العصر الجاهلی

اشاره

«وَالنّاسُ فِی فِتَنٍ انْجَذَمَ فِیها حَبْلُ الدِّینِ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوارِی الْیَقِینِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ وَضاقَ الْمَخْرَجُ وَعَمِیَ الْمَصْدَرُ فالْهُدَی خامِلٌ وَالْعَمَی شامِلٌ عُصِیَ الرَّحْمَنُ وَنُصِرَ الشَّیْطانُ وَخُذِلَ الْإِیمانُ فانْهارَتْ دَعائِمُهُ وَتَنَکَّرَتْ مَعالِمُهُ وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ وَعَفَتْ شُرُکُهُ أَطاعُوا الشَّیْطانَ فَسَلَکُوا مَسالِکَهُ وَوَرَدُوا مَناهِلَهُ، بِهِمْ سارَتْ أَعْلامُهُ، وَقامَ لِواؤُهُ، فِی فِتَنٍ داسَتْهُمْ بِأَخْفافِها وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلافِها، وَقامَتْ عَلَی سَنابِکِها، فَهُمْ فِیها تائِهُونَ حائِرُونَ جاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِی خَیْرِ دارٍ وَشَرِّ جِیرانٍ نَوْمُهُمْ سُهُودٌ، وَکُحْلُهُمْ دُمُوعٌ بِأَرْضٍ عالِمُها مُلْجَمٌ وَجاهِلُها مُکْرَمٌ» .

الشرح والتفسیر

یصور الإمام علیه السلام بهذه العبارات القصیره والبلیغه أوضاع العصر الجاهلی وکأن السامع یشهد عن قرب تلک الأوضاع ویری نفسه فی خضم ذلک العصر لیلمس الفوضی والبؤس والشقاء الذی کان علیه الناس. ولا نری أنفسنا نبالغ إذا ما قلنا بأنّ الإمام علیه السلام قد إختصر کتابا ضخما بهذه العبارات الموجزه؛ الأمر الذی یعدّ دلاله اُخری علی مدی رصانه بیانه وعمق الفصاحه والبلاغه والروعه فی التصویر والدقه فی التعبیر التی تشتمل علیها کلماته وخطبه علیه السلام. (۱)

۱- ۱) طبقا لما ورد آنفا فان الواو فی قوله «و الناس فی فتن. . . .» حالیه أی أنّ الله سبحانه بعث النبی صلی الله علیه و آله حین کان الناس علی هذه الحاله، إلّاأنّ بعض شرّاح نهج البلاغه إحتملوا أن الواو إبتدائیه والعبارات رسمت صوره عن أوضاع الناس فی عصر الإمام علیه السلام، غیر أنّ هذا الاحتمال لا یبدو صحیحا والحق هو الاحتمال الأول، رغم انّ هذه العبارات یمکن أن تکون تحذیرا للاُمّه فی عصره من العوده إلی عصر الجاهلیه بفعل أمراض حب الذات واطاعه الاهواء.

ومن البـديهى إلّاتتضـح عظمه رساله النبى صـلى الله عليه و آله وسـمو الخـدمات التى أسـداها إلى البشـريه وحلاوه الإيمان التى حملها الدين الحنيف ما لم تكن هناك صوره واضـحه عن الأوضاع السائده لدى الأقوام السابقه التى سبقت عصر الرساله وانبثاق الدعوه الإسلاميه.

فمن شأن هذه المقارنه أن تميز عظمه مشاريع الأنبياء وبرامج الأولياء والعباقره على مدى التاريخ. فقد أشار عليه السلام إلى الفتن التى كانت تعصف بالأُمّه آنـذاك بحيث تصـدعت عرى الـدين وتزعزعت أعمده الإيمان وتلوثت الفطره وتغيرت القيم وسادت الفرقه بين الناس، فغـدوا حيارى قـد ضـلوا المخرج «والناس فى فتن إنجـذم (۱)فيها حبل الـدين وتزعزعت (۲)سوارى (۳)اليقين واختلف النجر (۴)وتشتت الأمر وضاق المخرج وعمى المصدر» .

فقـد تقطعت حبائل الـدين وغيبت المعارف الـدينيه الحقه إثر فتن الشـياطين ووساوس عبـده الأهواء من جانب، ومن جانب آخر فـان الفوضـى عمت الأُـمّه وتصاعـدت بين أوساطها حـده الفرقه والاختلاف؛ والانكى من ذلك وفى ظل هـذه الظروف لم يكن هناك من سبيل للخروج من المأزق ولا من كهف يؤى إليه؛ الأمر الـذى اضـطر الناس للبقاء على الانحراف والـدنس الـذى ساد ذلـك المحيـط والعوم فى مسـتنقعه العفن. والعبـاره «حبل الـدين» - التى وردت بصـيغه المفرد - إشاره إلى وحـده الـدين الحق ووحده المصدر الذى تستقى منه كافه أصول وتعاليم الأنبياء وإن شهدت هذه الأُصول والتعاليم بعض الفوارق التى تفرزها طبيعه تقـادم الزمـان، وهـذا مـا يجوزه القرآن الكريم على لسان المؤمنين الصادقين بقوله: «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِنْ رُسُـلِهِ» (۵)وقوله عليه السلام «إختلف النجر» لا يشير إلى الاختلافات التى شهدها العصر

۱- ۱) «إنجـذم» من ماده «الانجـذام» بمعنى إنقطع وإنفصل ومن هنا يطلق إسم الجـذام على ذلك المرض الذى يصـيب الجسـم فيؤدى إلى انفصال الأعضاء.

۲- ۲) «تزعزعت» من ماده «زعزع» بمعنى تحركت واضطربت، فيقال على سبيل المثال: زعزع الريح الشجره.

۳- ۳) «سوارى» جمع ساريه العمود و الدعامه.

۴- ۴) «نجر» على وزن فجر يعنى الاصل، كما يعنى الاصلاح والشكل والهيئه ومنه اطلق اسم النجار. وقد وردت هذه المفرده فى العباره بالمعنى الأول.

۵- ۵) سوره البقره / ۲۸۵ [۱]

الجاهلی علی أنّها إختلافات صوریه فی تفرعاتها واطیافها فحسب، بل کانت إختلافات أصولیه وأساسیه جذریه.

بل یمکن القول إنّ العباره إشاره إلی معنی یتضمن تزلزل حتی أرکان الفطره الإنسانیه والاُصول الفطریه التی جبل علیها الإنسان من قبیل التوحید وعشق الأعمال الصالحه والخیره؛ أو تغیر قیم المجتمع الإنسانی وتنکرها حتی عاد لکل معاییره الخاصه للتعامل مع القضایا؛ الأمر الذی أدی إلی تلک الحاله من الفرقه والتشتت و «تشتت الأمر» یمکن أن تکون أشاره إلی شده الخلافات الدینیه القصوی آنذاک (علی أساس أنّ المراد بهذا الأمر هو أمر الدین) أو إشاره إلی الفرقه والشقاق فی کافه الاُمور الاجتماعیه، سواء الاُمور الدینیه والدنیویه والمسائل المرتبطه بالمجتمع والاسره أو القضایا الاقتصادیه أو الأخلاقیه.

ویبدو أنّ المعنی الثانی أکثر إنسجاما والعصر الجاهلی؛ وهنا تکمن الطامه الکبری حیث یغط الإنسان فی هاله من الشک والترید وإنعدام الإیمان وأنواع الاختلافات والشقاقات والفساد والانحراف ولیس هنالک من سبیل أمامه للخروج من هذا المأزق حتی یعیش الیأس والقنوط من رأسه إلی أخمص قدمه. وهذه هی الصوره الحقیقیه التی رسمها الإمام علیه السلام لذلک العصر.

ثم یتطرق علیه السلام إلی المعطیات السلبیه التی أفرزتها تلک الأوضاع المزریه آنذاک فوصفها علیه السلام قائلاً: «فالهدی خامل (۱)والعمی شامل، عصی الرحمن ونصر الشیطان وخذل الإیمان» .

من الطبیعی أن یتطلب سبیل طاعه الله نور الهدایه من جانب والبصیره التی تهتدی إلی ذلک النور من جانب آخر؛ فالاُمّه تتحول إلی رعیل شیطانی تتکالب علی الفواحش والرذائل شاءت أم أبت إذا إنعدم فی وسطها ذلک النور وفقدت تلک البصیره.

والجدیر بالذکر فی العباره «عصی الرحمن» أن الإمام علیه السلام قد إختار هنا اسم الرحمن من بین أسماء الله الحسنی فی إشاره إلی أنّه ورغم الرحمه الإلهیه التی عمت الجمیع دون إستثناء وانّ طاعته أمر فطری وبدیهی جبلت علیه النفس البشریه إلّاأنّ هؤلاء العمی البصائر فی العصر

۱- ۱) «خامل» بمعنی الشیء المنسی الذی لاقیمه له.

الجاهلی قد صموا أبصارهم حتی عن رؤیه هذه الحقیقه القائمه. ثم یؤکد هذه النتائج المره التی أصیبوا بها آنذاک فیلخصها علیه السلام قائلاً: «فانهارت (۱)دعائمه وتنکرت معالمه ودرست (۲)سبله و عفت شرکه (۳)» و لعل التعبیر بالدعائم إشاره إلی أولیاء الله ورواد سبیل الحق أو التعلیمات الاصولیه للأنبیاء.

و قوله إنهارت تعود إلی القضاء علی هذه الدعائم أو التعلیمات؛ والمعالم ممکن أن تکون إشاره إلی الکتب السماویه السابقه أو التعالیم النبویه، کما أنّ المراد بالسبل والشرک طرق المعرفه سواء الطرق العقلائیه والفطریه أو طریق الوحی والتعالیم السماویه.

النقطه الجدیره بالذکر هنا هی أنّ «الشرک» کما أشرنا سابقاً بمعنی الطریق الرئیسی. فالطرق الصغیره قد تکون عرضه للاهمال والنسیان فی حین لیس الطریق الرئیسی کذلک، مع ذلک ففی مثل هذا المجتمع وحتی الطرق الرئیسیه قد فقدت وزالت غایتها فی إرشاد الماره.

ثم یخلص الإمام علیه السلام إلی أنّ الاُمّه وفی ظل هذه الشرائط والأوضاع قد وقعت فی حبائل الشیطان واسلست له قیادها «أطاعوا الشیطان فسلکوا مسالکه ووردوا مناهله (۴)» .

ولم تکن نتیجه ذلک سوی ما قاله الإمام علیه السلام: «بهم سارت (۵)اعلامه، وقام لواؤه» . ثم قال علیه السلام: «فی فتن داستهم (۶)باخفاقها (۷)ووطئتهم باظلافها (۸)وقامت علی سنابکها (۹)» . (۱۰)

و السؤال المطروح هنا: هل هذه الفتن هی تلک التی أشیر لها سابقاً أم هی فتن اُخری؛ یبدو أنّها الفتن المذکوره آنفا، غیر أنّ الإمام علیه السلام أشار إلی تفاصیلها الاخری، حیث یشبه الإمام علیه السلام

۱- ۱) «إنهارت» من ماده «الانهیار» بمعنی الاندراس والزوال.

۲- ۲) «درست» من ماده «دروس» بمعنی إندثار آثار الشیء وزوالها.

۳- ۳) «شرک» جمع «شرکه» علی وزن حسنه، وقال البعض جمع أشراک بمعنی الطرق العامه.

۴- ۴) «مناهل» جمع «منهل» بمعنی مورد النهی.

۵- ۵) «سارت» من ماده «سور» بمعنی الرفع والاعلاء.

۶- ۶) «داست» من ماده «دوس» و «دیاس» بمعنی الهضم.

۷- ۷) «أخفاف» جمع «خف» وهو للبعیر کالقدم للإنسان.

۸- ۸) . «اظلاف» جمع «ظلف» بالکسر للبقر والشاء وشبههما کالخف للبعیر والقدم للإنسان.

۹- ۹) «سنابک» جمع «سنبک» علی وزن قنفذ بمعنی طرف الحافر.

۱۰- ۱۰) یمکن أن تکون جمله «فی فتن داستهم» متعلقه بمحذوف تقدیره لا والناس فی فتن داستهم» ، کما إحتمل البعض أنّ الجار والمجرور متعلق بسارت فی الجمله السابقه ویبدو الاحتمال الأول أقوی.

فتن الجاهليه بالحيوان الوحشى الذى يركل صاحبه بحافره. والذى يقف على رجليه ليدوس بها أدنى حركه تبدو أمامه.

أمّا تعبيره عليه السلام بالسنابك التى تعنى طرف الحافر فهى إشاره لطيفه إلى حقيقه مفادها أنّ هذه الفتن لا تعرف الانكسار وهى باقيه فى إلقاء ضلالها الوخيمه على الناس (لأن مثل هذه الحيوانات حين تقف على أطراف حوافرها إنّما تعلن عن تأهبها لابداء ردود الفعل العنيفه تجاه كل من يقف أمامها» .

و عليه فقد كانت الأوضاع فى ذلك الزمان على درجه من التعقيد والوخامه بحيث لم يعدّ هنالك من أمل فى التغلب عليها. وهذا بالذات ما جعل الإمام عليه السلام يخلص إلى هذه النتيجه بالنسبه لما عليه الناس فى ظل تلك الفتن «فهم فيها تائهون (۱)حائرون جاهلون مفتونون» .

تائهون إشاره إلى أنّهم قد ضلوا سبيل الحق بالمره حتى نسوا أنفسهم وخسروا ذاتهم. حائرون إشاره إلى الحيره التى سيطرت عليهم فسلبتهم حتى القدره على اتخاذ القرار الذى من شأنه إنقاذهم من تلك الفتنه. جاهلون أى أنّهم وعلى فرض عزمهم على إتخاذ القرار لنجاتهم فانّ الجهل والتخبط سوف لن يدعهم يبلغون السبيل السليم.

مفتونون إشاره إلى الأوهام والخيالات وإلّا لا عيب والحيل التى استهوتهم فجعلتهم يرون السراب ماءاً والمجاز حقيقه. وقد حصل كل هذا حين كان الناس فى خير أرض (فى جوار بيت الله الحرام وديار الأنبياء العظام) واسوأ جيران «فى خير دار وشر جيران» (۲)وأثر ذلك فقد أصبح «نومهم سهود (۳)وكحلهم دموع» . والأدهى من ذلك أنّهم يعيشون فى مجتمع لا يقيم زنا للعالم بما جعله يفقد قدرته على هدايتهم وإرشادهم بينما يخطى الجاهل فى ذلك المجتمع بمكانه لا يحلم بها «بارض عالمها ملجم وجاهلها مكرم» هنالك أربعه تفاسير أوردها شرّاح نهج البلاغه بشأنه قوله عليه السلام «فى خير دار» فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بها مكه (بيت اللّه

۱- ۱) تائهون جمع تائه بمعنى الضائع.

۲- ۲) ذهب البعض إلى أن الجار والمجرور فى قوله «فى خير دار» يتعلق بمفتونين، والحال أن الانسب أن يكون خبر لمبتدأ محذوف تقديره «و الناس فى خير دار» والجمله حال لعصر الجاهليه والواو فى قوله وشر جيران هى واو المعيه.

۳- ۳) سهود مصدر بمعنى الارق وقله النوم (الصحاح، المفردات، لسان العرب والمقاييس) .

الحرام) (و على هذا الضوء فان العبارات المذكوره وصف لعصر الجاهليه) بينما قال البعض الآخر أريد بها الشام حيث كانت من الأراضى المقدسه ومهبط الأنبياء وأهلها شر جيران؛ أى أصحاب معاويه (إذا اعتبرنا عبارات الإمام عليه السلام وارده بشأن عصره) .

الاحتمال الثالث أن يراد بقوله خيردار الكوفه التى كان يقيم فيها الإمام عليه السلام بينما كان أهلها ومن يحيط بها من شر الجيران من قبيل المنافقين والناكثين الذين لا يلتزمون بالعهود. وأخيراً الاحتمال الرابع أن يكون المراد بها دار الدنيا التى يسكنها أغلب الطالحين والاثمين ويبدو التفسير الأول هو الأنسب والأصوب حيث ينسجم والعبارات المذكوره سابقاً.

و على ضوء هذا التفسير فان قوله عليه السلام «نومهم سهود» إشاره إلى الفوضى والاضطراب وإنعدام الأمن والمصائب التى عمت عصر الجاهليه، والعلماء أولئك الصلحاء الذين تمحوروا حول رسول الله صلى الله عليه و آله والجهال أولئك المفسدون من قريش ومن لف لفهم؛ أمّا على ضوء سائر التفاسير فان المراد الفوضى وإنعدم الأمن فى زمان معاويه والمشاكل التى برزت بين العراق والشام آنذاك، وقد ألمحنا سابقاً إلى عدم انسجام هذه التفاسير وروح الخطبه.

والشاهد على ذلك إضافه لما ذكر، ما أورده إبن أَبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه حيث قال: أنّه عليه السلام لم يخرج من صفه أهل الجاهليه وقوله «فى خير دار» يعنى مكه و «شر جيران» يعنى قريشا، وهذا لفظ النبى صلى الله عليه و آله حين حكى بالمدينه حاله كانت فى مبدأ البعثه فقال «كنت فى خير دار وشر جيران» (۱).

أمّا قوله عليه السلام «نومهم سهود وكحلهم دموع» فهو إشاره لطيفه إلى تفاقم الفوضى والاضطراب ومصائب ذلك الزمان بحيث إذا خلدوا ليلا إلى النوم كان نومهم مضطربا مشوبا بالخوف والرعب والسهاد، وقد إتسعت هوه الفتن بحيث إكتحلت عيونهم بالدموع التى تحرق أجفانها بدلاً من تزينها بالكحل.

و من الطبيعى وفى ظل هذه الاجواء وفى تلك الديار والمجتمعات أن يغيب دور العلماء وتهمل مكانتهم وبالمقابل يبرز الجهال الذين كانوا يمثلون زعماء قريش وكبرائها ليحظوا

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱ / ۱۳۷. [۱]

باحترام الآخرين وتقديرهم بعد أن قلبت الموازين وضاعت القيم.

و أخيراً فهناك إحتمال آخر أن يكون المراد بالعلماء هم ذلك النفر القليل من الموحدين قبل بعثه النبى محمد صلى الله عليه و آله من قبيل عبدالمطلب وأبوطالب وقس بن ساعدّه ولبيد بن ربيعه وأمثالهم.

صوره الحياه الميته فى العصر الجاهلى

لقد قدم الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيره والعميقه المضامين صوره دقيقه حيه عن الأوضاع التى عاشها العرب فى العصر الجاهلى بحيث يجد كل من تأملها نفسه فى خضم ذلك العصر ليرى بأُم عينه كل تلك الفوضى والقبائح والرذائل.

فقد عكس الإمام عليه السلام عظمه مقام النبى صلى الله عليه و آله وسمو منزلته من جانب حيث تتضح شده النور و عمق خطفه للابصار كلما كان الظلام دامسا والعتمه شديده، الأمر الذى يكشف عن عظمه خدمات نبى الإسلام صلى الله عليه و آله ونجاعه دينه فى خلق المجتمع. ولاـ غرو فان استبدال ذلك المجتمع - بالمواصفات المذكوره - إلى ذلك المجتمع الذى إلتف حول الرسول لم يكن يبدو أمراً ممكناً، وليس ذلك سوى للاعجاز والوحى وعظمه التعاليم الإسلاميه التى تمكتت من انتشال ذلك المجتمع وطبعه بهذه الصفات العاليه.

من جانب آخر فهى إشاره إلى تجديد الأفكار والأداب والسنن الجاهليه فى عصر النبى صلى الله عليه و آله والتى ظهرت فى عصر الخلافه الراشده إثر انحراف الأُمّه عن تعاليم النبى صلى الله عليه و آله.

فالإمام عليه السلام يحذر الأُمّه فى زمانه من الأخطار التى تتهددها من جراء إحياء سنن الجاهليه والعادات والتقاليد الباليه التى تفتك بالمجتمع. الجدير بالذكرهنا هو أنّ الإمام عليه السلام قد أورد هذه الخطبه بعد إنصرافه من صفين حيث أراد الفات نظر أصحابه إلى العناصر التى أدت إلى تلك النتيجه باسلوب بليغ يعرف ب «إياك أعنى واسمعى باجاره» .

لاشك أنّ عبارات الإمام عليه السلام تستبطن الدروس والعبر التى ينبغى أن نحتذيها نحن المسلمون فى العصر الحاضر الذى يتصف بالمدينه والتطور والتقدم، فهى تحذير جدى لنا؛ فعباراته تنطبق تماما على الأوضاع التى يشهدها عصرنا الراهن حيث غاصت الأُمّه اليوم فى هاله من الفتن وتزعزعت عرى الإيمان واليقين واندرست سبل معرفه الحق بفعل تفاقم سعه

حجم الـدعايات المسـمومه وانتشار الرذيله والفساد وتفرق الناس أيادى سبأ وكثرت الأهواء وتعـذرت طرق النجاه وقد اسـتفحل الضلال وإنعدام الهدى واستشرت الذنوب والمعاصى وخلى الميدان للشياطين والمستكربين.

نعم لقد شـهد عصر الإمام عليه السلام تلك الغفله فعادت الاُمّه وأقبلت على سنن الجاهليه، والعجيب أنّ الاُمّه آنذاك قد خلدت إلى السبات والكسل بحيث لم يعـدّ يؤثر فيها صـراخ حتى هذا الولى الربانى وأخذوا يتهافتون على احياء سـنن الجاهليه حتى آل الأمر إلى تحول الحكومه الإسـلاميه إلى حكومه وراثيه تلاقفها بنو اميه وبنوالعباس، فلم تتعثر المسيره الإسلاميه آنذاك فحسيت، بـل وجهت إليها ضـربات موجعه جعلتها تلعق جراحها لحـد الآن! ونرى هنا ضـروره تسـليط الضوء على أوضاع الناس فى العصـر الجاهلى من مختلف الجوانب ودراسه ما أورده الإمام عليه السلام بهذا الشأن لنقف بوضوح على تفاصيل هذا الموضوع.

فجاهليه العرب - وهكذا الجاهليه التى كانت تعيشـها سائر الأقوام - إنّما تشير إلى سلسله من العقائد الباطله والخرافات والأساطير والسـنن الخاطئه والقبيحه المخجله إلى أحيانا، جانب الأفعال العبثيه والسـلوكيه العنيفه القائمه على الظلم والاضطهاد والانحرافات الفكريه من قبيل نحت الأوثان من الخشب والحجر والاعتكاف على عبادتها واللجوء إليها عند حدوث الخطوب والمصائب حيث جعلوها شفعائهم إلى الله بعد أن اعتقدوا بقدرتها المطلقه وأنّ الخير والشر بيدها.

و لم تقتصـر أفعالهم الطائشه على وأد البنات كـدفاع عن العرض والشـرف أو أنّهن يجلبن عليهم الخزى والعار فحسب، بل كانوا يعمـدون لقتـل أولادهم تحت ذرائع شتى منهـا تقـديمهم إيـاهم كقرابين إلى آلهتهم أو بـدافع الفقر «وَكَذ لِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ» (۱)و «وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَهَ إِمْلاقٍ» (۲)و «وَ إِذا المَوْءُودَهُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» (۳).

۱- ۱) سوره الانعام / ۱۳۷. [۱]

۲- ۲) سوره الاسراء / ۳۱. [۲]

۳- ۳) سوره التكوير / ۸. [۳]

و لم يعيشوا أى هاحبس من قلق لفظاعه هذه الجرائم، بل أبعد من ذلك كانوا يتفاخرون بها على أنّها من العناصر المشرفه فى حياه الاسره التى كانت تعمد لارتكاب مثل تلك الجنايات المهووله.

أمّا المراسم العباديه فى البيت فلم تكن سوى المكاء والتصديه والعرى التى كانت عليه النساء حين العباده وهن يطفن حول الكعبه «وَما كانَ صلاتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إِلّا مُكاءاً وَتَصْدِيَهً» (۱)كانوا يتفاخرون بالحروب وسفك الدماء والسلب والنهب، كما لم يكونوا يقيموا أدنى وزن للمرأه فهى ليست سوى سلعه رخيصه فلا تتمتع بأدنى حقوق بل كانوا أحيانا يقامرون بها.

كانوا يرون الملائكه بنات الله - وكما أشرنا سابقاً فانّهم كانوا يرون فى البنت العار والفضيحه - «وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ البَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ» (۲)و «أَمْ خَلَقْنا المَلائِكَهَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ» (۳)أمّا على مستوى الخرافات والاساطير التى كانت سائده لديهم فقد كانت عجيبه مذهله ومنها ما وصفه القرآن الكريم «وَقالُوا ما فِى بُطُونِ هذِهِ الأَنْعامِ خالِصَهٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَهً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ» (۴).

إذا غضب أحدهم على إمرأته وأراد أن يوبخها كفاه وأن يخاطبها «أنت على كظهر أمى» فهم يعتقدون أنّ هذا القول يكفى أن تحرم عليه لأنّها عادت كامه دون إجراء حكم الطلاق عليها، الأمر الذى شجبه القرآن ولم يقره: «وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللّائِى تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ» (۵)، «إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلّا اللّائِى وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ القَوْلِ وَزُوراً» (۶)أمّا الطابع السائد الذى كان يميز العصر الجاهلى فانما يكمن فى شن الحروب والغارات التى

---

۱ - ۱) سوره الانفال / ۳۵. [۱] امّا المشهور بالنسبه لسبب نزول سوره التوبه ومن الأُمور التى أمر أمير المؤمنين عليه السلام بابلاغها المشركين «و لا يطوفن يا لبيت عريانا» . نور اليقلين، ۲ / ۱۷۹-۱۸۱ ح ۱۴ و۱۷ و۱۸ و ۲۰ ومجمع البيان، ۵ / ۳.

۲- ۲) سوره النحل / ۵۷. [۲]

۳- ۳) سوره الصافات / ۱۵۰. [۳]

۴- ۴) سوره الانعام / ۱۳۹. [۴]

۵- ۵) سوره الاحزاب / ۴. [۵]

۶- ۶) سوره المجادله / ۲. [۶]

تستبطن سفک الدماء وتأجيج الأحقاد والأضغان التی توارثتها الأقوام أبا عن جد، الأمر الذی شبهه القرآن بشفا حفره من النار، فقال «وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذ كُنتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَهٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ» (۱).

الخرافه الأُخرى التی كانت تسود فی الأذهان هو الاعتقاد بالرابطه القائمه بين نزول المطر وبزوغ واختفاء بعض الكواكب، والتفؤل بالطيور والإيمان بالغول الصحراوی والعفاريت وما شابه ذلک؛ الأمر الذی عبر عنه القرآن الكريم فی أكثر من أيه بالضلال المبين. «هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَهَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلالٍ مُبِينٍ» (۲).

نعم هذه صوره مقتضبه من الحاله التی كانت عليها العرب فی الجاهليه - بل هذه مميزات سائر الأقوام فی الجاهليه التی تعددت أشكالها واتفقت مضامينها.

و من هنا يمكن الوقوف على عظمه الإسلام والقرآن وحامل رسالتها النبی الأكرم صلى الله عليه و آله، الأمر الذی توصل إليه أحد أعلام الغرب ويدعی توماس كارل فی أنّ الله هدى العرب من الظلمات إلى النور بالإسلام ومن اُمّه راكده متقاعسه لاصوت فيها ولاحركه إلى أمّه ذات شهره ومن الضعف والوهن إلى اليقظه والقوه، ومن الضعه إلى العزه ومن العجز إلى القدره. فقد شع نور الإسلام على العالم من جهاته الأربع ولم يمضی عليه أكثر من قرن فبلغ المسلمون الهندالأندلس، بل استطاع الإسلام أن يبسط نوره على تصف المعموره بهذه المدّه القصيره. (۳)

۱- ۱) سوره آل عمران / ۱۰۳ [۱]

۲- ۲) سوره الجمعه / ۲. [۲]

۳- ۳) عذر التقصير لدى محمد والقرآن، ص۷۷ (نقلا عن تفسير الامثل، ۳ / ۳۱) .

القسم الثالث: المنزله الساميه لآل محمد صلى الله عليه و آله

اشاره

و منها يعنى آل النبى عليه الصلاه والسلام

«هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ وَلَجَأُ أَمْرِهِ، وَعَيْبَهُ عِلْمِهِ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقامَ انْحِناءَ ظَهْرِهِ، وَأَذْهَبَ ارْتِعادَ فَرائِصِهِ» .

الشرح والتفسير

يصف الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه الأئمه من أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله بعبارات قصيره عميقه المعانى، حيث يتطرق إلى مكانتهم بعد رسول الله صلى الله عليه و آله على ضوء ماورد فى الأحاديث النبويه الشريفه من قبيل حديث الثقلين وسفينه نوح والنجوم. (۱)

فقد وصفهم فى عباراته الست الاولى بقوله عليه السلام: «هم موضع سره، ولجأ (۲)أمره، وعيبه (۳)علمه، وموئل (۴)حكمه، وكهوف (۵)كتبه وجبال دينه» (۶)أنّ كل عباره من هذه العبارات تشير

۱- ۱) فقد تصدت هذه الأحاديث التى روتها مصادر الفريقيين لبيان مكانه أهل البيت عليه السلام. فقد صرّح حديث الثقلين بأنّ أهل البيت عليه السلام هم عدل القرآن الذين لا يفترقون عنه حتى يردا على النبى صلى الله عليه و آله حوضه. أمّا الحديث الثانى فقد شبههم بسفينه نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق. وأخيراً حديث صلى الله عليه و آله الذى قال فيه: «مثل أهل بيتى فيكم كمثل النجوم باى إقتديتم إهتديتم وإنّ النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأهل الأرض» .

۲- ۲) «لجأ» و «ملجأ» بمعنى الملاذ.

۳- ۳) «عيبه» بمعنى الوعاء و الصندوق أو الشيئى الذى تحفظ فيه الأشياء و قد اُشتق فى الواقع من العيب و قد استعمل بالمعنى المذكور لأنّ العيوب عاده ما تستر.

۴- ۴) «موئل» من ماده «وأل» على وزن سهل بمعنى المرجع والملاذ وموضع النجاه.

۵- ۵) «كهوف» جمع «كهف» بمعنى الغار، إلّاأنّ البعض قال الكهف هو الغار الواسع، ولما كان الناس يلجأون إلى الغيران فى أغلب الأوقات فقد احتمل أن يكون بمعنى الملاذ والموضع الذى يحفظ الأشياء.

۶- ۶) اعلم ان هنالك اختلافا بين الشرّاح بشأن الضمير فى هذه العبارات الست. فقد ذهب البعض إلى أنّها ترجع جميعا إلى النبى صلى الله عليه و آله بينما تفيد القرائن أنّ الضمير فيها يعود إلى الله سبحانه (و لا يسما بالالتفات إلى قوله وكهوف كتبه) بينما يعود الضمير فى العباره الأخيره إلى الدين كما سيأتى توضيح ذلك لاحقا.

إلى أمر معين رغم ما ذهب إليه بعض العلماء والشرّاح من ترادف العبارات وأنّها شبيهه لبعضها البعض الآخر.

فقد أشارت العباره الاولى إلى حقيقه مؤادها أنّ الاسرار الإلهيه مودعه لديهم. وبالبداهه أن يلم بجميع الأسرار من ينهض بمسؤوليه زعامه الدين؛ حيث لا ينتظم أمرهم فى هدايه الناس وتدبير شؤون حياتهم دون الانطواء على ذلك العلم، ولا سيما أنّ زعامتهم لا تختص بزمان دون آخر بل تتعلق بجميع البشريه على مدى العصور والدهور (وقد ذكرنا فى مبحث علم غيب الأنبياء والأوصياء المعصومين أنّ أحدى مقومات زعامتهم تستند إلى علمهم بالغيب وإلّا لانطوت زعامتهم على العيب والنقص) .

ثم أشار فى العباره الثانيه إلى أنّهم ملجأ أمر الله. والسؤال الذى يبرز هنا هل يقتصر هذا الأمر على الأوامر التشريعيه أم يشمل الأوامر التكوينيه أيضا؟ يبدو من ظاهر العبارات السابقه واللاحقه أن الأوامر تقتصر على التشريعيه منها حيث يجب على الاُمّه أن ترجع إلى أئمه العصمه فى تلقى أوامرهم وإمتثال تعاليهم.

أمّا العباره الثالثه فقد اعتبرتهم عليه السلام عيبه علوم الله سبحانه، ولا يقتصر ذلك على الأسرار و الأوامر، بل يشمل جميع العلوم اللازمه لهدايه الناس أو ذات الصله بهذه الهدايه فهى مودعه لديهم مخزونه عندهم. وفى العباره الرابعه يتضح أنّهم المرجع فى الأحكام الإلهيه التى يجب على الاُمّه الرجوع إليهم فى الاختلافات على المستوى الفكرى أو القضائى ليزيلوا عنهم الفرقه والاختلاف ويهدوهم سواء الصراط.

وإذا اعتبرنا «موئل حكمه» على وزن إرم جمع حكمه فانّ فارق هذه العباره مع العبارات السابقه سيتضح تماماً، لأنّ الكلام هنا سيكون فى فلسفه وحكمه الأحكام الإلهيه التى تؤلف جزءاً من علوم الأنبياء والأئمه المعصومين عليهم السلام.

أمّا قوله عليه السلام «و كهوف كتبه» فيكشف اللثام عن هذه الحقيقه وهى أنّ مضامين جميع الكتب السماويه موجوده عندهم. وهذا يشبه إلى حدٍّ بعيد ما قاله على عليه السلام: «أمّا والله لو ثنيت

لی الوساده فجلست علیها لأفتیت أهل التوراه بتوراتهم. . . وأفتیت أهل القرآن بقرآنهم. . .» . (۱)

و أخیراً فقد وصفهم علیه السلام بأنّهم جبال دینه، ولعل العباره إشاره واضحه إلی ما أورده القرآن الکریم فی عدد من آیاته الشریفه بشأن خصائص الجبال ودورها فی حفظ إستقرارونزول البرکات والخیرات فقد صرّحت الآیه ۱۵ من سوره النحل قائله «وَأَلْقی فِی الأَرْضِ رَواسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ وَ أَنْهاراً وَسُبُلًا لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ» فالواقع أنّ الجبال - کما ورد فی تفسیر هذه الآیه وسائر الآیات المشابهه - تقوم من جانب باحتواء الضغوط المسلطه علی الأرض من باطنها وظاهرها، ومن جانب آخر فهی مصادر عظیمه للأنهار والأبار وعیون الماء.

و بالتالی فهی معین لا ینضب من المعادن النفیسه القیمه. ووجه الشبه هو أنّ أئمه العصمه علیه السلام مصدر لسکینه الأفکار وری القلوب واغناء الأُمّه بما یختزنونه من معادن نفیسه. (۲)ثم یواصل الإمام علیه السلام کلامه إثر ذکره لهذه الصفات فیقول «بهم أقام انحناء ظهره وأذهب إرتعاد (۳)فرائصه (۴)» .

أمّا انحناء الظهر فهی کنایه رائعه لشده المعضلات التی طالت الدین من من قبل الأعداء العلماء والأصدقاء الجهلاء فانبری لها هؤلاء الکرام لیبقوا علی الدین شامخاً لاینالله تحریف المحرفین ولا فتن المبطلین. والتعبیر «ارتعاد الفرائص» ارتعاد اللحمه التی تغطی القلب بین الجنب والکتف وهی کنایه لطیفه عن الاضطراب والاختلال الذی یطیل الدین من قبل المدارس الالحادیه والانحرافات الدینیه والتی یقف بوجهها أئمه الهدی فیقضوا علیها فیعیدوا للدین صبغته الحقیقه الناصعه.

۱- ۱) بحار الانوار ۱۰ / ۱۱۸، ح ۱. [۱]

۲- ۲) راجع التفسیر الامثل، ذیل آیه ۱۵ من سوره النحل.

۳- ۳) «إرتعاد» من ماده «رعدّه» بمعنی الاهتزاز، ومن هنا یطلق الرعد علی الصوت العظیم الذی تحدثه السحب والغیوم.

۴- ۴) «فرائص» جمع «فریصه» هی اللحمه بین الجنب والکتف التی ترعد حین الخوف ولذلک کانت (ارتعاد الفرائض) کنایه عن الخشیه والاضطراب، ومن هنا کانت الفرصه تطلق علی المدّه الزمانیه للقیام بعمل (المقاییس، المفردات ولسان العرب) .

تأمّلان

۱- آل النبی صلی الله علیه و آله کهف الاُمّه الإسلامیه

ما ورد فی عباراته علیه السلام یمثل الحقائف البعیده عن أیه مبالغه والتی تشهد علیها سیره أئمه العصمه علیه السلام ولا سیما عصر أمیر المؤمنین والإمام الباقر والصادق والرضا علیه السلام وکیف وقف هؤلاء العظام بوجه المدارس المنحرفه التی ظهرت إثر إتساع رقعه الإسلام وورود الأفکار المنحرفه للمناطق الإسلامیه إلی جانب الخرافات والأساطیر والعقائد الفاسده والتفاسیر الخاطئه المشبوهه التی أوردها الغلاه والقلاه للنیل من الإسلام المحمدی الأصیل.

فقد أفاد التاریخ أنّهم لم یعجزوا عن جواب أی سوال، بل کانوا یجیبون بما یثلج صدر الصدیق ویغیظ العدو. من جانب آخر فقد شهد رحیل النبی الأکرم صلی الله علیه و آله العواصف الهوجاء التی تکاد تغرق السفینه الإسلامیه لولا هذه الصفوه الطاهره، وقد تنوعت أدوارهم واتحدت أهدافهم فتاره یذود عن الدین بما یظهر من علمه ومعرفته وتبیینه لحقائق الإسلام، واُخری بدمه الشریف إن تطلب حفظ الدین ذلک وهذا ما تمثل بحرکه الإمام الحسین علیه السلام وصحبه المیامین الذین ذادوا بمهجهم دون حیاض الدین وبیضه الإسلام.

و لو تأملنا الانحرافات العقائدیه والأفکار العجیبه التی سطرتها کتب الملل والنحل وقارناها مع المعارف والعقائد التی حمل رایتها أئمه أهل البیت علیه السلام - ونموذج ذلک نهج البلاغه والصحیفه السجادیه «زبور آل محمد» - والروایات الوراده عنهم علیه السلام فی الکتب من قبیل توحید الصدوق والمصادر المشابهه لاتضحت لنا الحقیقه التی ذکرت سابقاً فی صفاتهم علیه السلام.

و أخیراً هؤلاء هم الذین وصفهم الإمام علیه السلام فی موضع آخر من نهج البلاغه لکمیل بن زیاد فقال: «اللّهم بلی لا تخلو الأرض من قائم لله بحجه أمّا ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبیناته. . . یحفظ الله بهم حججه وبیناته حتی یودعوها نظرائهم یزرعوها فی قلوب أشباههم» . (۱)

وهم الذین قال فیهم رسول الله صلی الله علیه و آله: «إنّی مخلف فیکم الثقلین کتاب الله وعترتی أهل

۱- ۱) نهج البلاغه، [۱]الکلمات قصار، ۱۴۷. [۲]

بیتی وأنّهما لن یفترقا حتی یردا علی الحوض فانظروا کیف تخلفونی فیهما» . (۱)

۲- من هم آل النبی صلی الله علیه و آله؟

ما یفهم ممّا مرمعنا سابقاً أنّ المراد بأهل البیت الأئمه المعصومین علیهم السلام؛ لا ما ذهب إلیه بعض المفسرین لنهج البلاغه من أنّ المراد بأهل البیت أولئک الـذین حفظوا الإسـلام علی عهد رسول الله صـلی الله علیه و آله مثل حمزه والعباس وجعفر. طبعا لا یخفی الدور الذی لعبه هؤلاء فی الذود عن بیضه الإسـلام، غیر أن مضـمون العبارات السابقه یبدو أبعد من ذلک ولا یراد بهؤلاء سوی أئمه العصمه علیه السلام.

۱- ۱) راجع الی تفسیر نفحات القرآن، ج ۹. [۱]

القسم الرابع: لا يقاس بآل محمد أحد من الناس

اشاره

«زَرَعُوا الْفُجُورَ، وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ، وَحَصَدُوا الثُّبُورَ، لا يُقاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله مِنْ هَذِهِ الْأُمَّهِ أَحَدٌ، وَلا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً. هُمْ أَساسُ الدِّينِ، وَعِمادُ الْيَقِينِ إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التّالِي، وَلَهُمْ خَصائِصُ حَقِّ الْوِلايَهِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّهُ وَالْوِراثَهُ: الْآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ!» .

الشرح والتفسير

يبدو أنّ الضمائر فى العبارات الثلاث الاولى - بالاستناد إلى أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه حين إنصرافه من صفين - تعود إلى القاسطين (أصحاب معاويه) والخوارج المارقين؛ كما ذهب البعض إلى أنّها تعود إلى المنافقين، أو جميع أولئك الذين خالفوا الإمام عليه السلام وهبوا لقتاله.

على كل حال فقد شبههم عليه السلام تشبيه دقيق فقال عليه السلام: «زرعوا الفجور (۱)وسقوه الغرور (۲)وحصدوا الثبور (۳)» .

ثم يعود عليه السلام لبيان أوصاف آل محمد صلى الله عليه و آله بعبارات أكثر صراحه ووضوح ضمن إشارته - كعادته فى قله الألفاظ وسعه المعانى - إلى منزلتهم الرفيعه وحقوقهم السليبه فيقول:

۱- ۱) «فجور» من ماده «فجر» بمعنى الشق فى الشى ومن هنا يطلق الفجر على طلوع الصبح وكأن ضياء الصبح يشق حجاب الليل المظلم، كما يصطلح على الأعمال غير المشروعه بالفجور لأنّها تخترق حجب الدين.

۲- ۲) «الغرور» بمعنى الغفله فى اليقظه، ووردت بمعنى المكر والحيله، والغرور بفتح الغين بمعنى الشىء الذى يخدع الإنسان ويستغفله، كما فسر بمعنى الشيطان، لانه يخدع الناس بوعوده الكاذبه.

۳- ۳) «الثبور» من ماده «ثبر» على وزن صبر بمعنى الحبس والهلاك والفساد الذى يصد الإنسان عن بلوغ الهدف.

«لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله من هذه الاُمّه أحد» ودليل ذلك لا نقاش فيه، لأنّهم وعلى ضوء صريح الحديث النبوى الشريف حديث الثقلين الذى نقلته جميع مصادر الفريقين عدل القرآن الكريم، ونعلم جميعاً أن ليس هنالك من الاُمّه أحد من قرن بالقرآن، أضف إلى ذلك فهناك الآيات القرآنيه التى تؤيد هذا المعنى من قبيل آيه التطهير التى تصرح بعصمتهم وآيه المباهله التى عدت البعض منهم كنفس رسول الله صلى الله عليه و آله وسائر الآيات والروايات.

و بغض النظر عمّا تقدم فان علومهم ومعارفهم التى رويت عنهم هى الاُخرى لايمكن مقارنتها بعلوم الناس ومعارفهم.

فهل روى الاُخرون عشر معشار ما ورد فى نهج البلاغه؟ وهل هناك من يقوى على الإتيان بدعاء من أدعيه الصحيفه السجاديه. وما بالك فى الأحكام الشامله الواسعه التى رويت عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام بشأن جزئيات المسائل الدينيه، والمناظرات التى عقدها الإمام الرضا عليه السلام مع سائر زعماء الأديان حول مختلف المسائل العقائديه والأبواب الفقهيه؟ آنذاك يتحدث عن دليل العباره السابقه: «و لا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا» و أى نعمه أعظم من تلك النعمه!

فلو لا تضحيات على عليه السلام لما ذاق الاُخرون طعم الإسلام. فسيره على عليه السلام منذ ليله المبيت ومرورا بموقعه بدر وأحد والخندق وخيبر وغزوات الإسلام كلها شواهد على المعنى المذكور و قد بلغت منزلته من السمو والرفعه بحيث قال رسول الله صلى الله عليه و آله «ضربه على يوم الخندق أفضل من عباده الثقلين» وفى عباره اُخرى «لمبارزه على عليه السلام لعمرو بن عبدود أفضل من أعمال اُمّتى إلى يوم القيامه» (۱).

لقد فدى رسول الله صلى الله عليه و آله بنفسه حين بات على فراشه، وهو الذى قلع باب خيبر ودك حصونها حين عجز من سواه. وهو الذى وقف صامدا فى المواقف التى تنكص فيها الابطال وفى مقدمتها موقعه أحد حين إنفرج المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه و آله ولم يبق معه إلّاعلى بن أبى طالب عليه السلام حيث كان رسول الله صلى الله عليه و آله كلما حمل عليه العدو ناداه ردها يا بن أبى طالب.

۱- ۱) انظر إحقاق الحق ۶ / ۴؛ ۱۶ / ۴۰۲ [۱] واعيان الشيعه ۱ / ۲۶۴. [۲]

أضف إلى ذلك سائر مواقفه المشهوره فى تاريخ الإسلام سواء فى عصر النبى صلى الله عليه و آله أو ما تلاه من العصور ودافع فيها بعلمه وعمله عن الإسلام. أمّا فى عصر الخلافه الراشده والعصر المظلم لبنى أميه وبنى العباس لم يكن سوى هولاء الأطهار من أهل البيت عليهم السلام الذين أضاءوا تلك الظلمات بنور علمهم ومعرفتهم حتى أنقذوا المسلمين من تلك الحملات الثقافيه المسعوره التى تبنت إحياء سنن الجاهليه وإطفاء السنن الإلهيه ولا نرى هذا الدور خافيا على أحد رغم الجهود المضنيه التى، بذلها أعدائهم لاطفاء نورهم وطمس فضائلهم.

و الطريف فى الأمر أنّ الإمام عليه السلام يتحدث عن نعمه وجود أهل البيت بشكل دائمى مستمر و خالد دون اقتصارهم على عصر دون آخر، ولا غرو فثمار الشجره الإسلاميه المباركه التى نقطضها إنّما زرعها الرسول الكريم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام: «لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الاُمّه أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا» . ثم يتعرض عليه السلام إلى أمرين آخرين ينبعان من الأمر السابق فيقول: «هم أساس الدين وعماد اليقين» . نعم فقد نزل الوحى فى بيتهم وتربوا فى أحضانه وما عندهم من علوم ومعارف إنّما أخذوها عن رسول الله صلى الله عليه و آله ولما كانت العلوم والأسرار الإلهيه مودعه لديهم فهم أئمه الإيمان ودعاه اليقين. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجه: «إليهم يفيىء الغالى، وبهم يلحق التالى» وكيف لا يكونوا كذلك و هم الصراط المستقيم (١)والاُمّه الوسطى (٢)وعندهم المعارف الإلهيه الحقه والعقائد الإسلاميه الأصيله البعيده عن كل إفراط وتفريط.

و لو تصفحنا تاريخ الفرق والمذاهب الإسلاميه البعيده عن مدرسه أهل البيت عليهم السلام لرأينا الانحراف العقائدى الخطير من قبيل السقوط فى حبال الجبر والتفويض والتشبيه والالحاد فى أسماء الله وصفاته، بل غالى البعض فى أسماء الله وصفاته حتى قالوا بتعطيل الصفات الإلهيهأن ليس هناك من سبيل لمعرفته سبحانه (سواء المعرفه الإجماليه أو المعرفه التفصيله) ، وبالمقابل هناك الفرق التى هبطت بالذات الإلهيه المقدسه إلى الحضيض فوصفته سبحانه بأنّه رجل أمرد صبيح الوجه عليه كساء أسود ملتحف به.

١- ١) تفسير نور الثقلين ١ / ٢٠-٢١.

٢- ٢) تفسير نور الثقلين ١ / ١٣۴.

أمّا بشأن مسأله الجبر والتفويض، فقد ذهبت الجبريه - فرقه من الفرق الضاله - إلى أنّ الإنسان كائن مسلوب الإراده والاختيار وأنّه مجبر على أفعاله المقدره عليه على ضوء القضاء والقدر الإلهى فانّ قدر له الكفر كفر وإن قدر له الإيمان آمن.

بينما وقفت المفوضه التى رأت للإنسان استقلالا تاماً إزاء الذات الإلهيه المقدسه، فاعتقدت بانّ جميع الأفعال مفوضه للإنسان، وهكذا هوت فى وادى الشرك.

بينما تبنت مدرسه أهل البيت عليهم السلام إطروحه «الأمر بين الامرين» لتنفى مسأله الجبر والتفويض وتحذر المسلمين من الإفراط والتفريط الذى يقود إلى الكفر والشرك، ومن هنا يتضح معنى كلام الإمام عليه السلام: «إليهم يفيئى الغالى، وبهم يلحق التالى» فالعباره تشبيه لطيف كأن هنالك قافله يقودها عدد من الرواد الماهرين، تقسم بعض الأفراد الذين يندفعون أكثر من غيرهم قدما فيضلون فى الصحراء، بينما يهن الآخرون ويتخلفون عن الركب فيصبحوا طعمه لذئاب الصحراء.

ثم يقول عليه السلام: «و لهم خصائص الولايه» . وتصدر الجمله بلهم تفيد إقتصار هذه المزيه عليهم عليه السلام. وكيف لا يكونوا أصلح من الجميع وهم دعائم الدين واركان اليقين الذين يمثلون الإسلام الأصيل الذى لا يعرف الإفراط والتفريط، وهم النعمه الجاريه على أفراد الأُمّه إلى يوم القيامه. ولذلك قال عليه السلام: «و فيهم الوصيه والوراثه» .

نستنتج ممّا سبق أنّ وصيه النبى صلى الله عليه و آله بهم واستخلافهم من بعده إنّما تستند لمامر معناً سابقاً، لا على أساس القرابه والنسب. ولا يخفى أنّ المراد بالوصيه والوارثه هنا الخلافه والنبوه، بل حتى لو افترضنا أنّ الوراثه هنا هى وراثه علوم النبى صلى الله عليه و آله - كما ذهب إلى ذلك البعض - فانّ الأمر سيقود بالتالى إلى جدارتهم باحراز هذا المقام؛ لانّ خليفه النبى وإمام الخلق لابدّ أن يكون وارثاً لعلوم النبى صلى الله عليه و آله، وأنّ خليفته هو وصيه؛ فوراثه الأموال - كما نعلم - ليست بذات قيمه والوصيه فى الأُمور الشخصيه والاعتياديه لا تحظى بأيه أهميه، ولاشك أنّ أُولئك الذين سعوا جاهدين لتفسير الوصيه والوراثه بمثل هذه المعانى إنّما يكشفون عن مدى تعصبهم استنادهم إلى العناد والأفكار المسبقه.

فليس هنالك من مسأله مهمّه تنسجم وقوله عليه السلام: «أساس الدين وعماد اليقين

وخصائص حق الولايه» سوى مسأله خلافه رسول الله صلى الله عليه و آله. وأخيراً يخاطب عليه السلام الاُمّه فى زمانه وكأنّهم قد تنكروا لبعض النعم ولا يسما عوده الحق السليب «الآن إذا رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منقله» . (۱)

يتضح ممّا قيل بشأن الوصيه والوارثه أنّ المراد بالحق هنا هو الولايه والخلافه التى لا تليق سوى بأهل البيت عليهم السلام وأنّ محلهم من الخلافه محل القطب من الرحى.

تأمّلان

۱- مكانه أهل البيت فى القرآن والرويات

لقد صرّحت أغلب الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه بفضل أهل البيت عليهم السلام بما لا يبقى معه مجال للشك فى سمو مكانتهم وعلو منزلتهم. فآيه التطهير واضحه فى طهاره أهل البيت عليهم السلام من كل رين وعصمتهم من كل رجس «إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» . (۲)

وآيه المباهله التى وصفت نفس على عليه السلام بأنّها نفس النبى صلى الله عليه و آله وأنّ أقرب المقربين لله ورسوله صلى الله عليه و آله والمجابين الدعوه لديه هم الزهراء والحسن والحسين عليه السلام: «قُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ. . .» (۳).

وآيه التبليغ التى اعتبرت وظيفه النبى صلى الله عليه و آله فى إبلاغ ولايه على عليه السلام من أخطر الوظائف وأنّ عدم الابلاغ بمثابه عدم ابلاغ الرساله: «يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ. . .» (۴). إلى جانب ما لا يحصى من الآيات التى لا يسعنا الخوض فيها فى هذه العجاله، ويضاف إلى ذلك مصادر الفريقين والتى صرّحت بتواتر وصحه الأخبار الوارده فى فضائل أهل البيت عليهم السلام. (۵)

۱- ۱) هنالك محذوف فى الجمله تقديره: «الآن إذا رجع الحق إلى أهله لم لا تؤدون حقه» . وقد ورد تقدير ذلك فى مصادر نهج البلاغه: «الآن إذا رجع الحق إلى أهله من أهل بيت النبوه يجرى ما يجرى من الحوادث ويقع ما يقع من الاختلاف؟» . (مصادر نهج البلاغه، ۱ / ۳۰۲) [۱] وكلا النتجيتين واحده.

۲- ۲) سوره الاحزاب / ۳۳. [۲]

۳- ۳) سوره آل عمران / ۶۱. [۳]

۴- ۴) سوره المائده / ۶۷. [۴]

۵- ۵) لقد أشرنا فى ذيل كل آيه وارده بهذا الشأن فى التفسير الأمثل إلى المصادر؛ ومن أراد الوقوف على ۲ التفاصيل فليراجع احقاق الحق، ج۳ [۵] ورساله القرآن، ج۹.

أمّا الروايات الإسلاميه الوراده فی الصحاح السته فقد نقلت من فضائل أهل البیت ومناقبهم بما لا یمکن تصوره، بل أوجز بعض علماء العامه تلک الفضائل فی عدّه مجلدات (۱)، بینما ألفت عشرات المجلدات من علماء العامه فی جمع الروایات والأخبار الوارده بشأن فضائل أهل البیت. (۲)

غیر أنّ الموسف ما قامت به الأیدی الآثیمه إبان الحکومات الظالمه بعد رحیل رسول الله صلی الله علیه و آله والتی جهدت علی طمس فضائلهم ومناقبهم لینأوا بالاُمّه بعیداً عن الخط الرسالی الأصیل المتمثل بأهل البیت علیهم السلام اُمناء الوحی وحماه العقیده. فاوئلک الذین صدوا أهل البیت علیهم السلام عن حقهم بعد رحیل رسول الله صلی الله علیه و آله هم الذین سعوا جاهدین لطمس فضائلهم، وأدهی من ذلک ما مارسه خلفاء بنی اُمیه والعباس الذین کموا الأفواه عن التحدث بفضائلهم حتی عد ذلک جرما یعاقب علیه بالسجن أو الأعدام.

و لولا لطف الله وعنایته لما بقیت من آثار هم شیئاً ولا ختفت فضائلهم ومناقبهم ولا یسعنا هنا إلّاأن نورد ما ذکره شارح نهج البلاغه ابن أبی الحدید المعتزلی بهذا للشأن فقد قال:

فأمّا فضائله علیه السلام؛ فانّها قد بلغت من العظم والجلاله والانتشار والاشتهار مبلغاً یسمج معه التعرض لذکرها، والتصدی لتفصیلها؛ فصارت کما قال أبو العیناء لعبید الله بن یحیی بن خاقان وزیر المتوکل: رأیتنی فیما أتعاط من وصف فضلک، کالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، الذی لا یخفی علی الناظر، فأیقنت أنی حیث إنتهی بی القول منسوب إلی الدعاء لک، ووکلت الأخبار عنک إلی علم الناس بک. وما أقول فی رجل أقر له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم یمکنهم جحد مناقبه، ولا کتمان فضائله، فقد علمت أنّه استولی بنو اُمیه علی سلطان الإسلام فی شرق الأرض وغربها، وإجتهدوا بکل حیله فی اطفاء نوره، والتحریض علیه، ووضع المعایب والمثالب له، ولعنوه علی جمیع المنابر، وتوعدوا ماد حبه، بل حبسوهم قتلوهم، ومنعوا من روایه حدیث یتضمن له فضیله، أو یرفع له ذکراً، حتی حظروا

۱- ۱) کتاب فضائل الخمسه من الصحاح السته للمرحوم المحقق الفیروز آبادی.

۲- ۲) عبقات الأنوار للسید حامد حسین الهندی.

أن يسمى أحد باسمه؛ فما زاده ذلك إلّارفعه وسموا؛ وكان كالمسك كلما ستر إنتشر عرفه، وكلما كتم تضوع نشره؛ وكالشمس لا تستر بالراح، وكضوء النهار إن حجبت عنه عين واحده، أدركته عيون كثيره. (۱)

وقد نقل مثل هذا المعنى فى بعض المصادر، حيث صرّح الشافعى: عجبا لرجل أخفى أعداؤه فضائله حسدا وأولياؤه خوفا فظهر بين هذا وذلك ما ملئ الخافقين. (۲)

وقد روى مثل هذا المضمون أيضا عن عامر بن عبدالله بن الزبير (۳).

۲- تبريرات واهيه

جدير ذكره أنّ إبن أبى الحديد حين يصل عباره الإمام عليه السلام «الآن إذا رجع الحق إلى أهله. . .» فى شرحه لنهج البلاغه يقول: لقد ذكر الإمام عليه السلام أن الحق رجع الآن إلى أهله؛ وهذا يقتضى أن يكون فيما قبل فى غير أهله، ونحن نتأول ذلك على غير ما تذكره الاماميه، ونقول: اِنه عليه السلام كان أولى بالأمر وأحق، لا على وجه النص، بل على وجه الأفضليه، فانّه أفضل البشر بعد رسول الله صلى الله عليه و آله، وأحق بالخلافه من جميع المسلمين، لكنه ترك حقّه لما علمه من المصلحه، وما تفرس فيه هو والمسلمون من إضطراب الإسلام، وانتشار الكلمه، لحسد العرب له وضغنهم عليه وجائز لمن كان أولى بشى فتركه ثم استرجعه أن يقول: قد رجع الأمر إلى أهله (۴).

حقاً أنّ الأحكام المسبقه هى التى تحول دون الاقرار بمفهوم هذه العباره الواضحه، فلو أراد الإمام عليه السلام أن يقول: لم يودع الحق أهله قبل هذا والآن رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله فله أن يذهب إلى ما ذهب إليه، هذا من جانب ومن جانب آخر فاننا نعلم بأن القول: ان العرب تحسده وتكن له البغض والعداء إنّما هو قول أجوف لا أساس له. نعم كانت هذه الحاله تسود فئه قليله ممن تبقى من أعقاب المشركين والكافرين، وبعباره اُخرى فانّ العداء كان يعيش فى

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱ / ۱۷. [۱]

۲- ۲) على فى الكتاب والسنه ۱ / ۱۰.

۳- ۳) الغدير ۱۰ / ۲۷۱.

۴- ۴) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱ / ۱۴۰. [۲]

قلوب زعماء قريش وأحبار اليهود وكبار المنافقين الذين تلقوا من الإمام عليه السلام الضربات المهلكه والموجعه فى المعارك من قبيل بدر وخيبر وحنين، بينما كانت الاُمّه بابنائها تحب علياً عليه السلام ولذلك ورد فى الحديث النبوى المعروف الذى نقلته المصادر الإسلاميه المعتبره أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام: «لا يبغضك إلّامنافق» (۱).

وجاء فى صحيح الترمذى - أحد الصحاح السته المعتمده لدى أبناء العامه - عن أبى سعيد الخدرى قال: «إنا كنّا لنعرف المنافقين ببغضهم على بن أبى طالب» (۲).

فهل يرضى إبن أبى الحديد أن تكون الأكثريه الساحقه من المسلمين آنذاك منافقه؟ ومن هنا نرى مدى الفرح والسرور الذى عم أوساط المسلمين حين توليه الخلافه بما لا يمكن مقارنته وسائر الخلفاء، والحال أنّ أغلب معاصريه وممن مد له يد البيعه هم من صحابه النبى صلى الله عليه و آله أو أبنائهم.

و عليه فتبريره واهى لا ـ يصمد إمام الحقائق والواقعيات. وأمّا قوله: إنّه كان أولى بالأمر وأحق لاعلى وجه النص، فهو الآخر كلام أجوف يجانب الحق وسنثبت بطلانه فى محله. (۳)

۱- ۱) شواهد التنزيل ۱ / ۳۲۹.

۲- ۲) صحيح الترمذى، ۱۳ / ۱۶۸، طبع الصاوى [۱]مصر (۵ / ۶۳۵ طبع دار احياء التراث العربى) .

۳- ۳) انظر «رساله القرآن» / ۹.

الخطبه الثالثه

اشاره

و من خطبه له علیه السلام وهی المعروفه بالشقشقیه وتشتمل علی الشکوی من أمر الخلافه ثم ترجیح صبره عنها ثم مبایعه الناس له.

القسم الأول

اشاره

«أَما وَاللّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَها فُلانٌ وَإِنَّهُ لَیَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّی مِنْها مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَی. یَنْحَدِرُ عَنِّی السَّیْلُ وَلا یَرْقَی إِلَیَّ الطَّیْرُ فَسَدَلْتُ دُونَها ثَوْباً، وَطَوَیْتُ عَنْها کَشْحاً. وَطَفِقْتُ أَرْتَئِی بَیْنَ أَنْ أَصُولَ بِیَدٍ جَذّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَی طَخْیَهٍ عَمْیاءَ، یَهْرَمُ فِیها الْکَبِیرُ وَیَشِیبُ فِیها الصَّغِیرُ، وَیَکْدَحُ فِیها مُؤْمِنٌ حَتَّی یَلْقَی رَبَّهُ! فَرَأَیْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَی هَاتَا أَحْجَی، فَصَبَرْتُ وَفِی الْعَیْنِ قَذًی، وَفِی الْحَلْقِ شَجًا، أَرَی تُراثِی نَهْباً» .

نظره إلی الخطبه

تعتبر هذه الخطبه من أهم خطب نهج البلاغه حیث تتکفل بشرح مسأله الخلافه بعد رحیل رسول الله صلی الله علیه و آله. وهنالک بعض الأُمور التی تضمنتها هذه الخطبه بما لم یرد شبیهها فی سائر خطب نهج البلاغه، ورغم قله عباراتها، إلّاأنّها أوجزت عصر الخلافه الراشده التی

نهضت بالأمر بعيد وفاه رسول الله صلى الله عليه و آله. إلى جانب ذلك هناك التحليلات الدقيقه والرائعه التى تلفت إليها إنتباه المحققين والباحثين. ونرى هنا أن نشير إلى بعض الاُمور قبل أن نخوض فى شرح وتفسير هذه الخطبه:

١- اسم الخطبه: لقد اُقتبس اسم الخطبه من عبارتها الأخيره التى أطلقها الإمام عليه السلام حين قاطع أحدهم الإمام عليه السلام فتوقف، فناشده ابن عباس مواصله الخطبه فقال له عليه السلام: «تلك شقشقه هدرت ثم قرت» وهكذا رفض عليه السلام طلب ابن عباس، حيث تغير الجو الذى كان سائداً لاطلاق الإمام عليه السلام تلك العبارات الحماسيه الخطيره، فقد قام أحد الأفراد من بين الناس وسلم الإمام عليه السلام كتابا (قيل ان فيه مسائل كان يريد الاجابه عنها) فانصرف ذهن الإمام عليه السلام إلى اُمور اُخرى.

٢- زمان صدور الخطبه: هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغه بشأن زمان صدور هذه الخطبه. فيعتقد البعض - كالمحقق الخوئى - أنّ الإمام عليه السلام وبالاستناد إلى مضامين الخطبه وطرق أسنادها وروايتها اِنّه أوردها أواخر عمره الشريف بعيد موقعه الجمل وصفين والنهروان حين قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين (١). والحق أنّ مضمون الخطبه يؤيد هذا الرأى.

٣- مكان الخطبه: لقد سكت جمع من شرّاح نهج البلاغه عن مكان صدور الخطبه، بينما يعتقد البعض أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه حين ارتقى المنبر فى مسجد الكوفه، وقال ابن عباس:

لقد ألقى الإمام عليه السلام هذه الخطبه فى الرحبه (٢)حين وقع الكلام عن الخلافه.

٤- سند الخطبه: هناك بحث فى سند الخطبه أيضا. قال البعض: هذه الخطبه من الخطب المتواتره بينما صرّح البعض الآخر بعكس ذلك ولم ينسب هذه الخطبه لعلى عليه السلام وإنّه لم يشكو قط من الخلافه وإنّما ذلك من وضع الشريف الرضى. أمّا الشارح المعروف ابن ميثم البحرانى فقد قال: الادعاء انّ المذكوران باطلان وفيهما إفراط وتفريط. فسند الخطبه لم يبلغ حد

١- ١) منهاج البراعه فى شرح نهج البلاغه، ٣ / ٣٢.

٢- ٢) «الرحبه» بمعنى المكان الواسع، ويعتقد البعض أنّها اسم موضع فى الكوفه، بينما يرى البعض الآخر هى موضع يبعد ثمانيه فراسخ عن الكوفه (مجمع البحرين ومراصد الاطلاع) .

التواتر، ولا أساس للزعم القائل أنّها من وضع الشريف الرضى، والحق آنهاصدرت من الإمام عليه السلام (۱).

و يبدو أنّ الإشكالات الوارده على الخطبه لم تتأتى من ضعفها أو ركاكتها أو تفاوتها من حيث الاعتبار مع سائر خطب نهج البلاغه، بل بالعكس وكما سيأتى خلال البحث أنّ الخطبه تشتمل على عدّه أسناد يتعذر وجود مثلها فى سائر بعض خطب نهج البلاغه.

أمّا السبب الوحيد الذى يمكن إسناد الإشكال إليه إنّما يكمن فى عدم إنسجام مضامين الخطبه والذهنيه السائده لبعض الأفراد الذين ينتمون إلى عدد من الفرق والمذاهب. فهولاء وبدلاً من اتهام ذهنيتهم وبلورتها على أساس مضمون الخطبه جهدوا فى القدح باسنادها بغيه الإبقاء على ما يسود أذهانهم من أفكار منحرفه وعقائد باطله. أمّا الاسناد التى ذكرت للخطبه من غير نهج البلاغه فهى كالاتى:

أ – قال ابن الجوزى فى تذكره الخواص: لقد أورد الإمام على عليه السلام هذه الخطيه حين صعد المنبر جواباً لمن سأله: «ما الذى أبطأبك إلى الآن» (۲). وهذا يدل على أن ابن الجوزى كان يملك سندا آخر لهذه الخطبه؛ لان هذا السؤال لم يرد فى نهج البلاغه، وعليه فقد كان له طريقا آخر.

ب – قال الشارح المعروف ابن ميثم البحرانى: لقد عثرت على هذه الخطبه فى كتابين أُلفا قبل ولاده الشريف الرضى:

الأول كتاب الانصاف لأبى جعفر ابن قبه تلميذ الكعبى أحد كبار المعتزله الذى توفى قبل ولاده الشريف الرضى. والثانى النسخه التى كتب عليها بخط أبو الحسن على بن محمد بن فرات وزير المقتدر بالله، وقد توفى لستين سنه ونيف قبل ولاده الشريف الرضى، ثم يضيف: يقوى ظنى أنّ تلك النسخه كتبت منذمده قبل ولاده ابن فرات (۳).

و قال ابن أبى الحديد: قال مصدق: وكان ابن الخشاب صاحب دعابه وهزل، قال: فقلت له: أتقول أنّها منحوله! فقال: لا والله، وإنّى لاعلم أنّها كلامه، كما أعلم أنّك مصدق.

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ۱ / ۲۵۱.

۲- ۲) تذكره الخواص / ۱۲۴.

۳- ۳) شرح ابن ميثم بحرانى ۱ / ۲۵۲. [۱]

قال: فقلت له: إنّ كثيراً من الناس يقولون أنّها من كلام الرضى رحمه الله تعالى. فقال: أنى للرضى ولغير الرضى هذا النفس وهذا الاسلوب! قد وقفنا على رسائل الرضى، وعرفنا طريقته وفنه فى الكلام المنثور، وما يقع مع هذا الكلام فى خل ولاخمر: ثم قال: والله لقد وقفت على هذه الخطبه فى كتب صنفت قبل أن يخلق الرضى بمائتى سنه، ولقد وجدتها مسطوره.

بخطوط أعرفها، وأعرف خطوط من هو من العلماء وأهل الادب قبل أن يخلق النقيب أبو أحمد والد الرضى. قلت: وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبه فى تصانيف شيخنا أبى القاسم البلخى إمام البغداديين من المتعزله، وكان فى دوله المقتدر قبل أن يخلق الرضى بمده طويله. ووجدت كثيرا منها فى كتاب أبى جعفر بن قبه أحد متكلمى الإماميه وهو الكتاب المشهور والمعروف بكتاب «الانصاف» وكان أبو جعفر هذا من تلامذه الشيخ أبى القاسم البخلى رحمه الله تعالى، ومات فى ذلك العصر قبل أن يكون الرضى رحمه الله تعالى موجوداً (۱).

أمّا العلّامه الأمينى فقد نقل هذه الخطبه فى المجلد السابع من كتابه الغدير على أنّها نقلت فى ثمانيه وعشرين كتابا.

مضمون الخطبه

ذكرنا سابقاً أن الخطبه تتعرض بجميع نصوصها إلى مسأله الخلافه بعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والمشاكل التى أفرزها عصر الخلفاء ممن سبقوه ثم يتطرق صراحه إلى أحقيته بالخلافه من الجميع معربا عن أسفه وابتئاسه لخروج الخلافه عن محورها الأصلى الذى خطط له الإسلام والنبى. وأخيراً يتحدث عن قضيه مبايعه الأُمّه والأهداف الكامنه وراء قبول البيعه بعبارات قصيره غايه الروعه والبيان.

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱ / ۲۰۵ [۱]

الشرح والتفسير

تحليل مهم لمسأله الخلافه

تشير الخطبه - كما ذكرنا سابقاً - إلى العواصف العنيفه والخطيره التى هزت الاُمّه الإسلاميه وحرفت خلافه رسول الله صلى الله عليه و آله بعيد وفاته عن مسارها السليم، كما تتعرض لاصلح الأفراد وأجدرهم بالأخذ بزمام شؤون الاُمّه وزعامتها على ضوء المنطق والدليل والبرهان، كما تعرج الخطبه على وخامه المعضلات التى أفرزها تقاعس المسلمين عن الالتزام بنصوص النبى صلى الله عليه و آله الوارده بشأن زعامه المسلمين.

فقد إستهل الإمام عليه السلام الخطبه بشكواه ممّا آلت إليه الخلافه فقال: «أما والله لقد تقمصها (١)فلان وإنّه ليعلم أنّ محلى منها محل القطب من الرحا (٢)» .

لا شك ولا إشكال فى أنّ الضمير فى «تقمصها» يعود إلى الخلافه، ولعل التعبير بالقميص إشاره إلى أمر وهو أنّ فلاناً قد استغل مسأله الخلافه كقميص يزين به نفسه، والحال أنّ هذه الرحا تتطلب محوراً قوياً يحفظ نظامها فى الحركه ويحول دون إنحراف مسارها وتعثر بفعل المطبات التى تواجهها وتسيرها بما يضمن مصالح الإسلام والمسلمين. أجل فالخلافه ليست قميصا، بل هى رحى الجامعه، وليس للخلافه من غنى عن المحور.

هى ليست ثوباً يرتدى. ثم يستدل عليه السلام بدليل واضح على المعنى المذكور ليكشف عن مدى علمه وسمو مقامه «ينحدر (٣)عنى السيل ولا يرقى الى الطير» . فقوله عليه السلام «ينحدر عنّى السيل» يعنى رفعه منزلته عليه السلام كأنّه فى ذروه جبل أو يقاع مشرف، ينحدر السيل عنه إلى الوهاد والغيطان، وقوله عليه السلام «و لا يرقى إلىّ الطير» هذه أعظم فى الرفعه والعلو من التى قبلها، لان السيل ينحدر عن الرابيه والهضبه، وأمّا تعذر رقى الطير فر بما يكون للقلال الشاهقه جدا، بل ما هو أعلى من قلال الجبال، كأنه يقول: إنّى لعلو منزلتى كمن فى السماء التى يستحيل أن يرقى الطير إليها.

١- ١) «تقمص» من ماده فميص بمعنى لبسها كالقميص.

٢- ٢) «الرحا» بمعنى الطاحونه، وقد استعملت مادتها بصوره ناقص واوى وناقص يائى.

٣- ٣) «ينحدر» من ماده إنحدار بمعنى الانهمار والسقوط على وجه الكثره.

والتشبيه المذكور ينسجم وما ورد فى القرآن الكريم بشأن دور الجبال فى إستقرار الأرض «وَأَلْقى فِى الأرْضِ رَواسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (۱). أجل لولا هذه السلسله العظيمه من الجبال لسلبت السكينه والاستقرار من الناس بفعل الضغوط الجوفيه لباطن الأرض من جانب وتأثير جاذبيه الشمس والقمر وجزر ومد القشره الأرضيه من جانب آخر وأخيراً هبوب العواصف، ولا نعدمت المياه التى تنهمر من السماء فتصب فى البحار والمحيطات وتشكل مصادر الأنهار والأبار والعيون. فوجود الإمام المعصوم والعالم العارف يشكل معين الخير البركه والسكينه لكل اُمّه.

إلى جانب كون تعبير الإمام عليه السلام يشير إلى تعذر سبر أغوار أفكار الإمام عليه السلام والوقوف على كنه شخصيته وذروه علمه ومعرفته، ولايتيسر ذلك إلّالمعلم الإمام نبى الإسلام محمد المصطفى صلى الله عليه و آله. حتى صحابه الإمام عليه السلام كانوا ينتهلون حسب إستعدادهم من منهله العذب ويحيطوا بظاهره على قدر معرفتهم وعلمهم (۲).

النقطه الاُخرى الجديره بالذكر تكمن فى الاستفاده من الأنهار فى حركه الرحى وتنبع هذه الأنهار من الجبال كما أنّها تفصل هذه الرحى عن الجبال. ولعل العباره المذكوره إشاره إلى هذا المعنى، أى أنا المحور والرحى والقوه المحركه المليئه بالعلم والمعرفه. وكما أشرنا آنفا فان قمم الجبال تختزن بركات السماء كحبات ثلج ثم تفيض بها على الأرض الهامده المتعطشه للماء، ويمكن أن تكون العباره إشاره إلى قرب الإمام عليه السلام من الوحى والاغتراف من كوثر النبى صلى الله عليه و آله.

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالسيل فى العباره هو علم الإمام عليه السلام الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه و آله بقوله: «أنا مدينه العلم وعلى بابها» (۳)كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه فسر «ماء معين» الوارده فى الآيه ۳۰ من سوره الملك «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكمْ بِماءٍ مَعِينٍ» بعلم الإمام عليه السلام (۴).

۱- ۱) سوره النحل / ۱۱. [۱]

۲- ۲) للوقوف على حقيقه التعبيرات الوارده بشأن أميرالمؤمنين على عليه السلام وأفضليته المطلقه على من سواه من أفراد الاُمّه، نكتفى بالايضاحات التى وردت فى مقدمه الكتاب بشأن فضائله ومناقبه عليه السلام.

۳- ۳) للوقوف على إسناد هذا الحديث المعروف فى مصادر العامه، انظر إحقاق الحق ۵ / ۴۶۸-۵۰۱.

۴- ۴) تفسير نور الثقلين ۵ / ۳۸۶ [۲] وليس هنالك من منافاه بين هذا التفسير وذلك الذى فسره بالماء الجارى، ۲ ولا التفسير الذى ورد فى بعض الروايات من أنّ المراد بالماء المعين أصل وجود الإمام عليه السلام، وذلك لإمكانيه جمع هذه المعانى فى مفهوم الآيه.

و هنا تطرح بعض الأسئله نفسها من قبيل:

الأول: لم مـدح الإمام عليه السـلام نفسه والحال ورد الذم على ذلك كقوله «تزكيه المرء لنفسه قبيح» . وللإجابه على هذا السؤال نقول: هنالك فارق بين مدح النفس والتعريف بها. فقد تكون الاُمّه أحيانا جاهله بشخصـيه فرد؛ الأمر الذى لا يجعلها تسـتفيد منه ومن طاقـاته كمـا ينبغى فـالتعريف بالشـخص هنـا سواء من قبله أو من قبـل الآـخرين ليس فقـط لاـ ضـير فيه فحسب، بل هو عين الصواب والسبيل الصـحيح للنجاه وهو بالضـبط من قبيل تعريف الطبيب بمجال تخصـصه الـذى يضـعه على الوصـفه الطبيه، الأمر الذى يهدف إلى إرشاد المرضى فى مراجعته ولا ينطوى على أى مديح للشخص.

السؤال الثانى: قوله عليه السلام: «ينحدر عنّى السبيل ولا يرقى إليّ الطير» هو زعم منه عليه السلام ليس أكثر فهل قام الدليل عليه؟

يبـدو أنّ الإجابه على هـذا هى أوضح منها على السؤال الأول؟ لان المقام العلمى الذى اُختص به أمير المؤمنين على عليه السـلام ليس بخاف على من له أدنى إطلاع بتأريخ الإسلام والمسلمين. فنا هيك عن تواتر الأحاديث النبويه الجمه الوارده عن رسول الله صلى الله عليه و آله فى فضل علمه وتصـريحات العلماء الأعلام فى أنّه مصدر كافه العلوم والمعارف الإسلاميه وزعيمها (۱)، إلى جـانب تصـديه لأعقـد المسائـل التى كـان يعجز عنهـا من سـبقه من الخلفـاء فـان أدنى مطـالعه لرسائله خطبه وقصار كلماته التى جمعت فى نهـج البلاغه لكافيه فى الوقوف على هـذه الحقيقه. فلو تصـفح كل إنسان منصفٍ – مسـلما كان أم غير مسـلم – نهج البلاغه لخضع متواضعا لعظمه الإمام ولعاش عملياً مفهوم قوله عليه السلام: «ينحدر عنّى السيل ولا يرقى إليّ الطير» .

السؤال الثالث: كيف يشـكو عليه السـلام الحوادث المرتبطه بالخلافه بعـد رحيل رسول الله صـلى الله عليه و آله، ألا يتنافى ذلك ومفهوم الصبر والرضا والتسليم؟

تبدو الإجابه على هذا السؤال سهله يسيره. فالصبر والرضا والتسليم موضوع، وتبيين

۱- ۱) لقـد ذكر ابن أبى الحديـد بحثا مفصـلاً بهذا الشأن فى شـرحه لنهج البلاغه، ثم تطرق إلى العلوم الإسـلاميه وشـرح كيفيه إرتباطها بعلم الإمام عليه السلام من الناحيه التاريخيه (شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱/۱۷-۲۰) .

الحقائق ليدونها التاريخ ويلم بها أبناء الاُمّه فى الحاضر والمستقبل موضوع آخر، بحيث لايتضمن الأمر أيه منافاه فحسب، بل هو من أوجب الواجبات، وما القضايا المتعلقه بالخلافه إلّانموذج حى من هذه النماذج. ففى الحقيقه والواقع أنّ مصالح المجتمع الإسلامى والاجيال الإسلاميه القادمه هى التى تحتم تبيين هذه الحقائق كى لا تودع بوتقه النسيان.

ثم قال عليه السلام: «فسدلت (۱)دونها ثوياً، وطويت عنها كشحاً (۲)» .

تفيد هذه العباره بوضوح أنّ رد فعل الإمام عليه السلام حيال تلك الحادثه لم يكن يتضمن الاستعداد والتاهب لخوض الصراع والاشتباك مع الآخرين، بل تجاهل بكل بساله وزهد ذلك الأمر لاسباب سنتطرق إلى ذكرها.

ولكن من جانب آخر فان بعض الأفكار كانت تمارس ضغطها عليه لتجعله يتساءل: ما الذى ينبغى فعله تجاه هذا الانحراف الخطير وكيف ينهض بمسئوليته التاريخيه بالنسبه لهذا الأمر؟ ومن هنا أردف قائلاً: «وطفقت أرتئى بين أن أصول بيد جذاء (۳)، أو أصبر على طخيه (۴)عمياء» .

فالأمام عليه السلام يكشف فى هذه العباره عن حقيقه وهى: أننى لم أنس طرفه عين مسئوليتى تجاه الاُمّه والوظيفه التى وضعها الله ورسوله صلى الله عليه و آله على عاتقى، ولكن ليت شعرى ما أنا فاعل وهناك محذوران: المحذور الأول: هل أنهض بالأمر وأخوض الصراع مع الغاصبين، والحال لا أملك العدّه والعدد من جانب، ومن جانب آخر فان من شأن هذه النهضه أن تشق عصا المسلمين وتفرق صفوفهم وتثلج صدور الأعداء والمنافقين الذين يتربصون بالمسلمين مثل هذه الفرصه ليجهزوا على الإسلام.

المحذور الثانى: أنّ ألتزم الصبر والصمت حيال هذه الحادثه فى ظل هذه الأجواء الدامسه الظلام. والتعبير بالطخيه العمياء ينطوى على روعه فى الدقه والبيان فالطخيه تعنى الظلام،

---

۱ - ۱) «سدلت» من ماده «سدل» على وزن عدل بمعنى نزول الشىء من الأعلى إلى الأسفل بحيث يغطى، وعليه فان مفهوم سدلت هنا تركتها وارخيت عليها شيئا.

۲- ۲) «كشح» على وزن فتح بمعنى الضلع و «طوى عنه كشحه» كنايه عن عدم الاهتمام بشىء والانصراف عنه.

۳- ۳) «جذاء» بمعنى القطع والكسر.

۴- ۴) «طخيه» بمعنى الظلمه وتاتى بمعنى السحب الخفيفه و «الطخياء» بمعنى الليله الظلماء.

وأحيانا يمكن إختراق الظلمه - إذا لم تكن شديده - لمشاهده شبح ما خلالها، غير أنّ هذه الظلمه من الشده والعتمه بحيث أطلق عليها العمياء لتعذر رؤيه أى شىء من خلالها. ثم يتحدث الإمام عليه السلام عن خصائص تلك الظلمه والفتنه ليوجزها فى عبارات ثلاث عميقه المعنى فيقول: «يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح (١)فيها مومن حتى يلقى ربه» .

و يفهم من هذه العباره أنّ المعاناه ستعم الجميع. فهى تشيب الصغير وتهرم الكبير بينما ستتضاعف معاناه المؤمنين بفعل تصاعد حده المشاكل التى سيشهدها المجتمع الإسلامى والاخطار التى تهدد كيانه بما يجعلهم يعيشون هاله من الغم والحزن على مصير الإسلام. فلم تمض مدّه حتى تبلورت تلك الاخطار لتشهد ولاده العصر الاموى الذى تمكن خلال مدّه قياسيه من القضاء على الصرح الإسلامى الذى شيده رسول الله صلى الله عليه و آله وصحبه بجهودهم المضنيه ومساعيهم العظيمه.

ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته ليعلن عن موقفه تجاه القضيه وعزمه على التحلى بالصبر: «فرأيت أن الصبر على هاتا (٢)أحجى (٣)» . ثم يصف عليه السلام طبيعه ذلك الصبر فيقول: «فصبرت وفى العين قذى (٤)وفى الحلق شجا» . (٥)

فالعباره صوره واضحه عن ذروه إستياء الإمام عليه السلام وتذمره فى تلك السنوات من المحنه والمصيبه، بحيث لم يكن يسعه أن يغمض عينه عن تلك الأحداث أو يفتحها، كما لم يكن يسعه أن يرفع صوته ويعلن عن مدى حرقته، وكيف لا يكون كذلك «أرى تراثى نهبا» .

تأمّلات

١- لم آثر الإمام عليه السلام الصبر؟

يشهد التاريخ أنّ المنافقين وخصوم الدعوه كانوا يتربصون بالنبى صلى الله عليه و آله ورحيله عن دار

١- ١) «يكدح» من ماده «كدح» بمعنى السعى المصحوب بالتعب.

٢ - ٢) الهاء فى هاتا علامه تنبيه والتاء إسم إشاره مونث، إشاره إلى «طخيه» «الظلمه» التى وردت فى العباره السابقه. واعتبر البعض أن المشار إليه الحاله المستفاده من العباره فيكون المعنى «فرأيت أنّ الصبر على هذه الحاله أحجى» .

٣- ٣) «احجى» من ماده «حجا» بمعنى العقل، وعليه أحجى تعنى الاعقل.

٤- ٤) «قذى» بمعنى التلوث.

٥- ٥) «الشجى» بمعنى الهم والغم والشده والألم، وتعنى أيضا ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه.

الدنيا لتتفتت وحده المسلمين ويتصدع كيانهم ليتمهد أمامهم السبيل من الانقضاض على الدين وأهله وبالتالى كسر شوكته والقضاء عليه؛ فلو نهض الإمام عليه السلام بالأمر فى ظل هذه الظروف من أجل نيل حقّه أو بعباره اُخرى بغيه اعاده المسلمين إلى المسار الإسلامى الصحيح لعصر النبى صلى الله عليه و آله وبالالتفات إلى القرارات التى اُتخذت سلفا باقصاء الإمام عليه السلام عن الخلافه فانّ قتالاً سينشب لتعم الفوضى والاضطراب فى صفوف المجتمع الإسلامى بما يمهدّ السبيل أمام المنافقين والمتربصين لنيل أطماعهم ومآربهم، والشاهد الحى على ذلك تمرد المرتدين عقيب وفاه رسول الله صلى الله عليه و آله الذين هبوا للوقوف بوجه الحكومه الإسلاميه، ولم يكتب لهم النجاح بفعل المقاومه التى أبدتها الاُمّه تجاههم.

فقد صرّحت بعض السير التاريخيه بهذا المجال: «لما توفى رسول الله صلى الله عليه و آله إرتدت العرب واشرأبت اليهوديه والنصرانيه ونجم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيره فى الليله الشاتيه» (۱).

هذا كله من جانب، ومن جانب آخر فان نهوض الإمام عليه السلام بالأمر قد لا تبدو فيه بارقه أمل بالنصر بفعل غياب العدّه والعدد من أنصار الحق، ولعل قيام الإمام عليه السلام بالأمر لا يفسر من أغلب الجهال كانتصار للدين والعقيده بل يعزوه إلى قضايا شخصيه محضه.

غير أنّ الخسائر التى تكبدها المسلمون على مرور الزمان إثر انحراف مسار الخلافه عن محورها قد صورها الإمام عليه السلام بمثابه القذى فى العين والشجا فى الحلق. وهذا درس كبير لكافه المسلمين على مدى التاريخ وهو أنّ إحقاق الحق إذا استلزم توجيه ضربه إلى دعائم الدين وجب التحفظ عنه وعدم المبادره إليه، لان حفظ الدين مقدم عى كل ماسواه، وليس هنالك من سبيل فى مثل هذه الحاله سوى التحلى بالصبر والتحمل. وقد ورد شبيه هذا المعنى فى الخطبه رقم ۶۰ حيث قال عليه السلام: «فنظرت فاذا ليس لى معين إلّاأهل بيتى. . . وأغضيت على القذى وشربت على الشجى» .

۱- ۱) سيره ابن هشام ۴ / ۳۱۶. [۱]

۲- لماذا التعبير بالتراث عن الخلافه؟

لقد قال الإمام علیه السلام: «أری تراثی نهبا» وهنا یبرز هذا السؤال: لم عبر الإمام علیه السلام عن الخلافه بالارث؟ !

و تتضح الإجابه علی هذا السؤال من خلال الالتفات إلی هذه النقطه وهی أنّ الخلافه إرث معنوی وإلهی ینتقل من النبی صلی الله علیه و آله إلی أوصیائه المعصومین علیه السلام فهو لیس من قبیل الارث الشخصی والمادی والحکومه الظاهریه. وقد ورد شبیه هذا المعنی فی الآیات القرآنیه بشأن «زکریا» الذی سأل الله من یرثه ویرث آل یعقوب «فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیّاً * یَرِثُنِی وَیَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ» (۱).

و الحق أنّ هذا الارث یتعلق بجمیع الأُمّه إلّاأنّ الإمام خلیفه النبی صلی الله علیه و آله هو الذی ینهض به. ونقرأ بشأن وراثه الکتاب السماوی: «ثُمَّ أَوْرَثْنا الکِتابَ الَّذِینَ اصْطَفَیْنا مِنْ عِبادِنا» (۲).

وعلی غرار ذلک ورد الحدیث النبوی المشهور «العلماء ورثه الأنبیاء» (۳).

وشاهدنا علی مامرّ معنا سیره الإمام علیه السلام وحیاته التی أفادت عدم تعلقه من قریب أو بعید بمال الدنیا وحطامها والخلافه - إلّاأنّ ینهض بوظیفته فی إحقاق حق أو ازهاق باطل - التی لم تکن تعدل عنده عفطه عنز أو قیمه نعلیه. لکن والحال هذه کیف یصف صبره علی فقدان الخلافه بالقذی فی العین والشجی فی الحلق؟ لقد ذهب البعض إلی أنّ مراده بالثراث المنهوب هو فدک التی ورثها رسول الله صلی الله علیه و آله بنته الزهراء علیه السلام، وقد اعتبر ذلک أرثه لمال الزوجه بحکم مال الزوج (۴)، غیر أنّ هذا الاحتمال یبدو مستبعدا لأنّ الخطبه بجمیع مضامینها تعالج قضیه الخلافه.

۳- الإمام علیه السلام جلیس البیت

لا أحد یسعه إنکار الخسائر الفادحه التی تکبدها العالم الإسلامی إثر إقصاء علی علیه السلام

۱- ۱) سوره مریم / ۵ - ۶. [۱]

۲- ۲) سوره فاطر / ۳۲. [۲]

۳- ۳) اصول الکافی ۱ / ۳۲-۳۴.

۴- ۴) منهاج البراعه ۳ / ۴۵.

وجلوسه فی داره، فلو قصرنا نظرنا علی البعد العلمی حین تصفحنا لنهج البلاغه الذی یمثل جزءا من خطبه ورسائله وکلماته القصار التی أوردها خلال تلک المدّه القصیره من حکومته رغم ما انطوت علیه من أحداث مریره وحروب دامیه، لا کتشفنا بیسر مدی العلوم والمعارف والخیرات والبرکات التی کانت ستعم العالم الإسلامی بل الدنیا برمتها لولا تلک المدّه المدیده - ۲۵ سنه - التی اضطر فیها الإمام علیه السلام للجلوس فی بیته. لا شک أنّ حرمان المجتمع من فیوض الإمام علیه السلام قد جر علیها الویلات والدمار. ولکن ما العمل یا تری وقد سلبت الأمه هذا الفیض العظیم لتبدو خسائره واضحه علی مدی التأریخ.

۴- لماذا تعرض الإمام علیه السلام لقضیه الخلافه؟

یتساءل البعض: ألم یکن من الأفضل أن یسدل الإمام علیه السلام الستار علی الماضی ولا یتطرق إلی مسأله الخلافه؛ الأمر الذی قد یثیر الفرقه والتشتت فی صفوف المسلمین ویشق وحدتهم؟

و لا عجب فاننا نری الیوم البعض ممن یردد هذا الکلاح، فما أن تطرح قضیه الخلافه وأنّ الإمام أحق بها واولی من غیره حتی تتعالی الأصوات مطالبه بالصمت ونسیان الماضی تحت ذریعه الحفاظ علی الوحده الإسلامیه وأننا نواجه الیوم أعداء الإسلام والمخاطر الکبری ومن شأن إثاره هذه الأحادیث أن تضعف المسلمین فی مجابهه أعدائهم؛ بل هل من جدوی لمثل هذه الأحادیث والحال أن أتباع کل مذهب یواصلون مسیرتهم دون الإکتراث لهذا الصوت أو ذاک، وعلیه فمن المستبعد أن تلعب هذه الاُمور أی دور علی مستوی إخوه المسلمین ووحدتهم.

وللإجابه علی هذا التساؤل لابدّ من التذکیر بأمرین:

أ - إنّ الوقائع الموجوده لا یمکنها إخفاء الحقائق البته. فهذه حقیقه قائمه وهی أنّ النبی صلی الله علیه و آله. قد أکد فی أکثر من مناسبه علی إستخلافه. فما الذی حدث لتشوه هذه الحقیقه وینصح بعدم إثارتها بعد تأکیدها من قبل النبی صلی الله علیه و آله وبناءاً علی ما تقدم فانّ علیاً علیه السلام الذی یتبنی الحق حیثما کان له الحق فی التصدی للوقائع القائمه التی لا تنسجم والحقیقه، فیتعرض للحقائق المرتبطه بالخلافه بعد رسول الله صلی الله علیه و آله لیتسنی للمحققین أن یصدروا أحکامهم بهذا الشأن ولو بعد

قرون مدیده لیعرفوا الحق وأهله والباطل وأهله فیسلکوا سبیل الحق علی ضوء دراساتهم وتحقیقاتهم. علی کل حال لا یمکن منع إنسان عن بیان الحقیقه، ولو افترضنا قدرتنا علی ذلک فاننا لا نمتلک الحق فی منعه، لما یتضمته المنع من خسائر فادحه، وذلک لأن الواقع القائم غالبا ما یختلف والحقیقه وقد یبتعد عنها مسافه شاسعه. فالوضع القائم لا یعنی أبداً أن یکون هو السائد علی الدوام حیث یلهمنا الإسلام أن نسعی لا قتفاء ما ینبغی أن یکون، وممّا لا شک فیه أنّ مسأله الخلافه والامامه بعد النبی صلی الله علیه و آله لمن المباحث الدینیه الرئیسیه؛ سواء کانت جزءاً من أصول الدین کما یعتقد بذلک أتباع مدرسه أهل البیت علیه السلام، أو جزءاً من فروع الدین. مهما کان فهی مسأله مصیریه من وجهه النظر الدینیه ولا تنطوی علی أیه صیغه شخصیه، خلافاً لما یزعمه البعض من الجهال والغافلین فهی لیست مبحثاً تأریخیاً یتعلق بالماضی قد أکل علیه الدهر وشرب؛ بل هی قضیه تنطوی علی عدّه معطیات مؤثره فی حاضر المسلمین ومستقبلهم، کما لا یخفی أثرها فی العدید من المسائل الإسلامیه المرتبطه بأُصول الدین وفروعه؛ وهذا هو الأمر الذی یقف وراء إثاره الإمام علیه السلام لمسأله الخلافه کراراً ومراراً.

ب - إنّ الأبحاث العقیمه والجدل الفارغ القائم علی أساس التعصب والجمود هی التی تشکل الخطر الأساس علی وحده الأُمّه الإسلامیه وشق صفوفها؛ أمّا الأبحاث العلمیه والمنطقیه التی یراعی فیها أطراف الحوار والبحث الحدود والموازین العلمیه والمنطقیه فلیست بذات خطر علی الوحده الإسلامیه فحسب، بل من شأنها أن تساعد فی إرسائها وتوثیق دعائمها. طبعا هذا لیس ضربا من الخیال الفکری بل عشناه علی مستوی الواقع والتجربه. فقد أقیمت أخیراً ندوه فی إحدی المدن بمناسبه أسبوع الوحده حضرها کبار العلماء والمفکرین من الفریقین نوقشت خلالها أغلب القضایا الخلافیه وقد تمخضت عن عدّه نتائج طیبه حیث قربت وجهات النظر وضغطت حده الخلافات، بما جعل الجمیع یوقنون بأنّ مثل هذه الأبحاث والحوارات یمکنها أن تقضی علی الفجوه بین المذاهب الإسلامیه وتوطید أواصر الاخوه بما یخدم وحده المسلمین (۱).

۱- ۱) انظر مجله رساله الحوزه للوقوف علی المباحث المهمّه التی طرحت فی تلک الندوهو التقارب الذی حصل بین الأفراد.

بـل أبعـد من ذلـك أننـا نرى الحوار بشـأن الأديـان السـماويه هو الآـخر من شأنه أن يتمخض عن نتائـج مفيـده بما يقلل من هوه الخلاف، وليعلم أولئك الـذين يقفون بوجه هـذه الحوارات البناءه أنّهم يساهمون بشـكل أو بآخر فى مضاعفه الخلافات وتعميق الفجوه بين الأديان والمذاهب.

ص:٢٢٢

القسم الثانی: عصر الخلیفه الثانی

اشاره

حَتَّی مَضَی الْأَوَّلُ لِسَبِیلِهِ فَأَدْلَی بِهَا إِلَی فُلانٍ بَعْدَهُ ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَعْشَی: «شَتّانَ ما یَوْمِی عَلَی کُورِها وَ یَوْمُ حَیّانَ أَخِی جابِرِ

فَیا عَجَباً! ! بَیْنا هُوَ یَسْتَقِیلُها فِی حَیاتِهِ إِذْ عَقَدَها لِآخَرَ بَعْدَ وَفاتِهِ - لَشَدَّ ما تَشَطَّرا ضَرْعَیْها - فَصَیَّرَها فِی حَوْزَهٍ خَشْناءَ یَغْلُظُ کَلْمُها، وَیَخْشُنُ مَسُّها وَیَکْثُرُ الْعِثارُ فِیها وَالِاعْتِذارُ مِنْها، فَصاحِبُها کَراکِبِ الصَّعْبَهِ إِنْ أَشْنَقَ لَها خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَها تَقَحَّمَ، فَمُنِیَ النّاسُ - لَعَمْرُ اللّهِ - بِخَبْطٍ وَشِماسٍ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِراضٍ فَصَبَرْتُ عَلَی طُولِ الْمُدَّهِ، وَشِدَّهِ الْمِحْنَهِ» .

الشرح والتفسیر

أشار الإمام علی علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبه إلی عهد الخلیفه الثانی فقال: «حتی مضی الأول لسبیله فأدلی بها إلی فلان بعده» . (۱)أدلی من ماده دلو وهی تستعمل فی سحب الماء من البئر بالحبل والدلو کما تستعمل بمعنی الجائزه والأُجره والرشوه فی الحکم، فقد قال القرآن بهذا المجال: «وَتُدْلُوا بِها إِلَی الحُکّامِ» (۲).

قال ابن أبی الحدید المعتزلی: وعمر هو الذی شد بیعه أبی بکر، ورغم المخالفین فیها فکسر سیف الزبیر لما جرده، ودفع فی صدر المقداد، ووطیء فی السقیفه سعد بن عباده، وقال: اقتلوا

۱- ۱) توفی فی العام الثالث عشر من الهجره بعد أن تولی الخلافه لمده سنتین وثلاثه أشهر. «مروج الذهب ۲/۳۰۴ الطبعه الرابعه» .

۲- ۲) سوره بقره / ۱۸۸. [۱]

سعداً، قتل الله سعداً. وحطم أنف الخباب بن المنذر الذى قال يوم السقيفه: أنا جذيلها المحكك، و غذيقها المرجب.

و توعد من لجأ إلى دار فاطمه عليه السلام من الها شميين، وأخرجهم منها، ولولاه لما يثبت لأبى بكر أمر، ولا قامت له قائمه (۱).

و من هنا تتضح روعه تعبيره عليه السلام بأدلى، ثم تمثل بقول الأعشى: شتان ما يومى على كورها ويوم حيان أخى جابر (۲)

حيث أراد الإمام عليه السلام أن يقول كنت أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه و آله وأعظمهم منزله وحرمه بل كنت نفس رسول الله صلى الله عليه و آله غير أنّهم أقصونى بعده وأخذوا يتلاقفون الخلافه التى لا تصلح إلّالى فيرمون بها لمن يشاؤون.

وذهب البعض إلى أنّه أراد أن يقارن بين خلافته - من تمثله بهذا الشعر - وخلافه من سبقوه ممن كانوا فى نعمه ورخاء بينما حفل عهده لا بتعاده عن عصر رسول الله صلى الله عليه و آله بالويلات و المصائب «بالطبع هذا إذا كان الأعشى أراد مقارنه حاله بحال حيان» . (۳)

ثم يعبّر الإمام عليه السلام عن اندهاشه وذهوله لما يحصل «فيا عجبا! ! بينا هو يستقيلها فى حياته إذ عقدها لاخر بعد وفاته» .

الواقع هو أنّ هذه إلعباره إشاره إلى حديث معروف نقل عن أبى بكر خاطب به الناس أوائل خلافته حيث قال: «أقيلونى فلست بخير كم» . ورواه البعض الآخر «و ليتكم ولست بخيركم» . (۴)

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱ / ۱۷۴. [۱]

۲- ۲) الأعشى من أبرز شعراء الجاهليه. سئل يونس النحوى: من أشعر الشعراء؟ قال: لا أعلم أشعر هم إلّاأنى أقول إمرء القيس فارسا والنابغه حين الخوف وزهير عند الحب وإلّا عشى عند الطرب، أدرك الإسلام ولم يسلم، لقب بالاعشى لضعف بصره وقد عمى آخر عمره واسمه ميمون بن قيس، وأراد بشعره السابق الزمان الذى كان يجالس فيه حيان أخو جابر أحد أشراف اليمامه حين كان يعيش الأعشى آنذاك فى نعمه موفوره فيقارنها مع عيشه الآن فى صحارى مكه والمدينه فيقول أين تلك الحياه من هذه!

۳- ۳) شرح ابن ميثم البحرانى ۱ / ۲۵۷.

۴- ۴) لقد استفاضت مصادر الفريقين التى روت هذا الحديث، وقد أورده إبن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه، ۱ / ۱۶۹. و صرّح العالم المصرى الكبير الشيخ محمد عبده فى شرحه لنهج البلاغه قائلاً: روى البعض أنّ أبابكر لما تمت له البيعه قال: «أقيلونى فلست بخيركم» لكن أغلب العلماء رو وا الحديث أنّه قال: «و ليتكم ولست بخيركم» (شرح نهج البلاغه لمحمد عبده، ص ۸۶ ذيل هذه الخطبه) . وجاء فى حاشيه إحقاق الحق عن ابن حسنويه المحدث الحنفى الموصلى فى كتابه «در بحر المناقب» حديثا مفصلا أنّ أبابكر قال: «أقيلونى فلست بخيركم وعلى فيكم» (إحقاق الحق ۸ / ۲۴۰) . [۲] وروى الطبرى فى تأريخه لما بويع أبى بكر فى السقيفه قال: «أيّها الناس فانّى قد وليت عليكم ولست بخيركم» (تأريخ الطبرى ۲ / ۴۵۰ طبع بيروت [۳]مؤسسه

الأعلمی) . وروی ابن قتیبه الدینوری فی الإمامه والسیاسه أنّ أبابکر خطب الناس باکیاً فقال: «لا حاجه لی فی بیعتکم أقیلونی بیعتی» (الإمامه والسیاسه ۱ / ۲۰) .

و كيفا كان مضمون الروايه فهى تشير إلى عدم رغبته بقبول الخلافه أو كما ذهب البعض لم يكن يكترث لها أو أنّه لم يكن يرى نفسه جديراً بالخلافه مع وجود على عليه السلام، ورغم ذلك فانّ هذا الكلام لا ينسجم وما فعله أواخر عمره؛ الأمر الذى أثار دهشه الإمام عليه السلام فى كيفيه تفويض الخلافه دون الرجوع إلى آراء الاُمّه: ثم قال عليه السلام «لشدّ ما تشطر ضرعيها» الضرع بمعنى الثدى وتشطرا من ماده شطر بمعنى جزء من الشيء.

فالعباره تشبيه رائع بالنسبه للافراد الذى يستفيدون من شيء على وجه التناوب فالمراد بتشطر ضرعيها: إنّهما إقتسما فائدتها ونفعها، والضمير للخلافه، وسمى القادمين معاً ضرعاً وسمى الآخرين معاً ضرعا لما كان لتجاورهما، ولكونها لا يحلبان إلّامعاً، كشيء واحد فالعباره بصوره عامه تشير إلى مشروع معد ومبرمج مسبقاً ولم يكن من قبيل الصدفه أبداً.

إجابه على إستفسار

لقد قال البعض بأنّ أبابكر قال: أقيلونى فلست بخيركم، وقد ورد مثل هذا الكلام عن على عليه السلام فى نهج البلاغه بعد مقتل عثمان حيث قال: «دعونى والتمسوا غيرى. . . وان تركتمونى فأنا كأحدكم ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خيراً لكم منى أميراً» فما تقولون؟

للرد على ذلك نقول لابن أبى الحديد كلام بهذا الشأن ولنا كلام، فقد قال ابن أبى الحديد: قالت الإماميه هذا غير لازم والفرق بين الموضعين ظاهر لأنّ علياً عليه السلام لم يقل: إنّى لا أصلح، ولكنه كره الفتنه، وأبوبكر قال كلاماً معناه: إنّى لا أصلح لها، لقوله «لست بخيركم» ، ومن نفى

عن نفسه صلاحيته للإمامه، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره - واعلم أنّ الكلام فى هذا الموضع مبنى على أن الأفضليه هل هى شرط فى الإمامه أم لا؟ (فى إشاره إلى أنّه يمكن القول بعدم اشتراط الأفضليه فى الإمامه؛ الكلام الذى لا يقره أى منطق وعقل ولا يدعو سوى الخجل» (۱).

إلّا أنّنا نرى القضيه أعمق من ذلك. فلو تأملنا الخطبه رقم ۹۲ التى استدلوا بها والتفتنا إلى بعض عباراتها التى لم يستشهد بها عند الاستدلال لا تضح لنا تماماً مراد الإمام عليه السلام. فقد صرّح ضمن الخطبه المذكوره قائلاً: «فأنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول» (إشاره إلى مدى التغييرات التى طالت الأحكام الشرعيه والتعاليم النبويه، عليه فلابدّ لى من القيام ببعض الإصلاحات الثوريه والتى ستودى لاعتراض البعضى منكم وبالتالى نشوب المواجهه) .

ثم أضاف عليه السلام: «و ان الافاق قد أغامت والمحجه قد تنكرت» ، ثم يشير عليه السلام إلى كبد الحقيقه فيقول: «و اعلموا أنّى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب» .

أمّا الشاهد على أنّ الإمام عليه السلام يرى وجوب الأفضليه كشرط فى الخلافه ما أورده عليه السلام فى الخطبه ۱۷۳ من نهج البلاغه إذ قال عليه السلام: «أيّها الناس إنّ أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه و أعلمهم بأمر الله فيه» . (۲)ونخلص ممّا سبق إلى أنّ المقارنه بين كلام الإمام على عليه السلام وأبى بكر هو «قياس مع الفارق» لانعدام أى تشابه بين الكلامين.

و نختتم هذا الكلام بما أورده إبن أبى الحديد حين حاول تبرير حديث الخليفه الأول حيث قال: واحتج بذلك من لم يشترط الأفضليه فى الإمامه.

و من رواها إعتذر لأبى بكر فقال: إنّما قال: أقيلونى، ليثور ما فى نفوس الناس من بيعته، ويخبر ما عندهم من ولايته، فيعلم مريدهم وكارههم، ومحبهم ومبغضهم. فلما رأى النفوس إليه ساكنه، والقلوب لبيعته مذعنه، استمر على امارته، وحكم حكم الخلفاء فى رعيته، ولم

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱ / ۱۶۹. [۱]

۲- ۲) نهج البلاغه، خطبه ۱۷۳. [۲]

یکن منکراً منه أن یعهد إلی من استصلحه لخلافته (۱).

و لا ـ یخفی علی أحد خواء هذه التبریرات، لأنّ إعتراف کل فرد ینبغی أن یحمل علی معناه الواقعی، وصرف اللفظ عن معناه الحقیقی إنّما یحتاج إلی قرینه لیست متوفره هنا. بعباره اُخری إنّ هذا الاعتراف قانونی یؤخذ به فی کل محکمه ولیس من عذر لهذا الاعتراف فهو إقرار جائز عقلائیاً.

ثم یصف الإمام علیه السلام شخصیه الخلیفه الثانی وما انطوت علیه من خصائص ومیزات فقال علیه السلام: «فصیرها فی حوزه (۲)خشناء یغلظ کلمها (۳)ویخشن مسها ویکثر العثار (۴)فیها، الاعتذار منها»

المراد بالحوزه هنا أخلاق الخلیفه الثانی وصفاته فالواقع قد ذکر له أربعه صفات، الاولی خشونته وعنفه التی عبر عنها بقوله «یغلظ کلمها» فی إشاره إلی الجروح الروحیه والجسمیه التی یفرزها الاصطدام به. الصفه الثانیه الشده فی التعامل «و یخشن مسها» وعلیه فالحوزه الخشناء قد فسرت بالعبارتین اللاحقتین التین أشارتا إلی العنف فی الکلام والعنف فی المعامله. الصفه الثالثه هی کثره الأخطاء والرابعه الاعتذار من تلک الأخطاء «و یکثر العثار فیها الاعتذار منها» .

أمّا بشأن کثره أخطاء الخلیفه الثانی ولا سیما أخطائه فی بیان الأحکام واقراره بتلک الأخطاء والاعتذار منها والعنف فی المعامله فقد حفلت بها السیر التاریخیه بل أفرد لها علماء العامه عدداً من الکتب وسنکتفی لاحقا بالإشاره إلی نماذج منها.

ثم قال علیه السلام: «فصاحبها کراکب الصعبه (۵)إن أشنق (۶)لها خرم (۷)وإن أسلس (۸)لها تقحم (۹)» .

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱ / ۱۶۹. [۱]

۲- ۲) «حوزه» بمعنی الناحیه و الطبیعه، من ماده «حیازه» بمعنی الجمع والاحاطه.

۳- ۳) «الکلم» فی الأصل بمعنی الجرح، واطلق لفظ الکلام لاثره القاطع فی المقابل.

۴- ۴) «العثار بمعنی السقوط و الکبوه.

۵- ۵) «الصعبه» بمعنی الانسان أو الحیوان الطائش، ما لیست بذلول و أرید بالصعبه هنا الناقه الجامحه.

۶- ۶) «أشنق» بمعنی سحب زمام الناقه و «شناق» علی وزن کتاب یطلق علی الحبل الذی تربط به القربه.

۷- ۷) «خرم» من ماده «خرم» بمعنی القطع.

۸- ۸) «أسلس من» ماده «سلس» علی وزن قضص و سلاسه بمعنی السهوله و علیه فان أسلس بمعنی أرخی.

۹- ۹) «تقحم» من ماده «قحوم» علی وزن شعور بمعنی رمی النفس فی الهلکه دون إجاله الفکر.

فالإمام علیه السلام یشرح بهذه العباره حاله وحال فریق من المؤمنین علی عهد خلافه الخلیفه الثانی، بحیث إذا أراد أحدهم أن یصطدم بالخلیفه - واستناداً إلی صفاته المذکوره سابقاً - فقد یؤدی ذلک إلی بروز الاختلافات والمشاجرات بین أوساط المسلمین أو الاخطار التی سیتعرض إلیها من جانب الخلیفه، وإن فضل الصمت برزت الاخطار التی تهدد الکیان الإسلامی والخلافه الإسلامیه، فالواقع هناک خطران لا ینفصلان: خطر الاصطدام بالخلیفهخطر فقدان المصالح الإسلامیه ولهذا یشکو الإمام علیه السلام ما ألم به وبالمومنین آنذاک یعرض للمشاکل المتفاقمه التی أصابت المسلمین.

کما إحتمل بعضی شرّاح نهج البلاغه أنّ الضمیر فی (صاحبها) یعود إلی مطلق الخلافه؛ أی أنّ طبیعه الخلافه تختزن دائما أحد هذین الخطرین، فلو أراد الحاکم - الخلیفه - أن یتعامل بخرم مع کل شیء کانت هنالک ردود الفعل الحاده والعنیفه، ولو أراد التعامل علی أساس الرفق واللین برز خطر السقوط فی وادی الانحراف والخطا وزوال القیم الإسلامیه. لکن تشیر القرائن إلّاأنّ المعنی الأول هو المراد بالعباره وهذا ما یتضح بجلاء من خلال التأمل فی العبارات اللاحقه (۱). ثم قال علیه السلام: «فمنی (۲)الناس لعمر الله بخبط (۳)وشماس (۴)وتلون (۵)و اعتراض (۶)» .

فقد تضمنت العباره إشاره إلی أربع ظواهر نفسیه للأُمّه فی عهد الخلیفه الثانی کأنّها تقتبس من رئیس الحکومه، لانّ لسلوک الحاکم إنعکاس واسع علی نفوس أبناء الأُمّه وقد قیل سابقاً «الناس علی دین ملوکهم» .

الاولی: أنّ أتشطتهم وقراراتهم الطائشه سبب ظهور الفوضی فی المجتمع.

---

۱ - ۱) هنالک إحتمال ثالث ذکرهنا فی أنّ المراد الخلافه علی عهد الإمام علی علیه السلام، حیث شهدت الأوضاع بروز خطرین، ویبدو هذا الاحتمال مستبعداً.

۲- ۲) «منی» من ماده «منو» بمعنی ابتلی واصیب.

۳- ۳) «خبط» بمعنی «ضرب» الناقه للأرض، واراید بها السیر علی غیر هدی.

۴- ۴) «شماس» بمعنی الاباء والطیش (إباء ظهر الفرس عن الرکوب) .

۵- ۵) «تلون» بمعنی تغییر الحال أو اللون.

۶- ۶) «إعتراض» بمعنی السیر علی غیر خط مستقیم، کأنّه یسیر عرضاً فی حال سیره طولاً.

الثانيه: أنّهم خارجون على القوانين الشرعيه والنظم الاجتماعيه.

الثالثه: التلون المستمر وركوب الموجه والتخبط والانسلاخ من فئه والالتحاق بأُخرى وعدم امتلاك الهدف المعين فى الحياه.

الرابعه: الانحراف عن مسار الحق والسير على سبيل غير الهدى.

و ممّا لا شك فيه - وكما سنتعرض إلى ذلك بالتفصيل لاحقا - أنّ السياسه الخارجيه فى عصر الخليفه الثانى والفتوحات الإسلاميه والامتداد خارج الحجاز قد خلقت ذهنيه للناس بشأن شكل الحكومه فى أنّها موفقه على جميع الأصعده فيقل إهتمامهم بالمشاكل الداخليه التى يعانى منها المجتمع الإسلامى، والحال كما أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات أنّ طائفه من المسلمين قد شهدت حاله من التخبط على مستوى العقائد والعمل والقضايا الأخلاقيه والابتعاد تدريجياً عن الإسلام الأصيل بفعل الأخطاء والاجتهادات فى مقابل النصوص القرآنيه والأحاديث النبويه؛ الأمر الذى أدى فى خاتمه المطاف إلى تلك الثوره العارمه على الخليفه الثالث وبما مهد السبيل أمام ظهور الحكومه الاستبداديه فى العصر الأُموى والعباسى التى تفتقر لادنى شبه بالحكومه الإسلاميه على عهد النبى صلى الله عليه و آله.

والمفروغ منه أنّ هذه الحاله العشوائيه لم تكن وليده ساعتها، بل ظهرت إثر تصاعد حده الأخطاء المتواصله طيله عصر الخلافه. ثم قال الإمام عليه السلام: «فصبرت على طول المده، وشده المحنه» .

فقد عانى عليه السلام من ذات الظروف والتحمل التى كانت أبان عهد الخليفه الأول، غير أنّ المحنه التى عاناها الإمام عليه السلام كانت أشد وأعظم بفعل تلك الظروف الاقهر والمده الأطول.

قال بعض شرّاح نهج البلاغه إنّ الإمام عليه السلام أشار إلى قضيتين كان لهما الأثر البالغ فى إستياء الإمام عليه السلام: الاولى ازدياد مدّه الابتعاد عن محور الخلافه، والثانيه الاستياء والتذمر الذى أفرزته ظاهره انشقاق الخلافه عن مسارها الأصلى فى عدم سياده النظم الصحيحه بالنسبه لشؤون الناس الدينيه. لكن على كل حال فقد كانت هناك المصالح المهمّه التى تتطلب سكوت الإمام عليه السلام والتضحيه بالأُمور الثانويه من أجل الأهداف الاسمى. فقد استمر هذا الوضع حتى إنتهى عصر الخليفه الثانى.

تأمّلات

۱- نماذج الفضاضه الأخلاقیه علی عهد الخلیفه الثانی

لقد اُلفت عدّه کتب - سواء کتب الحدیث والتاریخ - من قبل علماء العامه بشأن الخلیفه الثانی ولا سیما إبان خلافته التی تکشف عن مدی دقه عبارات الإمام علیه السلام فی وصف خصائصه. و ممّا لا شک فیه أنّ خروقاته فی هذا المجال کثیره نکتفی ببعضی نماذجها:

۱- روی المرحوم العلّامه الأمینی فی المجلد السادس من کتاب الغدیر عن مصادر العامه المعروفه من قبیل سنن الدارمی وتأریخ ابن عساکر وتفسیر ابن کثیر واتقان السیوطی والدر المنثور وفتح الباری عدّه قصص مروعه بشأن الخلیفه الثانی والرجل الذی یدعی «صبیغ العراقی» . فالذی تفیده السیر التاریخیه أنّه کان رجل بحاثه کثیرا ما یسأل عن الآیات القرآنیه، غیر أنّ عمر کان یجابهه بکل عنف بما یدعو للدهشه والعجب ومن ذلک.

فعن سلمان بن یسار إنّ رجلاً یقال له صبیغ قدم المدینه فجعل یسأل عن متشابه القرآن فأرسل إلیه عمر وقد أعد له عراجین النخل فقال: من أنت؟ قال أنا عبدالله صبیغ: فأخذ عمر عرجونا من تلک العراجین فضربه وقال: أنا عبدالله عمر. فجعل له ضرباً حتی دمی رأسه فقال: یا أمیرالمؤمنین حسبک قد ذهب الذی کنت أجد فی رأسی. وعن نافع مولی عبدالله: إنّ صبیغ العراقی جعل یسأل عن أشیاء من القرآن فی أجناد المسلمین حتی قدم مصر فبعث به عمرو بن العاص إلی عمر بن الخطاب فلما أتاه الرسول بالکتاب فقرأه قال: أین الرجل فقال: فی الرحل، قال عمر: أبصر أن یکون ذهب فتصیبک منی العقوبه الموجعه. فأتاه به فقال عمر: تسأل محدثه؟ فارسل عمر إلی رطائب من جرید فضربه بها حتی ترک ظهره دبره، ثم ترکه حتی برأ، ثم عاد له، ثم ترکه حتی برأ فدعا به لیعود له قال: صبیغ إن کنت ترید قتلی فقتلنی قتلاً جمیلاً، وإن کنت ترید أن تداوینی فقد والله برئت، فأذن له إلی أرضه وکتب إلی أبی موسی الأشعری، أن لا یجالسه أحد من المسلمین، فاشتد ذلک علی الرجل فکتب أبوموسی إلی عمر: أن قد حسنت توبته، فکتب عمر: أن یأذن الناس بمجالسته. وعن السائب بن یزید قال: أتی عمر بن الخطاب فقیل: یا أمیرالمؤمنین! إنا لقینا رجلاً یسأل عن تأویل مشکل القرآن. فقال عمر: اللّهم مکنی منه، فبینما عمر ذات یوم جالساً یغدی الناس إذ جاء

الرجل وعليه ثياب وعمامه صفدى حتى إذا فرغ قال: يا اميرالمؤمنين والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فقال عمر أنت هو؟ فقام إليه وحسر عن ذراعيه فلم يزل يجلده حتى سقطت عمامته فقال: والذى نفس عمر بيده لو وجدتك محلوقاً لضربت رأسك ألبسوه ثياباً واحملوه على قتب وأخرجوه حتى تقدموا به بلاده ثم ليقم خطيب ثم يقول: إن صبيغاً ابتغى العلم فأخطأ فلم يزل وضيعاً فى قومه حتى هلك وكان سيد قومه. (۱)وأول من ضرب عمر بالدّره أم فروه بنت أبى قحافه، مات أبوبكر فناح النساء عليه، وفيهنّ أخته أم فروه، فنهاهنّ عمر مراراً، وهنّ يعاودن، فأخرج أمّ فروه من بينهن، وعلاها بالدّره، فهربن وتفرّقن.

كان يقال: درّه عمر أهيب من سيف الحجاج. وفى الصحيح أنّ نسوهً كنّ عند رسول الله صلى الله عليه و آله قد كثر لغطهنَّ، فجاء عمر فهربْنَ هيبه له، فقال لهنّ: يا عُديّات أنفسهن! أتَهبْنَنى ولا تهبنَ رسول الله! قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ. (۲)

۲- العثار والاعتذار

قال ابن أبى الحديد: ومرّ يوماً بشابّ من فتيان الأنصار وهو ظمآن، فاستسقاه، فجدع له ماء بعسل فلم يشربه، وقال: إنّ الله تعالى يقول: «أَذهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِى حَياتِكُمُ الدُّنْيا» فقال له الفتى: يا أمير المؤمنين، إنّها ليست لك ولا لأحد من هذه القبيله، اقرأ ما قبلها: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلى النّارِ أَذهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِى حَياتِكُمُ الدُّنْيا» فقال عمر: كلّ الناس أفقه من عمر!

وقيل: إنّ عمر كان يعس بالليل، فسمع صوت رجل وامرأه فى بيت، فارتاب فتسوّر الحائط، فوجد امرأه ورجلاً، وعندهما زقّ خمر، فقال: يا عدوّ الله، أكنت ترى أنّ اللّه يسترك وأنت على معصيته! قال: يا أميرالمؤمنين، إن كنت أخطأت فى واحده فقط أخطأت فى ثلاث، قال اللّه تعالى: «ولا تَجَسَّوا» ، وقد تجسَّت. وقال: «وأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها» ، وقد تسوّرت، وقال: «فإذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا» ، وما سلّمت! (۳)

۱- ۱) الغدير ۶ / ۲۹۰. [۱]

۲- ۲) شرح نهج [۲]بلاغه لإبن أبى الحديد ۱ / ۱۸۱.

۳- ۳) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱ / ۱۸۲. [۳]

وأخرج الحافظان الدراقطنى وابن عساكر: إن رجلين أتيا عمر بن الخطاب وسألاه عن طلاق الاُمّه فقام معهما فمشى حتى أتى حلقه فى المسجد فيها رجل أصلع فقال: أيّها الأصلع! ما ترى فى طلاق الاُمّه؟ فرفع إليه رأسه ثم أومىء إليه بالسبابه والوسطى فقال لهما عمر: تطليقتان، فقال أحدهما: سبحان الله جئناك وأنت أميرالمؤمنين فمشيت معنا حتى وقفت على هذا الرجل فسألته فرضيت منه أن أومىء إليك، وأتى عمر بن الخطاب بامرأه حامل قد اعترفت بالفجور فأمر برجمها فتلقاها على فقال: ما بال هذه؟ فقالوا: أمر عمر برجمها فردها على وقال: قد كان ذلك. قال أو ما سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله قال: لاحد على معترف بعد بلاء، أنّه من قيد أو حبس أو تهدد فلا إقرار له، فخلا سبيلها ثم قال: عجزت النساء أن تلدن مثل على بن أبى طالب، لولا على لهلك عمر. وأخرج ابن مبارك قال: حدثنا الأشعث عن الشعبى عن مسروق قال: بلغ عمر أنّ امرأه من قريش تزوجها رجل من ثقيف فى عدّتها فأرسل إليهما ففرق بينهما وعاقبهما وقال: لا ينكحها أبداً وجعل الصداق فى بيت المال وفشا ذلك بين الناس فبلغ علياً كرم الله وجهه فقال: ما بال الصداق وبيت المال؟ إنّهما جهلا فينبغى للإمام أن يردهما إلى السنه قيل: فما تقول أنت فيها؟ قال لها الصداق بما استحل من فرجها، ويفرق بينهما، ولا جلد عليهما، وتكمل عدّتها من الأول ثم تكمل العدّه من الآخر، ثم يكون خاطباً. فبلغ ذلك عمر فقال: يا أيّها الناس ردوا الجهالات إلى السنه. (۱)

۳- رد على سوال

لعل الصوره التى رسمها الإمام عليه السلام فى الخطبه عن مشاكل المسلمين والفوضى التى سادتهم على عهد الخيلفه الثانى تتنافى والذهنيه السائده لدى البعض فى أن عهده كان مشرقاً حافلاً بالانتصارات والمكتسبات؛ الأمر الذى يثير السؤال الآتى: كيف يمكن التوفيق بين تلك الصوره والوقائع التى عكسها التاريخ الإسلامى؟

و الالتفات إلى هذه القضيه من شأنه أن يقدم الجواب الشافى لهذا السؤال، فما لا شك فيه -

---

۱- ۱) الغدير ۶ / ۱۱۰. [۱]

كما أشرنا سابقاً أنّ عهد الخليفه الثانى كان عصر الانتصارات والفتوحات على صعيد السياسه الخارجيه للبلاد؛ لانّ المسلمين وعلى ضوء التعاليم الإسلاميه والآيات القرآنيه التى تدعو إلى الجهاد قد مارسوا هذه الفريضه بشكل واسع بحيث لم تمض مدّه حتى حققوا الفتوحات الإسلاميه الباهره خارج البلاد الإسلاميه فتم لهم نيل ما لا يحصى من الغنائم الماديه، الأمر الذى جعل هذه الفتوحات تغطى على ضعف الجبهه الداخليه والفوضى التى كانت سائده آنذاك، وهو المعنى الذى نلمسه اليوم بوضوح فى السياسه المتبعه فى العصر الراهن، فقد يؤدى الانتصار الذى تحرزه الدوله على صعيد السياسه الخارجيه إلى التغطيه على كل شىء ولا سيما المشاكل والمعضلات التى تعيشها على مستوى الداخل، ومن هنا نرى ساسه الاستكبار الذين يحاولون التغطيه على مشاكلهم الداخليه باخماد فورتها من خلال اللجوء إلى عدّه أنشطه - بما فيها شن الحروب - خارجيه.

وزبده الكلام فانّ الإمام عليه السلام إنّما تحدث عن مدى العنف والاضطهاد والأخطاء الفادحه وسعه حجم المشاكل الداخليه إبان عهد الخليفه الثانى؛ الأمر الذى تم التعامل معه بمعزل عن مسأله الفتوحات.

القسم الثالث: عصر الخليفه الثالث

اشاره

«حَتَّى إِذا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَها فِي جَماعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ فَيا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظائِرِ لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طارُوا: فَصَغا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ وَمالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ مَعَ هَنٍ وَهَنٍ، إِلَى أَنْ قامَ ثالِثُ الْقَوْمِ نافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ، وَقامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مالَ اللّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام – فی هذا القسم من خطبته – إلی انتهاء عصر الخليفه الثانی والأحداث التی مهدت السبيل أمام عثمان للاستيلاء علی الخلافه بعد أن أماط اللثام عن التفاصيل التاريخيه والأسرار التی إنطوت عليها هذه القضيه ويعلن موقفه من ذلک، ثم عرج علی المشاکل والفتن التی عاشتها الاُمّه الإسلاميه علی عهد عثمان والانتفاضه الشعبيه العارمه التی أدت إلی قتله بعبارات مقتضبه عميقه المعنی من خلال الکنايات والاستعارات والتشبيهات البلاغيه الرائعه التی طبعت کلماته وخطبه عليه السلام.

فقد قال عليه السلام: «حتی إذا مضی لسبيله جعلها فی جماعه زعم أنی أحدهم» .

و لعل قوله عليه السلام «زعم أنی أحدهم» تشير إلی معنيين: الأول: أنّه جعلنی ظاهرياً أحد أعضاء هذه الشوری بينما کان يعلم باطنياً بالنتيجه التی ستتمخض عنها ومن يفوز بالأمر.

ص:۲۳۵

الثانی: أنّه أراد أن یجعلنی ظاهریاً فی مصاف هؤلاء الخمسه، والحال کان یعلم باطنیاً عدم إمکانیه مقارنتی بأی منهم (۱).

و العباره تشیر إلی الزمان الذی جرح فیه عمر جرحاً بلیغاً من قبل ذلک الرجل الذی یدعی فیروز والمکنی بأبی لؤلؤه بعد أن رأی نفسه علی فراش الموت. فقد حضره جمع من الصحابه وأشاروا علیه باستخلاف من یرضاه، فما کان منه إلّاأن خطب خطبه - سنشیر إلی مضامینها لاحقاً - واقترح الشوری وهم:

علی علیه السلام وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وطلحه والزبیر وسعد بن أبی وقاص، علی أن یجتمعوا لثلاثه أیام ویختاروا من بینهم الخلیفه، فاجتمعوا لتتمخض نتیجه الاجتماع عن إختیار عثمان.

فقد أشار الإمام علیه السلام إلی هذه الشوری قائلاً: «فیالله وللشوری» (۲)، ثم یتطرق علیه السلام إلی اولی نقاط ضعف هذه الشوری وهی أنّه متی کان هناک من شک وترید فی أرجحیته علی الخلیفه الأول فضلا عن إقترانه بهذه النظائر «متی اعترض الریب فی مع الأول منهم حتی صرت اُقرن إلی هذه النظائر» . فالعباره تکشف عن قمه أسی الإمام علیه السلام علی هضم الحقوق الذی تعرض له، ویشیر إلی حقیقه وهی أنّهم ینبغی أن یختارونی لو أخذوا بنظر الاعتبار استحقاق الخلافه والجداره والأحقیه بها.

غیر أنّ المؤسف له أنّه کانت هناک أهداف اُخری أدت إلی جعل من کان بمنزله رسول الله صلی الله علیه و آله وباب مدینه علمه والعالم بالکتاب والسنه والعارف بأسرار المسائل الإسلامیه وبطل التوحید الذی تربی فی حجر النبی صلی الله علیه و آله فی مصاف عبدالرحمن بن عوف وسعد بن وقاص وامثالهما.

ثم أضاف علیه السلام: «لکنی اسففت إذ أسفوا وطرت إذ طاروا» (۳)قالواقع هذه کنایه بشأن

۱- ۱) ورد فی مقاییس اللغه أن «الزعم» عباره عن الکلام الذی لا واقعیه له وصاحبه لیس متأکداً منه.

۲- ۲) اللام فی لفظ الجلاله مفتوحه للاستغاثه واللام فی الشوری مکسوره وللمستغاث منه.

۳- ۳) «أسففت» من ماده «إسفاف» بمعنی إقتراب شیء من آخر ویستعمل هذا اللفظ فی الطائر إذا دنا من الأرض، کما یستعمل فی نسج الحصیر لان خیوطه تقترب من بعضها البعض الآخر، کما وردت بمعنی شده النظر (راجع مقاییس اللغه ولسان العرب) .

الطيور التى تطير عى هيئه أُسراب فتحلق أحيانا وتنخضض أُخرى إلى الأرض وفى الحركتين تكون معاً. ومن الواضح أنّ الأوضاع المزريه فى زمان الخلفاء - لاـ سيما إذا ابعد الخليفه وأقصى - تتطلب الابتعاد عن كافه أشكال الفرقه والتشتت حذراً من إستغلالها من قبل خصوم الدعوه والتأهب للاجهاض عليها. هنالك إحتمال آخر أيضا بشأن تفسير هذه العباره فى أنّ مراده منها: أنى أدور حيث مدار الحق والهث خلفه لكنى طلبت الأمر وهو موسوم بالاصاغر منهم، كما طلبته أولاً وهو موسوم بأكابرهم، أى هو حقى فلا أستنكف من طلبه، إن كان المنازغ فيه جليل القدر أو صغير المنزله ثم أشار عليه السلام إلى نتيجه تلك الشورى وأعمالها المريبه حيث تحرك أحدهم بدافع من حقده وضغينته بينما إندفع الآخر بوحى من قرابته ونسبه لينتهى الأمر إلى عثمان: «فصغا (١)رجل منهم لضغنه (٢)ومال الآخر لصهره، مع هن (٣)وهن» .

فقد قصد الإمام عليه السلام بالعباره الاولى «سعد بن أبى وقاص» الذى كان ينتمى من طرف أمه إلى بنى أميه وقد قتل أخواله وأقربائه على يد على عليه السلام فى المعارك الإسلاميه ضد الكفر والشرك، ولذلك لم يكن مستعداً لمبايعه على عليه السلام حتى فى خلافته.

و عمر بن سعد ذلك المجرم الجبار الذى قتل الحسين عليه السلام وصحبه فى كربلاء هو ابنه. وعليه فقد كانت ضغينته لعلى عليه السلام أشهر من نار على علم وهى التى جعلته لا يصوت لصالح الإمام عليه السلام، وهذا ما أدى إلى فوز عثمان بعد أن منحه رأيه بواسطه عبدالرحمن بن عوف. وقال البعض المراد به «طلحه» المفروغ من كراهيته للإمام عليه السلام وهو الذى أشعل إلى جانب الزبير حرب الجمل التى أدت حسب قول المؤرخين إلى قتل سبعه عشر ألف.

و قد قوى هذا الاحتمال ابن أبى الحديد، بينما يرى بعض شرّاح نهج البلاغه أنّ طلحه وإن رشح للشورى من قبل عمر إلّاأنّه لم يكن فى المدينه ولم يوفق لحضور جلسه الشورى (۴).

أمّا الفرد الذى مال إلى صهره فهو عبدالرحمن بن عوف زوج أُم كلثوم بنت عثمان.

۱- ۱) «صغا» من ماده «صغو» بمعنى الميل.

۲- ۲) «ضغن» على وزن ضمن بمعنى البغض والعداوه.

۳- ۳) «هن» سيأتى التفسير لا حقا.

۴- ۴) نقل الخوئى فى شرحه عن الطبرى عدم حضور طلحه فى الشورى بل فى المدينه (شرح الخوئى،۳ / ۷۳) .

وقوله علیه السلام: «مع هن وهن» (۱)، استنادا إلی أنّ المفرده «هن» کنایه عن أعمال قبیحه یکره ذکرها، فالعباره یمکن أن تکون إشاره إلی الاغراض الاُخری التی کان یطمع بها عبدالرحمن بن عوف من خلال تصویته لصالح عثمان من قبیل مد إلیه إلی بیت مال المسلمین أو التسلط علی الناس أو الاستیلاء علی الخلافه بعد عثمان أو جمیع هذه الاُمور. فالذی نستفیده من هذا الکلام أنّ الشوری قد عقدت فی أجواء متوتره، والشیء المغیب فیها إنّما کان المصالح الإسلامیه، وعلیه فمن الطبیعی الأتؤدی لضمان مصالح المسلمین، وقد أثبتت الحوادث التی وقعت علی عهد عثمان مدی الخسائر الفادحه التی تکبدها المسلمون.

ثم أشار الإمام علیه السلام إلی النتیجه النهائیه للشوری فقال: «إلی أن قام ثالث القوم نافجا (۲)حضنیه (۳)بین نثیله (۴)ومعتلفه (۵)» . ولم یقتصر هذا الأمر علی عثمان بل سار معه فی هذا النهج قرابته وبطانته «و قام معه بنو أبیه یخضمون (۶)مال الله خضمه الابل نبته الربیع» .

أمّا التعبیر بنبته الربیع للإشاره إلی أنّها نبته سائغه وطعمه سهله للحیوان فیتنا ولها بکل شره ووله. والعباره «یخضمون مال الله. . .» - وبالالتفات إلی المعنی اللغوی لخضم - تفید أنّ بنی اُمیه قد اقتحمت المیدان بکل ثقلها لتنهب بیت المال فتبتلع منه ما شاءت. وقال ابن أبی الحدید لقد سلط الخلیفه الثالث - عثمان - بنی امیه علی رقاب الناس وأغدق علیهم الأموال فقد أعطی عبد الله بن خالد أربعمأه ألف درهم، وأعطی عبدالله بن أبی سرح جمیع ما أفاء الله علیه من فتح افریقیه بالمغرب، وأعطی أبا سفیان بن حرب مائتی ألف من بیت المال، واعطی الحارث بن الحکم - زوج بنت، عائشه - مائه ألف من بیت المال، واعطی طلحه ثلاثمأه واثنین وعشرین ألف، والزبیر خمسمأه وثمانیه وتسعین دینارا، حتی بلغ ما أغدقه من

۱- ۱) صرّح علماء اللغه بان «هن» تعنی فلان وتقال حین یرید الإنسان الإشاره من بعید إلی شیء لقباحته أو لأسباب اُخری، وعاده ما تستعمل هذه المفرده فی الصفات السیئه والقبیحه ولا تستعمل فی الاُمور الحسنه.

۲- ۲) «نافجا» من ماده «نفج» علی وزن رفع بمعنی رافعا.

۳- ۳) «الحضن» ما بین الابط والکشح ونافجاً حضنیه تقال للمتکبر ولمن إمتلأ بطنه طعاماً.

۴- ۴) «نثیل» من ماده «نثل» علی وزن نسل بمعنی غائط الإنسان وروث الحیوان.

۵- ۵) «معتلف» من ماده «علف» بمعنی موضع العلف، وقد أراد بالعباره الشخص الذی همه جمع الأموال وملیء البطن وافراغها.

۶- ۶) «الخضم» أکل الشیء الرطب بتمام الفم وهی تقابل القضم التی تعنی الأکل بأطراف الأسنان، وقال البعض الخضم بمعنی أکل العلف الطری والقضم بمعنی أکل العلف الجاف.

بیت المال مئه وسته وعشرین ملیون وسبعمأه دینار.

و الأعجب من ذلک الـدنانیر التی أغـدقها علی بنی أمیه فقد منح مروان بن الحکم خمسـمأه الف دینار، ویعلی بن اُمیه خمسـمأه الف دینـار، وعبـد الرحمن بن عوف ملیونین وخمسـمأه وستین الف دینـار والمجموع أربعه ملایین وثلاثمأئه وعشـره دنانیر (۱). وهنا یتضح عمق المعنی لقوله علیه السـلام: «یخضـمون مال الله خضمه الابل نبته الربیع» . وبالطبع فان هذا الوضع لم یکن لیستمر لمدّه طویله حیث لا یسع المسلمون تحمل مثل هذه الظروف ولذلک لم تمض مدّه حتی انطلقت تلک النهضه ضد عثمان لتطیح به فی خاتمه المطاف وتقتله بمرأی ومسـمع من الاُمّه دون أن یهب أحد من المسلمین لنصرته وهذا بعینه ما أشار إلیه الإمام علیه السلام حین قال: «إلی أن انتکث (۲)علیه فتله (۳)وأجهز (۴)علیه عمله، وکبت (۵)به بطنته (۶)» .

و الواقع أنّ الإمام علیه السلام رسم بثلاث عبارات صوره واضحه کامله عن وضع الخلیفه الثالث و انتهاء أمره وقتله. فقد صور فی العباره الاولی إزالته لکافه مظاهر القدسیه والزهد التی عرفها عنه الناس لیقفوا علی مدی تکالبه علی الدنیا.

کما یصور فی العباره الثانیه سوء أعماله التی وجهت له الضـربه القاصـمه، وأخیراً تخمته وامتلاء جوفه بالطعام بالشـکل الـذی لم یتمکن معه من الوقوف علی قـدمیه حتی کب علی وجهه علی الأرض. فقـد بین الإمام علی علیه السـلام بهـذه العبارات الدروس والعبر التی ینبغی أن یقتدی بها ساسه البلدان ویضـعوها نصب أعینهم بحیث إذا إسـتغلوا مکانتهم وأقبلوا یتهافتون علی الدنیا فانّ ذلک سیؤدی إلی زوال سوابقهم الحسنه بما یعبیء الرأی العام ضدهم وبالتالی الاطاحه بهم وبحکومتهم.

جدیر بالذکر أنّ العوامل التی بلوره ظهور وانبثاق خلافه عثمان هی ذاتها التی أدّت إلی القضاء علیه، فقد دفع حب المال والثروه بعض الأفراد من قبیل سعد بن أبی وقاص

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لإبن أبی الحدید ۱ / ۱۹۸. [۱]

۲- ۲) «انتکث» من ماده «نکث» علی وزن عکس بمعنی النقض والکسر ومن هنا یقال لعدم الالتزام بالعهد نقضه.

۳- ۳) «فتل» بمعنی اللف، ومقتول وفتیله من هذا الباب.

۴- ۴) «أجهز» من ماده «إجهاز» ، تطلق علی المجروح وتفید التسریع فی الموت واتمام العمل.

۵- ۵) «کبت» من ماده «کبو» بمعنی السقوط والوقوع علی الوجه، ومن هنا یقال کبابه الجواد إذ سقط لوجهه.

۶- ۶) «بطنته» من ماده «بطن» بمعنی التخمه (ملیء الجوف الطعام أو النهم فی الأکل) .

وعبدالرحمن بن عوف وطلحه (بناء اعلى كونه حاضرا فى الشورى) لأن يضموا أصواتهم لعثمان واختياره للخلافه، وهكذا إتسعت هذه المسأله واستفحلت حتى فقد عثمان مكانته لدى الرأى العام والذى أدى بالتالى إلى ثوره الأُمّه وإطاحتها به. أمّا بعض شرّاح نهج البلاغه فقد ذهبوا إلى أنّ المراد بقوله «إنتكث عليه فتله» انهيار الاجراءات والتدابير التى مارسها لتوطيد حكومته، ولعل تفويضه بعض الأعمال والمناصب لبطانته وقرابته قد كانت ضمن تلك الإجراءات المتخذه، لكن نفس هذا الأمر قد أعطى نتائج معكوسه أسهمت فى تقويض حكومه عثمان.

تأمّلات

١- كيفيه انتخاب خليفه الثانى والثالث

نعلم أنّ الخليفه الثانى قد نصب من قبل أبى بكر الذى عهد إليه بالخلافه فى وصيته حين نزل به الموت. فقد جاء فى بعض التواريخ أنّ أبابكر أحضر عثمان - وهو يجود بنفسه - فأمره أن يكتب عهدا، وقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبوبكر إلى المسلمين، ثم أمّا بعد، ثم أُغمى عليه، فكتب عثمان: «اَما بعد فانى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب لم آلكم خيراً» . (١)

و أفاق أبوبكر فقال: إقرأ فقرأه، فكبر أبوبكر وسرب وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت فى غشيتى! قال عثمان: نعم، قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله (٢).

يتضح بجلاء من هذا الخبر أن عثمان قد خاط هذا القميص - الخلافه - لقامه عمر، ولو افترض عدم إفاقه أبى بكر لنشرت هذه الوصيه على أنّها وصيه أبى بكر. وعليه فلم هنالك من مجال للتعجب فى إقتراح عمر لتلك الشورى وبذلك التركيب الذى سوف لن يؤدى إلّاإلى استخلاف عثمان.

١- ١) «آلكم» من ماده «الا» يألو بمعنى التقصير، وعلى هذا الاساس فان «لم آلكم» يعنى لم أُقصر فى حقكم. «لسان العرب» .

٢- ٢) الكامل لابن أثير ٢ / ٤٢٥. [١]

و هو ذات الأسلوب الذى إتبعه الخليفه الثانى فى السقيفه حين مهد السبيل أمام خلافه أبى بكر، لكى يسارع هذا الأخير فيعوضه عمّا قدمه له. ويفهم ضمنيا أنّ الحيلوله دون إختلاف الأُمّه وفرقتها هى التى تقف وراء تعجيل أبى بكر وعثمان فى تعيين الخليفه. فاذا كان الأمر كذلك، فما بالك برسول الله صلى الله عليه و آله؟ ! ألم يكن من الواجب على النبى صلى الله عليه و آله أن يتكهن بهذا الأمر بالنسبه لأُمّته مع وجود تلك النزاعات والصراعات التى كشفت عن نفسها فى السقيفه؟ كيف يمكن الاعتقاد بأنّ النبى صلى الله عليه و آله قد فوض للأُمّه مسأله إنتخاب الخليفه، بينما لا يرعى هذا الأمر فى خلافه الثانى والثالث، حتى أنّ خوف الفتنه منع من تفويض الأمر للأُمّه؟ ! هذه هى الاسئله التى ينبغى لكل محقق الرد عليها.

٢- الشورى وحكومه عثمان

وصوره هذه الواقعه أنّ عمر لما طعنه أبولؤلؤه، وعلم أنّه ميت، استشار فيمن يولّيه الأمر بعده، فأشير عليه بابنه عبداللّه، فقال: لاها اللّه إذا! لايليها رجلان من وَلَد الخطاب! حسب عمر ما حُمِّل! حسب عمراً احتقب، لاها اللّه! لا أتحملها حياً وميتاً! ثم قال: إنّ رسول اللّه مات وهو راض عن هذه السته من قريش: على، وعثمان وطلحه، والزبير، وسعد، وعبدالرحمن بن عوف؛ وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم. ثم قال: إن أستَخلف فقد استخلف من هو خير منّى يعنى أبابكر وإن أترك فقد ترك من هو خير منّى يعنى رسول اللّه صلى الله عليه و آله ثم قال: ادعوهم لى، فدعوهم، فدخلوا عليه وهو مُلقى على فراشه يجود بنفسه.

فنظر إليهم، فقال: أكلّكم يطمع فى الخلافه بعدى! فوجموا، فقال لهم ثانيه، فأجابه الزّبير وقال: وما الذى يُبعدنا منها! وليتها أنت فقمت بها، ولسْنا دونك فى قريش ولافى السابقه ولا فى القرابه.

قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ: واللّه لولا علمه أنّ عمر يموت فى مجلسه ذلك لم يقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمه، ولا أن تنفّس منه بلفظه.

فقال عمر: أفلا أخبركم عن أنفسكم! قال: قل، فإنا لو استعفيناك لم تُعفنا. فقال: امّا أنت يا زبير فوعق لقس، مؤمن الرضا كافر الغضب، يوماً إنسان، ويوماً شيطان، ولعلها لو أفضت

إليک ظلت يومک تلاطم بالبطحاء على مدٍ من شعير! أفرأيت إن أفضت إليک، فليت شعرى، من يکون للناس يوم تکون شيطاناً، ومن يکون يوم تغضب! وما کان اللّه ليجمع لک أمر هذه الاُمّه، وأنت على هذه الصفه.

ثم أقبل على طلحه وکان له مبغضاً منذ قال لأبى بکر يوم وفاته ما قال فى عمر فقال له: أقول أم أسکت: قال: قل، فإنّک لا تقول من الخير شيئاً، قال: أمّا إنّى أعرفک منذ أصيبتْ إصبعک يوم اُحُد وائبا بالذى حدث لک، ولقد مات رسول اللّه صلى الله عليه و آله ساخطاً عليک بالکلمه التى قلتها يوم أنزِلت آيه الحجاب.

ثم أقبل على على عليه السلام، فقال: للّه أنت لولا دُعابه فيک! امّا واللّه لئن وليتهم لتحملنّهم على الحق الواضح، والمحجّه البيضاء.

ثم أقبل على عثمان، فقال: هيهاً إليک! کأنّى بک قد قلدتک قريش هذا الأمر لحبِّها إياک، فحملت بنى أميه وبنى أبى مُعيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفىء، فسارت إليک عصابه من ذوبان العرب، فذبحوک على فراشک ذبحاً. واللّه لئن فعلوا لتفعلنّ فعلت ليفعلنّ، ثم أخذ بناصيته، فقال: فإذا کان ذلک فاذکر قولى؛ فإنّه کائن.

ثم قال: ادعوا إلى أبا طلحه الأنصارى، فدعوه له فقال: انظر يا أبا طلحه، إذ عدتم من حُفْرتى، فکن فى خمسين رجلاً من الأنصار حاملى سيوفکم، فخذ هؤلاء النفر بإمضاء الأمر وتعجيله، واجمعهم فى بيت، وقف بأصحابک على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتّفق ثلاثه وخالف ثلاثه، فانظر الثلاثه التى فيها عبدالرحمن، فارجع إلى ما قد اتفقت عليه، فإن أصرّت الثلاثه الاُخرى على خلافها فاضرب أعناقها، وإن مضت ثلاثه أيام ولم يتفقوا على أمرٍ، فاضرب أعناق الستّه، ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم.

فلما دُفن عمر، جَمَعَم أبو طلحه، ووقف على باب البيت بالسيف فى خمسين من الأنصار، حاملى سيوفهم، ثم تکلّم القوم وتنازعوا، فأوّل ما عمل طلحه أنّه أشدهم على نفسه أنّه قد وهب حقّه من الشورى لعثمان، وذلک لعامه أنّ الناس لا يعدلون به عليّاً وعثمان، وأنّ الخلافه لا تخلص له وهذان موجودان، فأراد تقويه أمر عثمان وإضعاف جانب على عليه السلام، بهبه أمر لا انتفاع له به، ولا تمکُّن له منه.

فقال الزبير فی معارضته: وأنا أشهدكم علی نفسی أنّی قد وهبتُ حقّی من الشوری لعلیّ، وإنما فعل ذلک لأنّه لما رأی علیًّا قد ضعف وانخزل بهَبَهِ طلحه حقَّه لعثمان، دخلته حمیَّه النَّسب، لأنّه ابن عمه أمیرالمؤمنین علیه السلام، وهی صفیّه بنت عبدالمطلب، وأبوطالب خالُه. وإنّما مال طلحه إلی عثمان لانحرافه عن علی علیه السلام، باعتبار أنّه تیمی وابن عم أبی بکر، وقد کان حصل فی نفوس بنی هاشم من بنی تیم حنق شدید لأجل الخلافه، وکذلک صار فی صدور تیم علی بنی هاشم.

فممّا لا شک فیه هنالک عدّه اسئله لابدّ من طرحها بشأن هذه الشوری ومنها:

أولاً: لو کانت الضابطه فی الخلافه تکمن فی آراء الاُمّه فلم لا یرجع إلیها؟ وإن کانت الخلافه قائمه علی أساس التعیین فما معنی الشوری المرکبه من سته أعضاء وما بال إهمال سائر الشخصیات المعروفه وعدم إشراکها فی الشوری؟

ثانیاً: لقد قیل أنّ رسول الله صلی الله علیه و آله مات وهو راض عن هذه السته من قریش، فکیف التوفیق بین هذا وما صرّح بأن رسول الله صلی الله علیه و آله مات وهو ساخط علی طلحه بالثلمه التی قالها یوم اُنزلت آیه الحجاب (۱)؟

ثالثاً: لو افترض عدم تمکنهم من القیام بوظیفتهم فکیف یؤمر بضرب أعناقهم؟

رابعاً: لو کانت الشوری حقا فما معنی الوصیه بعثمان وذکره صراحه؟ ولو کان یخشی علی الاُمّه الإسلامیه من خلافته للزم عدم جعله أحد أعضاء تلک الشوری لیأتی آخر غیره؟

خامساً: إذا إنقسمت الشوری إلی قسمین فلم لا ترجح الکفه التی فیها علی علیه السلام والذی قال له عمر: أمّا والله لئن ولیتهم لتحملنهم علی الحق الواضح، والحجه البیضاء. ولیس له من إشکال علیه سوی قوله «لولا دعابه فیک» .

سادساً: وهل للدعابه من أثر سلبی علی الخلافه وهل یرقی هذا الإشکال إلی الإشکال علی عثمان بانّه إذا ولی الخلافه وسیسلط بنی اُمیه علی رقاب المسلمین فیتخذون عباد الله

---

۱ - ۱) المراد بآیه الحجاب قوله سبحانه: «فاسئلوهن من وراء حجاب» الذی نزل فی نساء النبی صلی الله علیه و آله والکلمه المذکوره أن طلحه لما أنزلت آیه الحجاب قال بمحضر ممن نقل عنه إلی رسول الله صلی الله علیه و آله: ما الذی یعنیه حجابهن الیوم، وسیموت غدا فننکحهن.

خولاً وماله دولاً؟

هذه هی الاسئله والإستفسارات التی لیست لها من إجابه.

۳- أسباب الخروج علی عثمان

و یجب أن نذکُر فی هذا الموضع ابتداء اضطراب الأمر علی عثمان إلی أن قُتِل.

و أصح ما ذکر فی ذلک ما أورده أبوجعفر محمد بن جریر الطبری فی «التاریخ» (۱).

و خلاصه ذلک أنّ عثمان أحدث أحداثاً مشهوره نَقِمَها النّاس علیه، من تأمیر بنی أمیّه، ولا سیّما الفساق منهم وأربابُ السَّفه وقلّه الدّین، واخراج مال الفیء إلیهم، وما جری فی أمر عمّار وأبی ذر وعبداللّه بن مسعود، وغیر ذلک من الأُمور التی جرت فی أواخر خلافته. ثم اتفق إنّ الولید بن عُقبه لمّا کان عامله علی الکوفه وشهد علیه بشرب الخمر، صرفه وولیّ سعید بن العاص مکانه، فقدم سعید الکوفه، استخلص من أهلها قوماً یسمرون عنده، فقال سعید یوماً: إنّ السواد بستان لقُریش وبنی أمیه. فقال الأشتر النخعی: وتزعم أنّ السواد الذی أفاءه اللّه علی المسلمین بأسیافنا بستان لک لقومک! فقال صاحب شرطته: أتردّ علی الأمیر مقالته! وأغلظ له، فقال الأشتر لمن کان حوله من النَّخع وغیرهم من أشراف الکوفه: ألا تسمعون! فوثبوا علیه بحضره سعید فوطئوه وطأ عنیفاً، وجرّول برجله، فغلظ ذلک علی سعید، أبعد سُمّاره فلم یأذن بعد لهم، فجعلوا یشتمون سعیداً فی مجالسهم، ثم تعدّوا ذلک إلی عثمان فی أمرهم، فکتب إلیه أن یسیرهم إلی الشام؛ لئلاّ یفسدوا أهل الکوفه، وکتب إلی معاویه وهو وإلی الشام: إنّ نفراً من أهل الکوفه قد همّوا بإثاره الفتنه، وقد سیرتهم إلیک، فانهم؛ فإن آنست منهم رشداً فأحسن إلیهم، وارددهم إلی بلادهم.

ثم إن سعید بن العاص قدم علی عثمان سنه إحدی عشره من خلافته. فلما دخل المدینه اجتمع قومٌ من الصحابه، فذکروا سعیداً وأعماله، وذکروا قرابات عثمان وما سوّغهم من مال المسلمین، وعابوا أفعال عثمان، فأرسلو إلیه عامر بن عبد القیس وکان متألها (۲)، واسم أبیه

۱- ۱) فی حوادث ۳۳ ۳۵، مع تصرف واختصار فی جمیع ما أورده فی هذا الفصل (۹ نهج ۲) .

۲- ۲) المتألّه: المتعبد المتنسک.

عبداللّه، وهو من تميم، ثم من بنى العنبر فدخل على عثمان، فقال له: إنّ ناساً من الصحابه اجتمعوا ونظروا فى أعمالك، فوجدوك قد ركبت اُموراً عظاماً، فاتق اللّه وتب إليه.

فأخرجه عثمان، وأرسل إلى عبداللّه بن سعد بن أبى سرح، وإلى معاويه وسعيد ابن العاص وعمرو بن العاص وعبيداللّه بن عامر وكان قد استقدم الأمراء من أعمالهم فشاورهم، وقال: إن لكل أمير وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلىّ أن أعزل عمّالى، وأن أرجع عن جميع مايكرهون إلى مايحبون، فاجتهدوا رأيكم.

فقال عبداللّه بن عامر: أرى لك ياأميرالمؤمنين أن تشغلهم عنك بالجهاد حتى يذلّوا لك، ولا تكون همه أحدهم إلّافى نفسه، وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته.

فقال عثمان: إنّ هذا لهو الرأى لولا مافيه.

ثم كاتب عمّاله واستقدمهم، فلما قدموا عليه جمعهم، وقال: ما شكايهُ الناس منكم؟ إنّى لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يعصب هذا الأمر إلّابى. فقالو له: واللّه ما صدق من رفع إليك ولا بر، ولا نعلم لهذا الأمر أصلا. فقال عثمان: فأشيروا علىّ، فقال سعيد بن العاص: هذه اُمور مصنوعه تلقى فى السر فيتحدث بها الناس، ودواء ذلك السيف.

وروى محمد بن عمر الواقدى رحمه اللّه تعالى، قال: لما أجلب الناس على عثمان، وكثرت الفاله فيه، خرج ناس من مصر؛ منهم عبدالرحمن عديس البوى، وكنانه بن بشر الليثى، وسودان بن حمران السكونى، وقتيره بن وهب السكسكى؛ وعليهم جميعاً أبوحرب الغافقى، وكانوا فى ألفين. وخرج ناس من الكوفه، منهم زيد بن صوحان العبدى، ومالك الأشتر النخعى، وزياد بن النضر الحارثى، وعبداللّه بن الأصم الغامدى، فى ألفين. وخرج ناس من أهل البصره. منهم حكيم بن جبله العبدى، وجماعه من أمرائهم، وعليهم حرقوص بن زهير السعدى؛ وذلك فى شوال من سنه خمس وثلاثين، وأظهروا أنّهم يريدون الحج. فلما كانوا من المدينه على ثلاث، تقدم أهل البصره، فنزلوا ذاخشب وكان هواهم فى طلحه. وتقدم أهل الكوفه، فنزلوا الأعوص وكان هواهم فى الزبير. وجاء أهل مصر فنزلوا المروه وكان هواهم فى على عليه السلام. ودخل ناس منهم إلى المدينه يخبرون ما فى قلوب الناس لعثمان، فلقوا جماعه من المهاجرين والأنصار، ولقوا أزواج النبى صلى اللّه عليه وآله، وقالوا: إنّما نريد الحج، ونستعفى

من عمالنا.

وخرج عثمان يوم الجمعه، فصلى بالناس، وقام على المنبر، فقال: ياهؤلاء، اللّه اللّه؛ فواللّه إن أهل المدينه يعلمون أنّكم ملعونون على لسان محمد صلى اللّه عليه، فامحوا الخطأ بالصواب.

وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه؛ فأدخل داره؛ واستقتل نفر من أهل المدينه مع عثمان؛ منهم سعد بن أبى وقاص، والحسن بن على عليه السلام، وزيد بن ثابت، وأبو هريره؛ فأرسل إليهم عثمان: عزمت عليكم أن تنصرفوا؛ فانصرفوا.

وأقبل على وطلحه والزبير، فدخلوا على عثمان يعودنه من صرعته، ويشكون إليه ما يجدون لأجله؛ وعند عثمان نفر من بين أميه، منهم مروان بن الحكم، فقالوا لعلى عليه السلام: أهلكتنا وصنعت هذا الذى صنعت! واللّه إن بلغت هذا الأمر الذى تريده لتمرن عليك الدنيا؛ فقام مغضباً، وخرج الجماعه الذين حضروا معه إلى منازلهم.

وروى المدائنى، قال: كان عثمان محصوراً محاطاًبه، وهو يصلى بالناس فى المسجد، وأهل مصر والكوفه والبصره الحاضرون له يصلون خلفه، وهم أدق فى عينه من التراب.

وروى الكلبى والواقدى والمدائنى: أن محمد بن أبى بكر، ومحمد بن أبى حذيفه كانا بمصر يحرضان الناس على عثمان، فسار محمد بن أبى بكر مع من سار إلى عثمان، وأرقام محمد بن أبى حذيفه بمصر، ثم غلب عليها لما سار عبداللّه بن سعد بن أبى سرح عامل عثمان عنها إلى المدينه فى أثر المصريين، بإذن عثمان له، فلما كان بأيله، بلغه أن المصريين قد أحاطوا بعثمان وأنّه مقتول، وأن محمد بن أبى حذيفه قد غلب على مصر، فعاد عبداللّه إلى مصر، فمنع عنها، فأتى فلسطين، فأقام بها حتى قتل عثمان. (۱)

۴- هل سار جميع الصحابه على نهج النبى صلى الله عليه و آله

المعروف بين أوساط الاخوه من أبناء العامه أنّ لصحابه رسول الله صلى الله عليه و آله - دون إستثناء - قدسيه وعداله وأنّ أحدا منهم لم يؤتى بما يخالف ما أمر به الله فى الكتاب والسنه، بينما تعتقد الشيعه من أتباع مدرسه أهل البيت عليهم السلام أنّ الصحابه ليست سواسيه ولها رأى بكل صحابى بما

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لإبن أبى الحديد ۲ / ۱۴۳. [۱]

ينسجم وسلوكه سواء على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله أو بعد وفاته.

و لاشک أنّ الاعتقاد السائد لدى الاخوه السنه بشأن الصحابه قد قادهم إلى مشاكل كثيره؛ وذلک لانّ هنالک من الصحابه ممن إختلفوا فيما بينم إلى حد الاقتتال. فيكف يمكن تبرير تلک العقيده التى تتضمن عدالتهم وقدسيتهم. على سبيل المثال موقعه صفين التى قام فيها معاويه ضد إمام زمانه بما أدى إلى اراقه تلک الدماء، فهل هناک مورخ نزيه يمكنه توجيه ذلک العمل؟ ! أو الدماء التى سفكت فى معركه الجمل التى قادها طلحه والزبير ضد الإمام على عليه السلام بعد أن نكثا بيعته حتى قيل أن عدد القتلى بلغ أكثر من سبعه عشر الف قتيل، فهل لهما من عداله بعد تلک الفجائع التى ارتكبت بحق المسلمين وخروجها على الإمام عليه السلام؟ !

أمّا بشأن عثمان وكما مرّ معنا وعلى ضوء إجماع كافه مؤرخى الإسلام فانّنا نصطدم بموضوعين مهمين: الأول اغداقه المناصب الحساسه على بنى اُميه وتسليطهم على رقاب المسلمين ومن أولئک الذين عرفوا بفسقهم ومجونهم حتى تعالت عليهم أصوات المسلمين من كل حدب وصوب، والآخر نهب أموال بيت المال واغداقها دون حساب على هذا وذاک بالشكل الذى آثار حفيظه الاُمّه وأجج مشاعرها للغضب والثوره عليه.

فهل من إنسجام بين هذه الأعمال والخطوط العامه للقداسه وتنزيه الصحابه؟ ! فلو كان هنالک من تبرير لمثل هذه الأعمال فهل ستبقى هنالک من أعمال يمكن إدانتها؟ !

لقد ذكرنى هذا الكلام بقصه عجيبه وقعت لى ولا يسعنى نسيانها أبدا. فقد تشرفت احدى السنوات بزياره مكه لاداء العمره وقد سنحت لى الفرصه لان ألتقى بعض علماء العامه – ولا سيما أثناء الليالى فى المسجد الحرام وبين صلاتى المغرب والعشاء التى كانت فرصه مناسبه – فى احدى الليالى (طبعا كان البعض منهم من مشاهير علماء العامه) .

و فى المسجد الحرام وسعينا لان نبقى على الأبحاث تعيش أجواء المنطق والعلم والاستدلال والبرهان وابعادها عن عناصر العداء والكراهيه وجرح المشاعر. وقد جرنا الكلام إلى الحديث عن «تنزيه الصحابه وعدالتهم» فكانوا يعتقدون جميعهم بعدم إمكانيه جرأه أحد على توجيه أدنى تهمه إليهم. فسألت أحدهم: «لو شهدت صفين حيث معسكر على عليه السلام معسكر معاويه، فمع من كنت تقاتل» ؟ فاجاب من فوره: مع معسكر على عليه السلام.

فقلت: لو أعطاك علياً عليه السلام سيفاً وقال لك: «خذ هذا واقتل معاويه فهل كنت تمتثل أمره؟» هنا أجاب إجابه عجيبه لا أظنكم تتصورنها، فقد قال: «كنت أقتله ولا أذكره بسوء» نعم قضيه تنزيه الصحابه قصه ذات شجون ولا يسعنى الخوض فى كافه تفاصيلها.

ص:۲۴۸

القسم الرابع

اشاره

«فَما راعَنِی إلاَّ وَالنّاسُ کَعُرْفِ الضَّبُعِ إلَیَّ یَنْثالُونَ عَلَیَّ مِنْ کُلِّ جانِبٍ حَتَّی لَقَدْ وُطِیءَ الْحَسَنانِ، وَشُقَّ عِطْفایَ، مُجْتَمِعِینَ حَوْلِی کَرَبِیضَهِ الْغَنَمِ فَلَمّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَکَثَتْ طائِفَهٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَی، وَقَسَطَ آخَرُونَ، کَأَنَّهُمْ لَمْ یَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحانَهُ یَقُولُ: «تِلْکَ الدّارُ الْآخِرَهُ نَجْعَلُها لِلَّذِینَ لا یُرِیدُونَ عُلُوًّا فِی الْأَرْضِ وَلا فَساداً، وَالْعاقِبَهُ لِلْمُتَّقِینَ» ، بَلَی! وَاللّهِ لَقَدْ سَمِعُوها وَوَعَوْها، وَلَکِنَّهُمْ حَلِیَتِ الدُّنْیا فِی أَعْیُنِهِمْ وَراقَهُمْ زِبْرِجُها» .

الشرح والتفسیر

أشار الإمام علیه السلام فی هذه الخطبه إلی عصر خلافته ولا سیما أبان البیعه التی شهدت حضوراً خارقاً للاُمّه فی مبا یعته والوقوف إلی جانبه، البیعه الفریده التی لم یعرف التأریخ الإسلامی لها من نظیر، غیر أنّ عدداً کثیراً لما جوبه بعداله الإمام علیه السلام وتنمره فی الحق قد إنفرجوا عنه وهبوا لمخالفته وبالتالی أججوا نیران الحرب «الجمل وصفین والنهروان» وشقوا صفوف المسلمین وحالوا دون تتویج جهود الإمام علیه السلام ومساعیه فی النهوض بالمجتمع الإسلامی والأخذ بیده إلی السمو والتکامل.

فقد وصف علیه السلام بادیء ذی بدء کیفیه إقبال الناس علیه وهجومهم من أجل البیعه قائلاً: «فما راعنی (۱)إلّاوالناس کعرف (۲)الضبع (۳)إلیّ ینثالون (۴)علیّ من کل جانب» فالتعبیر بعرف

۱- ۱) «راعنی» من ماده «روح» علی وزن نوع بمعنی الخوف و الخشیه و الفلق کما وردت بمعنی الدهشه والذهول.

۲- ۲) «عرف» بمعنی الکثره والازدهام و من هنا یطلق علی شعر عنق الضبع.

۳- ۳) «ضبع» له ثلاثه معان، الحیوان المعروف و أحدا أعضاء الانسان (العضد) والثالث أنه أحد صفات الناقه. و قد تکون کنایه عن سنین القحط التی تهجم علی الانسان.

۴- ۴) «ینثالون» من ماده «ثول» علی وزن قول بمعنی ازدحام زنابیر العسل حین تجتمع و تروح و تجیء ثم اطلقت علی کل ازدحام یتخلله ذهاب و ایاب (مقاییس اللغه و الصحاح و لسان العرب) .

الضبع إشاره إلى الازدحام الشديد للناس واندفاعهم لمبايعه الإمام عليه السلام فهو مثل يضرب للكثره والازدحام.

أمّا قلقه من الهجوم المفاجىء للناس من أجل البيعه فلعله يعزى إلى أنّ مثل هذه البيعه الحماسيه من شأنها أن تقلد الإمام عليه السلام مسؤوليه جديده ولا سيما أنّه كان يتوقع نقض البيعه من قبل اُولئك الذين يتهافتون على الدنيا وحطامها، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بوضوح فى الخطبه ۹۲ حيث قال: «دعونى والتمسوا غيرى، فانا مستقبلون أمراله وجوه وألوان، لاتقوم له القلوب، ولا تثبت عيه العقول، وان الافاق قد أغامت والمحجه قد تنكرت، واعلموا أنّى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً، خيرلكم منى أميرا» .

أضف إلى ذلك كان يشعر بالقلق من جهه اُخرى وهى أن تشير إليه أصابع الاتهام من قبل المنافقين وخصوم الدعوه بقتل عثمان. ثم يخوض الإمام عليه السلام فى عمق ذلك الازدحام والانهيال عليه بالبيعه فقال عليه السلام: «حتى لقد وطىء الحسنان، وشق عطفاى، مجتمعين حولى كربيضه الغنم» .

و يرى أغلب شرّاح نهج البلاغه أنّ المراد بالحسنين هما الإمام الحسن والحسين عليهما السلام. فقد كان الإمامان عليهما السلام فى عنفوان شبابهما إلّاأنّ الهجوم الشعبى العام قد جعلهما فى موقع حرج فى الحفاظ على والدهما. بينما ذكر بعض الشرّاح احتمالين آخرين؛ الأول أن يكون المراد اصبعى الرجل البارزين - كما روى ذلك عن الشريف الرضى رحمه الله - نقلا عن بعض اللغويين (أبى عمر) و قد استدلوا على ذلك باشعار العرب، إلّاأنّ هذا المعنى يبدو مستبعداً لانّ وطىء اصبعى الرجل قضيه عاديه تحصل عند أدنى زحام ولا يمكنها أن تعكس ذلك الهجوم العظيم.

والأبعد من ذلك التفسير الثالث الذى أورده البعض على أنّ المراد بها عظمى اليد وذلك

لتعذر وطىء إصبعى اليد عاده سواء عظمى العضد أو الساعد، ولا يوطئان إلّاحين يقع الإنسان على الأرض.

أمّا تشبيهم بربيضه الغنم فهو لا يرمز إلى جهل الناس كما فسره بعض الشارحين، بل يتضمن إشاره إلى ما أوردناه سابقاً حيث يرمز إلى لو إذ الغنم بالراعى كلواذها بالمرعى حين تتعرض لهجوم الذئاب.

فالمسلمون الذين تفرقوا هنا وهناك إثر الهجوم الذى تعرضوا له من قبل ذؤبان عصر الخليفه الثالث وتفككت عرى الوحده بينهم قد رأوا فى الإمام عليه السلام حلقه الوصل فاندفعوا إليه بلهفه ليتجمهروا حوله ويشعروا بالسكينه والاستقرار. غير أنّ المؤسف هو أنّ الاندفاع لم يكتب له الدوام حين عرضوا للاختبار لتفشل فيه طوائف من المسلمين، وهذا ما صوره الإمام على عليه السلام إذ قال: «فلما نهضت بالأمر نكثت طائفه، ومرقت (١)اُخرى، وقسط (٢)آخرون» .

و قد أجمع أغلب شرّاح نهج البلاغه على أنّ المراد بهم أصحاب الجمل والنهروان وصفين فقد ذكروا أنّ أصحاب معركه الجمل (هم طلحه والزبير الذين استغلا وجود عائشه لتأليب الناس ضد أمير المؤمنين) الذين نقضوا البيعه هم «الناكثين» فقد بايعا علياً عليه السلام وهما يطمعان بالخلاصه فلما لم يتمّ لهما ذلك قدما البصره وبثا بذور الشقاق والفرقه.

و «المارقين» هم أصحاب النهروان ويراد بهم الخوارج الذى خرجوا على الإمام عليه السلام وهبوا لقتاله بعد قضيه التحكيم فى صفين. وهم من وصفوا بالمروق عن الدين كمروق السهم من الرميه. فى إشاره إلى أنّهم قد كانوا على الحق إلّاأنّ تعصبهم الأعمى وجهلهم وحبهم لذاتهم قد أمرقهم من ذلك الحق. و «القاسطين» هم أهل الشام جيش معاويه، حيث وردت مفرده

١- ١) «مرق» من ماده «مروق» على وزن غروب بمعنى الخروج من الشىء حيث تستعمل فى خروج السهم - ويقول صاحب صحاح اللغه ولسان العرب - المراد به المرور من الهدف واصابه طرفه ومن هنا سمى الخوارج ب «المارقين» لانهم كانوا جماعه مفرطه متعصبه رأت نفسها أكثر إسلاميه من أمير المؤمنين على عليه السلام.

٢- ٢) «قسط،» وردت أحيانا بمعنى الظلم والعدول عن الحق ولذلك يقال قسط على وزن فقط للأفراد الذين إعوجت أرجلهم، كما وردت بمعنى العدل. قال الراغب فى المفردات القسط بمعنى السهم والنصيب فاذا أخذ سهم شخصى قيل له قسط وهذا مصداق الظلم، واقساط تعنى دفع سهم الآخر وهذا عين العداله. وعليه فالمعنيان يعودان الى ماده واحده فقد صرّح صاحب لسان العرب أنّه جاء فى حديث على عليه السلام قال: «اُمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين» واضاف صاحب لسان العرب «و القاسطون أهل صفين» .

القسط بمعنى العدل إلى جانب ورودها بمعنى الظلم والطغيان والفسق.

و الجدير بالذكر هنا أنّ هذه التسميات لهذه الفئات الثلاث - وعلى ضوء المصادر الإسلاميه - ممّا صرّحت بها الأحاديث النبويه الشريفه.

فقد روى الحاكم النيسابورى فى مستدرك الصحيحين عن أبى أيوب الأنصارى أنّه قال: «أمر رسول الله صلى الله عليه و آله على بن أبى طالب بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين» (۱).

كما ورد هذا المعنى فى تلخيص المستدرك للذهبى (۲). ووردت هذه الروايه فى كتاب أُسد الغابه فى شرح سيره الإمام على عليه السلام (۳).

بينما وردت هذه الروايه مفصله فى تاريخ بغداد، حيث جاء عن أبى أيوب الانصارى أنّه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه و آله بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين فى ركاب على عليه السلام. أمّا الناكثين فقد قاتلناهم وهم - أصحاب الجمل - طلحه والزبير، وأمّا القاسطين فهم من عندنا الآن من عندهم؛ أى معاويه وعمرو بن العاص (لقد قال ذلك حين عاد من صفين) وأمّا المارقين فهم أصحاب النهروان، والله لا أعلم أين هم إلّاأننى أعلم بأناسنقاتلهم» (۴)

و الحق انّ هذا جواب قاطع لأُولئك الجهال الذين لم تحسم لديهم الحروب التى وقعت إبان خلافه على عليه السلام.

نعم فأُولئك الذين تهافتوا فى بادى الأمر على على عليه السلام من أجل البيعه لم يطيقوا تحمل عدالته وشدته فى الحق؛ ولا سيما ممارسته للعداله التى أوشكت أن تموت بعد تلك المدّه الطويله التى شهدت إنعدامها وقد تمثل ابسط مظاهرها فى التطاول على بيت المال وسلبه ونهبه الذى أقدم عليه الكثيرون فانى لهم بتحملها، ولذلك لم تصمد معه إلّاثله معدوده التزمت بعهودها بينما إنفرج عنه الأعم الأغلب ممن بايعوه؛ الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى خطبته فقال: «كأنّهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه يقول: «تِلْكَ الدّارُ الآخِرَهُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً

۱- ۱) مستدرك الصحيحين ۳ / ۱۳۹ (طبعه دار المعرفه) .

۲- ۲) لقد طبع هذا الكتاب فى ذيل المستدرك (المجلد السابق والصفحه السابقه) .

۳- ۳) اسد الغابه ۴ / ۳۳.

۴- ۴) تاريخ بغداد ۱۳ /۱۸۷ ([۱]طبعه دار الكفر) .

فِی الأرْضِ وَلا فَساداً وَالعاقِبَهُ لِلْمُتَّقِینَ» . (۱)

ثم أضاف علیه السلام: «والله لقد سمعوها ووعوها (۲)ولکنهم حلیت الدنیا فی أعینهم، وراقهم (۳)زبرجها (۴)» (۵).

فالإمام علیه السلام یشبههم فی البدایه بالجهال الذین دفعهم جهلهم لمخالفته، ثم ینتقل فی المرحله اللاحقه لیصفهم بأنّهم سمعوا هذه الأخبار والحقائق ووعوها وهی لیست خافیه علیهم، إلّاأنّ حب الدنیا والتکالب علی حطامها والاغترار بزبرجها - ولا سیما بعد الفتوحات الإسلامیه الکبری التی جرت علیهم ما لا یحصی من الغنائم النفیسه والتعود علی الحیاه الوادعه المرفههخاصه تلک التی ظهرت أبان خلافه عثمان - جعلتهم یؤثرون الدنیا علی الدین ویبیعون الحقیقه بالخرافه ویضحون بالدار الآخره ویزهدون فیها.

فالعبارات التی أوردها الإمام علیه السلام هی فی الواقع عصاره التحلیلات بشأن نشوب المعارک الثلاث فی عهد الإمام علیه السلام؛ الأمر الذی یعتبر درسا لجمیع المسلمین علی مدی التاریخ فی أنّهم یعیشون الفرقه والتشتت وتمزق عری الوحده کلما أقبلوا علی الدنیا واغتروا بزخارفها وزبرجها، فلیس لهم من سبیل سوی الورع والتقوی والزهد بغیه الثبات علی الطریق. ونشاهد الیوم بکل وضوح أنّ الاختلافات السائده فی أوساط المسلمین إنّما تعزی لما بینه الإمام علیه السلام وأو جزته الآیه القرآنیه الشریفه: «تلک الدار الآخره نجعلها للذین لا یریدون علوا

۱- ۱) سوره القصص / ۸۳. [۱]

۲- ۲) «وعوها» من ماده «وعی» علی وزن نفی، قال صاحب المقاییس تغنی صنم الشیء إلی آخر، وقال صاحب المفردات تعنی حفظ الحدیث وما شابه ذلک (وکلاهما بمعنی واحد) .

۳- ۳) «راق» من ماده «روق» -حسب المقاییس -بمعنی تقدم شیء علی آخر و تأتی أحیانا بمعنی الحسن والجمال ومن هنا یصطلح بالرواق علی مقدمه البیت أو الاضرحه المقدسه و قد جاءت هنا بمعنی الحسن والجمال.

۴- ۴) «زبرج» بمعنی الزینه والذهب کما تأتی بمعنی نقوش القماش.

۵- ۵) یتضح بجلاء أنّ الضمائر فی هذه العباره والعبارات السابقه إنّما یعود إلی الفرق الثلاث الناکثین والمارقین والقاسطین التی أُشیر إلیها فی العباره السابقه، بینما یرجح المرحوم العلّامه المجلسی فی البحار أنّ هذه الضمائر إنّما تعود إلی الخلفاء الثلاث، غیر أنّ هذا الاحتمال یبدو مستبعداً. ولعل هذا هو الذی دفع المرحوم المجلسی لان یختتم کلامه باحتمال رجوع الضمائر إلی کافه من أشارت إلیهم الخطبه.

فی الأرض ولا فسادا والعاقبه للمتقین» .

فالعلو فی الأرض والفساد والتکالب علی الدنیا وحطامها هما أساس الفرقه والاختلاف و التشتت فی المجتمعات الإسلامیه.

تأمّلات

۱- البیعه الشعبیه لأمیر المؤمنین علیه السلام

إنّها البیعه التی لا یمکن مقارنتها بتلک التی حدثت مع الخلفاء الثلاث.

کانت بیعه عفویه شعبیه عامه بعیده عن البرمجه والتخطیط، بل نابعه من أعماق الاُمّه المستضعفه التی ذاقت الظلم والاضطهاد، فهی لیست کبیعه السقیفه التی مثل إتخاذ القرار فیها بعض الأفراد لترى الاُمّه نفسها أمام نتیجه حسمت سابقاً، وهی لیست کبیعه عمر التی اُسندت بطولتها لفرد واحد هو الخلیفه الأول، وأخیراً لیست کبیعه عثمان التی استندت للشورى السداسیه وعلی ضوء الترکیبه التی شکلها عمر.

بل هی بیعه واقعیه وحقیقیقه جردت ماسواها من إنتحال هذا الاسم بعد أن برمجت وخططت بهذه الکیفیه.

فقد ذکر بعض شرّاح نهج البلاغه أنّ الثوار الذین أودوا بحیاه عثمان إتجهوا صوب الإمام علی علیه السلام لیبایعوه علی الخلافه، فلم یجبهم فلما أصروا علیه، خاطبهم قائلاً: «أنا لکم وزیراً خیر منی امیراً» .

حیث کان یعلم علیه السلام بأنّ سبقت هؤلاء فی البیعه سیثیر تهمه مفادها أنّ عثمان قتل مع سبق الاصرار والترصد طبق خطه مدروسه.

أضف إلی ذلک فلو بایعوه، لزعم البعض أنّ قتله عثمان فقط هم الذین بسطوا له أیدیهم بالبیعه، وناهیک عمّا تقدم فانّ الإمام علیه السلام کان یتوسم فیهم عدم القدره علی إحتمال الحق؛ نعم فالحق ثقیل وبیء، إلّاأنّ الإمام علیه السلام فوجیء بتقاطر المهاجرین والانصار الذین اصروا علیه بقبول الخلافه.

فلم یکن له من سبیل سوی قبولها، فارتقی المنبر علیه السلام لتندفع إلیه الاُمّه زرافات ووحدانا وهی تعلن بیعتها له، ولم یشذ منها سوی النزر الیسیر من قبیل سعد بن أبی وقاص وعبدالله

بن عمر ولم يجبر هم الإمام عليه السلام على مبايعته (۱).

إننا نعتقد وعلى ضوء المصادر الإسلاميه المعتبره أنّ النبى صلى الله عليه و آله قد إستخلف علياً عليه السلام بأمر الله، ولم يقتصر ذلك على «غدير خم» بل أكده النبى صلى الله عليه و آله فى عدّه مواضع ومناسبات، ورغم مخالفه البعض - لاسباب لايسعنا المجال إلى الخوض فى تفاصيلها - بعد رحيل النبى صلى الله عليه و آله مع ذلك فما أن قتل عثمان حتى تدفقت الاُمّه بشكل عجيب على الإمام عليه السلام وهى تعلن عن تظامنها ودعمها واسنادها للإمام عليه السلام؛ الدعم الذى لم تشهده النظم الديمقراطيه طيله تجاربها، بل قل نظيرها سوى بعض النماذج التى حصلت على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله كبيعه الشجره.

و ممّا لا شك فيه أنّ تلك البيعه إنّما كانت تنبع من معرفه الاُمّه بمنزله على عليه السلام وسعه علومه ومعارفه ومدى ورعه وتقواه وزهده وادارته الناجعه التى لم يكن فيها من مكان للتيارات والتحزبات، فقد كانت من العفويه والإنسيابيه بحيث سلبت زمام المبادره من الخصوم لتجعلهم يعيشون حاله الدهشه اُمام عمل تم ولا سبيل إلى الرجعه منه، ولو تركوا الاُمّه وحالها وتخلوا عن مؤامراتهم وغدرهم لنهض ذلك المجتمع نهضات ولعاش الاطروحه التى حملها له القرآن والمتمثله بقيام مجتمع الحريه والعداله.

و سنرى لاحقا أنّ هذه العناصر المشبوهه العثمانيه التى تطاولت على بيت أموال المسلمين وردت الميدان السياسى لتعبث الناس وتتلاعب بمشاعرها الدينيه وتقودها فى خاتمه المطاف إلى إشعال نيران الجمل وصفين والنهروان وتسدد تلك الضربات الموجعه للإسلام والمسيره الإسلاميه.

۲- مصدر الانحرافات الاجتماعيه

يعتبر الإمام عليه السلام - فى هذه الخطبه - أنّ العامل الأصلى الذى يقف وراء الانحراف عن الحق فى عصره (و فى كل العصور) إنّما يكمن فى حب الدنيا والاغترار بزخرفها وزبرجها الذى أجج نار حروب الجمل وصفين والنهروان، ثم يؤكد عليه السلام على الآيه الشريفه التى تصرح بأن الآخره

۱- ۱) فى ظلال نهج البلاغه ۱ / ۹۶.

من نصيب اُولئک الذين لا يريدون علوا فی الأرض ولا فسادا. فهذه العبارات القصيره إنّما تکشف عن حقائق مهمّه تلمس آثارها علی مدی التاريخ.

فالاطماع هی أساس الحروب والنزاعات الدمويه، والاهواء والفساد فی الأرض هو العنصر الرئيسی الذی يقف وراء الفوضی والهرج والمرج ومن هنا فاذا لم تجابه هذه العادات الشيطانيه بالإيمان والاعتقاد الراسخ فلا مناص من نشوب هذه الحروب الفتاکه وانعدام العداله وسياده الفوضی والقلق والاضطراب، بل ستبرز هناک العناصر التی تتلاعب بالقيم الإنسانيه والمفاهيم الأخلاقيه وسائر الاُصول من قبيل الحريه وحقوق الإنسان لتسخرها من أجل تحقيق أهدافها وأطماعها.

والذی يجدر ذکره أنّ الإمام عليه السلام يتحدث عن أولئک الذين تتضارب عقائدهم مع أعمالهم، ويبدو أنّهم مسلمون حيث سمعواالآيات القرآنيه ومنها «تلک الدار الآخره. . .» .

و آمنوا بها، غير أنّ دعائم إيمانهم قد تزعزعت وتفککت بفعل دوافعهم التی شدتهم إلی الدنيا والتکالب علی زخارفها والاغترار بزبرجها، وهذه هی النتيجه الطبيعيه لکل اُولئک الذين يؤثرون دنياهم علی دينهم.

۳- المعارک الثلاث علی عهد الإمام علی عليه السلام

لقد تضمنت خطبته عليه السلام إشاره إلی المعارک الثلاث: الجمل، وصفين والنهروان التی اُشعلت من قبل الناکثين والقاسطين والمارقين. وسنشير هنا إلی هذه المعارک بصوره مختصره:

أ - معرکه الجمل

لم تمر علی بيعه امير المؤمنين عليه السلام أکثر من ثلاثه أشهر حتی ضاقت طوائف من المستکبرين ذرعا بعداله الإمام عليه السلام ولم تطق تحمله فهبت لمخالفته. معاويه من جانبه أعلن فی الشام عن عدم استعداده لمبايعه علی عليه السلام ثم تأهب للقتال. فکتب الإمام عليه السلام رسائل إلی ولاته علی الکوفهالبصره ومصر ليجهزوا الجيش من أجل مقاتله معاويه. . . فی هذه الاثناء هم طلحهالزبير بالسفر إلی مکه بذريعه أداء العمره.

فالتقيا فی مکه عائشه التی کانت متذمره من مبايعه علی عليه السلام فانضمت إليهما واتجهوا إلی

البصره لنصره عثمان. وبالطبع فانّ كافه القرائن تشير إلى أنّ هؤلاء لم يكونوا يطالبون بدم عثمان، ولم يكن لهم من تعصب للإسلام؛ قتله عثمان لم يكونوا فى البصره، أضف إلى ذلك فان نصره عثمان لا تستلزم مخالفه أمير المؤمنين على عليه السلام، ناهيك عن أنّ طلحه من قاده الثوره على عثمان.

و واضح أنّ هدف هؤلاء من نقض بيعتهم لعلى عليه السلام هو عدم حصولهم على المناصب التى كانوا يحلمون بها. وأخيراً تمكن طلحه والزبير مع عائشه فى شهر ربيع الثانى عام ۳۶ ه بالمكر و الخداع من الاستيلاء على البصره ثم أخذوا لأنفسهم البيعه من الناس حيث سددوا أولى ضرباتهم لوحده الأُمّه الإسلاميه.

الإمام عليه السلام بدوره لما كان عالماً بهذا الأمر أنفذ جيشه الذى جهزه لقتال معاويه نحو البصره ثم كتب رساله لعامله على الكوفه «أبو موسى الأشعرى» يطلب منه تعزيز الجيش - ورغم أنّ أبا موسى لم يرد بالا يجاب على رساله الإمام إلّاأنّه انفذ جيشاً قوامه تسعه آلاف مقاتل إلى الكوفه - وفى جمادى الآخره التحم الجيشان، وطبق نقل «تاريخ اليعقوبى» فانّ المعركه استغرقت أربع ساعات هزم فيها جيش طلحه والزبير، فانبرت عائشه لتعبئه أهل البصره فركبت الجمل ومن هنا سميت هذه المعركه بمعركه الجمل؛ وقد أبدى الجيش الذى تمحور حول الجمل مقاومه عنيفه.

فنادى الإمام عليه السلام: «إعقروا الجمل» فلما عقر الجمل إنتهت المعركه حيث قتل طلحه والزبير (فقد قتل طلحه فى الميدان على يد مروان، بينما فر الزبير ليقتل خارج ميدان المعركه) فسرح الإمام عليه السلام عائشه بكل إحترام على أنّها زوج النبى صلى الله عليه و آله إلى المدينه.

و قيل أنّ عدد القتلى فى الجمل قد بلغ عشره آلاف وقيل سبعه عشر ألفاً، وهكذا حسمت المعركه لصالح الإمام عليه السلام واخمدت تلك الفتنه. (۱)

ب - معركه صفين

عاد الإمام عليه السلام إلى الكوفه بعد الجمل، فكتب لمعاويه كتابا طالبه بالبيعه. فلم يجبه معاويه

۱- ۱) ما ورد أعلاه، اُقتبس من «الكامل فى التأريخ» لابن الأثير ج ۳ مع تلخيص» .

وأخذ يدعو الناس للطلب بدم عثمان حتى أمر البعض بان يعلنوا على الناس أنّ قاتل عثمان هو على بن أبى طالب عليه السلام.

و بعد مضى مدّه كتب رساله لعلى عليه السلام يعلن فيه الحرب بعد أن جيش جيوش الشام.

فجهز الإمام عليه السلام أهل الكوفه لينفذ جيشه إلى صفين وقد أجابه أغلب الناس إلّاالقليل منهم.

فجعل الإمام عليه السلام جيشه طوائف وجعل لكل طائفه أمير. وصل الإمام عليه السلام صفين لثمان بقين من محرم عام ٣٧ ه ليلتقى جيش معاويه هناك. حاول بعض أصحاب الإمام عليه السلام البدو بالقتال، فكتب معاويه رساله للإمام عليه السلام يناشده عدم التعجيل بالقتال.

الإمام عليه السلام من جانبه كان يسعى جاهدا للحيلوله دون نشوب القتال فكان يرسل الرسائل و الأفراد يناشده جيش معاويه الالتحاق بصفوف المسلمين حتى مرت عدّه شهور ولم يأذن الإمام عليه السلام بالقتال رغم اصرار أصحابه عليه. إلّاأنّ كل هذه الاُمور لم تكن تجدى نفعاً، حتى نشبت المعركه فى شهر ذى الحجه عام ٣٧ ه ووقع بين الطرفين قتال شديد، ثم توقف القتال بحلول شهر محرم الحرام، ثم أخذ الإمام عليه السلام يرسل رسائله ويبعث بأصحابه، وما ان انتهى شهر محرم حتى نشب القتال ثانيه حتى زحف جيش الإمام ومنى جيش الشام بالفشل.

و أخيراً شعر معاويه بهزيمه جيشه فعمد إلى الجيش بحمل المصاحف، فحدث انشقاق فى جيش الإمام عليه السلام بعد أن تعالت أصوات المنافقين بالكف عن القتال ثم انتهى الأمر إلى التحكيم الذى فرض على الإمام.

فاختاروا أبا موسى الأشعرى المعروف بسذاجته ممثلا عن الإمام عليه السلام وعمرو بن العاص عن معاويه بعد أن أتفقا على أن يخلع كل صاحبه.

فقام أبو موسى الأشعرى وخاطب الناس أنّى خلعت علياً عليه السلام كما أخلع خاتمى، بينما خدعه عمرو بن العاص ولم يخلع معاويه. وهكذا ضاعت أعظم فرصه كادت أن تقضى على بنى اُميه و تغير وجه التاريخ فندم جيش الإمام عليه السلام حيث لا ينفع الندم.

ج - معركه النهروان

يفهم من أحداث معركه صفين أنّ الخوارج فئه أفرزتها تلك المعركه بعد مسأله التحكيم.

حیث أصـروا علی الإمام علیه السلام بقبول التحکیم فلما قاد إلی تلک النتیجه ندموا ندماً شدیداً لیعتبروا التحکیم مخالفه صریحه للقرآن وأنّه الکفر بعینه، وقـد بلغت بهم الوقاحه أن طالبوا الإمام علیه السـلام بالتوبه وإلّا هبوا لقتاله. فلما رأی الإمام علیه السـلام الاختلاف قد دب بین جیشه (ولاحظ عناصر النفاق التی کانت تحاول إثاره الفتنه) أصدر أمره بالعوده إلی الکوفه.

فلما عاد الجیش إلی الکوفه، انشق منه اثنا عشـر ألف من الأفراد المتعصبین لیلجأوا إلی الحروراء - قریه تبعـد میلین عن الکوفه - ومن هنا اطلق علیهم إسم الخوارج الحروریه، وأخیراً استعدوا للقتال بعد أن تجمعوا فی النهروان قرب الحروراء.

و الغریب فی الأـمر کان البعض منهم من أصـحاب البرانس من الحفاظ. إلّاأنّهم کانوا یعرفون بالجهل والتعصب والالتزام بظواهر الدین دون باطنه ومن هنا استحقوا إسم «المارقین» .

سعی الإمام علیه السـلام بادیء ذی بـدء إلی نصـحهم والاعـذار إلیهم فبعث لهم الواحـد تلو الآخر، فکان من ذلک أن اسـتجاب عـدد منهم وهم ینادون «التوبه التوبه یا أمیر المؤمنین» حیث قیل إنّ ثمانیه آلاف منهم قـد رجعوا وتابوا (تفید الروایات أنّ الإمام علیه السـلام قد جعل رایه فی المیدان وأمر التوابین بالانضواء تحتها) ، مع ذلک لم یاذن الإمام علیه السـلام بمقاتلتهم أملا بعوده من تبقی منهم.

حتی بعث لهم من یحـاججهم فقتلوه ثم نشب القتـال، فقاتـل علیه السـلام قتالاً شدیـداً بعـد أن أخبر أصـحابه بأن مصارعهم دون النطفه ولن ینجو منهم عشره ولن یهلک من جیشه عشره. فکان الأمر کما أخبر علیه السلام. (۱)

وقعت هذه الحرب فی الیوم التاسع من شهر صفر عام ۳۸ أو ۳۹ هجری، ولم تدم اکثر من ساعه. (۲)

۱- ۱) نهج البلاغه، الخطبه ۵۹. [۱]

۲- ۲) «الکامل فی التاریـخ» لابن الاثیر، شـرح نهـج البلاغه للخوئی، تاریـخ الطبری، ج ۴، نور الولاـیه، مروج الـذهب، ج ۲ «مع التلخیص والاختصار» .

القسم الخامس: قبول البيعه والخلافه

اشاره

«أَما وَالَّذِی فَلَقَ الْحَبَّهَ وَبَرَأَ النَّسَمَهَ، لَوْ لا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِیامُ الْحُجَّهِ بِوُجُودِ النّاصِرِ، وَما أَخَذَ اللّهُ عَلَی الْعُلَماءِ أَلاَّ یُقارُّوا عَلَی کِظَّهِ ظالِمٍ، وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لأَلْقَیْتُ حَبْلَهَا عَلَی غارِبِهَا، وَلَسَقَیْتُ آخِرَهَا بِکَأْسِ أَوَّلِها، وَلأَلْفَیْتُمْ دُنْیاکُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِی مِنْ عَفْطَهِ عَنْزٍ» .

الشرح والتفسیر

یبیّن الإمام علیه السلام الأسباب التی دعته إلی قبول البیعه والأهداف التی یتوخاها من الخلافه، کما یشیر إلی أنّ هذه الخلافه والامره لا تعدل عنده شیء لولا تلک الأهداف الکبری.

فقال علیه السلام «أمّا والذی فلق الحبه وبرأ النسمه، (۱)لولا حضور الحاضر (۲)، وقیام الحجه بوجود الناصر، وما أخذ الله علی العماء أن لا یقاروا (۳)علی کظه (۴)ظالم، ولا سغب (۵)مظلوم، لا لقیت حبلها علی غاربها (۶)، ولسقیت آخرها بکأس أولها» .

۱- ۱) «نَسَمَه» فی الأصل بمعنی هبوب الریاح بشکل هادیء، وتستعمل أحیانا للاشاره إلی التنفس، ویُطلق أحیاناً علی الانسان، فیقال «نَسَمَه، أما المقصود بها فی بحثنا هذا فهو «الانسان» أو «الروح» .

۲- ۲) «حاضر» بمعنی حضور الشخص أو الشئی، وقال أرباب اللغه آنهاتأتی بمعنی القبیله والطائفه الکبیره، ولعلها وردت هنا بهذین المعنیین.

۳- ۳) «لایقاروا» من ماده «قرار» بمعنی السکون، وعلیه فالمراد بالعباره أن لا یسکتوا ولا یسکنوا.

۴- ۴) کظه ما یعتری الاکل من الثقل والکرب عند امتلاء البطن بالطعام، والمراد استئثار الظالم بالحقوق.

۵- ۵) «سغب» تعنی الجوع، و لذلک یقال «ذو مسغبه علی القحط» و ورد فی القرآن «أو اطعام فی یوم ذی مستغبه» و جاءت فی کلام الامام علیه السلام کنایه عن هضم حقوق المظلومین.

۶- ۶) «غارب» ، الکاهل والکلام تمثیل للترک وارسال الأمر.

فقوله علیه السلام «والذی فلق الحبه» إشاره لما ورد فی القرآن الکریم بشأن الذات الإلهیه المقدسه «فالق الحب والنوی» (۱)التی تتضمن أهم خلق الله سبحانه ألا ـ وهو خلق الحیاه. وقوله علیه السلام «برء النسمه» إشاره لخلق الإنسان والروح الذی أشار له القرآن الکریم بقوله «فتبارک الله اَحسن الخالقین» (۲)فهو یتضمن القسم باهم أعمال خالق الوجود للدلاله علی أهمیه الأمر الذی یرید التحدث عنه.

و قوله علیه السلام «لولا حضور الحاضر» فی إشاره إلی حضور الحاضرین بالبیعه له، وإن ذهب البعض إلی أنّ المراد بالحاضر ذات البیعه والذی لا یختلف کثیرا والمعنی الأول.

أمّا القول بأنّ المراد حضور الله أو حضور الزمان الذی تنبئ به الرسول الکریم صلی الله علیه و آله لعلی علیه السلام فهو مستبعد جداً، وإن أورده بعض الفضلاء کتفسیر لتلک العباره. علی کل حال فان هذه العباره تتحد فی المعنی مع قوله علیه السلام: «و قیام الحجه بوجود الناصر» لتشیر کلاهما لاتمام الحجه علیه علیه السلام فی أن ینهض بالأمر بعد توفر العدّه من الأصحاب والبیعه امّا قوله علیه السلام «لالقیت حلها علی غاربها» فهو کنایه عن الانصراف عن الشیء، حیث جرت العاده أن یطرح زمام الناقه علی ظهرها إذا لم یکن هناک من حاجه إلیها فی عمل.

و قوله علیه السلام: «لسقیت آخرها بکأس أولها» کنایه عن الصبر علی الأمر وترکه کما صبر علیه ازاء الخلفاء الثلاثه (۳). إلّاأنّ الإمام علیه السلام یری نفسه ملزما بالنهوض بالأمر والتصدی للخلافه لسببین: أحدهما وجود الناصر الذی یتمّ الحجه علیه بالقیام من جانب، والثانی العهد الذی أخذه الله علی العلماء بالقیام بالأمر إذا ما غیبت العداله واستفحل الظلم وضیعت الحقوق «لولا حضور الحاضر وقیام الحجه بوجود الناصر وما أخذ الله علی العلماء أن لا یقاروا علی کظه ظالم ولا سغب مظلموم» .

۱- ۱) سوره الانعام / ۹۵. [۱]

۲- ۲) سوره المومنون / ۱۴. [۲]

۳- ۳) والشاهد علی ذلک الشعر الذی تمثل به علیه السلام فی قضیه مخالفه طلحه والزبیر والتمهید لنشوب معرکه الجمل. حیث قال: فتن تحل بهم وهن شوارع تسقی آواخرها بکأس الأول بحار الانوار، ۳۲ / ۱۱۸. [۳]

فالواقع أنّ كلام الإمام عليه السلام تحذير لكافه علماء فى ممارسه مسؤوليتهم فى تشكيل الحكومه وبسط العدل والقسط فى ربوع المجتمع وعدم السكوت والتخاذل فى حاله توفر هذه الأسباب. ويخطىء كل أولئك الذين يرون وظيفتهم إنّما تقتصر على إقامه الشعائر العباديه كالصوم والصلاه والحج والزكاه إلى جانب الإتيان بالمستحبات. فبسط العدل والقسط والدفاع عن المظلوم والقيام بوجه الظالم تعدّ من جوهر الوظائف الإسلاميه لهؤلاء العلماء.

ثم يقول عليه السلام: «و لا لفيتم (۱)دينا كم هذه أزهد عندى من عفطه (۲)عنز» .

وبالالتفات إلى ما ورد فى صحاح اللغه من أن العفطه تعنى الماء الذى يترشح من أنف الشاه (أو العنز حين العطسه) تتضح مدى تفاهه الدنيا - التى تحظى بفائق الأهميه لدى أهلها - عند على عليه السلام، فما قيمه العنز فضلا عن ماء أنفها والحق ان مثل هذه التعبيرات قد تبدو غريبه بالنسبه لأُولئك الذين لا يعرفون شخصيه على عليه السلام؛ إلّاأنّ هذه الغرابه ربّما تزول بأدنى نظره إلى سيرته عليه السلام وحياته التى عاشها.

قال السيد الرضى (ره) فى ذيل الخطبه.

«قالوا وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه هذا الموضع من خطبته فناوله كتاباً - قيل أنّ فيه مسائل كان يريد الإجابه عنها - فاقبل ينظر فيه (فلما فرغ من قرائته) قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت.

فقال: «هيهات يا بن عباس تلك شقشقه هدرت ثم قرّت» قال ابن عباس فو الله ما اَسفت على كلام قط كأسفى على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث يريد» .

أمّا التعبير بأهل السواد فهو إشاره إلى المناطق الغنيه بالزرع والأشجار التى تبدو من بعيد سوداء، لأنّ اللون الأخضر يتركز من بعيد ليميل إلى السواد، ولما كان هل الحجاز ألفوا الأرض اليابسه الخاليه التى يصطلح عليها بالبياض فانّهم إذا ما انطلقوا نحو العراق المخضر بفضل

۱- ۱) «ألفيتم» من ماده «الفاء» ، بمعنى وجدتم ورأيتم.

۲- ۲) عفطه العنز: ما تنثره من أنفها، واكثر ما يستعمل ذلك فى النعمه وإن كان الأشهر فى الاستعمال بالنون «النقطه» .

نهريه دجله والفرات وتلوح أشجاره وزرعه من بعيد يبدو أسوداً فيصطلحون عليه بأرض السواد كما يطلقوا على أهله اسم أهل السواد.

أمّا مضمون الكتاب والمسائل التى فيه فقد تطرق إليها بعض شرّاح. نهج البلاغه وسنعرض لها فى البحث القادم.

وقد روى ابن أبى الحديد بهذا الشأن عن استاذه مصدق بن شبيب أنّه قال: قرأت على الشيخ أبى محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبه، فلما إنتهيت إلى هذا الموضع، قال لى: لو سمعت ابن عباس يقول هذا لقلت له: وهل بقى فى نفس ابن عمّك أمر لم يبلغه فوالله مارجع عن الأولين ولا عن الآخرين، ولا بقى فى نفسه أحد لم يذكره إلّارسول الله صلى الله عليه و آله.

قال مصدق: وكان ابن الخشات صاحب دعايه وهزل، قال: فقلت له: أتقول إنها منحوله. فقال: لا والله وإنى لاعلم أنّها كلامه، كما أعلم أنّك مصدق. (۱)

قال الشريف الرضى رحمه الله: قوله عليه السلام «كراكب الصعبه إن اشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم» يريد أنّه إذا شدد عليها فى جذب الزمام وهى تنازعه رأسها خرم أنفها وإن اَرخى لها شيئاً مع صعوبتها تقحمت به فلم يملكها يقال «أشنق الناقه» إذا جذب رأسها بالزمام فرفعها و «شنقها» أيضا، ذكر ذلك «ابن السكيت» فى اصلاح المنطق» وإنّما قال «اشنق لها» ولم يقل «اشنقها» لانّه جعله فى مقابله قوله «أسلس لها» فكانه عليه السلام قال: إن رفع رأسها بمعنى أمسكه عليها بالزمام) .

تأمّلات

۱- الرد على سؤال

قد يقال: تعتقد الإماميه واتباع مدرسه أهل البيت عليهم السلام أنّ الإمام ينصب من قبل اللّه تعالى بواسطه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، لاعلى أساس إنتخابه من قبل الاُمّه، بينما صرّح الإمام عليه السلام فى هذه

۱- ۱) شرح نهج [۱]الباغه ابن أبى الحديد ۱ / ۲۰۵ [۲]

الخطبه قائلًا: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجه بوجود الناصر و. . . لالقيت حبلها على غاربها» فكيف التوفيق بينهما؟

و نقول فى الردّ على هذا السؤال أنّ للامامه والخلافه واقع ومقام ظهور وبروز فواقعها أنّها تعين من قيل الله بواسطه نبيّه صلى الله عليه و آله، أمّا ظهورها وبروزها والتصرف فى شؤون المسلمين والمجتمع الإسلامى إنّما يتوقف على الاُمّه ونهوض أبنائها فى توفير الدعم والاسناد؛ الأمر الذى لا يتأتى إلّامن خلال بيعه الاُمّه.

و من هنا أصبح الإمام عليه السلام جليس الدار إبان خلافه الخلفاء الثلاثه - طيله خمس وعشرين سنه - ولم يتدخل فى شؤون الخلافه، والحال لم تكن هنالك من ثلمه فى إمامته المنصوص عليها من جانب الله بواسطه النبى صلى الله عليه و آله ويصدق هذا الكلام على بعض أئمه العصمه والطهاره، فقد إقترح أبومسلم الخلافه على الإمام الصادق عليه السلام، ولعلمه عليه السلام بالمؤامره لم يجيبه.

بل كان البعض يطالب الأئمه بالقيام وتولى الخلافه. فيجيبون باننا لا نملك ما يكفى من الأنصار (۱).

۲- المسائل التى تضمنها الكتاب

روى المرحوم «الشارح البحرانى» فى كتابه عن أبى الحسن الكيدرى أنّ الكتاب الذى سلم إلى على عليه السلام آخر الخطبه كان يقسم عشره أسئله هى:

۱- الذى خرج من بطن وليس له بولد؟

قال عليه السلام: يونس عليه السلام الذى خرج من بطن الحوت.

۲- ما كان قليله مباح وكثيره حرام؟

قال عليه السلام: نهر طالوت.

۳- العباده التى يعاقب على الإتيان بها أو تركها؟

قال عليه السلام: الصلاه فى السكر.

۱- ۱) اصول الكافى ۲ / ۲۴۲ كتاب الإيمان والكفر، باب قله عدد المؤمنين، ح ۴.

۴- الطائر الذی لیس له أصل (أم) ؟

قال علیه السلام: الطائر الذی خلقه عیسی علیه السلام باذن الله.

۵- رجل مدین الف درهم وله الف درهم وضمنه آخر وکان له الف درهم، وقد مضی علیه عام، فالزکاه علی أی من المالین؟

قال علیه السلام: إذا فعل الضامن ذلک باذن المدین فلا زکاه علیه، وإن فعله بدون إذنه وجبت علیه الزکاه.

۶- حج جماعه فنزلوا بیتاً فی مکه وأغلق أحدهم باب البیت فکان فیه طیور فماتت عطشا، فعلی من تجب الکفاره؟

قال علیه السلام: علی من أغلق الباب ولم یخرج الطیور ولم یسقیها.

۷- شهد أربعه علی رجل بالزنا، فأمرهم الإمام برجمه (لأنّه کان محصناً) فرجمه أحدهم وساعده جماعه وامتنع الثلاث. ثم رجع عن شهادته (وأقر بکذبه) ولم یمت المتهم. ثم مات وبعد موته رجع الثلاث عن شهادتهم. علی من تجب دینه؟

قال علیه السلام: علی ذلک الرجل والجماعه الذین ساعدوه (۱).

۸- هل تقبل شهاده یهودیین لثالث باعتناق الإسلام؟

قال علیه السلام: لا تقبل شهادتهما؛ لأنّهم یحرفون کلام الله ویجوزون الشهاده بالباطل.

۹- هل تقبل شهاده نصرانیین لنصرانی أو یهودی أو مجوسی بالإسلام؟

قال علیه السلام: تقبل لقوله سبحانه: «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّهً لِلَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ قالُوا إِنّا نَصاری» (۲).

۱۰- قطع شخص ید آخر، فشهد أربعه عند الإمام قطعت یده وقد زنا بمحصنه، فاراد الإمام أن یرجمه فتوفی قبل الرجم، فما حکمه؟

۱- ۱) هذا إذا أخطا الشهود فان کان عن عمد فحکمهم القصاص کما ورد فی کتاب القصاص. والنقطه الجدیره بالذکر للشهود الذین حصل الرجم لشهادتهم أن یرجعوا وما دفع یؤخذ من الأربعه بالتساوی وللوقوف أکثر راجع کتاب الجواهر، ۴۱ / ۲۲۵، ولابدّ من الالتفات هنا إلی وجود بعض التفاوت بین ما ورد فی هذا الحدیث وما جاء فی الکتب الفقیهه.

۲- ۲) سوره المائده / ۸۲. [۱]

قال علیه السلام: تجب الدیه علی من قطع یده، لکن ان شهدوا أنّه سرق بحد النصاب فلا تجب الدیه علی القاطع (۱). طبعا ما ذکر هو مضمون روایه مرسله رویت عن الکیدری ولم تثبت صحه سند الحدیث، ولذلک هناک أبحاث کثیره من وجهه النظر الفقیهه بشأن بعض الفروع المذکوره فی هذا الحدیث.

۳- ممیزات الخطبه الشقشقیه

إنّ نظره عامه إلی خطب نهج البلاغه تفید أنّ الخطبه الشقشقیه هی من الخطب التی قل نظیرها إن لم نقل لا نظیر لها فی نهج البلاغه؛ الأمر الذی یثبت أنّ الإمام علیه السلام قد أوردها فی ظروف خاصه للحیلوله دون نسیان الحقائق المتعلقه بالخلافه بعد رسول الله صلی الله علیه و آله لتخلد فی التاریخ ومن هنا أطلق عباراته بصراحه تامه. فقد أوضح الإمام علیه السلام فی هذه الخطبه عدّه اُمور منها:

۱- أحقیته وجدارته بالخلافه التی بینها بوضوح وهذه هی الحقیقه التی إتفق علیها تقریباً کافه المحققین المسلمین وغیر المسلمین، حتی إعترف معاویه أعدی أعداء الإمام علیه السلام با فضلیته (۲).

۲- مظلومیته علیه السلام رغم أحقیته وکفائته.

۳- یفید کلام الإمام علیه السلام عدم وجود مرجع واضح لانتخاب أی من الخلفاء الثلاثه، اضافه إلی المعاییر المتعدده التی حکمت ذلک الانتخاب، فقد کانت خلافه أحدهم تستند إلی رأی واحد، وآخر لنصف من شوری سداسیه وثالث لعدد من الآراء.

۴- ابتعاد الاُمّه فی عصر الخلفاء عن تعالیم النبی الأکرام صلی الله علیه و آله وتفاقم الازمات علی مرور الزمان، بحیث کانت من أبلغ الصعوبات التی واجهت الإمام علیه السلام حین تولی الخلافه تکمن فی

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن میثم البحرانی ۱ / ۲۶۹، المتسدرک ۷ / ۵۵.

۲- ۲) ورد هذا المعنی فی الرساله التی کتبها معاویه وبعث بها لمحمد بن أبی بکر والتی نقلتها أغلب المصادر الإسلامیه ومنها مروج الذهب، فقد قال فیها أنی وأبیک نقر بفضل علی وحقّه علینا. . . إلّاأنّ أبیک وفاروقه (عمر) هما أول من خالفه بعد وفاه النبی صلی الله علیه و آله. وقال الیعقوبی فی تاریخه: وکان المهاجرون والأنصار لا یشکون فی علی علیه السلام. (تاریخ الیعقوبی ۲/۱۲۴) . [۱]

إعاده الاُمّه إلى القيم الإسلاميه التى كانت سائده على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله.

۵- أنّ التهافت على الدنيا والاغترار بزخرفها هو العامل الذى يقف وراء الفوضى والاضطراب والحروب التى نشبت على عهد الإمام على عليه السلام.

۶- أنّ ما حصل للإمام على عليه السلام هو البيعه الحقيقه بعينها، غير أنّ عداله على عليه السلام وشدته فى الحق أثارت حفيظه بعض زعماء المجتمع لينقضوا البيعه ويقسط ويمرق آخرون.

۷- لم يكن للإمام عليه السلام أيه رغبه بالخلافه ولم يراها هدفا قط، بل هى وسيله لاحقاق الحق ابطال الباطل وبسط العدل والقسط.

۸- كانت الانتفاضات التى حدثت فى زمان عثمان والتى أدت بالتالى إلى قتله طبيعيه جداً ونتيجه لسلوكه وبطانته من بنى اُميه الذين سلطهم على رقاب المسلمين فجعلهم عمالاً وولاه على بعض المناطق فعبثوا ببيت المال واسرفوا فى تبذيره حتى ثارت الاُمّه بعد أن انطلقت شراره الرفض من المناطق البعيده عن مركز الخلافه كمصر والبصره والكوفه.

۹- كانت المعارك الثلاث - الجمل وصفين والنهروان - قد فرضت على الإمام عليه السلام من قبل الأفراد الذين لم يطيقوا عدله عليه السلام إلى جانب أولئك الذين يبحثون عن الجاه والمنصب.

۱۰- عدم انسجام عقيده تنزيه الصحابه وعدالتهم لمجرّد صحبتهم مع أى من المعايير والوقائع التاريخيه؛ وهو الاعتقاد الذى يقود إلى التناقض، فاصحاب فتنه الجمل هما إثنان من الصحابه وصاحب صفين من الصحابه أيضا بينما كانت طائفه من الصحابه من مشعلى نار النهروان وقد خرج جميع هولاء على إمام زمانهم فاختاروا سبيل البغى وشق عصا الاُمّه الإسلاميه وبث الفرقه والاختلاف فى صفوفها. فكيف والحال هذه نقول على عليه السلام.

على الحق وطلحه والزبير ومعاويه كذلك؟ ! أمّا الاستدلال بالاجتهاد فى هذه الاُمور فهو توجيه يفتقر إلى المنطق ومدعاه حتى لارتكاب الكبائر.

الخطبه الرابعه

اشاره

ومن خطبه له علیه السلام

و هی من أفصح کلامه علیه السلام وفیها یعظ الناس ویهدیهم من ضلالتهم ویقال:

«إنّه خطبها بعد قتل طلحه والزبیر»

نظره إلی الخطبه

یمکن أن تکون هـذه الخطبه کمـا یفهم من عنوانها قـد وردت بعـد أحـداث معرکه الجمل وقتل طلحه والزبیر فهی تتحـدث عن وقائع المعرکه والدروس والعبر التی ینبغی أن یتعلمها المسلمون. حیث یمکن خلاصه الخطبه فی محاور رئیسیه ثلاث:

۱ - التصـریح بهـذه الحقیقه وهی هدایه الاُمّه من الظلمات بواسـطه أهل بیت النبی صـلی الله علیه و آله حتی بلغت ذروه تکاملها ورقیها، وعلیه فعلیها أن تعیرهم آذانا صاغیه وتتفاعل مع مواعظهم ونصائحهم.

۲ - إنّ الإمام علیه السلام کان یعلم بالخیانه ونقض العهود والتمرد، إلّاأنّ جلباب الدین لم یدعه یکشف تلک الحقائق.

۳ - یشـیر الإمـام علیه السـلام فی المقطع الأـخیر من الخطبه إلی أنّ الیوم لم یعـدّ یوم التستر علی الحقـائق؛ لابـدّ من إعلان هـذه الحقائق وإلّا یخشی علی الاُمّه من الضلال وهذا بذاته ما یجعل الإمام علیه السلام یعیش هاجس القلق.

ص:۲۶۹

القسم الأول: التحلی بالوعی والیقظه

اشاره

«بِنا اهْتَدَیْتُمْ فِی الظَّلْماءِ، وَتَسَنَّمْتُمْ ذُرْوَهَ الْعَلْیاءِ، وَبِنا أَفْجَرْتُمْ عَنِ السِّرارِ وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ یَفْقَهِ الْواعِیَهَ، وَکَیْفَ یُراعِی النَّبْأَهَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّیْحَهُ؟ رُبِطَ جَنانٌ لَمْ یُفارِقْهُ الْخَفَقانُ» .

الشرح والتفسیر

أشار الإمام علیه السلام فی بدایه الخطبه إلی النعم الجمه التی تمتع بها المسلمون - ولا سیما فی صدر الإسلام - فی ظل الإسلام، حیث وضح هذا الأمر بثلاث عبارات قصیره ذات تشبیهات رائعه فقال علیه السلام: «بنا إهتدیتم (۱)فی الظلماء (۲)وتسنمتم (۳)ذروه (۴)العلیاء، وبنا افجرتم (۵)عن السرار (۶)» . فالإمام علیه السلام یشیر فی العباره الأول إلی ظروف الجاهلیه التی خیم فیها الظلام والجهل والفساد والجریمه علی کافه الأماکن حتی تبددت هذه الظلمات بظهور النبی صلی الله علیه و آله

۱- ۱) «اهتدیتم» من «الاهتداء» تستعمل - حسب قول بعض شرّاح نهج البلاغه وارباب اللغه - حیث یمیل الإنسان بإرادته للهدایه وهکذا جاءت فی العباره.

۲- ۲) «ظلماء» علی وزن صحراء بمعنی ظلمه أول اللیل أو بعباره اُخری النور بعد الظلمه؛ خلافا للظلمه بمفهومها العام ولعل الإمام علیه السلام أراد بها عصر الجاهلیه الذی یعتبر فی الواقع ظلمه بعد النور؛ أی دعوه الأنبیاء أولی العزم.

۳- ۳) «تسنمتم» من ماده سنم علی وزن قلم بمعنی العلو ومن هنا یطلق علی ذروه الجمل إسم سنام.

۴- ۴) «ذروه» من ماده «ذرو» ، لها معنیان: أحدهما إشراف شیء علی آخر ومن هنا تطلق الذروه علی قمه الجبل، والآخر تفتت الشیء وتفرقه.

۵- ۵) «أفجرتم» من ماده «فجر» بمعنی الفجوه الواسعه قی الشیء ومن هنا اطلق الفجر علی الصباح الذی یشق عتمه اللیل، وأفجرتم بمعنی دخول الفجر.

۶- ۶) «سرار» من ماده «سر» بمعنی الخفاء وما یقابل العلن، وتطلق مفرده السرار عاده علی اللیالی الأخیره للشهر حیث یکون الجو ظلاما دامساً.

وانبثاق الدعوه الإسلاميه ليهتدى الناس إلى الصراط المستقيم ويتجهون نحو الهدف المنشود. ويشبه فى العباره الثانيه حركه الرقى والتكامل والازدهار بالجمل ذى السنام (حيث اقتبست المفرده تسنتم من ماده سنام أعلى قمه فى الجمل) فقال عليه السلام لقد بلغتم هذه الذروه وقطعتم مسيره الرقى والتكامل فى ظل الإسلام؛ الحقيقه التى إذعن لها جميع مؤرخى الشرق والغرب فى كتبهم التى تعرضوا فيها للمدنيه الإسلاميه وحضارتها. ثم شبه فى العباره الثالثه أوضاع المجتمع الجاهلى بليالى الشهر الظلماء والمحاق (حيث تعنى السرار الليالى التى لايبزغ فيها القمر أبداً) فقال عليه السلام: «و بنا أفجرتم عن السرار» . والواقع هو أنّ هذه التعبيرات إنّما تنبع من القرآن الذى شبه الإسلام والإيمان والوحى بالنور، فقال: «اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ» (۱)وقال فى موضع آخر: «قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِى بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِهِ» (۲)وقال: «وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ» (۳)- ثم يذم عليه السلام الأفراد الذين صخت آذانهم عن سماع الحق بينما يثنى على غيرهم من ذوى الاسماع فقال عليه السلام: «وقر سمع لم يفقه الواعيه» . تستعمل مفرده «الوقر» بشأن الصمم كما تستعمل فى ثقل السمع، والمراد بالواعيه الأصوات المرتفعه، وهى إشاره لآيات القرآن التى تقرع الاسماع بشأن المسائل المهمّه العقائديه والعمليه والأخلاقيه وكذلك السنه النبويه الشريفه. أمّا التعبير «لم يفقه» بدلاً من «لم يسمع» تفيد عدم جدوى السمع مالم يصحبه الإدراك والفهم. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال: «وكيف يراعى النباه (۴)من أصمته الصيحه» (۵). والمراد كيف يصغى لى ويستمع قولى من لايراعى أو امر اللّه ونبيّه صلى الله عليه و آله فقد شبه

۱- ۱) سوره البقره / ۲۵۷. [۱]

۲- ۲) سوره المائده / ۱۵ - ۱۶. [۲]

۳- ۳) سوره الزخرف / ۴۴. [۳]

۴- ۴) «النبأه» من ماده «نبأ» بمعنى القدوم من مكان إلى آخر ومن هنا اطلق النبأ على الخبر الذى ينتقل من مكان إلى آخر والنبأه بمعنى الصوت الخفى لأن الصوت ينتقل من مكان إلى آخر (مقاييس اللغه) .

۵- ۵) قال بعضى شرّاح نهج البلاغه [۴]أن قوله «أصمته الصيحه» ليس معناه أن الصيحه كانت عله لصممه، بل معناه أنّهم كانوا صمما عن سماع صوت الوحى، كقوله سبحانه «أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون» (سوره يونس / ۴۲) . [۵]

ذلک بمن أصمته الصیحه القویه فانه محال أن یراعی بعد ذلک الصوت الضعیف. ولما کانت هنالک الفئه الاُخری المتعصبه للحق فقد قال علیه السلام: «ربط جنان (۱)لم یفارق الخفقان (۲).

ملاحظه

الهدایه فی ظل أهل البیت علیهم السلام

ما مر معنا فی هذا القسم من الخطبه هو إشاره إلی واقعه تأریخیه مهمّه تتضح من خلال مقارنه عصر العرب الجاهلیه بعصر التطور والازدهار الذی أعقب بزوغ شمس الإسلام، کیف کان عرب الجاهلیه من حیث العقائد الدینیه والقضایا المتعلقه بالمبدأ والمعاد والنظام الاجتماعی ونظام الاسره والأخلاق والتقوی والأوضاع الاقتصادیه وکیف أصبحت هذه الاُمور أبان انبثاق الدعوه الإسلامیه ونزول القرآن الکریم. والحق أن التفاوت بینهما إلی درجه من المدی والعمق بحیث لایمکن سوی نعته بالمعجزه الکبری وإلّا تعذر تصور ذلک التفاوت. فما صوره الإمام علیه السلام فی هذه الخطبه لم یکن سوی الظلام المطلق الذی القی بظلاله علی جمیع المجتمع، ولم یکد ینبثق الإسلام حتی تبددت هذه الظلمه بفجر الإسلام لیأخذ بید المجتمع إلی العلم والمعرفه والثقافه والحضاره والمدنیه. ولم تکن سوی إشاره قصیره ولا یمکن الالمام بتفاصیلها إلّابالرجوع إلی الکتب التی ألفت بشأن الحضاره الإسلامیه. کما وردت بعض التفاصیل فی سائر خطبه علیه السلام فی نهج البلاغه.

۱- ۱) «جنان» بمعنی القلب لأنه فی صدر الإنسان وقد اشتقت هذه المفرده من جن (علی وزن فن) بمعنی الاستتار ومن هنا یطلق جنّه علی الحدیقه الغناء والأرض المغطاه بالأشجار، ویطلق الجنین علی الطفل المستتر فی بطن اُمّه کما تطلق مفرده الجن لأنّهم استجنوا فلا یروا والمجنون تطلق علی من ستر عقله.

۲- ۲) «خفقان» بمعنی الاضطراب، ویستعمل للخوف والخشیه لانها تدعو للاضطراب والمراد بها فی العباره خوف اللّه.

القسم الثانی: کنت أتوقع غدرکم، ولکن...

اشاره

«ما زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِکُمْ عَواقِبَ الْغَدْرِ وَأَتَوَسَّمُکُمْ بِحِلْیَهِ الْمُغْتَرِّینَ، حَتَّی سَتَرَنِی عَنْکُمْ جِلْبابُ الدِّینِ، وَبَصَّرَنِیکُمْ صِدْقُ النِّیَّهِ أَقَمْتُ لَکُمْ عَلَی سَنَنِ الْحَقِّ فِی جَوادِّ الْمَضَلَّهِ، حَیْثُ تَلْتَقُونَ وَلا دَلِیلَ، وَتَحْتَفِرُونَ وَلا تُمِیهُونَ» .

الشرح والتفسیر

لقد خاطب الإمام علی علیه السلام - فی هذا المقطع من الخطبه - سلیلی أصحاب الجمل من تبقی منهم قائلاً: «مازلت انتظر بکم عواقب الغدر، واتوسمکم (۱)بحلیه المغترین (۲)» . فقد روی أنّه لما بویع علیّ علیه السلام کتب إلی معاویه: أمّا بعد فإنّ الناس قتلوا عثمان عن غیر مشوره منّی وبایعونی عن مشوره منهم واجتماع، فإذا أتاک کتابی فبایع لی، وأوفد إلیّ أشراف أهل الشام قبلک.

فلما قدم رسوله علی معاویه، وقرأ کتابه، بعث رجلاً من بنی عمیس، وکتب معه کتاباً إلی الزبیر بن العوام، وفیه:

بسم الله الرحمن الرحیم، لعبد الله الزبیر أمیرالمؤمنین من معاویه بن أبی سفیان:

سلام علیک، أمّا بعد، فإنّی قد بایعت لک أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا، کما یستوسق الجلب، فدونک الکوفه والبصره، لا یسبقک إلیها ابن أبی طالب، فإنّه لا شیء بعد هذین

۱- ۱) «أتوسمکم» من ماده «وسم» علی وزن ولم أتفرس فیکم، الأثر والعلّامه؛ أی کنت أری فیکم علائم الغدر منذ البدایه.

۲- ۲) «مغترین» من ماده «غرور» بمعنی مخدوعین.

المصرين، وقد بايعت لطلحه بن عبيدالله من بعدك، فأظهر الطلب بدم ثمان، وادْعُوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجدّ والتشمير، أظفركما الله، وخذل مناوئكما! فلما وصل هذا الكتاب إلى الزبير سُرِّ به، وأعلم به طلحه وأقرأه إياه، فلم يشكاً فى النصح لهما من قبل معاويه، وأجمعا عند ذلك على خلاف على عليه السلام.

جاء الزبير وطلحه إلى على عليه السلام بعد البيعه بأيام، فقالا له: يا أميرالمؤمنين، قد رأيت ما كنّا فيه من الجفوه فى ولايه عثمان كلّها، وعلمت رأى عثمان كان فى بنى أميه، وقد ولّاك اللّه الخلافه من بعده، فولّنا بعض أعمالك، فقال لهما: ارضيا بقسْم الله لكما، حتى أرى رأيى، واعلما أنّى لا أشرك فى أمانتى إلّامن أرضى بدينه وأمانته من أصحابى، ومن قد عرفت دخيلته، فانصرفا عنه وقد دخلهما اليأس، فاستأذناه فى العمره.

طلب طلحه والزبير من على عليه السلام أن يولِّيهما المصرين: البصره والكوفه، فقال حتى أنظر. ثم استشار المغيره بن شعبه، فقال له: أرى أن تولِّيهما إلى أن يستقيم لك أمر الناس. فخلا بابن عباس، وقال: ماترى؟ قال: يا أميرالمؤمنين، إنّ الكوفه والبصره عَيْن الخلافه، وبهما كنوز الرجال، ومكان طلحه والزبير من الإسلام ما قد علمت، ولستُ آمنهما إن ولّيتَهُما أن يُحْدِثا أمراً. فأخذ على عليه السلام برأى ابن عباس.

لما خرج الزبير وطلحه من المدينه إلى مكّه لم يلقيا أحدا إلّاوقالا له: ليس لعلى فى أعناقنا بيعه، وإنّما بايعناه مكرَهين. فبلغ علياً عليه السلام قولهما، فقال: أبعدهما اللّه وأغرب دارهما، امّا واللّه لقد علمتُ أنّهما سيقتُلان أنفسهما أخبث مقتل، ويأتيان من وردا عليه بأشأم يوم، واللّه ما العُمرهَ يريدان، ولقد أتيانى بوجهى فاجريْن، ورجعا بوجهى غادرين ناكثين، واللّه لا يلقياننى بعد اليوم إلّافى كتيبه خشناء، يقتلان فيها أنفسهما، فبُعْداً لهما وسحقاً. (۱)

ثم أضاف عليه السلام أنّ لباس الدين وجلبابه هو الذى يجعلنى أغض الطرف عنكم (ولا أهتك سريرتكم) : «حتى سترنى عنكم جلباب (۲)الدين، وبصرنيكم صدق النيّه» . والواقع هو أنّ عباره الإمام عليه السلام إجابه عن سؤالين هما: أولاً: لو كان الإمام عليه السلام يتوقع نقضهم للعهد ويتوسم

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱ / ۲۳۰ و ۲۳۱. [۱]

۲- ۲) «جلباب» بمعنى الثوب والستر.

ذلک فیهم فلم لم یعلن ذلک علی الملأ؟ وثانیاً: من أین له هذا العلم بباطن هؤلاء؟ فقد رد الإمام علیه السلام علی السؤال بقوله: «سترنی عنکم جلباب الدین» ورد علی السؤال الثانی بقوله «وبصرنیکم صدق النیه» . بینما ذهب بعض شرّاح نهج البلاغه إلی تفسیر العباره الاولی بانّکم لم تعرفونی، وما ذلک إلّالسوء فهمکم للدین، أو أن تدینی منعکم من معرفتی؛ إلّاأنّ هذا المعنی یبدو مستبعداً لما ینطوی علیه من تکلف إلی جانب عدم إنسجامه والعبارات السابقه، فالمعنی الأول هو الأنسب. ثم إختتم کلامه علیه السلام بالقول: «أقمت لکم علی سنن الحق فی جواد (۱)المضله (۲)حیث تلتقون ولادلیل، وتحتقرون ولاتمیهون» (۳)یشبه الإمام علی علیه السلام الناس فی عصر عثمان ولا سیما أواخر عمره بالرحاله الذین ضلوا الطریق وساروا علی غیر هدی فهم یتضوون عطشاً وهم یحفرون الأرض موضعاً موضعاً من أجل الوصول إلی الماء فلا یحصلون علیه؛ فیهب الإمام علیه السلام لنجدتهم فیهدیهم إلی الصراط المستقیم فینتهلون من منهله العذب. ثم یلفت إنتباههم إلی عظم الفتن الدینیه والدنیویه التی کانت ستلتهمهم فی ذلک العصر المظلم لولا وجوده علیه السلام.

تأمّلان

۱ – البصیره

لقد أشار الإمام علیه السلام إلی قضیه مهمّه وهی أنّ صفاء النفس وصدق النیه من العناصر التی تکمن وراء البصیره والفراسه. فالمؤمنون الأصفیاء الباطن یرون ما لایری غیرهم، وهی الحقیقه التی صرّح بها القرآن الکریم وأکدتها الروایات الإسلامیه. فقد جاء فی القرآن: «ان تتقوا اللّه یجعل لکم فرقاناً» (۴). وورد فی الحدیث المعروف عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال: «إتقوا فراسه المؤمن فانّه ینظر بنور اللّه» (۵)وقال الإمام الرضا علیه السلام: «ما من مؤمن إلّاوله فراسه ینظر

۱– ۱) «جواد» جمع «جاده» بمعنی الطرق الکبیره و الواسعه.

۲– ۲) «مضله» من ماده «ضلال» الموضع الذی یضل سالکه وعلیه فمعنی جواد المضله طرق الضلال.

۳– ۳) «تمیهون» من ماده «موه» علی وزن نوع بمعنی تجدون ماءاً، ومنه أخذت مفرده الماء وأماه بمعنی بلغ الماء. علیه فمعنی لاتمیهون لا تبلغون الماء (و إن أجهدتم أنفسکم فی حفر الأبار) .

۴– ۴) سوره الانفال / ۲۹. [۱]

۵– ۵) اصول الکافی ۱ / ۲۱۸. [۲]

بنور اللّه على قدر إيمانه ومبلغ إستبصاره وعلمه وقد جمع اللّه للائمه منّا ما فرقه فى جميع المؤمنين وقال عز وجل فى كتابه: إن فى ذلك لآيات للمتوسمين. وإن أول المتوسمين رسول اللّه صلى الله عليه و آله ثم أميرالمؤمنين عليه السلام وبعده الحسن والحسين عليهما السلام والائمه عليهم السلام من ولد الحسين إلى يوم القيامه» (۱)جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام جواباً لمن سأله: كيف تعلمون بباطن الناس وتخبرون عمّا فى أنفسهم. والحق ليس هنالك من حجاب مضروب على حقائق العالم، وليس ذلك سوى حجاب الهوى والهوس الشيطانى الذى يغشى بصيرتنا فيحول دون رؤيتنا للحقائق، ولو إستشعرنا قلوبنا الورع والتقوى والإيمان واليقين فان هذه الحجب سترفع ونرى كل شىء على حقيقته، فقد ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لولا أنّ الشياطين يحومون إلى قلوب بنى آدم لنظروا إلى الملكوت» (۲).

۲ – ستر عيوب الناس

غالبا ما يتصف الأفراد بالعيوب الخفيه التى قد يطلع عليها الإنسان من خلال الطرق العاديه أو إستناداً إلى الفراسه والإيمان؛ فاذا إطلع عليها فانّ الواجب يحتم عليه – ولاسيما إذا إطلع ذلك ولاه الأُمّه وقاده المجتمع – أن يسعى جاهداً لسترها وعدم هتك حجابها مادامت لاتشكل خطرا يتهدد المجتمع؛ وذلك لأن هتك سريره الآخرين وكشف عيوبهم يجردهم من حرمتهم من جانب ويفسح المجال أمامهم لارتكاب المعاصى والجرأه على مقارفتها من جانب آخر؛ فالفرد يبقى محتاطاً مادام عيبه مستور، فانّ هتك وافتضح أمره فلا يراع شيئاً، وناهيك عن كل ذلك فان هتك العيوب مدعاه لاشاعه الفاحشه فى المجتمع وتلوث الآخرين بارتكاب الذنب. ومن هنا ورد التأكيد فى الروايات والأحاديث على كتم السر على أنّه حق من حقوق المؤمنين على بعضهم البعض الآخر. فقد جاء فى الحديث: «واكتم سره وعيبه واظهر منه الحسن» (۳). وعن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال: «من ستر على مؤمن عوره يخافها ستر اللّه

۱- ۱) بحارالانوار ۲۴ / ۱۲۸ ح ۱۳. [۱]

۲- ۲) بحارالانوار ۶۷ / ۵۹ (باب القلب وصلاحه) . [۲]

۳- ۳) أصول الكافى ۲ / ۲۴۹ ح ۳ (باب ان المؤمن صنفان) . [۳]

علیه سبعین عوره من عورات الدنیا والآخره» (۱)فقد أشار الإمام علی علیه السلام إلی هذه الوصیه الإسلامیه وأعلن طاعته وامتثاله لها، وبالطبع فقد قلنا إنّما یکون ذلک مالم تقود تلک العیوب التی یراد سترها إلی بعض المشاکل الاجتماعیه التی تهدد کیان المجتمع، وإلّا فالوظیفه تقتضی إعلان الحقائق. ولکن لاینبغی التذرع بهذا الاستثناء من أجل هتک عیوب الناس وأسرارهم.

۱- ۱) اصول الکافی ۲ / ۲۰۰، ح ۵. [۱]

القسم الثالث: اليوم أكشف الحجاب

اشاره

«الْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْماءَ ذاتَ الْبَيانِ! عَزَبَ رَأْىُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّى! مَا شَكَكْتُ فِى الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ! لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عليه السلام خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَهِ الْجُهّالِ وَدُوَلِ الضَّلالِ الْيَوْمَ تَواقَفْنا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْباطِلِ. مَنْ وَثِقَ بِماءٍ لَمْ يَظْمَأْ» .

الشرح والتفسير

لقد تضمن هذا القسم من الخطبه عدّه عبارات أشارت لعده اُمور مهمّه، ويبدو أنّ هنالك عدّه جمل تخللت هذه العبارات قد أسقطها السيد الرضى رحمه الله حين التلخيص، فقد كانت عاده السيد فى إختيار مقتطفات من الخطب وحذف بعض العبارات، على كل حال فانّ الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام هنا هو قوله: «اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان» . والعجماء البهيمه التى لاـنطق لها، إلّاأنّها تطلق أحيانا على الحوادث والقضايا الصماء التى ليست لها قابليه على النطق. ومن هنا يرى أغلب شرّاح نهج البلاغه أنّ المراد بالعجماء الحوادث التى تنطوى على العبر والدروس التى حدثت على عهد الإمام عليه السلام أو العهود الماضيه وكل حادثه مع غموضها وخفائها فكأنّها تنطق لأولى الألباب. فالإمام عليه السلام يتعرض لبيان عبرها ودروسها التى ينبغى أن يتعظ بها المسلمون. كما ذهب البعض إلى أنّ المرادبها صفاته الكماليه عليه السلام أو الأوامر الإلهيه فكأنّها هى الاُخرى صامته والإمام عليه السلام يكشف عن منطقها. ثم قال عليه السلام فى العباره الثانيه: «عزب رأى إمرئ تخلف عنى، ما شككت فى الحق مذ اُريته» فى الواقع يبدو صدر وذيل هذه العباره من قبيل العله والمعلول أو الدليل والمدعى، وإذا أخذ بنظر الاعتبار تربيه الإمام عليه السلام فى

حضن النبی صلی الله علیه و آله علی الحق والاستقامه وبفضله کاتب الوحی وشاهد المعاجز والأعظم من ذلک کونه باب مدینه علم رسول الله صلی الله علیه و آله إلی جانب علمه بالشهود إضافه لعلمه بالظاهر فانّ کلامه علیه السلام لایعرف معنی للاغراق والمبالغه قط. واحتمل بعض الشرّاح أنّ جمله «عزب رأی إمرئ. . .» من قبیل الدعاء؛ أی بعدا وترحا لمن تخلف عن أوامری. ویبدو المعنی الأول أنسب، أمّا العباره الثالثه فقد أورد فیها الإمام علیه السلام رداً علی سؤال قد یقتدح فی ذهن البعض بعد موقعه الجمل وهو: لم کان الإمام علیه السلام قلقاً من أحداث تلک الموقعه؟ فالإمام علیه السلام یجیب بانّ هذا القلق لیس علی نفسه قط، بل خشیه من تسرب الشک والریب إلی قلوب عوام الناس بفعل إقتحام المیدان من قبل زوج النبی صلی الله علیه و آله وبعض الصحابه من قبیل طلحه والزبیر وارتفاع الأصوات المطالبه بدم عثمان؛ کالقلق الذی عاشه موسی علیه السلام حین واجهه السحره بسحرهم خشیه غلبتهم واضلال الناس «لم یوجس موسی علیه السلام خیفه علی نفسه بل أشفق من غلبه الجهال ودول الضلال» . وهی إشاره إلی الآیات التی وردت فی سوره طه بشأن موسی علیه السلام والسحره «قالُوا یا مُوسی إِمّا أَنْ تُلْقِیَ وَ إِمّا أَنْ نَکُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقی * قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِیُّهُمْ یُخَیَّلُ إِلَیْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَ نَّها تَسْعی* فَأَوْجَسَ فِی نَفْسِهِ خِیفَهً مُوسی» (۱). أمّا فی العباره الرابعه فیحذر من تبقی من مثیری فتنه الجمل فی أننا وإیّاکم قد وقفنا علی مفترق طرق نتجه فیه إلی الحق بینما تتجهون نحو الباطل «الیوم توافقنا (۲)علی سبیل الحق والباطل» . کأنّ الإمام علیه السلام یقول لهم، افتحوا أعینکم وانظروا إلی ما أنتم علیه فانکم إنّما خرجتم علی إمام زمانکم! لقد نکثتم البیعه ولم تقیموا حرمه للمواثیق! لقد شققتم عصا المسلمین وفرقتم صفوفهم! وسفکتم دماءاً غزیره! وقلدتم أنفسکم مسؤولیه کبری ستطیل وقوفکم أمام اللّه یوم القیامه! ارجعوا إلی رشدکم واعیدوا النظرا فی أوضاعکم! . وأخیراً یختتم الإمام علیه السلام خطبته بقوله: «من وثق بماء لم یظلمأ» مراده علیه السلام أنّ من کان له واعظ وقائد موثوق لایتسلل إلیه الشک والترديد والوساوس الشیطانیه والقلق والاضطراب وإنعدام الثقه؛ وذلک لأنه یری نفسه علی جرف ماء المعرفه الفرات العذب ویلوذ بامامه عند الفزع فیأتمر بأوامره

۱- ۱) سوره طه / ۶۵ - ۶۷. [۱]

۲- ۲) «توافقنا» من ماده «الوقوف» والقاف مقدمه علی الفاء.

والاستضاءه بنور علمه. وأنتم كذلك لو عرفتم زعيمكم ووثقتم به فاعلموا أنّكم سائرون على الحق وآمنون من كافه أشكال الشكوك و الأهواء النفسيه والوساوس الشيطانيه.

الصراع بين الحق والباطل

لقد شبه الإمام عليه السلام الحق والباطل بطريقين سلك فريق أحدهما والآخر الثانى، وإذا أردنا تفسير هاتين المفردتين باختصار، فلابدّ أن نقول بانّ الحق هو الواقع والباطل هو الخيال والسراب الذى يحسبه الظمآن ماء. ومن هنا فان الذات الإلهيه المقدسه التى تعدّ أعظم من كل واقع اكتسبت أول اسم وهو الحق، وغيره على الحق بقدر إرتباطه به وكلما ابتعد عنه فهو على الباطل. فعالم الإمكان لانتمائه للّه فهو حق، وهو باطل لامتزاجه ببعض جوانب العدم. فالعالم ميدان لصراع الحق والباطل وقد صور القرآن الكريم أبعاد هذا الصراع وعاقبته نتائجه بمثال رائع فى سوره الرعد حيث قال: «أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءاً فَسالَتْ أَوْدِيَهٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَ مِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَهٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذ لِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الحَقَّ وَالباطِلَ فَأَمّا الزَّبَدُ فَيَذهَبُ جُفاءاً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرضِ كَذ لِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثالَ» (۱).

۱- ۱) سوره الرعد / ۱۷. [۱] للوقوف على تفاصيل هذا المثل القرآنى راجع تفسير الأمثل / ۱۰ [۲] ذيل هذه الآيه.

الخطبه الخامسه

اشاره

ومن خطبه له علیه السلام

لما قبض رسول اللّه صلی اللّه علیه وآله وسلم وخاطبه العباس وابوسفیان بن حرب فی أن یبایعا له بالخلافه (و ذلک بعد أن تمت البیعه لأبی بکر فی السقیفه وفیها ینهی عن الفتنه ویبین عن خُلقه وعلمه) (۱).

نظره إلی الخطبه

هذه واحده من الخطب التی نقلت عن الإمام علیه السلام فی أنّها خطبها قبل خلافته. والذی یستفاد من هذه الخطبه والمقدمه التی أوردها الشریف الرضی (ره) علیها أن أباسفیان والعباس إنطلقا إلی علی علیه السلام بعد وفاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله (و لعل أباسفیان دفع العباس إلی ذلک) واقترحا علی الإمام علیه السلام النهوض بالأمر والبیعه له علی أنه خلیفه رسول الله صلی الله علیه و آله. إلّاأنّ الإمام علیه السلام الذی کان یحرص علی بیضه الإسلام واستناداً إلی علمه التام بالظروف التی کانت تهدد الدین آنذاک وضروره قبر المؤ امرات والفتن فی مهدها لیس فقط لم یجبهم لتلک البیعه نحسب، بل حذرهما بکل صرامه من مغبه هذا العمل ونصحهما بالابتعاد عنه. ولما کان علیه السلام

۱- ۱) لقد نقلت هذه الخطبه من سائر المصادر الأُخری غیر نهج البلاغه. [۱] ومن بین مصادر نهج البلاغه ماروی عن کتاب المحاسن والمساوئ للبیهقی، ۲ / ۱۳۹، تذکره الخواص للسبط الجوزی والاحتجاج للطبرسی ۱/۱۲۷ [۲] کما یستفاد من کلمات ابن أبی الحدید أنّه نقل هذه الخطبه من طرق اُخری.

عالما ببعض المغرضين أو الجهال الذين قد يشكلون على سكوته فقد رد عليه السلام على هذا الإشكال، ثم إختتم كلامه ببيان مدى عشقه للموت وانطوائه على العلم الذى لايسع الآخرين سماعه فضلا عن احتماله. ولم يأذن له فى الكشف عن أسراره.

ص:۲۸۶

القسم الأول: احذروا مثيرى الفتن

اشاره

«أَيُّها النّاسُ شُقُّوا أَمْواجَ الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجاهِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنافَرَهِ، وَضَعُوا تِيجانَ الْمُفاخَرَهِ. أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَناحٍ، أَوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ. هَذَا مَاءٌ آجِنٌ، وَلُقْمَهٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا. وَمُجْتَنِى الثَّمَرَهِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِيناعِها كالزّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ» .

الشرح والتفسير

إنّ سبب هذه الخطبه هو: لما قبض رسول اللّه صلى الله عليه و آله واشتغل على عليه السلام بغسله ودفنه وبويع أبوبكر فى سقيفه بنى ساعدّه، خلا الزبير وأبوسفيان بالعباس عم النبى صلى الله عليه و آله وقال: امّا واللّه إنى لأرى عجاجه لايطفئها إلّاالدم، يا لعبد مناف، فيم أبوبكر من أمركم، مابال هذا فى أقل حى من قريش. ثم قال لعلى عليه السلام أبسط يدك أبايعك، فو اللّه إن شئت لأملأنها على أبى فضيل - يعنى أبابكر - خيلاً ورجلاً، فامتنع على عليه السلام حيث كان يعلم الإمام عليه السلام بأنّه لاينشد سوى الفساد والفتنه ومن هنا خطب هذه الخطبه. (۱)واورد المؤرخ المعروف ابن أثير فى كتابه الكامل أنّ علياً عليه السلام ردّ على أبى سفيان بانّك تريد الفتنه ولاتضمر للإسلام سوى الشر فلا حاجه لنا بنصحك. (۲)ومن هنا تتضح أجواء الخطبه وسهوله تفسير ماورد فيها من عبارات. فقد أشار عليه السلام فى القسم الأول من هذه الخطبه إلى أربعه مواضيع مهمّه. فقال عليه السلام: «أيّها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاه وعرجوا (۳)عن طريق المنافره (۴)، وضعوا تيجان المفاخره» .

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لإبن ميثم ۱ / ۲۷۶.

۲- ۲) الكامل لابن أثير ۲ / ۳۲۶. [۱]

۳- ۳) «عرجوا» من ماده «تعريج» بمعنى الرغبه أو الترغيب وهى هنا بمعنى الاعتزال.

۴- ۴) «المنافره» حسب قول صاحب مقاييس اللغه تعنى التحاكم لدى القاضى ومن لوازمها النزاع والمخاصمه.

قوله علیه السلام أیّها الناس یفید حضور عدد کبیر من الناس فضلاً عن ذانک الفردین. ویؤید هذا المعنی بعض الروایات الوارده بهذا الشأن. والنقطه الجدیره بالذکر أنّ الإمام علیه السلام شبه الفتن بالأمواج العاتیه الکاسحه والتی یوصی بمجابهتها من خلال الاعتصام بسفن النجاه. والمراد بسفن النجاه تلک السفن العملاقه التی تشق عباب البحر ولاتصمد أمامها الریاح العواتی فتبلغ برکابها شاطئ الأمان، ویراد بهم هنا الزعماء الربانیین ولاسیما أهل بیت النبی صلی الله علیه و آله (۱)، أی إسمعوا وأطیعوا لما نقول لا لما تریدون، وللتأکید علی هذا المعنی فقد شبه علیه السلام التفاخر القبلی والفئوی بالطریق الخطیر المرعب الذی ینبغی إجتنابه (لابدّ من الالتفات هنا إلی أنّ المعنی الأصلی للمنافره هو أن یذکر کل واحد من الرجلین مفاخره وفضائله، ثم یتحاکما إلی ثالث) - فالواقع هو أنّ الإمام علیه السلام أراد بهذا الکلام القیم أن یرکز علی العامل الأصلی لآلام البشریه ومعاناتها، التی تفرزها علی الدوام الحروب الدمویه والاختلافات والنزاعات والاقتتالات التی تستند إلی التفاخر؛ فاذا ما حطم هذا الصنم أمکن حل کافه مشاکل المجتمعات البشریه وعاد إلی الدنیا الأمن والصلح والسلام. طبعا صحیح أنّ طلاب القدره والمنصب إنّما یتقنعون بالدفاع عن حقوق المجتمع وحفظ القیم والمثل، ولکن لیس هنا لک من یشک فی أنّهم إنّما یتظاهرون بهذه الشعارات من أجل تحقیق أغراضهم ومآربهم بغیه التفاخر علی الآخرین. ثم قال علیه السلام: «أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فاراح» (۲). فالإمام علیه السلام أشار إلی نقطه أساسیه هی أنّ القیام بالحق تتطلب بعض الشرائط؛ فلو توفرت هذه الشرائط لما ترددت فی القیام بالأمر، أمّا إذا لم تتوفر فالعقل والمنطق والدین لایحکم بأنّ القیام لیس بمجدٍ فحسب، بل من شأنه أن یثیر الفرقه والاختلاف والاذی والمعاناه للآخرین کما یؤدی إلی القضاء علی القوی الناهضه بالحق، وهذا أصل من الأُصول الثابته التی ینبغی رعایتها فی کافه الانشطه الاجتماعیه ولاسیما فی النهضات والثورات السیاسیه. أمّا النقطه الأُخری التی تطرق إلیها الإمام علیه السلام فانّما تکمن فی

۱- ۱) جاء فی الروایه المشهوره عن النبی صلی الله علیه و آله: «مثل أهل بیتی کسفینه نوح من رکبها نجی ومن تخلف عنها غرق» . امّا قول ابن أبی الحدید أن هذا الحدیث صحیح الا ان أهل البیت علیه السلام لم یرادوا بهذه اللفظه فهو خاطئ. فقد أراد الإمام علیه السلام بهذه العباره أن اسمعوا لما آمرکم به وأَطیعوا ولاتتبعوا ما تملیه علیه إرادتکم.

۲- ۲) لابدّ من الالتفات هنا ألی الفعل (أراح) قد یأتی لازما أحیانا ومتعدیا أحیانا أُخری، ومفهومه علی ضوء المعنی الأول أراح نفسه بینما معناه أراح الآخرین متعدیا.

مسأله الخلافه والأخذ بزمام اُمور الاُمّه التی جعلها البعضی شماعه لیجیزوا حتی الوسائل غیر المشروعه من أجل الوصول إلیها فقال علیه السلام: «هذا ماء آجن (۱)، ولقمه یغص (۲)بها آکلها» . فحیاه الإنسان متقومه بالماء والغذاء، ولکن أی ماء وغذاء؟ طبعا الماء النقی والغذاء الزکی، فالإمام علیه السلام شبه هنا طبیعه الحکومه بالماء المتعفن والغذاء الغصه. والحق کما صوره الإمام علیه السلام، فالإنسان کلما إقترب من حیاه الحکام والساسه إکتشف مدی عظم مشاکلهم وشده إستیائهم ووخامه أوضاعهم، فلیس لهم من هدوء ولاسکینه کما لیس لهم من أمن أو إستقرار. ولیس لهم سوی المظاهر الکاذبه الفارغه التی لاتنطلی سوی علی بعض السذج. وبالطبع فان أولیاء اللّه یسارعون لاحتواء هذه المشاکل ویتحملون کافه الصعاب والمعضلات کما یضحون بهدوءهم واستقرارهم خدمه لدین اللّه وعباده. کما ذهب البعض إلی أنّ اسم الإشاره (هذا) یشیر إلی نوع الحکومه التی إقترحها أبوسفیان. علی کل حال صحیح أن الحکومه کالماء الذی یعدّ قوام حیاه الامم، إلّاأنّها کانت ومازالت مطمع أهل الدنیا الذین هبوا بکل قوه لمنازعه أولیاء اللّه علی تلک الحکومه فلوثوا هذا الماء کما جعلوا طعام الحیاه غصصاً؛ الأمر الذی جعل الأولیاء یترفعون عنها ویعلنوها صراحه «لولا حضور الحاضر وقیام الحجه. . . لألقیت حبلها علی غاربها ولألفیتم دنیاکم هذه أهون عندی من عفطه عنز» . امّا فی النقطه الرابعه فیشیر إلی أحد أبعاد هذه المسأله وهو أن من أراد القیام بالأمر لتشکیل الحکومه الإسلامیه فلابدّ أن تکون المقدمات والظروف معده لذلک أو أن یتولی هو تهیئه هذه الظروف وإلّا فلیست هنالک من قیمه أو أثر لهذا القیام ولایتمخض سوی عن الهزیمه والفشل - فقد قال الإمام علیه السلام بهذا الشأن: «و مجتنی الثمره لغیر وقت إیناعها (۳)کالزارع بغیر ارضه» . وقد ذهب بعض شرّاح نهج البلاغه إلی أنّ الضمیر فی (بغیر أرضه) یعود إلی الزارع ومفهوم العباره: کمن زرع فی غیر أرضه ولاینتفع بذلک الزرع بل یعود ثمره علی الآخرین؛ إلّاأنّ

۱- ۱) «آجن» من ماده «أجن» علی وزن ضرب واجون المتعفن المتغیر اللون والطعم وقد وردت هنا کإشاره للخلافه.

۲- ۲) «یغص» من ماده «غصص» علی وزن هوس بمعنی صعبه الابتلاع.

۳- ۳) «ایناع» من ماده «ینع» علی وزن منع بمعنی النضج والبلوغ، وعاده ما تستعمل هذه المفرده بشان نضج الثمار، کما تأتی بهذا المعنی أیضاً إذا جاءت من باب الافعال.

ضعف هذا التفسير يبدو واضحاً من خلال كلام الإمام عليه السلام الذى قرن ذلك بجنى الثمار غير الناضجه. وهنا لابدّ من القول بانّ هـذه العبارات قد تناولت الأُصول الأساسيه والدروس القيمه المعتمده فى تشـكيل الحكومات الإلهيه؛ الأمر الذى يدعو دعاه الحق وعشاق العداله لعدم الانفعال بالعواطف والاحاسيس العابره والاقتصار على الدراسات المحدوده من أجل ممارسه أنشطتهم وعليهم أن يتربصوا بكل أُناه وتحسب للوقوف على توقر الشـروط وتأهب القوى وإن إحتاج هذا الأمر لمدّه من الزمان، على غرار المزارعين الـذين لايقصـدون قطف الثمـار غير الناضـجه رغم حاجته القصوى لهـذه الثمار من أجل توفير قوته أو تسويقها وبيعها بغيه تغطيه حاجـاته الأساسـيه، أضف إلى ذلـك فـانّ المزارع المـاهر لايغرس بـذوره فى أرض ليست خصـبه أبـدا، بل يتأنى قبل ذلك بحرث الأرض وسقيها بالماء ثم ينثر بذره.

سكوت الإمام عليه السلام بعد النبى صلى الله عليه و آله

يتساءل الكثيرون لماذا لم ينهض الإمام على عليه السـلام بالأمر بـدلاً من السـكوت رغم كونه الأجـدر والأحق بخلافه رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى جانب تأكيدات النبى صلى الله عليه و آله على إستخلافه بما يثبت أنّ الخلافه من حقوقه المسلمه بل من حقوق الأُمّه الإسلاميه؟

و يبدو أنّ الإجابه على هذا السؤال قد وردت فى العبارات القصيره البعيده المعنى فى هذه الخطبه، حيث ذكر بعض الأسباب التى دعته لعدم القيام والنهوض بالأمر. أولها عدم إنطواء الأفراد - كابى سـفيان - على حسن النيه فى اقتراح النهوض بالأمر والتصدى للخلافه، أو أنّهم - كالعباس - كانوا ممن دفعوا من أصحاب الاغراض السيئه؛ الأمر الذى جعل الإمام عليه السلام يتعامل مع هذه الاقتراحات كفتن وبلا بل تسـتهدف القضاء على المسـيره ولم يكن معه الا القليل، وهذا ما صـرّح به الإمام عليه السـلام: «فنظرت فاذا ليس لى معين إلّاأهل بيتى، فضـننت بهم عن الموت، وأغضـيت على القذى. وشربت على الشجا، وصبرت على أخذ الكظم، وعلى أمر أمرّ من طعم العلقم» (۱)وناهيك عن كل ذلك فانّ الخلافه والحكومه لم تكن هدفا بالنسبه

۱- ۱) نهج البلاغه، الخطبه ۲۶. [۱]

للإمام علیه السلام حیث کان یراها الإمام علیه السلام کالماء الآسن المتعفن والطعام المنغص؛ بل یراها وسیله لاحقاق الحق وإبطال الباطل «قال عبدالله بن عباس: دخلت علی أمیرالمؤمنین علیه السلام بذی قار وهو یخصف نعله. فقال لی: ما قیمه هذا النعل؟ فقلت: لا قیمه لها! فقال علیه السلام: والله لهی أحب إلی من إمرتکم، إلّاأن أُقیم حقا، أو أدفع باطلاً» (۱). إلّاأنّ الإمام علیه السلام حین یری هذا القیام لایؤدی إلی تحقیق الهدف، بل بالعکس إنّما یثیر الخلاف والشقاق والفرقه فی صفوف المسلمین ولعله یتیح الفرصه للمنافقین الذین یتربصون بالاسلام الدوائر فلا یری هناک من سبیل سوی الصمت والسکوت. وقد أورد ابن أبی الحدید أن فاطمه علیها السلام حدثت الإمام علیه السلام بالنهوض بالأمر، فلما ارتفع صوت المؤذن «أشهد أنّ محمداً رسول الله» إلتفت إلیها قائلاً: أیسرک زوال هذا النداء من الأرض؟ قالت: لا. قال: فلابدّ من الصبر والسکوت (۲). وبغض النظر عمّا تقدم فان کل عمل - ولاسیما النهضات الاجتماعیه الإسلامیه - یتطلب بعض المقدمات ولابدّ من توفر کافه الشروط اللازمه، وإلّا فلیست هنالک من نتیجه سوی الهزیمه والفشل والخذلان وهدر طاقات الأُمّه وتبدید قواها، وهذا الأمر أشبه بقطف الثمار غیر الناضجه أو نثر البذور فی الأرض المالحه. ومن هنا کان الإمام علیه السلام قیامه یکمن فی السکوت والصمت.

۱- ۱) نهج البلاغه، الخطبه ۳۳. [۱]

۲- ۲) شرح نهج البلاغه لإبن أبی الحدید ۱۱ / ۱۱۳. [۲]

القسم الثانی: تری ماالعمل مع المتربصین؟!

اشاره

«فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا: حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا جَزِعَ مِنَ الْمَوْتِ! هَيْهاتَ بَعْدَ اللَّتَيا وَالَّتِي! وَاللّهِ لابْنُ أَبِي طالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرابَ الْأَرْشِيَهِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَهِ» .

الشرح والتفسیر

یتعرض الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبه إلی الحجج والذرائع الواهیه المتضاربه التی یردها الجهال والحساد علی الإمام علیه السلام. فیقول الإمام علیه السلام إنّ هذه القلوب العمی والبصائر الخافته لا تنفک تعترض علی فی کل موقف اتخذه، فان اتحدث عن أحقیتی بالخلافه وعدم صلاحیه الآخرین لها، فالبی دعوه الأُمّه یتخرصون بأنّی حریص علی الحکومه، وأنّ آثرت الصمت والسکوت صوروه خوفا من الموت: «فان أقل یقولوا: حرص علی الملک وإن أسکت یقولوا: جزع من الموت» . نعم فهذا هو الاسلوب الرخیص الذی ینتهجه الجهال والمتخرصین لیعترضوا علی أولیاء اللّه فی کل حرکه وسکنه وموقف یمارسونه، وهم لایتحفظون حتی عن التناقض والتضارب فی هذا المجال، فان قاموا أشکلوا علیهم وإن قعدوا أشکلوا کذلک. ومن هنا فان المؤمنین لایعیرون هذه التناقضات أیه آذان صاغیه. ویبدو أنّ هذا هو الأمر الذی أشار إلیه الإمام الصادق علیه السلام فی الحدیث المروی عنه أنّه قال: «إنّ رضی الناس لا یملک

وألسنتهم لا تضبط» (۱). كما ورد شبيه هذا المعنى فى الخطبه ۱۷۲ من نهج البلاغه: «و قد قال قائل: إنّك على هذا الأمر يابن أبى طالب حريص، فقلت: بل أنتم واللّه لأحرص وأبعد، أنا أخص وأقرب، وإنّما حليت حقاً لى وأنتم تحولون بينى وبينه، وتضربون وجهى دونه، فلما قرعته بالحجه فى أعلاـ الحاضرين هب كأنّه بهت لايدرى ما يجيبنى به» ثم يواصل كلامه عليه السلام فى إطار ردّه على من فسّر سكوته بالخوف من الموت متعجباً من ذلك وهو الذى ثبت حين نكصت الأبطال فى بدر وأحد وحنين والاحزاب وخيبر التى أثبتت مدى ولهه وشغفه بالشهاده وله الرضيع بثدى اُمه: «هيهات بعد اللتيا والتى! واللّه لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى اُمه» . غير أن سكوتى يستند إلى علم بخفايا الاُمور لاتطيقون سماعه «بل إندمجت (۲)على مكنون علم لو بحت (۳)به لاضطربتم إضطراب الارشيه (۴)فى الطوى (۵)البعيده» .

تأمّلات

۱ – سوابق الإمام عليه السلام

يشير الإمام عليه السلام باختصار إلى الشجاعه والبساله التى أبداها فى الغزوات والمعارك الإسلاميه وفى بعض المواضع الخطيره كمبيته على فراش رسول اللّه صلى الله عليه و آله وما إلى ذلك ليذكر أولئك المرضى الذين يشكلون عليه بأنّه لايخشى أيه حادثه مروعه وقدخرج مرفوع الرأس من كل تلك الاختيارات والتمحيصات، وعليه فسكوتى لايقوى دليلاً على ضعفى قط؛ وليس

۱- ۱) بحارالانوار ۶۷ / ۲؛ [۱]تفسير نور الثقلين ۱ / ۴۰۵. [۲]

۲- ۲) «اندمجت» من ماده «اندماج» الانطواء وهى هنا إشاره للاسرار المودعه قلب الإمام عليه السلام.

۳ – ۳) «بحت» من ماده «بوح» على وزن لوح بمعنى الاعلان وترك الكتمان ومن هنا يطلق «الباحه» على المحيط الواسع و «المباح» على الأعمال الجائزه.

۴ – ۴) «أرشيه» جمع «رشاء» على وزن رضاء بمعنى الحبل الطويل، ومن هنا سميت الرشوه لأنّها كالحبال التى تتصل بالدلو ليسحب الماء من البئر.

۵- ۵) «طوى» من ماده «طى» و هى البئر العميقه البعيده.

وراء هذا السكوت سوى مصالح الإسلام والمسلمين، ثم يستشهد على ذلك بالمثل العربى المعروف فيقول «بعد اللتيا والتى» .

و قصه هذا المثل أنّ رجلًا تزوج من إمرأه كانت قصيره القامه وصغيره وسيئه الخلق فذاق منها الأمرين حتى طلقها. ثم تزوج من إمرأه طويله القامه فآذته كسابقتها حتى اضطر لطلاقها، فلما عرضى عليه الزواج قال: «بعد اللتيا والتى لا أتزوج أبداً» فصار ذلك مثلًا يضرب من أجل الحوادث الكبيره والصغيره، فالإمام عليه السلام يشير إلى أنّه إجتاز كل تلك الحوادث والخطوب فهل من سبيل إلى الخوف والخشيه.

٢ – لم أخاف الموت؟ !

القضيه الأُخرى التى أشار إليها الإمام عليه السلام قوله: «لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى اُمه» . فالثدى ولبن الأُم أساس حياه الطفل، ومن هنا فان هذا الطفل يعيش حاله من الجزع والانين والصراخ إذا ما جرد من هذا الثدى وكأنّه سلب الدنيا برمتها، فاذا عاد إليه سكن وقر وشعر بالفرح والسرور وكأنّه نال الدنيا بما فيها؛ إلّاأنّ هذه العلاقه مهما كانت فهى تستند إلى الغريزه؛ أمّا علاقه الإمام عليه السلام والعرفاء بالموت ولقاء اللّه (و لا سيما الشهاده فى سبيل اللّه) فهى علاقه قائمه على أساس العقل والمنطق والعشق. فهم لايرون الموت سوى إنطلاقه الحياه الجديده فى ذلك العالم الأوسع والأشمل. يرون الموت نافذه على عالم البقاء والخلود والخلاص من هذا السجن وتحطيم قيوده وأغلاله والتحليق نحو العالم العلوى ومجاوره الرحمن. فهل من عاقل يتردد فى التحرر من قضيان السجن والخلاص من هذه القيود والانحلال (١). نعم إنّما يخشى الموت من يراه فاتحه لكل شىء وبدايه للعذاب الذى ينتظره بفعل ما قارفه من رذائل وفواحش. فأنى للإمام عليه السلام بالخوف من الموت وهو ما عليه من المعارف والعلوم والسمو والرفعه؟ ومن هنا يقسم عليه السلام بانّه آنس بالموت من الطفل بثدى اُمه. كما قال فى موضع آخر: «فواللّه ما اُبالى دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلى» (٢). بل هذا ماجسده عمليا حين ضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه فصرخ قائلًا: «فزت وربّ الكعبه» (٣).

---

١ – ١) لقد تناول أحد الشعراء المعروفين هذه الحاله ليشبهها بنوعين من الأفراد، طائفه قليله المعرفه فهى كالثمار الخام التى تلتصق بشده فى الشجره، واُخرى عارفه وهى كالثمار الناضجه التى تتساقط بيسر وسهوله من الشجره.

٢– ٢) نهج البلاغه، الخطبه ٥٥. [١]

٣– ٣) بحارالانوار ٤٢ / ٢٣٩. [٢]

۳ – لم السكوت؟

قال الإمام عليه السلام: «بل انطويت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم إضطراب الارشيه فى الطوى البعيده» . ومن الواضح أنّ الآبار كلما كانت أعمق كان اضطراب الحبال فيها أكثر. ولكن ماهو المراد بهذه الأسرار والعلم الذى إنطوى عليه الإمام عليه السلام؟ يبدو أنّ هنالك احتمالات كثيره أوردها شرّاح نهج البلاغه بهذا الشأن. فمنهم من فسّره بوصيه النبى صلى الله عليه و آله له بالسكوت وعدم النهوض بالأمر والاشتباك مع الجماعه. ومنهم من فسّره بعلمه عليه السلام بعواقب الأُمور ومصالح ومفاسد المجتمع الإسلامى والذى دعاه لاتخاذ موقف السكوت. ومنهم من فسّره بعلمه عليه السلام بعالم الآخره؛ أى أنى لأعلم بمسائل الآخره بما لو بحت لكم به لما وسعكم الاستقرار ولعشتم الاضطراب. وهناك من فسّره بالقضاء والقدر الذى قدر لهذه الأُمّه. ولكن لايبدو أى من هذه التفاسير منسجم ومضامين الخطبه وماورد قبلها وبعدها من عبارات، ونرى الصحيح بأن تفسر هذه العباره بالأحداث والتغييرات التى وقعت إبان الصحابه وادعياء الإسلام بعد وفاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأُولئك الذين كانت تراهم الأُمّه على الحق وهم باطل وضلال، وأُولئك الذين اندفعوا بالأمس خلف رسول اللّه صلى الله عليه و آله وشهروا سيوفهم بوجه الكفر والشرك بينما تخندقوا اليوم فى صفوف المنافقين وقد باعوا دينهم بدنياهم ولو عرفهم الناس لتعجبوا وذهلوا. «بل اندمجت على مكنون علم لوبحت به لاضطريتم اضطراب الارشيه فى الطوى البعيده» . فمن يصدق أنّ طلحه والزبير الذين قاتلا فى ركاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله سيشعلان يوما نار حرب الجمل؟ ومن يصدق أن أحد أزواج النبى صلى الله عليه و آله وأم المؤمنين – عائشه – ستكون يوماً وسيله بيد المنافقين فتقود معركه يروح ضحيتها أكثر من عشره آلاف شخص؟ وعدد لا يحصى من قبيل هذه الأسئله. فإذا كان الأمر كذلك فكيف استند إلى مثل هؤلاء الأفراد وأنهض بالأمر.

الخطبه السادسه

اشاره

ومن كلام له عليه السلام

لما أشير عليه بَالاّ يتبع طلحه والزبير ولا يرصد لهما القتال

وفيه يبيّن عن صفته بأنّه عليه السلام لا يخدع (۱).

نظره إلى الخطبه

حين نكث طلحه والزبير البيعه وقصدا عائشه فى البصره واستوليا عليها، إعتقد البعض بأنّ الإمام عليه السلام لن يصطدم بهما وسيتركهما ريثماً يوطد دعائم خلافته فلا تمرّ مدّه حتى يعلنا إستسلامها. فالإمام عليه السلام يستهل خطبته بأنّ هذا الكلام خطأ محض وأنى لن أقف مكتوف الايدى لتشتد قوه العدو فيباغتنى. ثم يبيّن عليه السلام عزمه الراسخ على مقاتله هؤلاء والزحف إليهم بجنده المطيع، ثم يعلن أنّ هذا هو الاسلوب الذى سيتبعه إلى آخر حياته. وأخيراً يختتم الخطبه بالإشاره إلى هذه الحقيقه فى أنّ هذه المخالفه والاعتراض ليست بالشىء الجديد وأنّ جذورها تمتد إلى زمان رحيل رسول اللّه صلى الله عليه و آله ومازالت مستمره ليومنا هذا.

«وَاللّه لا أكُونُ كَالضبع تنام على طول اللدم، حتى يصل إليها طالبها، ويختلها راصدها، ولكنى أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصى

۱- ۱) كثر الكلام بين الشرّاح والمفسرين بشأن من أشار بهذا على الإمام عليه السلام. فقد نسبه المرحوم الشيخ المفيد فى كتاب الجمل إلى إسامه بن زيد، بينما نسبه بعض المؤرخين والشرّاح من غير الإماميه للإمام الحسن عليه السلام، ولكن لايبدو هذا التفسير صحيحاً بالاستناد إلى الرابطه التى كانت قائمه بين الإمام الحسن عليه السلام وأبيه عليه السلام. الاحتمال الأخير فهو أنّ هذه الإشاره لم تكن من قبل فرد بل من قبل طائفه ضاله خلدت إلى الراحه والدعه.

المريب أبـدا، حتى يأتى على يومى. فواللّه مازلت مدفوعا عن حقى، مسـتأثرا علىّ، منذ قبض اللّه نبيه صـلى اللّه عليه وآله وسـلم حتى يوم الناس هذا.» (۱)

الشرح والتفسير

الحيطه والحذر تجاه الأعداء

لقـد رد الإمام عليه السـلام على اُولئك الـذين يقترحون عـدم مطارده طلحه والزبير الذين نقضا بيعتهما، فقال عليه السـلام: «واللّه لاأكون كالضبع (۲)تنام على طول اللدم (۳)حتى يصل إليها طالبها، ويختلها (۴)راصدها (۵)ويبدو أنّ المثل يضرب بالضبع على أنّه حيوان أبله يمكن صيده بكل سـهوله؛ حيث يقوم الصـياد بـدق قطعه من الحجر أو العصا أمام عش الضـبع فاذا نام تقـدم إليه الصياد ليصيده بسهوله. وقد سطرت الخرافات والأساطير بهذا الشأن ومن ذلك أن يخاطب الصياد الضبع فيقول له: يا ضبع نم فى عشك، ثم يكرر ذلك عـدّه مرات، فيتجه الضـبع إلى أقصـى غاره وينام. فينادى الصـياد: الضـبع ليس فى العش، الضـبع نائم، ثم يـدخل عليه العش فيربطه بحبـل ويخرجه من عشه ومن هنـا شـبه الأـفراد الـذين يعيشون الغفله تجـاه العـدو بالضـبع. أمّـا الوقـائع التأريخيه آنـداك فهى تشـير إلى سـذاجه الاـقتراح القاضـى بعـدم مطـارده طلحه والزبير؛ وذلـك لأن خطتهما كانت تسـتهدف السـيطره على البصـره والكوفه ثم يبايعهمـا معاويه ويأخـذ لهما البيعه من أهل الشام فتخضع أغلب المناطق الإسـلاميه لسـيطرتهما فلايبقى لعلى عليه السلام سوى المدينه. أضف إلى ذلك فان هؤلاء إستطاعوا أن يؤلبوا أكثر عدد ممكن من الناس من خلال

۱- ۱) أشـار مؤلف كتاب «مصادر نهـج البلاغه» [۱] إلى المصـادر الاُخرى التى نقلت هـذه الخطبه ومنها «تأريـخ الطبرى، أمالى الشيخ الطوسى، [۲] صحاح اللغه وغريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام» .

۲- ۲) «ضبع» على وزن سبع، يطلق أحيانا على القحط والجفاف لأنّه يأكل كل شيىء ويقضى عليه.

۳- ۳) «اللدم» حسب ما صـرّح به بعضـى أرباب اللغه هو صوت الحجر أو العصا أو غيرهما، تضـرب به الأرض ضـرباً غير شديد، ومن الطبيعى أنّ مثل هذا الصوت إذا تكرر يمكنه أن يؤدى إلى النوم.

۴- ۴) «يختلها» من ماده «ختل» على وزن ختم بمعنى الخداع والمخاتله بمعنى المشى بهدوء نحو الصيد بحيث لايهرب.

۵- ۵) «الراصـد» من ماده «الرصد» بمعنى المترقب ومن هنا يطلق على مراقبه المنجمين اسم الرصد كما يطلق على موضع الرصـد اسم المرصد.

الشعار الذى يطالب بدم عثمان حتى رسخ فى أذهان الناس أنّ قاتل عثمان هو على عليه السلام. ومن الواضح أنّ تلك الخطه كادت أن ترد الميدان عمليا لولا مبادره الإمام عليه السلام وتسريعه بمواجهه الفتنه حتى استطاع أن يقبر تلك المؤامره فى مهدها فتمكن من إنقاذ البصره والكوفه بل والعراق بأجمعه، ولولا المعارضه التى أبداها الجهال تجاه الإمام عليه السلام فى إطار تعامله مع ظلمه الشام لاراح المسلمين وإلى الأبد من شرهم ولعاد العالم الإسلامى برمته وحده واحده؛ غير أنّ المؤسف له - وكما أشير إلى ذلك فى ذيل الخطبه الشقشقيه - تعالت أصوات الجهال المغرضين الذين انطلت عليهم الدعايات ليوقفوا تلك المعركه التى كان النصر فيها للإمام عليه السلام قاب قوسين أو أدنى. ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه ليقول: «ولكنى أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصى المريب أبداً، حتى يأتى على يومى» .

طبيعى أنّ المجتمع لايتبنى الحق بجميع أفراده؛ فهناك ضعاف الإيمان وعبده الاهواء وأصحاب الجاه والمناصب الذين لايروق لهم إمام عادل حيث يهدد منافعهم اللامشروعه فيلجأون إلى أساليب الدعايه والخداع والكذب والزيف وإثاره الشائعات؛ الأمر الذى يدعو الساسه والحكام إلى الاجهاض على هذه العناصر الفاسده وإجتثاثها من المجتمع بصفتها غده سرطانيه يمكنها أن تلوث المجتمع، أو السعى للحد من نشاطهم وفعاليتهم ألم تكن مخاطرهم شديده، كما ينبغى على دعاه الحق أن يكونوا على أهبه الاستعداد على الدوام للانقضاض على هذه العناصر والقضاء عليها. وأخيراً يصف الإمام عليه السلام هذه المعوقات بأنّها ليست جديده وإنّما لها جذورها التى تمتد إلى زمان رحيل رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «فو اللّه مازلت مدفوعاً عن حقى، مستأثراً علىّ، منذ قبض اللّه نبيّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حتى يوم الناس هذا» فى إشاره إلى قضيه طلحه والزبير فى إنّها تأتى فى إطار حلقه مستمره منذ وفاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله ومازالت قائمه حتى اليوم. امّا تعبيره بمدفوعاً ومستأثراً فهى إشاره إلى المقاومه التى أبداها الأعداء حيال الإمام عليه السلام لزحز حته عن حقّه وتقديم الآخرين عليه، لأنهم لايطيقون عدله وشدته. أمّا قوله عليه السلام: «حتى يوم الناس هذا» - بالالتفات إلى إضافه اليوم إلى الناس - يمكن أن يكون إشاره إلى ذلك اليوم الذى كنت فيه وحيدا وقد غصبوا حقى، واليوم قدهب البعض لمخافتى رغم وجود هذه الأُمّه التى بايعتنى. والجدير بالذكر أن المرحوم الشيخ المفيد أورد فى إرشاده

عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: « هذا طلحه والزبير ليسا من أهل النبوه ولا من ذريه رسول اللّه صلى الله عليه و آله حين رأيا أنّ اللّه قد رد علينا حقنا بعد أعصر فلم يصبرا حولاً واحداً ولا شهراً كاملاً حتى وثبا على دأب الماضين قبلهما ليذهبا بحقى ويفرقا جماعه المسلمين عنّى» (۱).

تأمّل: رساله إلى جميع المسؤولين

لقد لقّن الإمام عليه السلام بهذه العبارات التأريخيه كافه الزعماء من أهل اليقظه والإيمان وساسه البلدان الإسلاميه درساً بليغاً فى التأهب لمواجهه الأعداء، ولاينبغى التخلى عن الفرصه بكل سهوله وعدم الاستسلام للحلول والاقتراحات التى يتقدم بها من يؤثر السكون ويخلد إلى الراحه والدعه. فقد شبه الإمام عليه السلام من ينخدع بهذه الاقتراحات ويفقد زمام المبادره فى تلك اللحظات الحساسه بالضبع، ويكمن وجه الشبه فى عدّه اُمور منها:

۱ - أنّ الضبع يشعر بوجود العدو إلّاأنّه ينام لسماع بعضى الأصوات التى يرددها؛ النوم الذى يؤدى به فى خاتمه المطاف إلى الأسر والموت.

۲ - أنّ الضبع يصطاد فى غاره.

۳ - لايبدى الضبع أدنى مقاومه للذب عن نفسه وإنّما يقع فى مخالبه بكل سهوله.

فالأفراد الذين لايتعاملون بحزم تجاه العدو ويبدون حاله من الضعف والوهن إزائه فهم كالضباع التى تنام فى مخادعها وتستسلم للقتل دون مقاومه.

و أخيراً فلايعنى هذا أن يقدم الإنسان على عمل دون التأنى والتامل والاستشاره والوقوف على كافه جوانبه؛ بل لابدّ من إستشاره ذوى الحجى والشجاعه واتخاذ القرار قبل فوات الأوان والأقدام فى الوقت المناسب.

۱- ۱) إرشاد المفيد ۱ / ۲۴۳، طبع دار [۱]النشر العلميه الإسلاميه.

الخطبه السابعه

اشاره

ومن خطبه له علیه السلام یذم فیها اتباع الشیطان

أتباع الشیطان

«اتَّخَذُوا الشَّیْطانَ لِأَمْرِهِمْ مِلاکاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْراکاً، فَباضَ وَفَرَّخَ فِی صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِی حُجُورِهِمْ فَنَظَرَ بِأَعْیُنِهِمْ وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ فَرَکِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَزَیَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِکَهُ الشَّیْطانُ فِی سُلْطانِهِ وَنَطَقَ بِالْباطِلِ عَلَی لِسانِهِ» . (۱)

الشرح والتفسیر

إنّ الخطبه رغم قصرها تصور بدقه أتباع الشیطان وکیفیه نفوذهم إلیهم، ومن ثم تبین الآثار الوخیمه والعواقب المشئوومه والطرق التی یسلکها الشیطان فی التغلغل إلی الإنسان والالقاء به فی شباکه وحبائله، فیتلاعب به کیفما یشاء. والحق أنّها تخدیر جدی لاتباع الحق فی ضروره توفی الحیطه والحذر من تسلل الشیطان والوقوف بوجهه حال الشعور بأدنی آثاره. والخطبه وإن تحدثت عن بعض الأفراد من قبیل طلحه والزبیر أو معاویه وأهل الشام

۱- ۱) جاء فی «مصادر نهج البلاغه» [۱] أن هذه الخطبه وردت فی ربیع الأبرار للزمخشری، ۱ / ۱۰۹ والنهایه لابن أثیر فی غریب الحدیث ۲ / ۵۰.

أو أصحاب النهروان الذين سقطوا فى فخ الشيطان، إلّاأنّها لاتقتصر عليهم البته، بل هى رساله واضحه (لكافه الأفراد من أجل مراقبه الشيطان وعدم فسح المجال أمامه.

فقد تكفّلت الخطبه بتبيين المراحل التى يعقبها تسلل الشيطان فى أتباعه، حيث شرحها الإمام عليه السلام بما عرف عنه من فصاحه وبلاغه وتشبيه رائع بحيث لايمكن تقديم صوره فنيه أروع من تلك التى رسمها الإمام عليه السلام. فقد أشار فى المرحله الاولى إلى أنّ هذا التسلل والنفوذ إلى الإنسان إختيارى ولايمت بصله إلى الاجبار. فالإنسان هو الذى يعطيه الضوء الأخضر ويدعه يلجه ويتصرف بوجوده حتى يجعله ملاكاً ومعياراً لنشاطاته وفعالياته «إتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً» . فملاك من ماده ملك بمعنى أساس الشيء ودعامته، كأن يقال القلب ملاك البدن، أى أن أساس وقوام البدن هو القلب وهذا هو الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم بوضوح على لسان آياته «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *إِنَّما سُلْطانُهُ عَلى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» (۱). بناءاً على هذا فالعباره المذكوره كالآيات القرآنيه بمثابه رد على أولئك الذين يتساءلون عن سلطه الشيطان على بنى آدم فيقولون: كيف سلط اللّه سبحانه هذا المخلوق الخطير على الإنسان ثم طالبه بعدم إتباعه. فالعباره تقول أنّ الشيطان لايخترق الجدران غيله، بل يأتى من الباب ويطرقها فان فتح له ولج وإلّا عاد من حيث أتى. صحيح أنّه يصر على طرق الباب دون الشعور بالكلل والملل، لكن بالمقابل هنالك الملائكه الذين يهبون لنجده الإنسان ويحذروه من مغبه فتح الباب. ثم أشار فى المرحله الثانيه إلى الانتخاب الذى يتولاه الشيطان بعد ذلك الانتخاب حيث يصطفى هؤلاء كاعوان وشركاء «واتخذهم له اشراكاً» (۲)ثم وضح عليه السلام ذلك بقوله: «فباض وفرخ فى صدورهم» (۳). فالإمام عليه السلام يشبه صدور تبعه الشيطان بعش إبليس الذى يبيض فيه ويفرخ. ثم قال عليه السلام: «و دب ودرج فى حجورهم» . صرّح بعض شرّاح نهج البلاغه بان دب من ماده الدبيب بمعنى الحركه البطيئه الضعيفه، والدرج الحركه الأقوى منها كحركات الطفل فى حضن

۱- ۱) سوره النحل / ۹۹ - ۱۰۰. [۱]

۲- ۲) «اشراك» جمع «شريك» و «شَرَك» بمعنى افتح ويحتمل المعنيان فى العباره المذكوره، وقد اختار كل شارح من شرّاح نهج البلاغه أحد هذين المعنيين.

۳- ۳) لقد استهلت العباره بفاء التفريع لبيان شرحها للعباره السابقه.

اُمه. ولعل التعبير بـدرج إشاره إلى حقيقه وهى أنّ الأفكار والعادات الشـيطانيه ليست طارئه ومفاجئه على الإنسان؛ بل تتجـذر فيه بصوره تـدريجيه؛ كمـا عبر عنه فى حـذر المؤمنين منها حيث يتسـنى له اقتياد الإنسان خطوه خطوه نحو الفساد والضـلال والكفر. (۱)

فقال: «فنظر باعينهم، ونطق بالسـنتهم» . أى أنّ هذه البيوض والفراخ الشيطانيه ستنمو وتترعرع حتى تتبدل إلى شياطين تتحد معهم بحيث تنفـذ فى جميع أعضـائهم وجوارحهم حتى يعيشون الأـزدواج فى شخصـياتهم، فهم من جـانب إنسان، ومن آخر شـيطان، ظاهرهم إنسانى أمّا باطنهم شـيطانى. عيونهم وآذانهم وألسـنتهم وأيديهم وأرجلهم أدوات تأتمر بأوامر الشيطان، فمن الطبيعى أن يروا جميع الاشـياء بصـيغه شـيطانيه كمـا أنّ آذانهم تطرب لسـماع الانغـام الشـيطانيه. أمّـا فى المرحله الرابعه فيتناول عليه السـلام النتيجه النهـائيه لهـذه المسـيره التـدريجيه المنحرفه فيقول: «فركب بهم الزلـل، وزين لهم الخطل» (۲)ويشـبه هذا الكلام ما أورده الإمـام عليه السـلام فى موضع آخر من نهـج البلاغه «إلّا وأنّ الخطايا خيل شـمس حمل عليها أهلها» (۳). ثم قال عليه السـلام فى المرحله الأخيره «فعل من قد شـركه الشيطان فى سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه» (۴). إشاره إلى أنّ أعمال هؤلاء تدل بوضوح على أنّ الشـيطان اسـتحوذ عليهم فتصرف فيهم كيف يشاء. فحديثهم حديث الشيطان ونظرهم نظر الشيطان وبالنتيجه فان بصمات الشـيطان متجسـمه فيهم، والواقـع هـو أنّ الإمـام عليه السـلام أراد فى هـذه المرحله أن يعرف هؤلاـء الأـفراد من خلاـل أعمـالهم الشـيطانيه. ويبـدو أنّ مراده عليـه السـلام بعض الأـفراد كطلحـه والزبير وانصارهمـا وأصـحاب معـاويه والخـوارج ومن كـان على شـالكتهم، رغم أنّ الكتب المعروفه لشـرح نهـج البلاـغه وأسانيـدها لم تتعرض إلى الأفراد أو الطوائف المراده بكلام الإمام عليه السلام. مع

۱- ۱) سوره البقره / ۱۶۸ و۲۰۸؛ سوره الانعام / ۱۴۲؛ سوره النور / ۲۱.

۲- ۲) هذا التفسـير على أساس أنّ حرف الباء فى بهم للتعديه، امّا إذا فسـرت بالاسـتعانه فانّ مفهوم الجمله سيصـبح أنّ الشـيطان بالاسـتعانه بهؤلاـء سـيركب الخطـأ والزلل؟ ولكن بالالتفات إلى العباره «وزين لهم الخطل» وفاء التفريع فى فركب يبـدو التفسـير الأول أنسب.

۳- ۳) نهج البلاغه، الخطبه ۱۶. [۱]

۴- ۴) كلمه «فعل» يمكن أن تكون مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف تقديره «فعلوا ذلك فعل. . .» كما يمكن أن تكون مفعولاً مطلقاً لما سبق (نظر، نطق، ركب وزين) وسيصبح مفهوم الجمله أن أفعال هؤلاء أفعال من شرك الشيطان فى عمله.

ذلـک فالکلاـم دقیق وعمیق ولاـیختص بطائفه معینه، بل یشـمل کل من وضع رجله علی مسار الشـیطان وخضع لسـیطرته وامتثل أوامره.

تأمّل: خطط الشیاطین

شائک وشامل هو البحث بشأن الشـیطان وفلسفه خلقه وکیفیه نفوذه إلی الإنسان وطول عمره وقصته مع آدم وجنوده وأعوانّه من الجن والانس وما إلی ذلک من الاُمور التی لایسع المجال شـرحها والغوص فی أعماقها. وسنکتفی ببعض الإشارات التی یمکنها أن تغنی البحث بما ینسجم وما ورد فی الخطبه المذکوره.

فالذی تفیده الآیات القرآنیه أنّ الشـیطان لم یخلق کموجود شریر منذ بدایه الخلیقه، بل خلق طاهرا حتی اصطف مع الملائکه (و إن لـم یکن ملکـاً) . غیر أنّ حب الـذات والکـبر دفعه للتمرد علی أمر اللّه والامتنـاع عن السـجود لآـدم علیه السـلام، فلم یرتکب المعصیه فحسب، بل إتّهم علم البارئ سبحانه وحکمته لیهوی فی وادی الشـرک والضـلال. لقـد سأل اللّه النظره إلی یوم القیامه فأجـابه اللّه بـالنظره إلی یوم الوقت المعلوم لیتم تمحیص العبـاد، أو بعبـاره اُخری فکمـا أنّ وجود الشـهوات المرکبه فی الإنسـان البشـریه ومقـاومه العقـل والإیمـان تجاه القوی المخالفه إنّما تضاعف قـدره الإنسان فی مسار الطاعه للّه؛ فانّ الوساوس الشـیطانیه الخارجیه ومجابهتها من قبل الإنسان إنّما تقوده إلی السمو والتکامل؛ وذلک لأن وجود العدو إنّما یشکل العامل الذی یقف وراء حرکه الإنسان وقوته وتطوره وتکامله. إلّاأنّ هـذا لایعنی أنّ للشـیطان نفوذ إجباری فی الإنسان، بل الإنسان هو الـذی یمهـد لهذا النفوذ، فقـد صـرّح القرآن الکریم بهذا الشأن قائلاً: «إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُـلْطانٌ» (۱)، وقـال فی موضع آخر «إِنَّهُ لَیْسَ لَهُ سُلْطـانٌ عَلی الَّذِینَ آمَنُوا وَعَلی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ» (۲)کما صـرّحت إحدی الآیات القرآنیه علی لسان الشیطان أنّه قال: «وَما کانَ لِی عَلَیْکُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلّا أَنْ دَعَوْتُکُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِی فَلا تَلُومُونِی وَلُومُوا أَنْفُسَکُمْ» . (۳)

۱- ۱) سوره الاسراء / ۶۵. [۱]

۲- ۲) سوره النحل / ۹۹. [۲]

۳- ۳) سوره إبراهیم / ۲۲. [۳]

الجدیر بالذکر أنّ اللّه سبحانه قد خلق جنودا للقضاء علی وساوس الشیطان ومخططاته، ومنها العقل والفطره والأنبیاء والملائکه التی تتولی حفظ المؤمنین وطرد الوساوس الشیطانیه عنهم. فکل من سار علی درب هذه الجنود حظی بدعمها وإسنادها وأبعد عنه وساوس الشیطان، ومن سار علی درب الشیاطین وأقام علی العناد واللجاجه رفعوا أیدیهم عنه. القضیه الاُخری الجدیره بالاهتمام هی أنّ الشیطان یسعی للنفوذ فی أعماق النفس البشریه لیؤثر من هناک علی أعماله، کما اُشیر لهذا فی الخطبه المذکوره وکأنه باض وفرخ فی الصدور فتکاملت الفروخ شیاطین إتحدت معه حتی عاد نظره وسمعه وقوله ویده ورجله شیطانیاً. وقد ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام فی غرر الحکم أنّه قال: «احذروا عدوا نفذ فی الصدور خفیاً ونفث فی الاذان نجیاً» کما ورد شبیه هذا المعنی - مع فارق طفیف - فی الخطبه ۸۳ من نهج البلاغه. کما قال علیه السلام فی الخطبه ۱۲۱ من نهج البلاغه: «إنّ الشیطان یسنی لکم طرقه ویرید أن یحل لکم دینکم عقده عقده» . علی کل حال فان الغرض من الخطبه هو تحذیر الإنسان من عدوره اللدود الشیطان الذی تعود جذور عدائه منذ خلق آدم علیه السلام. وضروره التوکل علی اللّه والاتکاء علی العقل والفطره والوجدان والاستضاءه بارشادات الأنبیاء وتعالیمهم والاستمداد من الملائکه بغیه حفظ الإنسان لنفسه من وساوس الشیطان.

وأخیراً فالنقطه التی أری ضروره التعرض لها وعلی ضوء صریح بعض الآیات القرآنیه أنّ الشیاطین لیست منحصره بابلیس وجنوده السریین، بل هناک مجموعه من الانس التی تشملها الشیاطین، فأعمالهم هی أعمال الشیاطین بعینها «وَکَذٰلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوّاً شَیاطِینَ الإِنْسِ وَالجِنِّ یُوحِی بَعْضُهُمْ إِلی بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً» (۱).

نعم لابد من الحذار من وساوسهم.

۱- ۱) سوره الانعام / ۱۱۲. [۱]

الخطبهالثامنه

اشاره

ومن كلام له عليه السلام

يعنى به الزّبير فى حال إقتضت ذلك ويدعوه فى الدخول فى البيعه، ثانيا.

نظره إلى الخطبه

دخل الزبير وطلحه على على عليه السلام، فاستأذناه فى العمره، فقال: ما العمره تريدان، فحلفا له باللّه أنّهما ما يريدان غير العمره، فقال لهما: ما العمره تريدان، وإنّما تريدان الغدره ونكث البيعه، فحلفا باللّه ما الخلاف عليه ولا نكث بيعه يريدان، وما رأيهما غير العمره. قال لهما: فأعيدا البيعه لى ثانيه، فأعاداها بأشد مايكون من الإيمان والمواثيق، فأذن لهما، فلما خرجا من عنده، قال لمن كان حاضراً: واللّه لاترونهما إلّافى فتنه يقتتلان فيها. قالوا: يا أميرالمؤمنين، فمر بردهما عليك، قال: ليقضى اللّه أمراً كان مفعولاً. (۱)أمّا الزبير فقد حاول أن يتذرع بما يبرر له نكث البيعه، ويقول ليس لعلى فى عنقى بيعه حيث بايعته مكرها. فالقى الإمام عليه السلام هذه الخطبه (جدير بالذكر أنّ البعض قد نسب هذا الكلام للإمام الحسن عليه السلام وقد القاها بأمر من أبيه فى يوم الجمل بعد خطبه عبداللّه بن الزبير، لكن لايستبعد أن يكون الإمام عليه السلام قد أورده مسبقا رداً على إدعاءات الزبير ثم استشهد بها الإمام الحسن عليه السلام فى الجمل. (۲)

«يزعم أنّه قد بايع بيده، ولم يبايع بقلبه، فقد أقر بالبيعه، وادعى الوليجه، فليأت عليها بأمر يعرف، وإلّا فليدخل فيما خرج منه» .

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لإبن أبى الحديد ۱ / ۲۳۲. [۱]

۲- ۲) كتاب مصادر نهج البلاغه ۱ / ۳۳۴ - ۳۳۵. [۲]

عذر أقبح من ذنب

كما أوردنا آنفا فانّ الإمام عليه السلام ألقى هذه الخطبه كرد على الزبير الذى حاول تبرير نكثه للبيعه بأنّه بايع مكرها بيده دون قلبه؛ لأن معاويه بعث له بكتاب قال فيه: أمّا بعد، فانّى قد بايعت لك أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا، كما يستوسق الجلب فدونك الكوفه والبصره، لايسبقك إليها ابن أبى طالب فانه لاشىء بعد هذين المصرين. (١)

فما كان من طلحه والزبير الذين كانا يطمعان بالمناصب إلّاأنّ نكثا بيعتهما للإمام على عليه السلام. أمّا الإمام عليه السلام فقد رد على زعم الزبير ردّاً حقوقياً يحظى بكافه التبعات المتعارفه اليوم فى القوانين القضائيه، فقد قال عليه السلام: «يزعم أنّه قد بايع بيده ولم يبايع بقلبه، فقد أقر بالبيعه، وادعى الوليجه» (٢)فالواقع أنّ كلامه مركب من إقرار وإدعاء، فاقراره مسموع ومقبول، أمّا إدعائه فيحتاج إلى إقامه دليل. ولذلك طالبه الإمام عليه السلام باقامه الدليل (ليثبت أن بيعته قد حصلت من خلال الاكراه) وإلّا وجب عليه الالتزام بلوازم البيعه: « فليأت عليها بأمر يعرف، وإلّا فليدخل فيما خرج منه » لقد رأى أغلب الناس الزبير وطلحه قد دخلا على الإمام عليه السلام وبايعاه طائعين؛ فقد كانا من أوائل من بايعه فى المسجد، فالبيعه ملزمه، ومن إدعى خلاف ذلك عليه أن يأتى بالدليل، أضف إلى ذلك فالكل يعلم بعدم وجود الاكراه والإجبار فى بيعه على عليه السلام، فقد كان هنالك من لم يبايع، ولم يضطرهم الإمام عليه السلام إلى البيعه، وعليه فليس هنالك من مبرر لنكث البيعه. وكما ذكرنا سابقاً فانّ هذا من الأُصول الأساسيه فى كافه المحافل الحقوقيه والقضائيه، فى أنّ من أبرم عقداً راغباً بالظاهر فقد وجب عليه الالتزام به ولايقبل منه إدعاء الاكراه الاجبار وعدم تأييد القلب لما فعله باليد، وإلّا لأمكن لكل واحد أن يقوض ما أبرمه بهذه الذريعه. فالمشترى والبائع والزوج والواقف و. . . إذا أبرم عقدا ولم يرى فيه من مصلحه لاحقا أمكنه أن يدعى بأنّه أبرمه لساناً ولم يكن قلباً موافقاً عليه. وإذا كان الأمر

١- ١) شرح ابن أبى الحديد ١ / ٢٣١. [١]

٢- ٢) «وليجه» من ماده «ولوج» بمعنى الدخول، كما تعنى الدخول الخفى ويقال وليجه لما يضمر فى القلب ويكتم، وقد جاءت هنا بمعنى الأمر الخفى.

كـذلك فقـد عرضت كافه النظم والعقود والمواثيق الفرديه والـدوليه للتصـدع والانهيار وهـذا مالا يقره عقل أو منطق؛ والحق أنّ الزبير كان يعلم جيدا بهذا الأمر إلّاأنّه استهدف تضليل الرأى العام الذى قد يسأله لم نكثت البيعه؟

جـدير بالذكر أنّ كل هذا نابع من كون العرب آنذاك كانت تولى البيعه أهميه فائقه ولم تكن تتساهل فى نقضـها وعدم الالتزام بها، وترى ذلك خطيئه كبيره.

ص:٣٠٩

الخطبه التاسعه

اشاره

ومن كلام له عليه السلام

فى صِفَته وَصِفَه خُصومه ويقال إنّها فى أصحاب الْجَمَلْ

«وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ وَلَسْنا نُرْعِدُ حَتَّى نُوقِعَ وَلا نُسِيلُ حَتَّى نُمْطِرَ» . (۱)

الشرح والتفسير

ضجه فارغه

يستفاد من كلامه عليه السلام أنّه أورده بعد انتهاء معركه الجمل كاشاره للضجه الفارغه التى إفتعلها طلحه والزبير ورهطهما فى بدايه موقعه الجمل، غير أنّه لم يجدهم نفعا حيث هزم «طلحه والزبير» شر هزيمه حتى قتلا. فقد قال عليه السلام: «و قد ارعدوا وابرقوا، ومع هذين الأمرين الفشل» . فهو تشبيه رائع بالسحب التى تتخللها ظاهره الرعد والبرق كبشاره للناس بالأمطار التى تجلب عليهم الخير والبركه، إلّاأنّها سرعان ما تتبدد دون أن تحمل قطره من المطر. ثم قال عليه السلام: «ولسنا نرعد حتى نوقع، ولانسيل حتى نمطر» يريد عليه السلام أننا لن نرعد

۱- ۱) قال صاحب «مصادر نهج البلاغه» علاوه على نقل الشريف الرضى لهذا الكلام فى نهج البلاغه، فقد رواه الواقدى ضمن إحدى خطبه عليه السلام يوم الجمل. كما نقله المرحوم الشيخ المفيد فى كتاب الجمل (ص ۱۷۷) [۱] عن كتاب الجمل للواقدى. وأخيراً ذكره ابن عثم الكوفى فى كتاب الفتوحات.

ونزبد مالم نسدد ضربات موجعه إلى العدو، ولسنا من أهل الضجيج حتى نقتحم الميدان ونقهر الخصم. فالواقع هو أنّ العبارتين رغم قصرهما تشيران إلى مدرستين لكل منهما أسسهما فى الأنشطه الاجتماعيه والعسكريه والسياسيه؛ مدرسه تتبنى الكلام والضجيج حين ترد الميدان؛ إلّا أنّها لاتستبطن سوى الضعف والعجز والفشل حين العمل. أمّا المدرسه الأُخرى فهى المعروفه بالسلوك والعمل، قليل كلامها كثير عملها. هى مدرسه صامته هادئه إلّاأنّها بطله باسله فى الميدان وبالطبع فانّ الأنبياء والأولياء وأتباع الحق ينتمون للمدرسه الثانيه، بينما ينتمى أتباع الباطل وجنود الشيطان إلى المدرسه الاولى.

و هنا نقطه مهمّه يجب الالتفات إليها وهى أنّ الرعد والبرق قبل المطر ثم يأتى السيل، غير أنّ هناك البعض الذى يرعد ويبرق دون المطر، والأسوأ من ذلك البعض الآخر الذى يتوعد بالسيول رغم إنعدام قطره مطر، أى أنّهم يتشدقون بالنصر والغلبه والنجاح حتى بعد الهزائم المنكره التى يمنون بها، فالطائفه الاولى كاذبه فى مزاعمها وإدعاءاتها، أمّا الثانيه باطله عديمه الحياء. فالذى تفيده بعض الروايات أنّ الإمام على عليه السلام بعث برسله يدعون إلى الالتزام بالبيعه و عدم شق الصف الإسلامى والعوده إلى إحضان الحكومه الإسلاميه، فعادوا يحملون رسائل الحرب حيث تضمنت رسائلهم التهديد بشن الحرب، فردّ الإمام عليه السلام ذلك الرد الحاسم «فانّ أبوا أعطيتهم حد السيف وكفى به شافياً من الباطل، وناصرا للحق! ومن العجب بعثهم إلى أن ابرز للطعان وأن أصبر للجلاد، هبلتهم الهبول، لقد كنت وما أُهدد بالحرب، ولا أُرهب بالضرب، وإنى لعلى يقين من ربّى، وغير شبهه من دينى» (۱).

تأمّلان

۱ – رجل العمل

ما تضمنه كلامه عليه السلام – كما أشرنا سابقاً – بعض الصفات البارزه لأساليب الإداره لأولياء اللّه، فهم ليسوا من أهل الكلام والضجيج، بل بالعكس كلامهم العمل والتنفيذ. وقد تجسد

۱- ۱) بحارالانوار ۳۲ / ۶۰ – ۱۸۸. [۱]

نموذج ذلک فی معرکه بدر حین ذهل أبوسفیان للنفر القلیل الذی کان مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله فبعث عمیر لیری هل هناک من جند خلف المیدان، فعاد إلی أبی سفیان وقال له: «مالهم من کمین ولامدد ولکن نواضح یثرب قد حملت الموت النافع امّا ترونهم خرساً لایتکلمون، یتلمظون تلمظ الأفاعی، مالهم ملجأ إلّاسیوفهم، ما أراهم یولون حتی یقتلوا ولایقتلون حتی یقتلوا بعددهم فار تأوا رأیکم. فقال له أبوجهل: کذبت وجبنت.» (۱)

بالتالی أتبتت موقعه بدر أنّ الحق ماذهب إلیه عمیر لا ما قاله أبوجهل. وبالطبع فلیس هناک من منافاه بین هذا الکلام والاستفاده من الأسالیب النفسیه فی میدان الحرب والرجز وممارسه الحماس وامطار العدو بوابل التبلیغات وزرع الرعب فی صفوفه. فالمشکله إنّما تکمن فی خلاصه کل شیء فی الکلام والتهدید والوعید. فالعمل هو الأساس والمحور والکلام ترجمه لذلک العمل. فنموذج الفریق الأول طلحه والزبیر ورهطهما، ونموذج الفریق الثانی علی علیه السلام واتباعه. فقد وردت عبارات واضحه للإمام علیه السلام – فی الخطبه ۱۲۴ من نهج البلاغه – بهذا الشأن، ففی الوقت الذی یحث اتباعه وجنده علی الثبات فی المیدان والشده فی الضرب یوصیهم قائلاً: «اَمیتوا الاصوات فانه أطرد للفشل» .

۲ – الفارق بین الدعایه والاعلام الفعال

لعل الفارق بین هذین الأمرین صعب التمییز علی البعض، حیث ورد النهی عن القول بلاعمل واتخاذ الصمت والهدوء کمفهوم صحیح من جانب: ومن جانب آخر فانّ الأحادیث التی تستبطن الأسالیب التبلیغیه التی تشد قوی الحق من الناحیه النفسیه وتضعف معنویات العدو قد عدت من الوسائل الحربیه اللازمه، إلی جانب الحث علی الرجز والحماس فی میدان المعرکه والذی تجسد فی غزوات رسول اللّه صلی الله علیه و آله ومعارک أمیرالمؤمنین علی علیه السلام وسائر الأئمّه المعصومین علیه السلام کالرجز الذی شهدته کربلاء، فکیف یمکن التوفیق بین هذین الأمرین؟

الواقع هنالک فارق واضح بین هذین الأمرین. فالنهی إنّما جاء بشأن الکلام الفارغ الذی

۱- ۱) بحارالأنوار ۱۹ / ۲۲۴. [۱]

ينطوى على الرعـد والبرق الكاذب والـذى تصـطلح عليه بالبلف حيث تفيـد القرائن والشواهـد بعدم وجود أى عمل خلف ذلك الكلام. ولا شـك أنّ مثـل هـذا البلف والكلام الفارغ أنّما هو ديـدن الشـيطان واتباعه من الأفراد عـديمى المنطق. أمّا الترغيب والترهيب الـذى يتبع ذلـك والعمل والنشاط الـذى يخرج الكلام من دائرته ليزج به فى ميـدان العمل الـذى ينتهجه الفريق الثانى فـانّه ليس فقط غير مـذموم فحسب، بل إنّما يأتى فى نطاق الحرب النفسـيه التى تفعل فعلها فى الواقع. وبالطبع فان التـذكير بهـذه النقطه ضـرورى وهى أنّ الانهماك بالرجز والخطابه أثناء المعركه إنّما يشـغل قسـما من طاقات الإنسان ويحد من الأثر المطلوب لصولاته وحملاته، ومن هنا ورد النهى عن ذلك.

ص:٣١۴

الخطبه العاشره

اشاره

ومن خطبه له عليه السلام

يريد الشيطان أو يكنى به عن قوم

نظره إلى الخطبه

تشير هذه الخطبه إلى موقعه الجمل والحوادث الاليمه التى تخللتها؛ حيث يصف الإمام عليه السلام اعوان طلحه والزبير بانهم جنود الشيطان، ثم يشير إلى خصائصه فى الميدان، كما يتطرق إلى تبيين خطته المستقبليه بهذا الشأن فى عبارات قصيره وقارعه مشوبه بتوعد العدو مع تكهن بما ستؤول إليه هذه المعركه.

«أَلا وَإِنَّ الشَّيْطانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ وَاسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجِلَهُ وَإِنَّ مَعِى لَبَصِيرَتِى: ما لَبَّسْتُ عَلَى نَفْسِى، وَلا لُبِّسَ عَلَىَّ. وَايْمُ اللّهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنا ماتِحُهُ! لا يَصْدُرُونَ عَنْهُ وَلا يَعُودُونَ إِلَيْهِ» . (۱)

الشرح والتفسير

تحذير المسلمين ثانيه

كما ذكرنا سابقاً فانّ خطبه الإمام عليه السلام تعالج القضايا المرتبطه بموقعه الجمل، واستنادا إلى

۱- ۱) جاء فى مصادر نهج البلاغه [۱]أنّ المرحوم المفيد نقل هذه الخطبه فى الإرشاد / ۱۸۸.

العلاقه الوثيقه بين هـذه الخطبه والخطبه الثانيه والعشـرين وأبعـد من ذلك إرتباطها بالخطبه ۱۷۳، والواقع هو أنّ هـذه الخطبه قد استوعبت فى تلك الخطبه وأصبحت جزءاً منها، فلا يبقى هنالك من مجال للشك والترديـد فى أنّ الهدف من هذه الخطبه هو الإشـاره لموقعه الجمل، وكأنّى بأُولئك الـذين فسّـروها بالإشاره إلى موقعه صـفين وأهل الشام قـد أهملوا تلك العلاقه. فالمحور الأول لهـذه الخطبه هو تشبيه أعوان طلحه والزبير بجنود الشـيطان فقال عليه السـلام: «ألا وان الشـيطان قـد جمع حزبه، واستجلب خيله ورجله» .

و كيف لايكونوا جنود الشـيطان وقـد نقضوا عهـدهم مع الإمام عليه السـلام وقـد دفعهم الحرص على المناصب لبث بذور الفرقه والنفـاق بين صـفوف الاُمّه الإسـلاميه واشـعال فتيـل الحرب الـذى أودى بحيـاه الكثيرين حتى احترقوا بتلـك النيران. امّـا التعبير بـالحزب فهو إشـاره إلى الانسـجام بين أهـداف هؤلاء وأهـداف الشـيطان، وأمّـا التعبير بالخيـل والرجل فهو إشاره لتنوع الجنود. القرآن الكريم من جـانبه أشار إلى حزب الشـيطان بقوله: « إِنَّما يَـدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْـحابِ السَّعِيرِ» (۱)، ويشير فى موضع آخر إلى حزبـه مـن الراجله والخيـاله الـذين يختـبر بهم بنى آدم «وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِـكَ وَرَجِلِـكَ» (۲). ولاشك أن تتابع هـذه التنبيهات إنّما تسـتهدف تحلى المؤمنين باليقظه والوعى والحـذار من الوقوع فى حبائل الشـيطان والانضـمام إلى حزبه والالتحاق بجنوده، غير أنّ هـذا المصـير المشؤوم قـد طال طلحه والزبير وأعوانها ومن سار على نهجهما قد دفعهم حب الجاه والمنصب لأن يكون لقمه سائغه للشيطان.

ثم تنـاول عليه السـلام المحور الثـانى الـذى بين فيه سـماته وعمق بصـيرته بمـا لايجعل للشـبهه والشك من سبيل إليه «و إنّ معى لبصـيرتى مـا لبست على نفسـى، ولاـ لبس على» . الحق أنّ مصـدر ضـلال أى فرد إنّمـا يمكن فى أحـد ثلاث: الأول ألا يمتلك البصـيره والمعرفه اللازمه بالعمل الذى يقدم عليه، فيرد الميدان جهلا فيتصـرف بما لايرضـى اللّه. والثانى قد يتمتع بالمعرفه إلّاأنّ حجب هوى النفس وحب الذات إنّما تحول دون رؤيته للحق وتسوقه للخطأ والزلل، وما أكثر الأفراد الذين يعلمون ببشاعه الذنب إلّاأنّهم يصطنعون لأنفسهم الاعذار الناشئه من

۱- ۱) سوره فاطر / ۶. [۱]

۲- ۲) سوره الاسراء / ۶۴. [۲]

وساوس النفس والدوافع الشيطانيه التى تسول لأنفسهم عد تلك الذنوب من الفرائض، وكما صورهم القرآن الكريم «وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَ نَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (۱). والثالث أن يمنع شياطين الجن والانس الاذن بالنفوذ إلى قلبه ويشوهوا عليه الحقيقه. ولم يكن لأى من هذه المحاور الثلاث من سبيل إلى الإمام عليه السلام؛ وذلك لأنّه أوصد كافه الأبواب الباطنيه والظاهريه للخطأ والانحراف بوجه الوساوس والأهواء وتحلى بتقوى وورع وبصيره جعلته يرى الحقيقه كما هى.

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغه إلى أنّ المراد يقول عليه السلام: «إنّ معى لبصيرتى» ، أنّ البصيره التى كانت معى فى زمن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى كافه الأحداث المهمّه التى وقعت على عهده مازالت معى ولم تتغير. والعباره إشاره إلى الآيه الشريفه «قُلْ هذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلى اللّهِ عَلى بَصِيرَهٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى» (۲). بينما يرى البعض الآخر أن قوله عليه السلام: «ما لبست على نفسى، ولا لبس على» هو تفسير لقوله «و إنّ معى لبصيرتى» إلّاأنّ ما ذكر سابقاً أنسب.

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام قال: ما لبست على نفسى، ثم قال: ولا لبس على؛ الأمر الذى يكشف عن ترتيب طبيعى ينبغى فيه ألا يخدع الإنسان من قبل نفسه أولاً ثم يأمن مكر الآخرين وخداعهم. ثم خاض فى المحور الثالث ليكشف عمّا ستؤول إليه نتيجه موقعه الجمل محذرا خصومه بشده «و آيم (۳)اللّه لاُفرطن (۴)لهم حوضا أنا ماتحه (۵)! لايصدرون عنه ولا يعودون إليه» . والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام شبه ميدان القتال بالحوض الذى يريد ملأه بالماء بحيث لايبقى معه من مجال؛ أراد عليه السلام لأملأن لهم حياض الحرب التى هى دربتى وأنا مجرب لها، ثم يشير عليه السلام إلى النتيجه التى سيؤول إليها أهل الجمل وهى لن تكون سوى القتل وإزهاق

۱- ۱) سوره الكهف / ۱۰۴. [۱]

۲- ۲) سوره يوسف / ۱۰۸. [۲]

۳- ۳) يرى بعض أرباب اللغه أن «آيم» جمع «يمين» بمعنى القسم وقد سقطت النون وهى مبتدأ لخبر محذوف تقديره (و ايمن اللّه قسمى) .

۴- ۴) «اُفرطن» من ماده «إفراط» بمعنى تجاوز الحد (ما يقابل التقريط) ، كما تأتى بمعنى ملأ الشىء حتى يفيض، وقد جاءت بهذا المعنى فى العباره.

۵- ۵) «ماتح» بمعنى امتداد الشىء ثم اطلقت على المستسقى الذى يدلى بدلوه لاستخراج الماء من البئر. وقيل إنّ الماتح لمن يستسقى الماء من أعلى البئر، بينما المايح من تحته.

الأنفس، وإن كان هنالك من سبيل إلى الفرار فانّ الفار لن يعود إلى الميدان ثانيه.

و هنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ قوله عليه السلام: «لأفرطن» لا تعنى أنّى سأفرط فى هذا السبيل، بل المراد أنّى سأبذل قصارى جهدى لسد جميع الطرق على العدو (لابدّ من الدقه هنا) . وهذا بعينه ما جعل عائشه تعتبر من تلك المعركه ولم تشترك فى المعارك اللاحقه.

تأمّل: جند الشيطان

ما نستفيده من الخطبه المذكوره أنّ الشيطان لايمارس وظيفته فى الاغواء والاضلال لوحده؛ بل له جنوده وأعوانه والذين عبر عنهم فى الخطبه بالخياله والرجاله (خيل ورجل) كماله اتباعه وانصاره الذين عبر عنهم بالحزب، وكما ذكرنا فان القرآن هو الذى أورد هذين التعبيرين (لابدّ من الالتفات إلى الخيل تعنى أحيانا الفارس وهذا هو المراد فى العباره لأنفس الفرس) . وبالطبع لايراد بحزب الشيطان ورجالته ما يتعارف اليوم فى المجتمعات المعاصره وتشكيلات الجيوش؛ إلّاأننا نعلم بأنّ له مساعدوه من بنى جنسه ومن جنس بنى آدم الذين ينشطون فى إغواء الناس وإضلالهم، بل حتى الأحزاب القائمه اليوم والجنود الذين أصجوا آله بيد السلطان الظالمه والمستبده إنّما هى جنود الشيطان وأحزابه. فما كان من الجنود أشد وأقوى فهو من خيله وما كان أضعف وأصغر فهو من رجله. بل هناك من يرى نفسه فى صفوف حزب اللّه وهو فى زمره حزب الشيطان. امّا أتباع الحق فان عليهم أن يتكلوا على اللّه وينضووا تحت ولايته ليكونوا مصداقا لقوله: «اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ» ليحظوا بعنايه اللّه ولطفه ويفوزوا بمضمون «إلهى لاتكلنى إلى نفسى طرفه عين أبداً» . أمّا شرط الوصول إلى هذا المقام فهو ما ذكره الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره، أى لابدّ من التحلى بالبصيره والمعرفه والحذر من خداع النفس، إلى جانب الحذر من الوقوع فريسه لحبائل خداع الآخرين ومكرهم.

الخطبه الحاديه عشر

اشاره

ومن كلام له عليه السلام

لابنه محمد بن الحنفيه لما أعطاه الرايه يوم الجمل

«تَزُولُ الْجِبالُ وَلا تَزُلْ! عَضَّ عَلَى ناجِذِكَ. أَعِرِ اللَّهَ جُمْجُمَتَكَ. تِدْ فِى الْأَرْضِ قَدَمَكَ. ارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وَغُضَّ بَصَرَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ سُبْحانَهُ» .

نظره إلى الخطبه

ما تفيده الروايات هو أنّ أميرالمؤمنين على عليه السلام كان شديد الحرص على عدم نشوب معركه الجمل بغيه الحيلوله دون سفك دماء المسلمين، كما ورد أنّه سلم الرايه يوم الجمل ابنه محمد بن الحنفيه، فاستغل الفرصه من الصباح حتى الظهر ليدعوهم إلى الصلح والصلاح والالتزام بالبيعه، ثم خاطب عائشه قائلًا: اتق اللّه وعود إلى بيتك فقد أمركن اللّه سبحانه «وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ» . ثم التفت إلى طلحه والزبير وقال لهم: صنتم نسائكم وابرزتم زوج رسول اللّه صلى الله عليه و آله، ثم خرجتم تطالبون بدم عثمان بعد أن آلت الخلافه إلى الشورى (و قد انتخب الناس أميرالمؤمنين وقد مددتما إليه يد البيعه) . ثم قال للزبير أتذكر كنّا نتحدث يوما فى المدينه فسألك رسول اللّه صلى الله عليه و آله: أتحب على؟ فقلت: كيف لاأحبه وهو قرابتى وإنّى لأحبه فى اللّه. فقال لك رسول اللّه صلى الله عليه و آله فاعلم إنّك ستقاتله وأنت له ظالم! فقلت أعوذ باللّه من ذلك اليوم. ثم واصل

الإمام على عليه السلام نصحهم ووعظهم حتى قال اللّهم إشهد أنّى نصحت لهم وأمهلتهم، ثم تناول القرآن وقال من يحاججهم بالقرآن فيقرأ عليهم الآيه «وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما» (۱)وهو مقطوع يمينه وشماله ومقتول؟ فتناوله مسلم المجاشعى فاقترب من العدو وحمل القرآن بيمينه وتلى عليهم الآيه، فحملوا عليه وقطعوا يمينه، فتناول القرآن بشماله فقطعوها أيضاً، فاخذ القرآن بأسنانه فقتلوه. فقال على عليه السلام: اُحل لى الآن قتالهم عن آخرهم. ثم إلتفت إلى محمد بن الحنفيه وخاطبه بتلك الكلمات. (۲)على كل حال فان الإمام عليه السلام يسلط الضوء على الفنون القتاليه المهمّه والمسائل ذات الاثر من الناحيه النفسيه والجسديه فى الجندى المسلم والتى تعده للتأهب والاستبسال فى ساحه المعركه. والكلام يشتمل على سبع جمل: تضمنت الجمله الاولى الأوامر الكليه بشأن المقاومه والصمود فى ميدان الحرب، بينما أشارت الجمل الخمس الاُخرى إلى الجزئيات والاُمور التى تلعب دوراً فى الصمود وتحقيق النصر. أمّا الجمله السابعه والأخيره فهى تؤكد على الإتكال على اللّه وأنّ النصر من عنده سبحانه ليمكن من خلال ذلك وبقوه الإيمان تحمل المشاق والصعاب والتحلى بالروحيه العاليه من أجل الصمود أمام العدو ومقاتلته.

الشرح والتفسير

كن كالجبل

كما اُشرنا سابقاً فانّ الخطبه تعالج مجريات موقعه الجمل حيث أعطى الإمام عليه السلام الرايه ولده الشجاع محمد بن الحنفيه، وقد أوصاه عدّه وصايا مهمّه بشأن القتال وتحقيق النصر منها:

أنّه قال: «تزول الجبال ولا تزل» (۳). فالواقع إنّ أهم مسأله فى ميدان القتال هى الاستقامه والصمود التى لايمكن تحقيق النصر بدونها، وهذا ما أكده الإمام عليه السلام فى بدايه الأمر. ويمكن أن تكون هذه العباره إشاره لمضمون الروايه المعروفه «المؤمن كالجبل الراسخ لاتحركه

۱- ۱) سوره الحجرات / ۹. [۱]

۲- ۲) منهاج البراعه للخوئى ۳ / ۱۶۷ - ۱۶۹.

۳- ۳) قال بعض شرّاح نهج البلاغه أن هذه العباره جمله شرطيه من حيث المعنى، تقد يرها لوزالت الجبال لاتزل (شرح ابن ميثم ۱ / ۲۸۷) . [۲]

العواصف» کما ورد عن النبی الاکرم صلی الله علیه و آله انّه قال: «المؤمن أشد فی دینه من الجبال الراسیه وذلک انّ الجبل قد ینحت منه والمؤمن لایقدر أحد علی أن ینحت من دینه شیئا» (۱)، ثم تناول علیه السلام ما من شأنه أن یؤثر فی مسیره المعرکه فقال: «عض علی ناجذک» . فالناجذ قد یعنی أقصی الضرس، کما فسّر بسن العقل، وقیل بل جمیع الإنسان. وقیل أنّ العض علی النواجذ یتضمن فائدتین: الاولی أنّه یزیل الخوف والقلق والاضطراب ومن هنا یعض الإنسان علی أسنانه فی مواطن الخوف لیهدأ وتسکن فورته، والثانیه أنّهم ذکروا أنّ العاض علی نواجذه ینبو السیف عن دماغه، لأنّ عظام الرأس تشتد وتصلب؛ وقد جاء فی کلامه علیه السلام هذا مشروحاً فی موضع آخر وهو قوله علیه السلام: «وعضوا علی النواجذ، فإنّه أنبی للصوارم عن الهام» (۲). أمّا فی الجمله الثالثه فقد قال علیه السلام: «أعر اللّه جمجمتک» تعنی إستعد للتضحیه والفداء والشهاده فی سبیل اللّه فان هذا الاستعداد أساس الشجاعه والاستبسال. هذا وقد ذهب بعض شرّاح نهج البلاغه أنّ فی العباره إشعار له أنّه لایقتل فی تلک الحرب، لأنّ العاریه مردوده، ولو قال له: بع اللّه جمجمتک، لکان ذلک إشعار له بالشهاده. ثم قال علیه السلام فی الجمله الرابعه: «تد فی الأرض قدمک» . فی إشاره واضحه إلی الثبات فی المعرکه ورباطه الجأش فی مقابل العدو وعدم التفکیر قط بالانسحاب أو الفرار من المیدان؛ الأمر الذی أوصی به القرآن الکریم المؤمنین من قبل: «یا أَیُّها الَّذِینَ آمَنُوا إِذا لَقِیتُمْ فِئَهً فَاثْبُتُوا» (۳). ولعل الفارق بین هذه العباره والعباره الاولی، هو أنّ الجمله الاولی تحدثت عن عدم التزلزل فی الفکر والمعنویات بینما أشارت العباره الأخیره إلی عدم التزلزل الظاهری والبدنی وعدم الانسحاب والتراجع وفی الجمله الخامسه قال علیه السلام: «ارم ببصرک أقصی القوم» فمثل هذه النظره تجعله یحیط بالمیدان والعدو والسیطره علی حرکه الجنود بحیث یتعرف علی نقاط الضعف والقوه فیصیب فی الدفاع والهجوم والکر والفر. ثم قال علیه السلام: «و غض بصرک» . لیس هنالک من تناقض بین قوله «ارم ببصرک» قوله «غض بصرک» وذلک لأنه فی الاولی أمره أن یفتح عینه ویرفع طرفه، ویحدق إلی أقاصی القوم

۱- ۱) سفینه البحار، [۱] ماده أمن.

۲- ۲) نهج البلاغه، الخطبه ۱۲۴. [۲]

۳- ۳) سوره الانفال / ۴۵. [۳]

ببصره، فعل الشجاع المقدام غير المكترث ولاالمبالى، لأن الجبان تضعف نفسه ويخفق قلبه فيقصر بصره ولا يرتفع طرفه ولا يمتد عنقه، ويكون ناكس الرأس، غضيض الطرف. وفى الثانيه أمره أن يغض بصره عن بريق سيوفهم ولمعان دروعهم، لئلا يبرق بصره ويدهش ويستشعر خوفا. والشاهد على ذلك ما أورده عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغه بهذا الشأن إذ قال: «و غضوا الأبصار فانه أربط للجأش وأَسكن للقلوب» (۱). أمّا فى الجمله السابعه والأخيره فقد أشار عليه السلام إلى نقطه مهمّه وأساسيه تنطوى على أبعاد روحيه معنويه تطمئن النفوس وتحدوها بالتطلع إلى اللّه «و اعلم أن النصر من عند اللّه سبحانه» فالنصر لايستند إلى الأسباب والمقدمات الظاهريه، بل المهم إراده اللّه سبحانه ونصره، فتوكل على اللّه وثق به واسأله الغلبه فهو القادر على كل شىء وهو الرحمن الرحيم بعباده المؤمنين المجاهدين «وَما النَّصْرُ إِلّا مِنْ عِنْدِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (۲). والطريف فى الأمر أن القرآن الكريم تحدث عن نصره الملائكه إلّاأنّه حث المؤمنين بالتضرع إلى اللّه بنزول النصر لا الملائكه «بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسه آلاف من الملائكه مسومين وماجعله اللّه إلا بشرى لكم وتطمئن قلوبكم به وما النصر إلّامن عند اللّه العزيز الحكيم» .

تأمّلان

۱ – محمد بن الحنفيه ونسبه وبعض أخباره

هو أحد أبناء أميرالمؤمنين على عليه السلام و «حنفيه» لقب أمه واسمها خوله بنت أحد أشراف قبيله «بنى حنيفه» وقد اسرت فى أحد المعارك الإسلاميه وأرادوا بيعها، فأعتقها عليه السلام وتزوجها. ورث محمد الشجاعه من على عليه السلام وقيل كان يشق الدرع بيده لقوته. ومن هنا سلمه عليه السلام الرايه يوم الجمل، كما أسند إليه مع محمد بن أبى بكر وهاشم المرقال ميسره جيشه فى صفين. وكان شديد التواضع للحسن والحسين عليهما السلام.

۱- ۱) نهج البلاغه، الخطبه ۱۲۴. [۱]

۲- ۲) سوره آل عمران / ۱۲۶. [۲]

دفع أميرالمؤمنين عليه السلام يوم الجمل رايته إلى محمد ابنه عليه السلام، وقد استوت الصفوف، وقال له: احمل، فتوقّف قليلاً، فقال له: احمل، فقال يا أميرالمؤمنين، أماترى السّهام كأنّها شابيبُ المطر! فدفع فى صدره، فقال: أدرككَ عِرْق من أمّك، ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصره. قيل لمحمد لِمَ يُغرِّرُ بك أبوك فى الحرب ولا يغرّر بالحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال: إنّهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيْه بيمينه.

إتهم البعض محمد بن الحنفيه بأنه إدعى الإمامه بعد الإمام الحسين عليه السلام، بل قيل إدعى المهدويه، إلا أن الشيخ المفيد أبطل ذلك وقال لم يدع الإمامه (بل نسب الآخرون ذلك إليه وهم من إدعى الإمامه والمهدويه من الكيسانيه. توفى بن الحنفيه عام ٨١ ه - و اختلف فى محل دفنه، فقيل توفى فى الطائف ودفن فيها. وقيل فى البقيع، كما قيل فى الجبل الرضوى قرب المدينه.

أمّا إحد الشواهد الحيه على رفعه مكانته وعلو منزلته فهو أنّ الإمام الحسين عليه السلام حين أراد الخروج من المدينه إلى مكه جعله خليفته ووصيه فى المدينه ليطلعه على الأخبار، كما أودعه وصيته طبق لنقل أرباب المقاتل.

٢ - الشرط المهم فى النصر على الأعداء

تفيد الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه أنّ العنصر الرئيسى الذى يقف وراء النصر والغلبه إنّما يكمن فى الصبر والمقاومه والثبات. فالقرآن يصف الفئه القليله الصابره بانها هى المنتصره فى مقابل الفئه المعاديه الكثيره العدد والعده: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَ نَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ» (١). كما ورد تأكيده عليه السلام على الصبر فى سائر خطبه فى نهج البلاغه ومن ذلك قوله عليه السلام: «و عليكم بالصبر فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ولا خير فى جسد لا رأس معه ولا فى إيمان لا صبر معه» (٢).

١- ١) سوره الانفال / ٦٥. [١]

٢- ٢) نهج البلاغه، [٢]الكلمات قصار / ٨٢. [٣]

و هو المعنى الـذى ورد التأكيـد عليه كرارا فى الخطبه الـتى نحن بصـددها، فقـد قـال عليه السـلام كإشـاره لمواطن الصبر «تزول الجبال ولا تزل» وقال: «تـد فى الأرض قـدمك» ، وهكذا سائر عباراته من قبيل العض على النواجذ واعاره اللّه الجمجمه والإيمان بـانّ النصـره والغلبه من اللّه سـبحانه، حيث من شـأن كـل هـذه الاُمور أن تلهم الإنسان الصـمود والثبات والمقاومه التى تسـتبطن النصـر، وهذا بعينه ما جعل المسـلمين ينتصـرون على خصومهم حتى فى المعارك التى لم تكن متكافئه، وهذا ما ينبغى أن يؤمن به ويستشعره جيلنا الإسلامى الجديد ليحقق الانتصارات الباهره على الأعداء.

الخطبه الثانيه عشره

اشاره

ومن كلام له عليه السلام

لما أظفره الله بأصحاب الجمل وَقَدْ قالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحابِهِ: وَدِدْتُ أَنَّ أَخِي فُلاناً كانَ شاهِدَنا لِيَرَى ما نَصَرَكَ اللّهُ بِهِ عَلَى أَعْدائِكَ «فَقالَ عليه السلام: لَهُ أَهَوَى أَخِيكَ مَعَنا؟ فَقالَ: نَعَمْ. قالَ فَقَدْ شَهِدَنا، وَلَقَدْ شَهِدَنا فِي عَسْكَرِنا هَؤُلاءِ أَقْوامٌ فِي أَصْلابِ الرِّجالِ وَأَرْحامِ النِّساءِ، سَيَرْعَفُ بِهِمُ الزَّمانُ وَيَقْوَى بِهِمُ الْإِيمانُ» . (۱)

نظره إلى الخطبه

يتضح ممّا قاله السيد الرضى بشأن الخطبه أنّها متعلقه باحداث الجمل والنصر المبين الذى حققه الإمام عليه السلام حيث إلتفت إليه أحد أصحابه وكان شديد الحب لأخيه فقال له: ليت أخى كان معنا ليشهد ما نحن فيه من النصر والغلبه على هؤلاء البغاه. فاورد الإمام عليه السلام هذه الكلمات الرائعه ليطمئنه بالحضور المعنوى لأخيه وكل من سار على نهجه عليه السلام من حماه العقيده، فالإسلام يرى الرابطه الدينيه تفوق كافه الروابط العرقيه والسياسيه والاقتصاديه وما إلى ذلك. فقد تظافرت الروايات الإسلاميه التى صرّحت بأنّ من أحبّ عمل قوم حشر فيه معهم

---

۱ - ۱) سند هذه الخطبه هو ماورد فى كلام الشريف الرضى، وقد ورد شبيه هذا الكلام فى كتاب مصابيح الظلم من كتب المحاسن البرقى. أنّ أحد أصحاب الإمام عليه السلام قال بعد أنّ أظفر اللّه الإمام عليه السلام بالخوارج فى النهروان، طوبى لنا قاتلنا بين يديك فقتلنا الخوارج، فرد الإمام عليه السلام بعبارات شبيهه بما ورد فى هذه الخطبه (مصادر نهج البلاغه ۱ / ۳۳۹) . [۱]

و الراضی بفعل قوم کالداخل فیه معهم. وبعباره اُخری فان الإمام علیه السلام أشار فی هذه الخطبه إلی أنّه قد شهده فی عسکره وشرکه فی نصره کافه الأفراد الذین یقیمون الیوم فی کافه أصقاع العالم والذین لم یشهدوا - لأسباب - میادین القتال إلّاأنّهم وبسبب تعاطفهم العقائدی وکذلک الأفراد الذین مازالوا نطف فی أصلاب الرجال وقرارات الفساد.

الشرح والتفسیر

اللحمه العقائدیه

یتضح ممّا مر معنا أنّ الإمام علیه السلام اورد هذا الکلام فی إطار ردّه علی أحد أصحابه الذی أعرب عن تمنیه فی أن یکون أخیه قد حضر معه فی تلک المعرکه ویشهد النصر المؤزر الذی من اللّه به علی جیش الإمام علیه السلام فالتفت إلیه الإمام علیه السلام: «فقال له: أهوی أخیک معنا؟» ، «فقال: نعم» ، فرد علیه الإمام علیه السلام: «فقد شهدنا، ولقد شهدنا فی عسکرنا هذا أقوام فی اصلاب الرجال وارحام النساء، سیرعف بهم الزمان، ویقوی بهم الإیمان» . (۱)

أجل من کان علی عقیدتنا أینما کان فهو معنا وإن لم یکتب لهم اللّه الحضور الفعلی فی المیدان. أمّا قوله علیه السلام سیرعف بهم الزمان فهی إشاره إلی أنّ الدم وان جری مستتراً فی عروق الإنسان إلّا أنّه یظهر فی أیه لحظه وینتشر بکل سهوله، فهؤلاء مستترون فی باطن هذا العالم إلّاأنّهم سیظهرون تدریجیا طبق التصنیف الزمانی الإلهی ومن خصائصهم «و یقوی بهم الإیمان» فهم یتحرکون باتجاه الحق؛ الأمر الذی یسهم فی تقویه أواصر الدین والإیمان. هذا وقد کثر الکلام بین شرّاح نهج البلاغه بشأن طریقه هذا الشهود والحضور للغائبین فهل هو حضور روحی؟ أی هل أرواحهم حاضره فی ذلک المکان قبل أن تخلق الأبدان، أم هو حضور بالقوه؟ أی هم حاضرون وان غابوا عن المیدان ظاهریا؟ یبدو أنّ مراد الإمام علیه السلام بهذا الحضور هو شرکتهم فی الثواب والحسنات والنتائج؛ أی أنّ هؤلاء الذین قلوبهم معنا وهم علی خطتا وحرکتنا (حزب اللّه) فهم شرکاءنا فی الأجر والثواب، وعلیه فلهم حضورهم الروحی الفعلی فی کافه میادین صراع الحق ضد الباطل. فالواقع هو أنّ المسار واحد والحرکه واحده والجمیع کتله

۱- ۱) «الرعاف» خروج الدم من الأنف.

واحده إن تعا نقت عقائدهم وأهدافهم وليس للزمان أن يفصل بعضهم عن البعض الآخر. وهذا يصدق أيضاً على خط الباطل، فالكل سائر على طريق الشيطان ويحمل نفس العقائد الفاسده ويعيش حاله الظلم والعدوان ومقارفه الذنوب والمعاصى فالمتأخر شريك للمتقدم فى الجزاء والعقاب.

تأمّل: الرابطه الحق

ما ورد فى الخطبه يكشف عن حقيقه معنويه ليس للمعادلات الدنيويه المادیه من سبيل إلى الوقوف على كنهها والاحاطه بها. فالإمام عليه السلام يرى أنّ أهم رابطه تحكم المؤمنين هى رابطه الدين والعقيده التى لاتضاهيها رابطه (من قبيل رابطه الدم والجنس واللون والعرق واللغه والحزب والطائفه والقبيله وما إلى ذلك) فهى أروع وأقوى وأعظم، ومن شأن هذه الرابطه أن تشمل كافه الأزمنه والأمكنه وجميع أفراد البشر فى الماضى والحاضر والمستقبل ليصهرها فى بوتقه الهيه واحده. فقد قال عليه السلام «لقد شهدنا، ولقد شهدنا فى عسكرنا هذا أقوام فى أصلاب الرجال وارحام النساء، سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان» فالمعركه ليست صراع شخصى من أجل السيطره، بل هى معركه بين الحق والباطل، وهما صفان متقابلان خالدان حتى ينفخ فى الصور، وأنّ المؤمنين سيهبون لمجابهه الباطل والذود عن الحق مازالت هنالك آثار للباطل، وكل من كان على الحق فهو شريك فى كل ما يترتب على هذه المجابهه من أجر وثواب. والدليل واضح على ذلك حيث الحقيقه واحده لاينشد أتباع الحق سواها فهم يتحركون بهذا الاتجاه ويشهرون سيوفهم من أجل تحقيق هذا الهدف. وعلى أساس هذا الاصل الأساسى تكون قد حلت أكثر المسائل الوارده فى القرآن والأحاديث والتى قد تبدو مستغربه للبعض. فقد صرّح القرآن الكريم بشأن قوم ثمود قائلاً: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوّئها» (۱). بينما صرّحت التواريخ أنّ الذى عقر الناقه كان واحداً منهم، فى حين نسب اللّه العقر للجميع بفعل تضامنهم العقائدى معه فشملوا جميعاً بالعذاب. وهذا هو

۱- ۱) سوره الشمس / ۱۴. [۱]

المفهوم الـذى أوضـحه الإمام عليه السـلام بقوله: «أيّها الناس انّما يجمع الناس الرضـى والسـخط وإنّما عقر ناقه ثمود رجل واحد منهم فعمهم اللّه بالعـذاب لما عموه بالرضا» (۱)وقوله عليه السـلام: «الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم وعلى كل راض بالاثم ذنبـان؛ ذنب الرضـى به وذنب العمـل به» . وورد فى زيـاره الأربعين لجابر بن عبـداللّه الانصارى أنّه انكب على قبر الحسـين عليه السـلام وجعل يزوره بهذه العبارت: «أشـهد أنّك أقمت الصـلاه وآتيت الزكاه وأمرت بالمعروف نهيت عن المنكر وجاهدت فى اللّه حق جهاده حتى أتاك اليقين، والـذى بعث محمداً بالحق لقد شاركناكم فيما دختلم فيه» فلما سـمعه صاحبه عطيه تعجب من قـوله قائلاـ: كيف ذاك ولم نهيـط وادياً وقـد قاتـل القوم دون الحسـين عليه السـلام فطـاحت رؤوسـهم وترملت نسـائهم ويتمت أولادهم فقال جابر: سمعت حبيبى رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: من أحبّ قوماً حشر معهم ومن أحبَّ عمل قوم اُشرك فى عملهم، أمّا والذى بعث محمدا صـلى الله عليه و آله بالنبوه لنيتنا نيه الحسـين عليه السـلام وأصحابه» (۲)القرآن من جانبه خاطب كراراً يهود المـدينه على عهـد رسول اللّه صـلى الله عليه و آله ووبخهم على الأعمـال الـتى أتى به أصـحابهم على عهـد نـبى اللّه موسى عليه السلام؛ بينما كانت هنالك عدّه قرون بين القومين، فجعلهم القرآن كاُولئك لانتهاجهم مسيرتهم ورضاهم باعمالهم، ومن ذلك قوله «قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِى بِالبَيِّناتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (۳). وهذا ما أشار إليه الإمام الصـادق عليه السـلام فى ذيـل هـذه الآـيه أن اللّه إعتبر هؤلاـء – ممن عاصـر النبى صـلى الله عليه و آله من اليهود – قتله الأنبيـاء السابقين رغم عدم ارتكابهم لجريمه القتل ولكن حيث كانوا على عقيده أولئك القتله وراضين بفعلهم فقد عدهم قتله» (۴). وقد روى المحدث الكبير عدّه روايات فى المجلد الحادى عشـر من وسائل الشـيعه بهذا المضـمون فى كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. (۵)

ومن شأن هـذا اللون من التفكير أن يفتح أمامنا آفاقا واسـعه ويجعلنا نقف على مضـمون الآيات والروايات ويساعدنا فى سـلوك طريق الحق.

۱– ۱) نهج البلاغه، الخطبه ۲۰۱. [۱]

۲– ۲) بحارالانوار ۶۵ / ۱۳۱. [۲]

۳– ۳) سوره آل عمران / ۱۸۳. [۳]

۴– ۴) بحارالانوار ۹۷ / ۹۴. [۴]

۵– ۵) وسائل الشيعه / ۱۱، كتاب الأمر بالمعروف، الباب ۵.

الخطبه الثالثه عشره

اشاره

ومن كلام له عليه السلام

فى ذم أهل البصره بعد وقعه الجمل.

«كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَهِ، وَأَتْبـاعَ الْبَهِيمَهِ؛ رَغـا فَـأَجَبْتُمْ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ. أَخْلاقُكُمْ دِقاقٌ، وَعَهْـدُكُمْ شِـقاقٌ، وَدِينُكُمْ نِفاقٌ، وَماؤُكُمْ زُعاقٌ، وَالْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَالشّاخِصُ عَنْكُمْ مُتَدارَك بِرَحْمَهٍ مِنْ رَبِّهِ. كَأَنِّى بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَهٍ قَدْ بَعَثَ اللّهُ عَلَيْها الْعَذابَ مِنْ فَوْقِها وَمِنْ تَحْتِها، وَغَرِقَ مَنْ فِى ضِمْنِها» . (۱)

نظره إلى الخطبه

الخطبه كبعض الخطب السابقه واللاحقه وارده بشأن موقعه الجمل، وقـد ذم الإمام على عليه السـلام أهل البصـره الـذين أسلسـلوا قيادهم لطلحه والزبير وفرقوا صفوف المسلمين، ثم توعدهم بعذاب اللّه سبحانه، ليعتبر من إعتبر فلا يقارف أعمالهم.

---

۱ - ۱) قـال المرحـوم المحقق الخوئى أنّ الإمـام عليه السـلام خطب هـذه الخطبه بعـد انتهـاء معركه الجمـل، ورواهـا - مع بعض الاختلاف - المرحوم الطبرسى فى الاحتجاج وعلى بن إبراهيم القمى والمحدث البحرانى، كما نقلها - حسب كتاب مصادر نهج البلاغه - [۱] عدد من العلماء من عاشوا قبل الشـريف الرضـى كالدينورى فى الأخبار الطوال والمسعودى فى مروج الذهب وابن قتيبه فى عيون الأخبار وابن عبد ربه فى العقد الفريد (مصادر نهج البلاغه ۱ / ۳۴۴) . [۲]

خصائص أهل الجمل

لقد أشار عليه السلام فى هذه الخطبه إلى الصفات الذميمه التى إتصف بها مؤججى البصره ليجمعها فى سبع صفات. فقد قال عليه السلام فى البدايه «كنتم جند المرأه» . صحيح أن مؤججى نار الجمل هما طلحه والزبير، كما تشير الشواهد التأريخيه إلى الدور المشبوه الذى لعبه معاويه فى هذا الشأن، ولكن الذى لاشك فيه أنّ حضور عائشه وكونها زوج النبى صلى الله عليه و آله كان الدافع الأعظم الذى ساق الناس لقتال الإمام عليه السلام والانخراط فى صفوف أصحاب الجمل، ولا سيما أن كنيتها بأم المؤمنين كان له أبلغ الأثر فى نخوه الناس للدفاع عن اُمهم، ومن هنا خاطب الإمام عليه السلام أهل البصره. بجند المرأه. الصفه الثانيه لهم: «و اتباع البهيمه» ، ثم يوضح عليه السلام سبب استحقاقهم لهذه الصفه إثر تحزبهم واجابتهم حين كانت ترغى وهروبهم وتشتتهم حين عقرت «رغا (١)فاجبتم، وعقر (٢)فهربتم» . فقد صرّح بعض المؤرخين أنّ جمل عائشه - فى معركه الجمل - كان بمثابه رايه عسكر البصره، حيث كان الجنود يلتفون حوله ويضربون دونه حتى قتلوا كما تقتل الرجال تحت راياتها. وجاء فى بعض الروايات أن سبعين ألفاقد أخذوا بزمام الجمل وكانوا يقتلون الواحد تلو الآخر، وكان أكثر من إلتف حول الجمل والدفاع عنه من قبيلتى بنى ضبه والأزد، لقد كانت الرؤوس تندر عن الكواهل، والايدى تطيح من المعاصم وأفتاب البطن تند لق من الاجواف وهم حول الجمل كالجراد الثابته لاتتحلحل ولا تتزلزل، حتى لقد صرخ على عليه السلام بأعلى صوته: «ويلكم أعقروا الجمل، فانه شيطان» ثم قال: إعقروه والا فنيت العرب. لايزال السيف قائما وراكعا حتى يهوى هذا البصير إلى الأرض، فعمدوا له حتى عقروه فسقط و له رغاء شديد، فلما برك كانت الهزيمه. كما ورد فى بعض الروايات أنّ أميرالمؤمنين أمر بحرق الجمل وذر رماده فى الرياح وقال: لعنه اللّه من دابه ما أشبهه بعجل السامرى، ثم تلى «وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى اليَمِّ نَسْفاً» (٣)والطريف فى

١- ١) «رغا» من ماده «رغاء» على وزن دعاء صوت الجمل كما يطلق على صوت الضبع أيضاً.

٢ - ٢) «عقر» من ماده «عقر» على وزن فقر بمعنى الأصل والجذر، وتعنى الجرح والقطع اِذا استعملت للناقه كما تأتى بمعنى الهلاك.

٣- ٣) سوره طه / ٩٧. [١]

موقعه الجمل أن عائشه أخذت كفا من حصى، فحصبت به أصحاب الإمام عليه السلام وصاحت بأعلى صوتها: شاهت الوجوه كما صنع رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوم بدر. فقال لها قائل: ومارميت إذ رميت ولكن الشيطان رمى. (۱)فقد كان حصب رسول اللّه صلى الله عليه و آله للمشركين أحد العوامل الاعجازيه التى أدت إلى إنهيار عسكر الكفر، بينما انتهت معركه الجمل بهزيمه منكره منى بها أعداء الإمام عليه السلام. أمّا الصفه الثالثه والرابعه والخامسه فهى تعالج أوضاعهم الأخلاقيه حيث قال عليه السلام: «أخلاقكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق» دقاق من ماده دقت بمعنى الدنيئه هنا، يصف بها أهل البصره من عبده الأهواء الذين نكثوا البيعه والتحقوا بصفوف الأعداء، أمّا نفاقهم فهو ناشئ من كون ظاهرهم هو الإسلام والدفاع عن زوج النبى صلى الله عليه و آله وباطنهم القيام ضد الحكومه الإسلاميه ووصى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و التخندق فى صفوف أهل الشام. ثم أشار عليه السلام إلى صفتهم السادسه «و ماؤكم زعاق» . ومن المعلوم إن مثل هذا الماء وإضافه إلى ملوحته ومرارته فانه ينطوى على كل عناصر التلوث بسبب مجاورته لشاطئ البحر؛ فهو مضر بالنسبه لسلامه البدن، وهو يا لتالى مضر بروح الإنسان وفكره بفعل الرابطه القائمه بين الروح والبدن. وعليه فان ذم ماؤهم هو فى الواقع نوع ذم لأخلاقهم. ثم تطرق إلى صفتهم السابعه فقال: «و المقيم بين أظهركم (۲)مرتهن بذنبه والشاخص (۳)عنكم متدارك برحمه من ربّه» . والعباره إشاره إلى ما ورد فى عدّه روايات، ومنها الحديث المعروف الذى نقله المرحوم الكلينى فى الكافى عن أبى الحسن الإمام الهادى عليه السلام حين قال لأحد أصحابه ويدعى جعفر: مالى أراك تغشى عبدالرحمن بن يعقوب (و كان منحرفاً فى عقائده) ، ألا تعلم أنّه ينسب اللّه إلى صفات المخلوقين ثم نصحه عليه السلام بتركهم ومجالسه أعدائهم أو العكس، فرد جعفر على الإمام عليه السلام

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لإبن أبى الحديد ۱ / ۲۵۲ - ۲۶۶ [۱] إلّاأنّه كتب حنين خطأ بدلاً من بدر.

۲ - ۲) «بين أظهركم» بمعنى بينكم، وأظهر جمع ظهر بمعنى الخلف وهو خلاف الباطن، ويستعمل هذا اللفظ للشخص الذى يعيش بين مجموعه تسانده و تحميه، و أحيانا يستعمل هذا اللفظ للعيش فى مجموعه يؤيدونه ويحمونه أو لا يحمونه. «لسان العرب، منقول عن الكامل فى التاريخ أولا يحمونه. «لسان العرب، منقول عن الكامل فى التاريخ لابن الاثير» .

۳- ۳) «شاخص» من ماده «شخص» بمعنى المرتفع واطلقت على قامه الإنسان حين تلوح من بعيد، ومن هنا اطلق على الشخص المسافر اسم الشاخص، وقد وردت بهذا المعنى فى العباره المذكوره.

فلیقل ما یقل فی إشاره إلی أنّه لا یتفق معه فی العقیده فلا یضره. فقال علیه السلام: «أما تخاف أن تنزل به نقمه فتصیبکم جمیعا» (۱)ومن هنا وجبت الهجره علی المسلمین فی صدر الإسلام حین عم الفساد کل شیء - ولا سیما الفساد العقائدی - ولم یسعهم القضاء علیه، بل کان یخشی تأثرهم به. وقوله علیه السلام: «مرتهن بذنبه» إشاره إلی أنّ الذنب یأسر الإنسان وکأنه یجعله رهینه فلا یطلقه، وهو مستوحی من قول القرآن الکریم «کل نفس بما کسبت رهینه» (۲)والذی نخلص إلیه من هذه العباره هو التأثیر الذی یلعبه المحیط والوسط علی أخلاق الناس، فاما یغیر هذا الإنسان المحیط الفاسد والملوث أو یهجره. ثم تطرق الإمام علیه السلام إلی العذاب الدنیوی الذی ینتظر أهل البصره فقال: «کانی بمسجدکم کجؤجؤ سفینه قد بعث اللّه علیها العذاب من فوقها ومن تحتها، وغرق من فی ضمنها» . وأمّا إخباره علیه السلام أنّ البصره تغرق عدا المسجد الجامع بها، «فقد رأیت من یذکر أن کتب الملاحم تدل علی أنّ البصره تهلک بالماء الأسود ینفجر من أرضها، فتغرق ویبقی مسجدها. والصحیح أنّ المخبر به قد وقع، فان البصره غرقت مرتین، مره فی أیّام القادر باللّه (۳)ومره فی أیام القائم بأمر اللّه (۴)غرقت بأجمعها ولم یبق منها إلّامسجدها الجامع بارزاً بعضه کجؤجؤ الطائر، حسب ما أخبر به أمیرالمؤمنین علیه السلام، جاءها الماء من بحر فارس (۵)من جهه الموضع المعروف الآن بجزیره الفرس، ومن جهه الجبل المعروف بجبل السنام، وخربت دورها وغرق کل ما فی ضمنها، وهلک کثیر من أهلها» (۶)أخبارهاتین الحادثتین معروفه عند أهل البصره یتناقله خلفهم عن سلفهم.

ثم نقل السید الرضی آخر هذه الخطبه ثلاث روایات بشأن العبارات الوارده فی آخرها:

الروایه الاولی: «و آیم اللّه لتغرقن بلدتکم حتی کأنی انظر إلی مسجدها کجؤجؤ سفینه أو نعامه جاثمه» .

۱- ۱) اصول الکافی ۲ / ۳۷۵، باب مجالسه أهل المعاصی، [۱] وقد وردت فی هذا الباب عدّه روایات بهذا المضمون.

۲- ۲) سوره المدثر / ۳۸. [۲]

۳- ۳) الذی تولی الخلافه عام ۳۸۱ ه (الکامل فی التأریخ ۱/۸۰) . [۳]

۴- ۴) «القائم بأمر الله» ، من خلفاء الدوله العباسیه، اصبح خلیفه عام ۴۲۲ هجری «الکامل فی التاریخ ۹/۴۱۷» . [۴]

۵ - ۵) من النقاط التی تسترعی الانتباه إن إبن أبی الحدید کان من الذین عاشوا فی القرن السابع الهجری وکان یُطلق علی الخلیج الفارسی اسم «بحر الفرس» .

۶- ۶) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱ / ۲۵۳. [۵]

الروایه الثانیه: «کجؤجؤ طیر فی لجه بحر» .

الروایه الثالثه: «بلادکم أنتن بلاد اللّه تربه: أقربها من الماء، وأبعدها من السماء، وبها تسعهأعشار الشر، المحتبس فیها بذنبه، والخارج بعفو اللّه. کأنّی أنظر إلی قریتکم هذه قد طبقها الماء، حتی ما یری منها الاشرف المسجد، کانه جؤجؤ طیر فی لجه بحر» .

لابدّ من الالتفات إلی عدم وجود تفاوت یذکر بین ماورد فی الخطبه المذکوره والروایه الاولی. فکلاهما قد استهلت بالقسم وتحدثتا علانیه عن غرق هذه المدینه، ثم اضافت تشبیه آخر لماورد سابقاً بشأن المسجد بالقول «و ایم اللّه لتغرقن بلد تکم حتی کانّی انظر إلی مسجدها کجؤجؤ سفینه أو نعامه جاثمه» (۱).

أمّا فی الروایه الثانیه فهناک تفاوت طفیف جداً حیث استبدل تشبیه جؤجؤ السفینه بقولها «کجؤجؤ طیر فی لجه (۲)بحر» .

بینما هنالک تفاوت کبیر بین الخطبه الثالثه والخطبه الأصلیه. فقد أشیر فی هذه الروایه إلی ثلاث اُمور فی ذم أهل البصره «بلادکم أنتن بلاد اللّه تربه اقربها من الماء، وأبعدها من السماء» والصفه الثانیه «و بها تسعه أعشار الشر» ولعل هذا الأمر ینبع من الخصائص الأخلاقیه لناس تلک المنطقه أو بسبب کونها میناءاً یکون مرکزاً لتردد مختلف الأفراد وهجوم الثقافات الأجنبیه والتلوث الخلقی الذی یفرض علیها من الخارج. ولذلک کانت هذه المنطقه مسرحاً للأحداث الألیمه للقرون الإسلامیه الاولی. أمّا الصفه الثالثه فهی «المحتبس فیها بذنبه، الخارج بعفو اللّه» . (۳)ثم یتطرق الإمام علیه السلام إلی شبیه ماورد فی الروایات المذکوره بقوله:

۱- ۱) «جاثمه» من ماده «جثوم» بمعنی الجمع والجثم بالصدر علی الأرض، وتطلق هذه المفرده علی الأفراد الذین یخلدون إلی الأرض ولیس لهم من حرکه سوی الکسل والنعاس.

۲- ۲) «لجه» بمعنی الموجه والماء الواسع العمیق، وتعنی فی الأصل ذهاب واباب الشیء ومن هنا یطلق لجه علی البحر المائج، کما یطلق اللجوح علی الأفراد الذین یصرون علی شیء، کما تطلق علی موج البحر.

۳- ۳) هذا التفسیر یصدق فی حال کون الباء فی «بذنبه» والباء فی «بعفواللّه» باء السببیه، ولکن اذا کانت الباء للالصاق فیکون مفهوم الجمله: الشخص الذی تلوث وابتلی بالذنوب، وبقی بعیداً عن الناجین، ولکن العفو الالهی یشمل هذا الشخص فیصبح من الناجین. لکن المعنی الأول هو الارجح طبق المقاییس الأدبیه.

«كانّى انظر إلى قريتكم هذه قد طبقها الماء، حتى ما يرى منها الاشرف (۱)المسجد، كانه جؤجؤ طير فى لجه بحر» . ويبدو أن اختلاف العبارات يستند إلى رواه الحديث الذين قد نقلوا بعضها من حيث المعنى، أو أنّهم أخطأوا فى تدوين الحديث، ويبعد الاحتمال على أنّ الإمام عليه السلام قد كرر هذا الكلام فى أكثر من موضع وقال فيه ما يناسبه.

تأمّلات

۱ – نبوءه النبى صلى الله عليه و آله بشأن موقعه الجمل

الجدير بالذكر أن عده روايات صرحت بإخبار النبى صلى الله عليه و آله عن يوم الجمل وخروج عائشه وتحذيره لها. ومن ذلك لما عزمت عائشه على الخروج إلى البصره طلبوا لها بعيراً أيّداً يحمل هَوْدَجها، فجاءهم يعلَى بن أميه ببعيره المسمى عَسْكراً، وكان عظيم الخلق شديداً، فلما رأتْه أعجبها، وأنشأ الجمَّال يحدّثها بقوته وشدته، ويقول فى أثناء كلامه: «عسكر» ، فلما سمعت هذه اللفظه، واسترجعتْ، وقالت: ردّوه لا حاجه لى فيه، وذكرت حيث سئلت أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله ذكر لها هذا الاسم، ونهاها عن ركوبه، وأمرَت أن يطلب لها غيرهُ فلم يوجد لها ما يشبهه، فغيِّر لها بجلال غير جلاله، وقيل لها: قد أصبْنا لك أعظم منه خلقا، وأشدّ قوه، وأتيتْ به فرضيت.

وأرسلت إلى حفصه تسألها الخروج والمسير معها، فبلغ ذلك عبداللّه بن عمر، فأتّى أخته فعزم عليها فأقامت وحطَّتِ الرّحال بعد ما همّت.

كتب الأشتر من المدينه إلى عائشه وهى بمكه، أمّا بعد: فإنّك ظعينه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وقد أمرك أن تقرّى فى بيتك، فإنْ فعلتِ فهو خير لك، فإن أبيتِ إلّاأن تأخذى مِنْسأتك، وتُلقى جلبابك، وتبدى للناس شعيراتك، قاتلتك حتى أردك إلى بيتك، والموضع الذى يرضاه لك ربّك.

فكتبت إليه فى الجواب: أمّا بعد، فإنّك أول العرب شَبّ الفتنه، ودعا إلى الفرقه وخالف

۱- ۱) «شرف» على وزن هدف بمعنى الموضع المرتفع.

الأئمه، وسعی فی قتل الخلیفه، وقد علمت أنّک لن تعجز اللّه حتی یصیبک منه بنقمه ینتصر بها منک للخلیفه المظلوم، وقد جاءنی کتابُک، وفهمت ما فیه؛ وسیکفینیک اللّه؛ وکلّ من أصبح مماثلاً لک فی ضلالک وغیّک، إن شاء اللّه.

وقال أبومحنف: لما انتهت عائشه فی مسیرها إلی الحوأب، وهو ماء لبنی عامر بن صعصعه، نبحتها الکلاب؛ حتی نفرت صِعاب إبلها، فقال قائل من أصحابها: ألا ترون، ما أکثر کلاب الحوأب، وما أشد نُباحها! فأمسکت زمام بعیرها، وقالت: وإنّها لکلاب الحوأب! ردّونی ردّونی؛ فإنی سمعت رسول اللّه صلی اللّه علیه یقول. . . وذکرت الخبر، فقال لها قائل: مهلاً یرحمک اللّه! فقد جُزْنا ماء الحوأب؛ فقالت: فهل من شاهد؟ فلفّقوا لها خمسین أعرابیاً، جعلوا لهم جُعْلا، فحلفوا لها: إن هذا لیس بماء الحوأب، فسارت لوجهها. (۱)

والعجیب أن مثل هذه الروایات کانت سببا لتردد عائشه، بینما لم تکن کل تلک الروایات الصحاح عن رسول الله صلی الله علیه و آله وقد روت أکثرها سببا لترددها وإنصرافها. وهذا لعمری من العجائب. کما یفهم من هذه الحکایات أنها سرعان ما کانت تخدع وتغیر رأیها.

۲- ذم أهل البصره

ما ورد من ذم للبصره فی الخطبه المذکوره یتعلق بعضه بتأثیر المناخ وموقع المدینه وأوضاعها الإجتماعیه (حیث کانت میناءا وموضعا لإستقطاب أنواع الثقافات والأفکار والأخلاق الملوثه والتی کانت هناک ومازالت فی مثیلاتها) إلا أنّ البعض الآخر یرتبط بروحیه وصفات سکنتها، والذی لا یلزم أن یکون کذلک فی کل عصر ومصر، بل هو إشاره لاولئک الناس فی ذلک العصر والزمان والذین کانوا یستسلمون لمحظظات طلحه والزبیر القبیحه فینقضوا البیعه ویریقوا تلک الدماء. وعلیه فلا منع من أن یسود تلک المنطقه الأخیار فی سائر العصور. ولذلک وردت بعض الأخیار التی تقید مدح هذه المنطقه، ومن ذلک ما روی عن أمیر المؤمنین علیه السلام حین إخباره منه. . . فقرّاؤهم أفضل القرّاء وزهّادهم أفضل الزّهاد وعبّادهم

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۶/۲۲۵. [۱]

أفضل العبّاد وتجارهم أصدق التجار. . . ونساؤهم خير النساء. (۱)

فلا منافاه أبدا أن يجد قوم ويجتهدوا فی طريق تهذيب النفس وتزكيتها فيتطهروا من الرذائل الأخلاقيه وينطلقوا صوب السمو والكمال، سيما إن كانت رذائلهم الأخلاقيه من قبيل معركه الجمل وما ترتب عليها من نتائج هزّتهم وأعادتهم إلى رشدهم.

۳ – المحيط والاخلاق

تتضح مسألتان من عبارات الإمام عليه السلام فی هذه الخطبه:

الاولى الأثر الذی بلعبه المحيط الطبيعی والجغرافی فی خلق ومزاج الإنسان، حيث قال عليه السلام: «ماؤكم زعاق. . . بلادكم انتن بلادالله تربه أقربها من الماء وأبعدها من السماء» . والأُخرى تأثير المحيط الاجتماعی فی أخلاق الناس: «و المقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه» .

ولكن من المسلم به أنّ هذا التأثير يقتصر على تمهيد السبيل وتوفير الأرضيه ولا يرقى لأن يكون عله تامه قط؛ ولذلك هناك الأفراد الأخيار الذين يعيشون فی هذه الأوساط. بل على العكس فهنا لك الأفراد المعروفون بالفساد والانحراف والسيره الخبيثه والشريره وهم يعيشون فی المناطق التی تتمتع بالمناخ المناسب من أجل تعالى الأخلاق وبلوره المزاج.

۱- ۱) بحارالأنوار ۳۲ / ۲۵۶ (مضمون الروايه) .

الخطبه الرابعه عشره

اشاره

ومن كلام له عليه السلام فى مثل ذلك

«أَرْضُكُمْ قَرِيبَهٌ مِنَ الْماءِ، بَعِيدَهٌ مِنَ السَّماءِ، خَفَّتْ عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ، فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ، وَأُكْلَهٌ لِآكِلٍ، وَفَرِيسَهٌ لِصَائِلٍ» . (۱)

نظره إلى الخطبه

هذه خطبه اُخرى أوردها الإمام عليه السلام بعد الجمل ولعلها تشكل مع سابقتها خطبه واحده ثم فصلها الشريف الرضى رحمه الله. على كل حال فانّ الإمام عليه السلام يعرض بالذم ثانيه لأهل البصره ويتحدث عن خوائهم الفكرى الذى جعلهم يتحولون إلى إلعوبه بيد المنافقين من اَصحاب المطامع، وأخيراً يحذرهم عليه السلام من مغبه مواصله هذا الطريق الضال.

الشرح والتفسير

ذم أهل البصره ثانيه

كما أشرنا سابقاً فان هذا الكلام هو قسم آخر من تلك الخطبه التى أوردها الإمام عليه السلام فى ذم

---

۱ - ۱) جاء فى مصادر نهج البلاغه [۱]أن المرحوم الشيخ المفيد تقل فى كتاب الجمل / ۲۱۷ [۲] عن الواقدى أنّ علياً عليه السلام حين انتصر فى المعركه ووزع الغنائم على الجنود ألقى هذه الخطبه: كما وردت مع إختلاف طفيف فى كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفه الدينورى وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبه (مصادر نهج البلاغه، ۱ / ۳۴۸) . [۳]

أهل البصره بعد موقعه الجمل حيث ضمته عليه السلام سبع صفات قبيحه إتصفوا بها. فقد وصفهم فى العباره الاولى والثانيه «أرضكم قريبه من الماء، بعيده من السماء» . يمكن أن تكون العبارتان إشاره إلى الجوانب الماديه فى أنّ هذه المنطقه قريبه من ماء البحر والشط وهى بعيده عن السماء، أو إشاره إلى الجوانب المعنويه كأن يكون المراد أن أرض قلوبكم ورغم قربها من ماء الحياه بفعل وجود الإمام، إلّاأنّها بعيده عن سماء رحمه اللّه ومغفرته. أو أن تكون هذه العباره وارده فى المسائل الماديه والعباره الاُخرى فى المسائل المعنويه هناك نقاش وبحث بين الشرّاح فى هذا الشأن، غير أنّ ظاهر العباره - بالالتفات إلى المعنى الحقيقى للأرض والسماء - فانّ المراد المعنى الأول، فليس هنالك من خلاف فى أنّ أرضهم قريبه من الماء ولها المشاكل التى تنطوى عليها الحياه عند ساحل البحر، ولا سيما البصره التى يمر بها ذلك الشط الكبير ويصب فى البحر ممّا يجعلها عرضه لظاهره المد والجزر؛ أمّا كيفيه إبتعادها عن السماء، فقد ذكر بعض شرّاح نهج البلاغه أنّ أرباب علم الهيئه وصناعه التنجيم يذكرون أن أبعد موضع فى الأرض عن السماء «الابله» وذلك موافق لقوله عليه السلام - ومعنى البعد عن السماء ها هنا هو بعد تلك الأرض المخصوصه عن دائره معدل النهار والبقاع، والبلاد تختلف فى ذلك. وقد دلت الارصاد والآلات النجوميه على أنّ أبعد موضع فى المعموره عن دائره معدل النهار هو الابله والابله هى قصبه البصره. وهذا الموضع من خصائص أميرالمؤمنين عليه السلام لأنّه أخبر عن أمر لاتعرفه العرب، لاتهتدى إليه، وهو مخصوص بالمدققين من الحكماء، وهذا من أسراره وغرائبه البديعه.

ولكن لايبدو هذا الكلام مقبولا لدى العلماء المعاصرين، لأن البصره كسائر الموانئ العالميه المساويه لسطح ماء البحر، ونعلم أنّ مياه بحيرات العالم متصله مع بعضها وتقع فى مستوى واحد؛ والحال هنالك عدّه مناطق على سطح الكره الأرضيه وهى أوطئ من سطح البحار. لكن يحتمل ألا تكون المقارنه بالنسبه لجميع المناطق على سطح الكره الأرضيه، بل مع بعض البلدان والمناطق الإسلاميه المتعارفه آنذاك.

ثم قال عليه السلام فى العباره الثالثه والرابعه «خفت عقولكم، وسفهت حلومكم» والدليل الواضح على هذا ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطب السابقه من انقيادهم السهل واستسلامهم لأهواء

طلحه والزبیر وتقدیمهم التضحیات الجسام ذودا عن جمل عائشه وبالتالی هزیمتهم وفضیحتهم المنکره التی جرت علیهم الندم والحسره. عقول جمع عقل وحلوم جمع حلم، ویبدو أن (الحُلُم والحِلم) من آثار العقل بعباره اُخری فانّ العقل هو القوه المدرکه لدی الإنسان والفکر واعلم واجاله الرأی فی الأعمال من نتائجه، ولما کانت عقول أهل البصره خفیفه فانّ أفکارهم کانت ضعیفه تثار بسرعه إثر الدعایات السیئه التی یمارسها ذوی الأهواء والمطامع. ومن هنا قال الإمام علیه السلام فی العباره الخامسه والسادسه والسابعه: «فأنتم غرض (۱)لنا بل (۲)، واُکله لأکل، وفریسه (۳)لصائل (۴)» .

و من البد یهی أن یقع الأفراد السذج من ذوی الأفکار السطحیه الهشه لقمه سائغه فی شباک صیادی الدین والإیمان والمتعطشین إلی الشراء والمال والجاه والمنصب؛ ومن هنا فانّ العنصر الذی یمکنه ضمان المجتمعات الإنسانیه إزاء هؤلاء المکره المخادعین، إنّما یکمن فی رفع المستوی الثقافی لدی الرأی العام وایقاف الاُمّه علی مختلف القضایا الاجتماعیه والسیاسیه؛ الأمر الذی أکده الإسلام، وهذا هو أحد الأهداف التی تستبطنها خطب صلاه الجمعه. فلو إستدرک أهل البصره وعادوا إلی أنفسهم وأفکارهم وألموا بشرائط الزمان والمکان لما أصبحوا العوبه بید طلحه والزبیر الذین نقضنا بیعه الإمام علیه السلام وتظاهرا علیه وألبوا الناس علی قتاله فسالت تلک الدماء وحتی إنتهی الأمر إلی قتلهما. والسؤال المطروح هنا: هل هناک معنی واحد للعبارات الثلاث «فأنتم غرض لنابل» «و اکله لآکل» «و فریسه لصائل» أم لها معانی متعدده؟ لایبعد أن تکون کل عباره إشاره إلی جانب من جوانب المسأله. فالعباره الاولی تبیّن الاستهداف من بعید فی أنّ الساسه یسعون لرمیکم بسهامکم وایقاعکم فی شباکهم ولو من بعید. والعباره الثالثه تبیّن هذا الاستهداف من قریب بینما تبین العباره الثانیه النتیجه

۱- ۱) «غرض» بمعنی الهدف وهو ما ینصب لیرمی بالسهام، ثم اطلق علی کل هدف، کما ذکر له معان اُخری من قبیل الملل والشوق.

۲- ۲) «نابل» من ماده «نبل» بمعنی الضارب بالنبل.

۳- ۳) «فریسه» من ماده «فرس» علی وزن فرض بمعنی الضرب، ولما کان الحیوان الوحشی یضرب فریسه بالأرض اِطلق علیه المفترس، کما اطلق اسم الفرس علی الحصان لضربه الأرض برجله.

۴- ۴) «صائل» من ماده «صول» و «صوله» بمعنی الحمله والقهر والغلبه.

النهائیه لهذا الاستهداف والصید. وهنا لابدّ من الالتفات إلی أنّ هذا الذم إنّما یرد بشأن اُولئک الذین أصبحوا آله رخیصه بید المنافقین، وإلّا فالبصره آنداک وما تبعه من أزمان قد حفلت بالأفراد الأخیار الذین أثنی علیهم الإمام علیه السلام کما ورد فی شرح الخطبه السابقه.

ص:۳۴۰

الخطبه الخامسه عشره

اشاره

ومن كلام له عليه السلام

فيما رده على المسلمين من قطائع (۱)عثمان

«وَاللّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّساءُ وَمُلِكَ بِهِ الْإِماءُ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِی الْعَدْلِ سَعَهً. وَمَنْ ضاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ» . (۲)

نظره إلى الخطبه

هـذه من الخطب التى أوردها الإمام عليه السـلام بعـد أن بايعه الناس فى المدينه حيث توعد فيها كافه الأفراد الذين تطاولوا على بيت المال إبان عهـد عثمان إلى جانب بطانته وقرابته ممن حـذا حـذوهم، ويطالبهم باعادتها إلى بيت المال وإلّا سـيقف بوجههم بكل قوه. وهكذا يضع الإمام عليه السلام حداً لأطماع الطامعين، ثم يختتمها بعبارات قصيره بعيده المعنى بشأن العداله وقيمتها فى المجتمع.

۱- ۱) «القطـائع» ما يقطعه الإمام بعض الرعيه من أرض بيت المال ذات الخراج، ويسـقط عنه خراجه، ويجعل عليه ضـريبه يسـيره عوضـا عن الخراج، وقـد كـان عثمـان أقطع كثيراً من بنى اُميه وغير هم من أوليـائه وأصـحابه قطـائع من أرض الخراج على هـذه الصوره، وقد كان عمر أقطع قطائع، ولكن لأرباب الغناء فى الحرب والآثار المشهوره فى الجهاد؛ عثمان أقطع القطائع صله لرحمه وميلا إلى أصحابه من غير عناء فى الحرب ولا أثر.

۲- ۲) جاء فى مصادر نهـج البلاغه [۱]أن هـذه الخطبه قد ذكرت فى كتاب الاوائل لأبى هلال العسـكرى وكذلك كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان المصرى وإثبات الوصيه للمسعودى مع بعض الاختلاف (مصادر نهج البلاغه ۱ / ۳۵۰) . [۲]

القسم على إعاده الأموال المغصوبه

كما يفهم من مضمون الخطبه فانّها وردت فى بدايه الخلافه الظاهريه لأميرالمؤمنين على عليه السلام. وقال ابن أبى الحديد إنّ هذه الخطبه ذكرها الكلبى مرويه مرفوعه إلى أبى صالح عن ابن عباس رحمه الله أنّ علياً عليه السلام خطبها فى اليوم الثانى من بيعته بالمدينه. والحق أنّ هذه الكلمات كانت كالماء البارد الذى سكب على ألسنه اللهب والنار المتقده فى صدور الاُمّه؛ فقد سادت السكينه والهدوء قلوب أولئك الذين كانوا يأنون من إنعدام العداله على زمن عثمان إلى جانب اُولئك الذين شعروا بها جس القلق على النظام الإسلامى وقوانينه الحقه، فاستبشروا بعوده الإسلام الأصيل والحكومه الإسلاميه التى كانت تتطلع لها الفطره الإسلاميه، ولولا هذه السياسه التى أعلنها الإمام عليه السلام بهذه العبارات لما هدأت المدينه ولتكررت هجمات أبناء الاُمّه على دار عثمان ولسفكت الدماء واهدرت الأموال. فقد إستهل الإمام عليه السلام كلامه بالقسم بارجاع كافه الأموال التى نهبت من بيت المال مهما فعل بها «و اللّه لو وجدته قد تزوج به النساء، ملك به الاماء، لرددته» . ثم أضاف عليه السلام مذكرا بأنّ إجراء العداله قد يثير غضب البعض إلّا أنّ ذلك خطأ فادح، لأن العدل أساس راحه المجتمع ومن ضاق صدره من العدل فانّه سيكون أضيق إذا ماساد الجور والظلم «فان فى العدل سعه ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق» . فقد بيّن الإمام عليه السلام فى البدايه عزمه الراسخ على إعاده الأموال التى اُخذت ظلماً وعدواناً من بيت المال وإن تزوج بتلك الأموال أو تملك بها الإماء، فلابدّ أن تعاد إلى بيت مال المسلمين، لتعلم الاُمّه بأنّ القانون الذى سادها سابقاً لم يكن قانون الإسلام فهو ليس النموذج الإسلامى الذى يحتذى به فى المسيره السياسيه. ثم عزز هذا العزم بالمنطق والدليل «فانّ فى العدل سعه» . و أخيراً يعرض بالنصح لاُولئك الذين مد أيديهم إلى بيت المال وظنوا بأنّ عزم الإمام عليه السلام هذا سيتضمن ضررهم، فى أنّ الأمر بالعكس سيكون بنفعهم؛ لأن من ضاق عليه العدل فالظلم عليه أضيق، فالعداله تمنحه الأموال الحلال ولا تسلبه سوى الأموال المحرمه اللامشروعه، ولكن إذا لم يستجب للعدل وعاش الظلم والجور، فانّه سيخاطر بجميع أمواله المحلله منهاالمحرمه. صحيح أنّ الظلم ممكن أن يجر نفعاً على الظالم خلال مدّه قصيره، إلّاأنّه

لیس کـذلک علی المدی البعید، وقد أثبت التأریخ کیفیه تحطم الظلمه بنفس هذه القوانین الظالمه التی شـرعوها وفرضوها علی النـاس بقوه الحدیـد والنـار؛ حتی خـانهم أقرب مقربیهم وطعنوهم من خلفهم. قال الکلبی: ثم أمر علیه السـلام بکل سـلاح وجد لعثمان فی داره؛ تقوی به علی المسـلمین فقبض، و أمر بقبض نجائب کانت فی داره من إبل الصدقه، فقبضت، وأمر بقبض سیفه ودرعه، وأمر ألاـ یعرض لسـلاح وجـد له لم یقاتل به المسـلمین، وبالکف عن جمیع أمواله التی وجـدت فی داره وفی غیر داره، وأمر أن ترتجع الأموال التی أجاز بها عثمان حیث اُصیبت أو أصیب أصحابها. فبلغ ذلک عمرو بن العاص، وکان بأیله من أرض الشام، أتاها حیث وثب الناس علی عثمان، فنزلها فکتب إلی معاویه: ما کنت صانع فاصـنع، إذ قشرک ابن أبی طالب من کل مال تملکه کما تقشـر عن العصا لحاها. هذا وقد إختلفت أقوال المفسرین وشرّاح نهج البلاغه بشأن مراده بقوله «من ضاق علیه العدل فالجور علیه أضـیق» وأحد التفاسیر هو ما ذکرناه سابقاً. التفسیر الآخر هو أن بسط العداله فیه رضی اللّه وخلقه والانسجام مع نظام الوجود، بینما یوجب الظلم غضب اللّه وخلقه ویؤدی إلی ضـیق الدنیا والآخره. وتفسیر آخر هو أنّ سلب الإنسان شیء بالعدل قد یشق علیه، إلّاأنّ سـلبه ظلماً سـیکون علیه أشق وأصعب. وأخیراً أنّ الوالی إذا ضاقت علیه تدبیرات اُموره فی مظنه أن یمنع ویصد عن جوره. وإذا لم یطق الإنسـان العـدل والانصـاف فـأنّی له بتحمـل الظلم والجور. ولانری من ضـیر فی جمع کل هـذه التفاسـیر کمراد لمفهوم تلک العباره.

تأمّلات

۱ – معطیات العداله فی المجتمعات البشریه

لقـد ورد التأکیـد کراراً فی نهـج البلاغه علی مسأله العدل والانصاف، بل المعروف أنّ الإمام علی علیه السـلام من کبار باسـطی العـدل فی المجتمع الإنسـانی، حتی أسـماه المفکر المسـیحی المشـهور جورج جرداق الإمـام علی صوت العـداله الإنسـانیه. وقد تظافرت الروایات الإسـلامیه – وعلی غرار کلمات الإمام علی علیه السلام فی نهج البلاغه – الوارده بهذا الشأن وبعبارات غایه فی الروعه واللطافه، منها ما ورد عن الإمام السجاد علی بن الحسین علیه السلام أنّه قال: «العدل أحلی من

الماء يصيبه الظمآن» (۱). وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «العدل أحلى من الشهد وألين من الزبد وأطيب ريحاً من المسك» (۲). وقال أمير المؤمنين على عليه السلام: «العدل أساس به قوام العالم» (۳)، كما قال عليه السلام: «ما عمرت البلدان بمثل العدل» (۴). فالحق أنّ أساس العالم قد شيد على العدل، والعدل بمفهومه الجامع يعنى وضع الأشياء فى مواضعها، فالسماء والأرض والمجرات والمنظومات الشمسيه إنّما تتحرك حسب القانون والنظام والمواضع المخصصه لها، كما أن الالكترونات والبروتونات وسائر أجزاء الذره ومداراتها إنّما تتحرك هى الأُخرى ضمن مواقعها المحدده لها. وإنّ أدنى خروج عن حاله الاعتدال والاتزان فى بنيه الإنسان أو أى من أجهزته فان ذلك سيؤدى إلى مرضه أو موته، وهذا ما يصدق تماماً على عالم الحيوان والنبات، وقد أثبت العلماء أن استقرار الحياه على وجه الكره الأرضيه إنّما هو نتيجه لمجموعه معقده من الأنظمه التى تحكمها بحيث تضعف هذه الحياه وربما تضمحل وتنهار إذا ما تغيرت هذه الأنظمه، وهذا ما أشار إليه الحديث النبوى المعروف «بالعدل قامت السموات والأرض» (۵). وهنا نتساءل هل يسع الإنسان الذى يعدّ جزءاً صغيراً من هذا العالم العملاق أن يمارس حياته بعيداً عن النظام والعداله؟ وهل يسعه أن ينشق عن هذه المسيره ويواصل حياته بمعزل عن الآخرين؟ نعم قد يستطيع الظلم تلبيه مصالح فرد أو بلد خلال مدّه قصيره، إلّاأنّ آثاره المميته على المدى البعيد ليست بخافيه على أحد.

۲ – اسراف عثمان

ورد فى التواريخ أنّه أعاد الحكم بن أبى العاص، بعد أن كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله، قد سَيَّره ثم لم يرده أبوبكر ولا عمر، وأعطاه مائه ألف درهم.

وأقطع مروان فدك، وقد كانت فاطمه عليها السلام طلبتْها بعد وفاه أبيها صلوات اللّه

۱- ۱) بحار الأنوار ۷۲ / ۳۶. [۱]

۲- ۲) بحار الأنوار ۷۲ / ۳۹. [۲]

۳- ۳) بحار الأنوار ۷۵ / ۸۳. [۳]

۴- ۴) مستدرک الوسائل ۱۱ / ۳۲۰. [۴]

۵- ۵) تفسير الصافى، سوره الرحمن / ۷.

علیه، تارةً بالمیراث، وتاره بالنِّحْله فدُفِعت عنها.

وأعطی عبدالله بن أبی سرْح جمیع ما جمیع ما أفاء الله علیه من فتح إفریقیّه بالمغرب؛ وهی من طرابلس الغرب إلی طنجه من غیر أنْ یَشْرَکه فیه أحد من المسلمین.

وأعطی أباسفیان بن حرب مائتی ألف من بیت المال، فی المال، فی الیوم الذی أمر فیه لمروان بن الحکم بمائه ألف من بیت المال، وقد کان زوّجه ابنته أم أبان، فجاء زید بن أرقم صاحب بیت المال بالمفاتیح، فوضعها بین یدی عثمان وبکی فقال عثمان: أتبکی أن وصلت رحمی! وأتاه أبو موسی بأموال من العراق جلیله، فقسَّمها کلَّها فی بنی أمیّه. وأنکح الحارث ابن الحکم ابنته عائشه، فأعطاه مائه ألف من بیت المال أیضا بعد صَرْه زید بن أرقم عن خزنه.

وانضم إلی هذه الاُمور اُخری نقمها علیه المسلمون، کتسییر أبی ذر رحمه اللّه تعالی إلی الرّبذه؛ وضَرَب عبدالله بن مسعود حتی کسر أضلاعه، وما أظهر من الحجاب والعدول عن طریقه عمر فی إقامه الحدود، وردّ المظالم، وکفّ الأیدی العادیه والانتصاب لسیاسه الرعیّه، وختم ذلک ما وجدوه من کتابه إلی معاویه یأمره فیه بقتل قوم من المسلمین. (۱)

ومن هنا یتضح أمران: الأول: علة قیام الناس ضد عثمان، والثانی السبب الذی دفع ببعض الأفراد من قبیل طلحه والزبیر ومعاویه وسائر کبار مکه والمدینه. أو لایمکن خلاصه ذلک فیما ورد فی خطبته علیه السلام من قوله: «واللّه لو وجدته قد تزوج به النساء، وملک به الاماء، لرددته، فان فی العدل سعه - ومن ضاق علیه العدل، فالجور علیه أضیق» .

۳ - الإجابه عن سؤال مهم

یتساءل البعض ألم یکن من الأفضل أن یتجاوز الإمام علیه السلام الماضی - عفا اللّه عمّا سلف - ویستأنف فی زمان خلافته مسیره العداله لیجتث جذور الحقد والبغضاء من صدور العناصر الانتهازیه والنفعیه؟ ویمکن العثور علی جواب هذا السؤال فی کلمات أمیر المؤمنین علیه السلام، فقد

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱ / ۱۹۹. [۱]

ورد فی بعض الروایات والقسم الآخر من هذه الخطبه أنّه قال علیه السلام: «الا أن کل قطیعه أقطعها عثمان وکل مال اعطاه من مال اللّه فهو مردود فی بیت المال فان الحق القدیم لا یبطله شیء ولو وجدته. . .» (۱).

ومن البدیهی أنّ الناس لو رأوا ناهبی بیت المال یتقلبون فی البلاد بکل حریه ویسخرون عملیاً من جرحهم لمشاعر الآخرین وأنّ العداله لیست بصدد الماضی فانّهم لن یطیقوا مثل هذه العداله ولا یرونها تنسجم وأی منطق وعقل حیث ینعم لصوص الأمس بالحریه والراحه بینما لا تطال العداله سوی لصوص الیوم؛ فهذا الازدواج من شأنه أن یدخل الیأس فی قلوب الناس من بسط العداله. الفقه الإسلامی هو الآخر نص علی وجوب عوده الأموال المغصوبه إلی أصحابها ولیس هنالک من فارق بین الأمس والیوم، أمّا مسأله تقادم الزمان المطروحه هذا الیوم فبغض النظر عن اهمالها فی الفقه الإسلامی، فانّها إنّما ترتبط بالدعاوی لا بالأموال المغصوبه.

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱ / ۲۶۹. [۱]

الخطبه السادسه عشره

اشاره

ومن كلام له عليه السلام

لما بويع فى المدينه وفيها يخبر الناس بعلمه بما تؤول إليه أحوالهم وفيها يقسمهم إلى اقسام

القسم الأول

اشاره

«ذِمَّتِى بِما أَقُولُ رَهِينَةٌ. وَأَنا بِهِ زَعِيمٌ إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلاتِ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهاتِ أَلا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عادَتْ كَهَيْئَتِها يَوْمَ بَعَثَ اللّهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه و آله. وَالَّذِى بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتُساطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ، حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاكُمْ وَأَعْلاكُمْ، أَسْفَلَكُمْ وَلَيَسْبِقَنَّ سابِقُونَ كانُوا قَصَّرُوا، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبّاقُونَ كانُوا سَبَقُوا. وَاللّهِ ما كَتَمْتُ وَشْمَةً، وَلا كَذَبْتُ كِذْبَةً وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهَذا الْمَقامِ وَهَذا الْيَوْمِ» . (۱)

نظره إلى الخطبه

الخطبه من اُولى خطبه عليه السلام بعد مقتل عثمان وتوليه عليه السلام الخلافه فى المدينه، ويبدو تفسيرها

۱- ۱) لقد نقلت هذه الخطبه فى عدّه كتب منها: ۱- الشيخ الطوسى، تلخيص الشافى ۳ / ۵۳، ۲- الجاحظ، البيان والتبيين ۳ / ۴۴، ۳- العقد الفريد ۴ / ۱۳۲، ۴- إرشاد المفيد، ۵- كتاب الجمل، ۶- عيون الأخبار، ۷- المسعودى، اثبات الوصيه، ۸- كنز العمال، ۹- الكلينى، روضه الكافى / ۶۷، ۱۰- تاريخ اليعقوبى، ج ۱۱- المجلسى، بحار الأنوار. [۱]

سهلاً بالالتفات إلى موقعها وزمان صدورها، وهى تدور حول أربعه محاور:

المحور الأول: الفات انتباه الاُمّه إلى الامتحان الذى ستمر به وتشبيه ذلك الزمان بزمان رسول اللّه صلى الله عليه و آله واننهضته كنهضه النبى صلى الله عليه و آله التى طفرت بالاُمّه من عصر الجاهليه والظلمه إلى عصر الهدايه والنور، وإن كان إحتمال هذه النهضه صعب ثقيل على البعض وكون الامتحان شاق. فالانحرافات التى أعقبت رحيل النبى صلى الله عليه و آله والتى أدت إلى التميز فى عطاء بيت المال وسلب ونهب ثروات الاُمّه واغداق المناصب الحساسه على من تبقى من رجالات الجاهليه إنّما تتطلب ثوره إصلاحيه قام بها الإمام على عليه السلام. ثم يذكر الإمام عليه السلام الناس بضروره العوده إلى الإسلام الأصيل والاعتبار بعاقبه ومصير الأقوام الماضيه.

المحور الثانى: يقارن عليه السلام بين المعصيه والذنب والورع والتقوى ثم يبيّن كل منهما وكيف تصعب السيطره على المعاصى بينما يتيسر نهج التقوى ويحذر الاُمّه من المخاطر التى تتربص بمصيرها.

المحور الثالث: إشاره مقتضبه عميقه المعنى لمسأله الحق والباطل محذراً الاُمّه من عدم الاستيحاش من الحق رغم قله سالكيه والاستئناس بالباطل لكثره سالكيه، والعمل بالحق الذى لا يقود سوى للغلبه والنصره الإلهيه.

المحور الرابع: الذى يشمل سلسله من النصائح والمواعظ التى تعدّ كل واحده منها ركن مهم من الأركان التى ينبغى الالتفات إليها فى الحياه من قبيل الوعظ بالابتعاد عن الإفراط والتفريط والتمسك بالقرآن والسنّه وضروره معرفه الذات والدعوه إلى الآخاء والاتحاد وإصلاح ذات البين والتوبه من المعاصى والوثوق بأنّ البركه والخير منه سبحانه.

الشرح والتفسير

اليقظه والوعى فى الامتحان

تعتبر هذه الخطبه - كما أشرنا سابقاً وعلى ضوء ما صرّح به بعض شرّاح نهج البلاغه مثل ابن أبى الحديد - من الخطب المهمّه التى أوردها عليه السلام لما تمت له البيعه بالخلافه، فحذر الاُمّه ممّا ينتظرها وأبان لها المخاطر والانحرافات التى تتربص بها.

فقد قال بادئ ذی بدء: «ذمتی بما أقول رهینه وأنابه زعیم» (۱)فی إشاره إلی صدق القول وحقانیته ووجود الضمانات القائمه علیه، ولذلک ینبغی علیکم تلقیه دون نقاش إلی جانب الالتزام به والعمل بمقتضاه. امّا المغزی الذی ینطوی علیه هذا التعبیر فإنّما یکمن فی إلفات نظر السامع إلی أهمیه وخطوره المضمون الذی یختزنه الکلام والتعامل مع أهدافه.

ثم خاض الإمام علیه السلام فی تفاصیل هذا المضمون فی أن من استشعر الورع والتقوی وخشی العواقب نأی بنفسه بعیداً عن الشبهات ومامن شأنه تعریضه لتلک العواقب «ان من صرّحت له العبر عمّا بین یدیه من المثلات (۲)حجزته (۳)التقوی عن تقحم الشبهات» . ارجعوا إلی التأریخ وتأملوا ما أصاب الأقوام الماضیه من عقوبات بفعل الانحراف عن الحق والتلوث بالمعاصی والذنوب واستفحال الهوی والشهوات وحب الذات! ارجعوا إلی زمان انبثاق الدعوه وقیام النبی صلی الله علیه و آله وتدارسوا المؤامرات التی حاکتها الأقوام الجاهلیه ضده ثم انظروا کیف کانت عواقبهم ومصائرهم لتتضح لکم معالم الطریق فتجوبوا الظلمه بنور التقوی والهدایه؛ الکهف الحصین الذی یأمنکم من الضربات الموجعه التی یمکن أن تسددها لکم النفس الاماره وتزینها الشیاطین. ثم یکشف الإمام علیه السلام النقاب عن الواقع الخطیر الذی یعیشونه ویطلعهم علی صعوبه الامتحان «ألا وإن بلیتکم قد عادت کهیئتها یوم بعث اللّه نبیه صلی الله علیه و آله» . اعلموا أنّ أمامکم امتحان لا ینحج فیه سوی من استشعر نفسه کمال التقوی والاخلاص. فالإمام علیه السلام یمیط اللثام عن هذه الحقیقه فی أنّ الاُمّه فی عصر الخلیفه الثالث ولا سیما أواخر عمره قد عاشت البذخ فی بیت المال والمناصب التی فوضت لغیر أهلها من الأفراد الصالحین والمفاسد التی اجتاحت المجتمع الإسلامی والاختلافات التی عصفت بوحدتها وکأنّها عادت القهقری إلی عهد الجاهلیه وکأن بیعته کبیعه رسول اللّه صلی الله علیه و آله التی تطالبه بنهضه تجدیده کتلک التی أسسها النبی صلی الله علیه و آله؛ تلک النهضه المعطاء التی صهرت الاُمّه فی الإسلام الأصیل.

۱- ۱) «زعیم» من ماده «زعم» بمعنی بیان الکلام الذی یحتمل فیه الخلاف، ثم أطلق الزعیم علی من یکفل شخصاً ویضمنه لأنّه یکون عرضه للتهمه، وقد جاءت هذه المفرده فی العباره بمعنی الضامن والکفیل، کما یطلق الزعیم علی القائد الذی یتولی زمام الاُمور لأنّه یتکفل بالأعمال المهمّه.

۲- ۲) «مثلات» جمع «مثله» علی وزن عضله بمعنی مقارنه شیء بآخر، ثم اُطلقت علی العذاب الإلهی والعقوبه التی تحذر الإنسان من ارتکاب ما یوجبها.

۳- ۳) «حجز» من «حجز» علی وزن عجز بمعنی الحائل بین شیئین وقد وردت بهذا المعنی فی العباره، فالتقوی تحول دون الوقوع فی الشبهات.

ومن الطبيعى أن تهب بعض الفئات التى تعرض مصالحهم اللامشروعه للخطر لابداء ردود الفعل واظهار المقاومه؛ الأمر الذى يعقد الامتحان بما يجعل الحاكم الخبير كالإمام على عليه السلام يوقظ الأُمّه وينبهها إلى الأخطار المتربصه بها وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ البعض فسّر البليه بالبلاء والمشاكل، فى حين نراها تعنى الامتحان والاختبار ويؤيد ذلك سائر عباراته الوارده فى الخطبه. ثم خاض عليه السلام فى تفاصيل هذا الامتحان الإلهى الكبير ليوضحه بمثالين، فقد ذكر أولاً «والذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبله (۱)ولتغربلن غربله» (۲)وهذه هى الطبيعه التى تسود كل نهضه ربانيه فى غربله المجتمع حين تتويج مسيرتها بالنصر. فهناك إقصاء لأصحاب السطوه الخونه واستبدالهم بالمجموعه الصالحه المستضعفه، وهذا بعينه ما مارسه رسول اللّه صلى الله عليه و آله بعيد انتصار ثورته المباركه. فقد نحى أبو سفيان ومن لف لفه من طغمه الفساد ليفسح المجال لصهيب والخباب وبلال. أضف إلى ذلك فقد نحيت الشخصيات المستبده التى استندت إلى منطق القوه على عهد عثمان بعد بيعه أمير المؤمنين على عليه السلام لتخلفها القوى الشعبيه المخلصه.

وثانياً «ولتساطن سوط (۳)القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم» . نعم فطبيعه كل ثوره أن تضع فى النهضات الربانيه التى تنبثق فى المجتمعات الفاسده فانّها تطيح بالمفسدين وترفع المستضعفين ليمارسوا دورهم فى السلطه.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بالقول: «وليسبقن سابقون كانوا قصروا، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا» والعباره الثانيه إشاره إلى بعض الأفراد كطلحه والزبير الذين كانا يوماً فى الصفوف الاولى بينما دفعتهم بعض العوامل للتراجع عن تلك الصفوف، بينما تشير العباره الاولى إلى بعض الأفراد كصحب الإمام عليه السلام وأتباعه الذين أصبحوا يوماً جلساء الدار، بينما سنحت لهم الفرصه على عهد الإمام ليتقدموا ويسبقوا كما احتمل البعض أن يكون المراد المستقبل الذى سيشهد تردى الأوضاع فيتقدم بنو أميه ويتصدرون الأُمور ويتأخر السابقون

۱- ۱) «بلبله،» ذكر أرباب اللغه عدّه معان لهذه المفرده منها الاختلاط وهذا هو المعنى المناسب لها فى هذه العباره.

۲- ۲) «غربله،» لها معنيان أحدهما فصل الخبيث من الطيب بالغربال (بكسر الغين وضمها) والآخر القطع والفصل.

۳- ۳) «سوط» أى كما تختلط الابزار ونحوها فى القدر عند غليانه فينقلب أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها، وكل ذلك حكايه عمّا يؤولون إليه من الاختلاف وتقطع الأرحام وفساد النظام.

فی الإسلام فتعود الجاهلیه بأقطابها لیتسلموا زمام الامور، ولکن لما کانت هذه الخطبه قد أوردت إثر مبایعه الإمام علیه السلام مباشره فان المعنی الأول یبدو هو الأنسب. ثم یؤکد الإمام علیه السلام هذا الأمر بقسم آخر «واللّه ما کتمت وشمه (۱)ولا کذبت کذبه، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا الیوم» .

وما کل هذه الاُمور إلّالیفیق الناس ولا یستسلمون للمؤامرات کمؤامره الجمل وصفین والنهروان ویعلموا أنّهم أمام امتحان صعب فیلتفتوا إلی أنفسهم، إلّاأنّ المؤسف له هو أنّهم لم یعیروا نصح الإمام علیه السلام أیه آذان صاغیه ولم یتدبروا الأمر فکان من ذلک أن فشلوا فی الامتحان أیما فشل.

یبدو أنّ مراد الإمام علیه السلام من هذه العباره هو المغیبات التی أطلعه علیها رسول اللّه صلی الله علیه و آله، وکما ذکرنا فی حینه - فی مبحث علم غیب النبی صلی الله علیه و آله والإمام - أنّ الأئمه المعصومین هم قاده الاُمّه علی مدی العصور والدهور ولا یمکن لهذه القیاده إلّاتنطوی علی علم الغیب والاحاطه بأسرار الماضی والمستقبل؛ وذلک لأنّ هناک رابطه وثیقه بین حوادث الیوم والأمس والغد، ومن هنا کانوا یطلعون أصحابهم علی جانب ممّا ینتظرهم فی المستقبل أو یعلنوا ذلک للناس لیکونوا أکثر حزماً ووعیاً فی التعامل مع الأحداث وینأوا بأنفسهم بعیداً عن حبال الشیطان وشراکه. وهذا ما نلمسه بوضوح کراراً ومراراً فی سیره الإمام علی علیه السلام وکیف أنّه حذر الاُمّه ولفت انتباهها إلی الأخطار التی تتربص بها. ومن الطبیعی أن یتعظ البعض ویتمرد البعض الآخر.

تأمّلان

۱ - التأریخ یعید نفسه

من المعروف أن الأحداث التأریخیه سلسله من الوقائع المتکرره التی تتخذ أشکال مختلفه، ومن هنا فان الأفراد الذین یتأملون بعمق الماضی التأریخی یتمکنون من التعامل بمعرفه أفضل مع الحوادث الراهنه والآتیه، ومن هنا رأینا القرآن الکریم مشحوناً بقصص

۱- ۱) «الوشمه» فی الأصل بمعنی الخال الذی یوخز بالابره ثم یطلی بماده ملونه تحت الجلد، کما أطلقت علی الأشیاء الصغیره کقطره ماء المطر أو الحدیث القصیر، وقد وردت هنا بالمعنی الأخیر.

الأنبياء والأقوام السالفه التى تعكس بجلاء أحداث اليوم والمستقبل. الإمام عليه السلام – فى هذا المقطع من الخطبه – أشار إلى هذه النقطه المهمّه: «ان من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثلات، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات» ثم قال عليه السلام: «الا ـ وان بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث اللّه نبيه صلى الله عليه و آله» . ذات الفئات المناهضه للحق، والانحرافات والضلال والمؤامرات والفتن. فافيقوا وانطلقوا خلف إمامكم مخافه ان تضلوا – ولو أمعنا النظر وقارنا حوادث عصر الإمام عليه السلام بعصر النبى صلى الله عليه و آله لوجدنا شبهاً كبيراً، وليس هذا إلّاأنّ المنافقين ومن تبقى من عصر الجاهليه سعوا وبشتى الطرق للقضاء تدريجياً على تعاليم النبى صلى الله عليه و آله؛ ولا ـ سيما أنّهم سعوا لا ـ ختراق مراكز القوه لممارسه دور أكبر فى تشويه الثقافه الإسلاميه واستبدالها بثقافه جاهليه؛ الأمر الذى لمسنا آثاره بوضوح فى العصر الأموى.

فالحق أنّ بعض الظواهر الإسلاميه كانت قائمه فى عصر الخليفه الثالث، إلّاأنّ هذه الظواهر لم يبقى منها إلّاقشورها فى العصر الاموى. على غرار الشعائر الإسلاميه كالصوم والصلاه والحج التى كانت سائده على عهد بنى اُميه ولكن أيه صلاه وصوم وحج؟ !

۲ – بيان الحقيقه أم رعايه المصلحه

كثير هم الذين يعتقدون بأنّ المصلحه تكمن فى كتمان الحقائق عن الناس، حذراً من ابداء ردود الفعل الطائشه، والحال ليست مصلحه الزعماء ومصالح عموم الاُمّه – باستثناء بعض الحالات الخاصه – سوى اطلاع الناس على الحقائق وفسح المجال أمامهم لاقتحام الميدان عن علم ومعرفه. فالتعتيم الخبرى وتغييب الاُمّه عن الأحداث يمثل الاسلوب الذى يعتمده الطغاه والجبابره الذين لا ـ يفكرون سوى فى تحقيق أطماعهم ومآربهم، على العكس من الزعماء الربانيين وأئمه المسلمين الذين يكرسون جهودهم لنجاه الاُمّه من مشاكلها الماديه والمعنويه، فهم يسعون باخلاص لكشف الحقائق والواقعيات لأنّهم يستنصرون الاُمّه ويرومون دعمها واسنادها. والطريف فى الأمر أنّ الإمام عليه السلام لا يكتم الوقائع عن الاُمّه – كما ورد فى هذه الخطبه وسائر خطب نهج البلاغه – فحسب، بل يطلعها حتى على الحوادث المستقبليه التى سمعها من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فيقول لهم لا أبخل عليكم حتى بالأخبار عن الكلمه الواحده التى من شأنها أن تنبهكم إلى الأخطار المحدقه بكم حرصاً على عدم الاغترار بوساوس الشيطان والوقوع فى شباكه.

القسم الثانی: الذنوب شماس کالخیل

«أَلا وَإِنَّ الْخَطایا خَیْلٌ شُمُسٌ حُمِّلَ عَلَیْها أَهْلُها، وَخُلِعَتْ لُجُمُها، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِی النّارِ، أَلا وَإِنَّ التَّقْوَی مَطایا ذُلُلٌ، حُمِلَ عَلَیْها أَهْلُها وَأُعْطُوا أَزِمَّتَها فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّهَ. حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَلِکُلٍّ أَهْلٌ، فَلَئِنْ أَمِرَ الْباطِلُ لَقَدِیماً فَعَلَ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّما وَلَعَلَّ، وَلَقَلَّما أَدْبَرَ شَیْءٌ فَأَقْبَلَ» .

قال السید الشریف: وأقول: إنّ فی هذا الکلام الأدنی من مواقع الاحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان، وإنّ حظ العجب منه أکثر من حظ العجب به. وفیه - مع الحال التی وصفنا - زوائد من الفصاحه لا یقوم بها لسان، ولا یطلع فجها إنسان، ولا یعرف ما أقول إلّامن ضرب فی هذه الصناعه بحق، وجری فیها علی عرق «وما یعقلها إلّاالعالمون» .

الشرح والتفسیر

یواصل الإمام علیه السلام البحث السابق بشأن الأوضاع المتأزمه بعد بیعه الإمام علیه السلام والتی تمثل ثوره تصحیحیه فی العالم الإسلامی، حیث یتطرق إلی نقطه غایه فی الأهمیه من خلال تشبیه رائع، وهی ضروره السیطره علی الذنب منذ بدایته حیث إذا ترک له العنان وتمادی فی مقارفه شبیهه، جذبه إلیه وسیطر علی کیانه وسلبه زمام المبادره وأوقعه فی واد سحیق فقد وصف علیه السلام الذنوب والمعاصی بالخیول الجامحه التی یصعب السیطره علیها «ألا وإن الخطایا خیل شمس (۱)

۱- ۱) «شمس» من ماده «شموس» و «شماس» علی وزن فتوح وکتاب بمعنی التغییر وعدم الاستقرار ومن هنا اطلق اسم الشمس، حیث تتحرک علی الدوام، وشمس التی وردت فی العباره جمع شموس بمعنی الفرس الجموح الذی یمنع ظهره من الرکوب.

حمل علیها أهلها، وخلعت نجمها، فتقحمت بهم فی النار» یاله من تشبیه رائع، فرکوب الفرس الجامح خطیر، وتشتد الخطوره إذا فقد لجامها الذی یلجم عنانها، ثم تتضاعف هذه الخطوره أکثر من ذی قبل إذا کان هذا الجموح فی أرض تشتمل علی بعض المطیات. وهذا هو التصویر الواقعی للذنب، فارتکاب الذنب یقود الإنسان إلی ذنب آخر وهکذا، علی سبیل المثال قد یرتکب الإنسان خیانه فیکتمها، وإذا استجوب حال مالا یحصی من الأکاذیب للتغطیه علی خیانته کما یقسم کاذباً أو یلجأ إلی اتهام الآخرین، فاذا لم یجد ذلک نفعاً ربما لا یتورع عن سفک دم من یعلم بخیانته، بغیه عدم افتضاح أمره وهکذا یصبح أرضیه خصبه لمقارفه ما شاء من الذنوب؛ ولا غرو فقد أصبح کالخیل الشموس التی خلع لجامها فهی تقذف بصاحبها إلی الهاویه.

ثم ذهب علیه السلام إلی الصوره المعاکسه التی شبه فیها التقوی بالخیل الذلول فأوصلت راکبهاالموضع الذی یرید «ألا وإن التقوی مطایا ذلل (۱)حمل علیها أهلها، وأعطوا أزمتها، فأوردتهم الجنّه» نعم فالأعمال الصالحه سلسله متعاقبه الحلقات، فالعمل الصالح یکون سبباً لآخر وهکذا الإتیان بسائر الأعمال الصالحه. علی سبیل المثال إذا ربّی أحدهم ولده تربیه صالحه فسیعده للإتیان بالخیرات والبرکات، وسیکون له تأثیره البالغ فی وسطه بما یحث رفاقه وأصحابه علی القیام بمثل هذه الأعمال، وهکذا یسیر المجتمع نحو السعاده والصلاح والفلاح. جدیر بالذکر أنّ الإمام علیه السلام عبر عن الذنوب بالخیل الشمس وعن التقوی بالمطایا الذل، فالخیل من ماده خیال، فیطلق «المختال» علی الفرد المغرور والمتکبر الذی یعیش الخیالات، ومن هنا اصطلح علی الفرس بالخیل لأنّه عاده ما یدعو راکبه إلی الغرور والفخر. علی العکس من المطایا جمع مطیه من ماده المطو علی وزن العطف بمعنی الجد والنجاه فی السیر؛ وبناءً عی هذا فان المطیه دابه هنیئه سریعه تسیر قدماً نحو الإمام علیه السلام بکل هدوء دون أن تجمح بصاحبها وتقحمه فی المتاهات - ومن هنا تتضح ذروه فصاحته وبلاغته فی کلماته علیه السلام

۱- ۱) «ذلل» جمع «ذلول» وهی المروضه الطائعه.

حتی تلک الکلمات القصیره والعبارات الصغیره. ثم یحذر الإمام علیه السلام من صعوبه الامتحان الإلهی فی ظل حکومته وطیله حیاتهم مواصلاً البحث السابق بشأن الذنب والتقوی فقال علیه السلام: «حق وباطل، ولکل أهل» .

أجل فالحیاه البشریه ومنذ بدء الخلیقه کانت وما زالت مسرحاً للصراع بین هذین الاتجاهین ویختصر الإمام علیه السلام کلامه بالإشاره إلی مسأله حساسه وهی أنّ الباطل إذا قدر له أن یحکم فلا عجب فی ذلک فهذا ما حصل منذ قدیم الزمان: «فلئن أمر الباطل لقدیماً فعل» . وإن قل الحق وأتباعه فلا داعی للقلق ولعله یزداد فیهزم الکفر فی عقر داره «ولئن قل الحق فلربما ولعل» أنّ قصه الصراع بین الحق والباطل وما تخلله من وسائل وأدوات وما تمخض عنه من نتائج طیله التأریخ الإنسانی قصه ذات شجون وسنتطرق إلی هذه التفاصیل فی الأبحاث القادمه بما یتناسب وسائر الخطب الوارده بهذا المجال.

أمّا القضیه الجدیره بالذکر والتی حظت باهتمام الإمام علیه السلام هی ضروره عدم الاستیحاش من الحق لقله سالکیه والاستئناس بالباطل لکثره سالکیه؛ لأنّ التأریخ یشهد علی الدوام بکثره أتباع الباطل وقله أتباع الحق، وکثیراً ما کانت تحسم المعارک والصراعات لصالح الحق؛ وهذا ما صرّح به القرآن الکریم علی لسان طالوت: «کَمْ مِنْ فِئَهٍ قَلِیلَهٍ غَلَبَتْ فِئَهً کَثِیرَهً بِإِذنِ اللّهِ» (۱). وهو المعنی الذی أشارت إلیه الآیه القرآنیه الکریمه بالقول: «قُلْ لا یَسْتَوِی الخَبِیثُ وَالطَّیِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَکَ کَثْرَهُ الخَبِیثِ» (۲). کما ورد هذا المعنی فی الخطبه ۱ - ۲ من نهج البلاغه «أیّها الناس لا تستوحشوا فی طریق الهدی لقله أهله» . امّا المسأله التی ینبغی الالتفات إلیها هی أنّ هذه الکثره لیست دلیلاً علی الأحقیه ولا النصر، بل یری المنطق القرآنی والروائی بل ومنطق الربانیین أنّ الملاک إنّما یکمن فی الکیفیه لا الکمیه، ومن هنا فان زوال حکومات الباطل یستتبع زوال کافه آثارها فلا یبقی لها سوی الخزی والعار، بینما تبقی آثار حکومات الحق باقیه خالده.

علی کل حال فان الصراع بین الحق والباطل وکثره جند الباطل إنّما هی فی الواقع امتحان إلهی یهدف إلی تمحیص طلاب الحق.

۱- ۱) سوره البقره / ۲۴۹. [۱]

۲- ۲) سوره المائده / ۱۰۰. [۲]

والنقطه الثانيه التى يؤكد عليها الإمام عليه السلام قوله: «ولقلما أدبر شىء فاقبل» . طبعاً يؤمن جميع المسلمين - من سنّه وشيعه وسائرالفرق - أنّ الحق سينتصر يوماً حين ظهور المهدى الموعود (عج) وسيدحر الباطل وإلى الأبد وستسود العالم برمته حكومه العدل الإلهى.

وعلى ضوء بعض الروايات فقد نقلت ذيل هذه الخطبه عباره عن الإمام الصادق عليه السلام عن الإمام على عليه السلام انّه قال: «وبنا فتح لا بكم ومنا نختم لا بكم» . وقد صرّح ابن أبى الحديد بعد ذكره لهذه العباره قائلًا: إشاره إلى المهدى الذى يظهر فى آخر الزمان، وأكثر المحدثين على أنّه من ولد فاطمه عليها السلام وأصحابنا المعتزله لا ينكرونه» (۱).

نعم العباره ترشد إلى عدم فقدان الفرصه والآن وقد تمهدت جميع السبل من أجل بسط العداله وإقامه حكومه الحق فى ربوع المجتمع الإسلامى فالحذار من وساوس شياطين الانس والجن ومؤامرات أُولئك الذين تبددت مصالحهم اللامشروعه وخابت ظنونهم وآمالهم، فاذا ضاعت هذه الفرصه فان عودتها لا تبدو سهله، وهذا مادلت عليه حياه الإمام عليه السلام حيث لم تتعظ الأُمّه بوصاياه ومواعظه ففقدت زمام المبادره وأضاعت الفرصه؛ فقد أوشك جيش الشام على الانهيار المطلق وأصبح القضاء على طاغيه بنى أميه يكون قاب قوسين أو أدنى فعمد ابن العاص لتلك الخدعه التى انطلقت على الأُمّه، فأبقت على تلك الحكومه الجائره لتخلف من بعدها بنى مروان وبنى العباس والحجاج و. . .

الطريف فى الأمر ما أورده السيد الرضى بشأن الخطبه إذ قال: إنّ فى هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان، وإنّ حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به. وفيه - مع الحال التى وصفنا - زوائد من الفصاحه لا يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلّامن ضرب فى هذه الصناعه بحق، وجرى فيها على عرق «وما يعقلها إلّا العالمون» .

۱- ۱) شرح نهج البلاغه لإبن أبى الحديد ۱ / ۲۸۱. [۱]

القسم الثالث: سبيل النجاه

اشاره

«شُغِلَ مَنِ الْجَنَّهُ وَالنّارُ أَمامَهُ! ساعٍ سَريعٌ نَجا، وَطالِبٌ بَطِيءٌ رَجا، وَمُقَصِّرٌ فِى النّارِ هَوَى. الْيَمِينُ وَالشِّمالُ مَضَلَّهٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْجادَّهُ، عَلَيْها باقِى الْكِتابِ وَآثارُ النُّبُوَّهِ، وَمِنْها مَنْفَذُ السُّنَّهِ، وَإِلَيْها مَصِيرُ الْعاقِبَهِ هَلَكَ. مَنِ ادَّعَى، وَخابَ مَنِ افْتَرى. مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ. كَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ. لا يَهْلِكَ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ، وَلا يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ. فَاسْتَتِرُوا فِى بُيُوتِكُمْ، وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَهُ مِنْ وَرائِكُمْ، وَ لا يَحْمَدْ حامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلا يَلُمْ لائِمٌ إِلَّا نَفْسَهُ» .

الشرح والتفسير

لما فرغ الإمام عليه السلام من التحدث عن صعوبه الامتحان بعد بيعته وحذر الاُمّه من وبال الذنوب والمعاصى مشيراً إلى الحق والباطل، عرج هنا بالإشاره إلى سبيل النجاه من مخالب الهوى والهوس وبلوغ السعاده ونيل الفلاح، ليكشف عن الحقائق الوارده بهذا المجال. فقد صنف الناس فى مسيرتهم إلى السعاده والنجاه إلى ثلاث طوائف، فمن شغل بالجنّه والنار «وآمن بهما اعتزل كل ما يصده عن ذلك» وانهمك بالتفكير بالعاقبه (على ثلاث) ، منهم من حث السير وبلغ الهدف سريعاً فهو ناجى. ومنهم من تباطأ فى السير فهو مؤمل للنجاه أيضاً. أمّا الأخير من قصر فى السير فهوى فى النار «شغل من الجنّه والنار أمامه! ساع سريع نجا، وطالب بطىء رجا، ومقصر فى النار هوى» .

يرى البعض أنّ هذه الطوائف هى تلك التى أشار إليها القرآن الكريم فى سوره فاطر بقوله:

«ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالخَيْراتِ بِإِذنِ اللّهِ» (۱). وقيل بل هم من أشارت لهم الآيه القرآنيه الشريفه فى سوره الواقعه: «وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً * فَأَصْحابُ المَيْمَنَهِ ما أَصْحابُ المَيْمَنَهِ وَأَصْحابُ المَشْأَمَهِ ما أَصْحابُ المَشْأَمَهِ * وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ * أُولئِكَ المُقَرَّبُونَ» (۲). على كل حال فان هذه الطوائف الثلاث مطروحه على الدوام فى المجتمع الإنسانى وإذا ما اشتد الامتحان (كالذى عليه الحال إبان خلافه الإمام على عليه السلام) تمايزت هذه الطوائف عن بعضها البعض؛ فهناك طائفه (وإن كانت غالباً قليله) تتبع الحق دون أدنى ترديد أو تراجع وهى تحث الخطى سريعه نحو الهدف. وطائفه اُخرى أضعف ايماناً من سابقتها فهى تقدم رجلاً وتؤخر اُخرى فأحياناً تحث الخطى وتسير بوثوق نحو الهدف فتعمل الصالحات بينما تتأخر أحياناً فتقارف الطالحات فتخلط العمل الصالح بالسىء إلّاأنّها تؤمل بأن يشملها لطف اللّه وفضله فيبلغ بها الهدف المطلوب.

وأخيراً الطائفه الثالثه التى فارقت الإيمان والتقوى وغلبت عليها الشقوه وهوى النفس فضاعوا وضيّعوا أنفسهم حتى وقعوا فى الهاويه. فالعباره المذكوره تبيّن بوضوح أنّ الإيمان بالمعاد فقط من شأنه أن يصون الإنسان من الفساد والانحراف والذنب. وتتناسب هذه الصيانه والحصانه من الذنب طردياً ودرجه الإيمان. وقد ذهب البعض إلى أنّ العباره: «شغل من الجنّه والنار أمامه» جمله خيريه تفيد معنى الإنشاء؛ أى أنّ من يرى الجنّه والنار أمامه عليه أن يغض الطرف عن زخارف الدنيا وزبرجها! ولكن ليس هنالك من ضير فى تفسير هذه الجمله بصوره الأخبار - على نحو الجمله الخيريه - أى أن مثل هؤلاء المؤمنون سيغضون طرفهم عن زخارف الدنيا. ولما فرغ الإمام عليه السلام من بيان خصائص الطوائف الثلاث، أخذ يدعو الاُمّه إلى انتهاج السبيل القويم والابتعاد عن سبل الانحراف مبيناً علامات كل منهما فقال: «اليمين والشمال مضله (۳)والطرق الوسطى هى الجاده» .

۱- ۱) سوره فاطر / ۳۲. [۱]

۲- ۲) سوره الواقعه / ۷ - ۱۱. [۲]

۳- ۳) «مضله» على وزن «مفعله،» قال أرباب اللغه انّها تعنى كثره وجود الشىء فى المكان وعليه فمفهوم العباره أنّ الانحراف إلى اليمين واليسار يدعو إلى ضلال عظيم.

فالعباره إشاره للمسأله المعروفه لدينا بأنّ السبل المنحرفه التى تقود الإنسان إلى الضلال. ولعل المراد باليمين والشمال هو الإفراط والتفريط الـذين لا يوصـلان إلى الهـدف الذى لا سبيل إليه سوى الصـراط المسـتقيم الذى يمثل الاعتدال بين الإفراط والتفريط، ومن هنـا صـرّح القرآن الكريم بقوله: «وَكَذٰلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً» (۱). وقـد صـرّح كبار علماء الأخلاق بأن كافه الصـفات الفضلى إنّما هى الاعتدال بين الصفات الرذيله التى تقع على طرفى الإفراط والتفريط.

وذهب بعض مفسّرى نهـج البلاـغه إلى أنّ المراد بـالطريق الوسـطى مسـأله الإمـامه وولاـيه الأئمه المعصومين التى يقود الإفراط والتفريط فيها إلى الضلال. ولا نرى من ضير فى ان تختزن هذه العباره كافه المعانى فتشمل قضيه الولايه كما تشمل سائر المسائل العقائديه والعمليه والأخلاقيه.

أمّا بشأن معرفه اللّه فقد وقعت طائفه فى مصـيده التشبيه فتشـبهت الخالق بمخلوقاته، بينما ذهبت اُخرى إلى تعطيل معرفته على أن ذات الخالق وصـفاته متعذره على البشر حتى المعرفه الإجماليه، وهناك الحد الوسط بين التشبيه والتعطيل والذى يعنى معرفه اللّه عن طريق أفعاله دون كنه الذات. وبالنسـبه لأفعال العباد فليس الجبر صحيحاً ولا التفويض، والطريق الوسط هو الأمر بين الأمرين، وهكذا القول بشأن الولايه لا الغلو صـحيح ولا التقصير، وهذا ما يصدق على الأخلاقيات والأعمال، فمثلاً فى الانفاق الصحيح هو الحد الوسط بين البخل والاسراف.

والطريف أنّ الفرق التى وقفت بوجه الإمام عليه السـلام لم تخرج من تلك الحالتين، ففرقه الخوارج سـلكت الافراط، بينما انتهج أهل الشام التفريط، وقد ضـلت الفئتان فى معرفه الإمام عليه السـلام. ثم خاض عليه السلام فى خصائص الجاده الوسطى المعتدله «عليها باقى الكتاب وآثار النبوه، ومنها منفذ السنّه، وإليها مصير العاقبه» . هناك تفسيران لقوله عليه السلام: «عليها باقى الكتاب» : أحدهما المراد القرآن الكريم؛ الكتاب الخالد والذى انفرد بالمعارف والقوانين والأحكام التى

۱- ۱) سوره البقره / ۱۴۳. [۱]

يتعذر العثور عليها فی ما سواه. والآخر المراد بالكتاب الخالد الإمام المعصوم الحافظ لكتاب اللّه، وهو عدل القرآن كما صرّح بذلك حديث الثقلين المعروف، ولكن يبدو المعنى الأول أنسب، ولا سيما أن آثار النبوه التی أعقبت العباره يمكن تفسيرها بالآثار الباقيه لدی الأئمه.

كما أوردت عدّه تفاسير بهذا الشأن لا تبدو صائبه.

وقوله عليه السلام: «منها منفذ السنّه» فبالالتفات إلی كلمه منفذ يبدو أنّ المراد هو أنّ الطريق الوسطی فقط التی يمكن من خلالها الوقوف علی السنه النبويه والتعرف علی جوهر الدعوه، ومن هنا يتضح الفارق فی هذه الملل الاربعه.

فقد أشار عليه السلام إلی أنّ الكتاب علی هذه الجاده، ثم قال عليه السلام وعليها آثار النبوه، ثم أضاف ومنها منفذ السنه، وأخيراً قال وإليها مصير العاقبه من خلال هذه الجاده لا غير؛ كما أشار إلی ذلك القرآن الكريم «وَالعاقِبَهُ لِلْمُتَّقِينَ» (۱).

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلی مصير من يزعم الإمامه وولايه الناس بالباطل، حيث يصفهم فی أربع عبارات: الاولی هلاك من يدعی الإمامه بغير حق فهو ضال مضل «هلك من ادعی» والثانيه أنّ من يطلب هذا المقام كذباً وافتراءً علی رسول اللّه صلی الله عليه و آله لم يظفر بما طلب «وخاب (۲)من افتری» .

والثالثه هلاك من يقف بوجه الحق: «من أبدی صفحته (۳)للحق هلك» .

والأخيره يكفی الإنسان جهل أنّه لا يعرف قدره فيتمدد أكثر من حجمه «وكفی بالمرء جهلاً الا يعرف قدره» . طبعاً هناك إحتمال قائم فی ألا تكون هذه العبارات الأربع تعالج مسأله الإمامه التی تعرضت لها هذه الخطبه؛ بل تشمل معنا أوسع وهو كل ادعاء باطل سواء فی مجال الإمامه أو سائر المجالات.

فالواقع هی تحذير لأهل الباطل من مغبه التمادی فی غيهم بما لا يجلب عليهم سوی البؤس والشقاء والهلاك.

۱- ۱) سوره الأعراف / ۱۲۸. [۱]

۲- ۲) «خاب» من ماده «خيبه» بمعنی الفشل والحرمان وعدم الظفر بالشیء.

۳- ۳) «صفحه» بمعنی عرض الشیء وقد يراد بها الوجه ومنها المصافحه.

أمّا قوله علیه السلام: «من أبدی صفحته للحق هلک» فقد فسره بعض شرّاح نهج البلاغه أنّ من أبدی صفحته لنصره الحق غلبه أهل الجهل، لأنّهم العامه، وفیهم الکثره، فهلک.

فهذا الکلام وان کان واقعیاً إلّاأنّه لا یمکن أن یکون تفسیراً للعباره المذکوره وذلک لأنّه لا ینسجم والعبارات السابقه بشأن أدعیاء الباطل، کما لا یتفق والعباره اللاحقه بشأن الأفراد الجهال الذین لا یعرفون قدر أنفسهم. وأخیراً یختتم الإمام علیه السلام هذه العبارات یعرض بالنصح والموعظه التی من شأنها تخلیصهم من مخالب المنافقین وأدعیاء الباطل، فقد دعاهم فی البدایه إلی التحلی بالورع والتقوی التی تعدّ الرکن الرکین لکل حرکه وعمل صالح، فقال علیه السلام: «لا یهلک علی التقوی سنخ (۱)اصل، ولا یظمأ علیها زرع قوم» فالواقع هو أنّ الإمام علیه السلام قد شبه - بهذه العباره العمیقه المعنی - التقوی بالأرض الخصبه ذات المناخ المناسب التی لا تجف فیها جذور الأشجار ولا یموت فیها الزرع من قله الماء؛ أرض خصبه صالحه للزراعه ذات أنهار وآبار تمد الزرع بما یحتاج، ففی الحقیقه أنّ کافه الأعمال کالبذور والحبوب التی ینبغی أن تنثر فی أرض خصبه وتسقی بالمیاه؛ ولیست هذه الأرض والمیاه سوی التقوی، ثم قال فی الموعظه الثانیه: «فاستتروا فی بیوتکم» فالإمام علیه السلام وبنظرته الثاقبه یعلم بأنّ حکومته ستضیق الخناق علی اُولئک الذین عملوا إبان عهد عثمان علی سلب ونهب بیت مال المسلمین ونشروا الظلم فی ربوع المجتمع الإسلامی، وعلیه فهم سوف لن یسکتوا وسیسعون إلی تألیب الناس واستقطاب الجهال، وهذا هو الوقت الذی یتطلب من الإنسان أن یلزم بیته لا حین العمل والجهاد.

وعلی حد قول بعض شرّاح نهج البلاغه فان أفضل حرکه فی المجتمع الذی یضره العدل والحق هی السکون والصمت والسکوت.

والموعظه الثالثه بشأن الأخاء والوحده بین صفوف أتباع الحق ونبذ کافه مظاهر الفرقه والشقاق بهدف ملاحقه الباطل والقضاء علیه، فقد قال علیه السلام: «وأصلحوا ذات بینکم» . وأخیراً

۱- ۱) «سنخ» بمعنی الأصل والجذر، وکذلک محل غرس الشجر، وهو المکان الذی تَثبت فیه جذور وأصل الشجره. ویستعمل هذا اللفظ أحیانا بمعنی الرسوخ فی شیء، وکل هذه المعانی مقاربه لبعضها، وفی العباره أعلاه تشیر إلی جذور العلوم والمعارف والاعمال الصالحه والتی رسخت فی أرضیه التقوی والتی لایمکن أن تُجتّثَ جذورها.

يعرض بالنصح لمن اتسخ قلبه بالذنوب على عهد الحكومه السابقه أن يغسلها بماء التوبه «والتوبه من وراءكم (۱)» .

ثم يقول عليه السلام: «ولا يحمد حامد إلّاربّه ولا يلم لائم إلّانفسه» إشاره إلى أنّ كافه النعم من عند اللّه وما يصيب الإنسان من توفيق وسعاده فبلطفه وفضله، وعليه فلا ينبغى الاغترار بالطاعه، كما أنّ مرجع الذنوب والمعاصى تقصير الإنسان فلا ينبغى أن يلوم الإنسان إلّانفسه ولا ينسب أخطائه إلى الآخرين أو يبررها بالقضاء والقدر، بل عليه أن يسارع إلى التوبه.

تأمّلان

۱ – الجاهل من جهل قدر نفسه

إنّ أغلب المشاكل الاجتماعيه إنّما تنبع من الطموحات الطائشه، أو تجاوز الإنسان لحدوده الطبيعيه والطمع بالمنصب الذى لا يستحقه أو لا يمتلك الجداره اللازمه للنهوض به؛ ولا شك أنّ كل هذا إنّما تفرزه قضيه مهمّه تكمن فى جهل الإنسان بقدره وعدم تقييمه له بصوره صحيحه، وما ذلك إلّالحب الذات والمبالغه فى نقاط القوه وعدم الالتفات إلى نقاط الضعف. ولا شك أنّ اضرار هذا الأمر لا تقتصر على الإنسان لوحده فحسب، بل تنسحب على المجتمع بأسره، ولربما استطاع الفرد أن يشغل منصباً فيقوم بوظيفته على أحسن وجه بما يضمن له السعاده وإلى المجتمع الرفاه والأمن، غير أنّه وإثر جهله بنفسه وطمعه بما لا يستحقه يبدد طاقاته عبثاً ويكبد نفسه والمجتمع مالا يحصى من الخسائر والأضرار. ويااليت الجميع كبيرهم وصغيرهم وعالمهم وجاهلهم أعادوا النظر فى هذا الأمر الحيوى واقصوا عن أنفسهم الحجب التى تحول دون معرفتهم لذواتهم ليجدوا من أجل تحقيق أهدافهم وسعاده مجتمعاتهم. ومن هنا ورد التأكيد كراراً فى نهج البلاغه على هذه المسأله، ومن ذلك ما ورد فى الخطبه ۱۰۳ «العالم من عرف قدره وكفى بالمرء جهلاً الا يعرف قدره» . كما ورد فى الرساله ۳۱ من نهج

---

۱ – ۱) «وراء» من ماده «ورى» على وزن «وزن» وفى الأصل بمعنى الاستتار، وأحيانا يطلق على الشىء الذى حُجب عن الانظار بواسطه حاجز فاصبح غير منظور باعتباره خلف الشىء أو وراءه. وفى العباره أعلاه جاءت هذه الكلمه بمعنى، الخلف أو الوراء.

البلاغه التی یعظ فیها ولده الحسن علیه السلام أنّه قال: «ومن اقتصر علی قدره کان ابقی له» وجاء فی الکلمه ۱۴۹ من قصار الحکم «هلک امرء لم یعرف قدره» . کما ورد فی الروایه أنّ شخصاً قال للإمام الکاظم علیه السلام مررت بالسوق فاذا هو یقول أنا من شیعه محمد وآل محمد صلی الله علیه و آله وهو یبیع الثیاب بأکثر من ثمنها. فقال الإمام علیه السلام: «ما جهل ولا ضاع امرء عرف قدر نفسه» . (۱)

هناک إحتمال آخر بالمراد من معرفد قدر النفس فی العباره المذکوره وهو ألا ینسی الإنسان طبیعه خلقته فیقتصر بها علی الجانب المادی المتعلق بالجسم دون الاهتمام بالمسائل المعنویه فیبیع نفسه ببعض الأُمور المادیه التی تفتقر إلی القیمه الحقیقیه. فالإنسان یتمتع بالروح التی تنتمی إلی عالم السمو والرفعه، أنّه خلیفه اللّه فی الأرض. أنّه کائن ملکوتی لا موجود ترابی وإن تقولب مدّه معینه فی هذا القفص المادی من أجل نیل الکمال. وعلیه فالعالم من عرف نفسه ووقف علی قدرها ومنزلتها، ویلتفت إلی تکریم اللّه سبحانه له علی من سواه، والجاهل من جهل قدر نفسه فقذف بها فی مستنقع الأهواء والشهوات. بالکن بالالتفات إلی قوله «من اقتصر علی قدره کان ابقی له» وکذلک العباره المعروفه لدی العلماء استنباطاً من الأحادیث المشهوره «العالم من عرف قدره ولم یتجاوز حده» یبدو أنّ الأنسب هو المعنی الأول، ویؤیده مضمون الخطبه الذی یتناول قصه طلحه والزبیر وآمالهم الزائفه.

۲ – الاعتدال هو الصراط المستقیم

إنّ أدنی نظره إلی عالم الخلقه تفید أنّ بقاء العالم إنّما یستند إلی مسأله الاعتدال والتوازن فی القوی. فالمنظومات السماویه العظیمه إنّما حفظت بتوازن القوه الجاذبه مع القوه الدافعه، فلو تقدمت أحداهما علی الأُخری أو ابتعدت لما بقی أثر لتلک المنظومات، ولو اقتربتا وتصادمتا لأدّیا إلی انفجار هائل یقود إلی إنعدامها. والقانون المذکور الذی یحکم ذلک العالم الکبیر کما یصدق علی العالم الصغیر أی عالم الإنسان، حیث تکون سلامه حیاته ورمز بقائها مرهونه بحاله الاتزان التی تسود مختلف قواه الروحیه والجسدیه، من قبیل العناصر الداخله فی

۱- ۱) بحارالأنوار ۶۵/۱۵۷ « [۱]مع قلیل من التخلیص والإیجاز» .

تركيب الـدم وتوازن حركـات الأعصاب السـمبثاويه والباراسـمبثاويه وضـربات القلب ووزن الجسم وضـغط الـدم وتوازن أجهزه الجسم كالجهـاز التنفسـى والجهـاز الهضـمى وبالتـالى فـانّ كـافه أجهزته تمارس وظائفها بكل اعتـدال واتزان بما يحفظ سـلامه الإنسـان ويكفل بقائه، ولو انحرفت هـذه الأجهزه ذره عن خط الاتزان وجنحت نحو الإفراط او التفريط لانعكس ذلك سـلباً على سلامه جسم الإنسان وروحه.

القرآن من جـانبه أثنى على الاُمّه الإسـلاميه بصـفتها الاُمّه الوسط، ومن هنا جعلها حجه على سائر الاُمم. وهـذه هى المسأله التى أكـدها الإمـام عليه السـلام فى أنّ الجـاده الوسـطى هى الطريق وعليهـا باقى الكتاب وآثار النبوه ومنها منفـذ السـنّه. وإليها مصـير العـاقبه. أمّـا فى المجـال الاقتصـادى فـانّ الإفـراط والتفريـط قـد أدى إلى ظهور النزعه الرأسـماليه المقيته التى بالغت فى الملكيه الشخصـيه بينمـا بالغت النزعه الاشتراكيه فى الملكيه العامه ليعيش المجتمع ذلك التمايز الطبقى الفاحش بوجود الطبقات المرفهه الثريه والاُخرى المعدمه الفقيره.

وأمّـا على المسـتويات الاُخرى – العقائـديه والسياسـيه والاجتماعيه – فانّ الإفراط والتفريط هو الـذى يقف وراء كل هـذا البؤس والشقاء الذى تعيشه البشريه.

ص:۳۶۴

الخطبه السابعه عشره

اشاره

ومن كلام له عليه السلام

فى صفه من يتصدى للحكم بين الاُمّه وليس لذلك بأهل وفيها:

أبغض الخلائق إلى اللّه صنفان:

القسم الأول

اشاره

«الصنف الأول: إنَّ أَبْغَضَ الْخَلائِقِ إِلَى اللّهِ رَجُلانِ: رَجُلٌ وَكَلَهُ اللّهُ إِلَى نَفْسِهِ فَهُوَ جائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، مَشْغُوفٌ بِكَلامِ بِدْعَهٍ، وَدُعاءِ ضَلالَهٍ، فَهُوَ فِتْنَهٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ، ضالٌّ عَنْ هَدْيِ مَنْ كانَ قَبْلَهُ مُضِلٌّ لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ فِى حَياتِهِ وَبَعْدَ وَفاتِهِ، حَمّالٌ خَطايا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ» . (۱)

نظره إلى الخطبه

وردت الخطبه - كما يتضح من عنوانها - فى صفات من يتصدى للقضاء وهو ليس له بأهل

۱- ۱) نقل صاحب كتاب «مصادر نهج البلاغه» [۱] هذه الخطبه عن طائفه من العلماء ممن عاشوا قبل السيد الرضى ومنهم: ۱ - الكلينى فى الكافى [۲]بطريقين ۲ - ابن قتيبه فى كتاب غريب الحديث ۳ - أبو طالب المكى فى قوت القلوب ۴ - الهروى فى الجمع بين الغريبين ۵ - القاضى النعمان فى كتاب اصول المذهب. كما نقلها عن طائفه اُخرى من العلماء بعد السيد الرضى كالطوسى فى الأمالى [۳]والطبرسى فى الاحتجاج [۴]والمفيد فى الإرشاد. [۵]

فیسوق الاُمّه إلی الضلال والهاویه.

فقد صنف الإمام علیه السلام هؤلاء الأفراد إلی صنفین:

الصنف الأول: من یشق طریق الضلال عن علم ویحکم هوی النفس ویبتدع فی الدین فهو ضال لنفسه مضل لغیره.

الصنف الثانی: الجاهل المتشبه بالعالم ویجهل بجهله فهو یعیش الجهل المرکب؛ ولیس له ذره مما یؤهله للتصدی للقضاء، فهو فریسه للخطأ والزلل والشبهات، یخرج الحق بالباطل ویریق دماء الأبریاء بغیر حلها ویهدر الأموال لغیر أصحابها. ویحتمل أن یکون المراد بالصنف الأول حکام الظلم والجور والبدعه والضلاله، والصنف الثانی القضاه الجهال. وعلیه فکلمه الحکم الوارده فی الخطبه ذات معنی عام واسع تشمل القضاء والحکومه.

ویختتم الإمام علیه السلام خطبته بالشکوی إلی اللّه من هؤلاء الأفراد الذین ولوا ظهورهم للقرآن وحسبوا المعروف منکراً والمنکر معروفاً. وبناءً علی ما تقدم فالخطبه علی ثلاثه أقسام، یختص الأول والثانی منها بوصف هذین الصنفین والثالث بالشکوی إلی اللّه منهم ومن کان علی شاکلتهم.

الشرح والتفسیر

أبغض الخلائق

استهل الإمام علیه السلام کلامه بتصنیف أبغض الخلائق إلی صنفین «إنّ أبغض الخلائق إلی اللّه رجلان» ومن البدیهی أنّ للحب والبغض بالنسبه للّه مفهوم یختلف عمّا هو علیه بالنسبه للانسان؛ لأنّ الحب والبغض من قبیل الحالات والتغیرات التی تطرأ علی روح الإنسان إثر رغبته واشمئزازه تجاه بعض الأشیاء؛ بینما یکتسب الحب بالنسبه للّه معنی الشمول بالرحمه والبغض معنی الطرد منها. ثم یخوض الإمام علیه السلام فی صفات الصنف الأول؛ أی أصحاب الأهواء من الحکام، فیشیر قبل أی شیء إلی أصل بؤسهم وشقائهم، فقال علیه السلام: «رجل وکله اللّه إلی نفسه» . فروح الإنسان حیه بالتوکل علی اللّه والوثوق بما عنده؛ أی أنّه یسعی سعیه ویبذل

قصارى جهـده من أجل النهوض بعمله وتطوير حياته، مع ذلك لابدّ أن يعلم بأنّ الذات الإلهيه هى مصدر كل خير وبركه ونعمه وعطاء. إلّاأنّ الغرور والكبر وحب الـذات قد يجعل الإنسان غافلاً عن هذه الحقيقه فيرى نفسه مستقلاً فى مقابل اللّه فتتشوه بنظره جميع الأشياء. هذا الانقطاع عن اللّه هو ايكال الإنسان إلى نفسه؛ وهو أساس بؤس الإنسان وشقائه. ومن هنا ترى رسول اللّه صلى الله عليه و آله لا ينفك عن التضرع إلى ربّه منادياً:

«اللّهم. . . لاتكلنى إلى نفسى طرفه عين أبداً» (۱)وهو ذات المعنى الذى صرّح به أميرالمؤمنين على عليه السلام: «إلهى كفى بى عزا أن أكون لـك عبـداً، وكفى بى فخراً أن تكون لى ربّاً» (۲)كما ورد ذلك عن المعصوم عليه السـلام قوله: «إنّك ان وكّلتنى إلى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير» (۳).

وما أن يفرغ الإمام عليه السـلام من بيان السـبب الرئيسـى لشـقوه هؤلاء حتى يتطرق إلى افرازات ذلك الشقاء ليوجزها فى ثمانيه ارتبطت مع بعضـها برباط العله والمعلول فقال عليه السـلام: «فهو حائر عن قصـد السبيل» والمراد بقصـد السبيل هو الحـد الوسـط الفاصل بين الإفراط والتفريط والـذى يوصل الإنسان إلى اللّه؛ الأمر الـذى أشار له القرآن الكريم بالقول «وَعلى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» (۴)ومن البديهى أنّ الإنسان إنّما يسـتطيع تمييز السبيل - الذى صورته الروايات بأنّه أرفع من الشـعره وأحد من السيف - من بين آلاـف السـبل الانحرافيه إذا شـملته الألطاف والعنايات الإلهيه؛ امّا إذا انفصل عن اللّه ووكل إلى نفسه فانه سـيعيش الحيره والقلق التى تنتهى به إلى الضلال والسقوط فى الهاويه.

الافراز الثانى «مشـغوف بكلام بدعه» ومن هنا ينطلق نحو الافراز الثالث «ودعاء ضـلاله» . شغف من ماده شغاف على وزن كلاف بمعنى المولع بالشـىء حتى بلغ حبه شـغاف قلبه، وهو غلافه؛ وهو التعبير الـذى أورده القرآن الكريم بشـأن حب زليخا لنبى اللّه يوسف عليه السلام على لسان طائفه من نساء مصر «قد شغفها حباً» ، فالعباره إشاره إلى أنّ مثل هؤلاء الأفراد

۱- ۱) بحار الأنوار ۸۳ / ۱۵۳.

۲- ۲) بحار الأنوار ۹۱ / ۹۴. [۱]

۳- ۳) بحار الأنوار ۸۳ / ۱۵۲. [۲]

۴- ۴) سوره النحل / ۹. [۳]

من ذوی حبّ الذات یتعلقون بشده بأحادیثهم المبتدعه؛ التعلق الذی یؤدی إلی دعوه الآخرین إلی الضلال والانحراف.

القرآن أیضاً یقول: «وَما دُعاءُ الکافِرِینَ إِلّا فِی ضَلالٍ» (۱)، وسنتطرق فی الأبحاث القادمه - تأملات - إلی حقیقه البدعه ودوافعها ونتائجها. أمّا الوصف الرابع «فهو فتنه لمن افتتن به» .

وفی الصفه الخامسه والسادسه «ضال عن هدی من کان قبله، مضل لمن اقتدی به فی حیاته وبعد وفاته» . المراد بمن کان قبله الأنبیاء وأوصیائهم بالحق؛ فی إشاره إلی اتضاح سبیل الهدایه مسبقاً بما لا یدع من مجال لسلوک طریق الضلال؛ مع ذلک فقد ولی ظهره لسبیل الهدایه والقی بنفسه فی ظلمات الضلال. والأنکی من ذلک أنّ اضلال هؤلاء الأفراد للآخرین لا یقتصر علی حیاتهم فهم مدعاه للضلاله حتی بعد وفاتهم، فهم شرکاء فی هذه الضلاله، حیث ورد فی الحدیث النبوی المشهور: «من سنّ سنّه حسنه عمل بها من بعده کان له أجره ومثل اُجورهم من غیر أن ینقص من اُجورهم شیئاً، ومن سنّ سنّه سیئه فعمل بها بعده کان علیه وزره ومثل أوزارهم من غیر ان ینقص من اوزراهم شیئاً» (۲).

فالعباره تحذیر حاد لاُولئک الذین یحثون الخطی نحو البدع ویشیدون صروح الضلاله، فی أنّ شقائهم وبؤسهم سوف لن یقتصر علی حیاتهم بل قد یتجاوز حتی مماتهم بآلاف السنین وعلیهم أن یدفعوا کفاره تلک البدع ویستعدوا لتحمل تبعاتها. کما ورد عن الإمام علی علیه السلام تحذیر شدید آخر فی الخطبه ۱۶۴ حیث قال: «وإنّ شر الناس عند اللّه إمام جائر ضل وضل به فأمات سنه مأخوذه واحیی بدعه متروکه» وأمّا الوصفان الأخیران المترتبان علی الصفات السابقه فهما «حمال خطایا غیره، رهن بخطیئته» فالعباره لیست کلاماً تعبدیاً؛ بل هی منطقیه تماماً. وذلک لأنّ أیه معونه ومساعدّه فی ارتکاب الذنب تعدّ شرکه فیه؛ ولما کان أتباع هؤلاء المضلین یقارفون الذنوب بمحض إرادتهم فلا ینقص من ذنبهم شیئاً، وهذا ما أشار له القرآن الکریم صراحه فی الآیه ۲۵ من سوره النحل إذ قال «لِیَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ کامِلَهً

۱- ۱) سوره رعد / ۱۴. [۱]

۲- ۲) میزان الحکمه ۴ / ۵۶۶، کما ورد مضمون هذا الحدیث فی عدّه روایات نقلتها أغلب الکتب.

يَوْمَ القِيامَهِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ» . (۱)والتعبير الآخر الذى اعتمده القرآن بشأن ارتهان الإنسان بذنبه هو تعبير غايه فى الروعه والدقه «كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَهٌ» (۲).

فكما أنّ المحجوز لا يطلق من العذاب مالم يكفر عن ذنوبه؛ كما أنّ التعبير باكمال بالنسبه لذنوب الآخرين هو الآخر تعبير عميق، كأن الذنوب (كما يفهم من كلمه وزر) حمل عظيم بثقل صاحبها ومن أسس لها وتصده عن القرب الإلهى وتلقى به فى قعر جهنم. ومن هنا تتضح مدى خطوره الوادى الذى يسقط فيه من وكله اللّه إلى نفسه، وأى مصير مشؤوم ينتظره.

تأمّلان

۱ – ما البدعه ومن المبتدع؟

لقد ورد الذم فى هذه الخطبه للبدعه والمبتدع الذى يسوق الناس إلى الضلال؛ كما تضافرت الروايات الإسلاميه – إلى جانب سائر خطب نهج البلاغه – التى تذم البدعه وأصحابها، ومن ذلك ما روى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله انّه قال: «كل بدعه ضلاله وكل ضلاله فى النار» (۳). كما ورد عنه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أبى اللّه لصاحب البدعه بالتوبه قيل يا رسول اللّه وكيف ذاك؟ قال: إنّه قد اُشرب قلبه حينها» (۴).

والبدعه فى اللغه بمعنى الإتيان بشىء لا سابقه له، امّا فقهاء الإسلام فقد عرفوها باضافه شىء إلى الدين أو نقصانه دون قيام دليل معتبر على ذلك؛ ولما كانت المعارف والأحكام الإلهيه واجبه الثبوت عن طريق الوحى والأدله المعتبره، فان البدعه من الكبائر، وهى أساس

۱- ۱) سوره نحل / ۲۵. [۱]

۲- ۲) سوره المدثر / ۳۸. [۲]

۳- ۳) شرح نهج البلاغه للمحقق الخوئى ۳ / ۲۵۱.

۴- ۴) اصول الكافى ۱ / ۵۴، باب البدع. [۳]

الفساد والانحراف، ولو لم تمنع البدع لأضاف الأفراد بعقولهم القاصره إلى الدين ما شاءوا وانقصوا منه ما أرادوا، فلا يبقى من الدين شيئاً وتمحى آثاره؛ ولا شك أنّ قانون تحريم البدع هو الذى صان القرآن والإسلام وحفظه من تلاعب الجهال وأصحاب الأهواء. والذى ينبغى أن نخلص إليه ممّا سبق وعلى ضوء التعاريف الفهقيه هو أنّ البدعه لا تشمل الاختراعات والابداعات العلميه والفنون الطبيعيه والطبيه والصناعيه، كما لا تشمل التجديد فى الثقافه والأدب والسنن والعادات والتقاليد. فالبدعه ما أحلت حراماً أو حرمت حلالاً وأضافت دين اللّه أو انقصت منه ممّا ليس فيه دون قيام دليل معتبر على تلك الاضافه أو النقصان، أو الإتيان بدين جديد ودعوه الناس إليه دون الاستناد إلى الوحى أو الدليل، هذه هى البدعه، وهى من الكبائر التى توعد اللّه عليها بالعذاب. ومن هنا نقف على خواء الوهابيه التى اعترضت حتى على ركوب الدراجه على أنّها مركب الشيطان أو ما قام به بعض الاتباع ممن عمد إلى خطوط الهواتف فقطعها على أنّها بدعه فمما لاشك فيه أنّ مثل هذه الأعمال تعدّ ممارسات حمقاء ليس لها أدنى صله بمفهوم البدعه كما صورها الفقهاء، ومما يؤسف له أنّ تأريخ هذه الحركه ملىء بمثل هذه الممارسات الشائته. ويماثلهم أُولئك الذين سلكوا سبيل الإفراط تجاه هذه الحركه ليقولوا بعدم وجود أيه ثوابت فى الدين؛ الأمر الذى يهدد كافه قيم الدين ومثله ويعرضها للزوال، حيث يمهدون السبيل أمام هذا وذلك للدس فى الدين ما شاءوا. ونختتم بحثنا هذا بما قاله أمير المؤمنين عليه السلام - فى كلماته القصار، الكلمه ١٢٣: «طوبى لمن ذل فى نفسه. . . وعزل عن الناس شره ووسعته السنه ولم ينسب إلى البدعه» . فقد ورد السنه فى الإمام مقابل البدعه، فمن أطاع اللّه واستن بسنه رسوله صلى الله عليه و آله فارق البدعه، أمّا من عصى اللّه وفارق سنه نبيّه صلى الله عليه و آله فهو على البدعه، وهو ضال لنفسه مضل لغيره.

٢ - أخطر الذنوب، حمل ذنوب الآخرين

تقتصر أغلب الذنوب على المسؤوليه الفرديه وإن كانت من قبيل الكبائر كالأفعال المنافيه للعفه وشرب الخمر وسائر المحرمات، غير أنّ أخطر الذنوب هى تلك التى تدعو الآخرين لمقارفتها بحيث يبوء صاحبها بوزر تلك الذنوب من دون أن ينقص من أوزار أُولئك شيئاً، وهذا ما يصدق على أئمه الظلم والفساد من أهل البدع الآمرون بالمنكر والناهون عن المعروف. وأحياناً تطالهم تبعه الذنب بل وتطال نسلهم لقرون بعد مماتهم، وعلى الآثم أن يدفع

ثمن ذنوب هؤلاء بأجمعها (كما أنّ العمل الصالح كذلك قد تشمله بركاته لقرون) .

وقد صور القرآن الكريم وضع هؤلاء الاثمه بقوله «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القِيامَهِ عَمّا كانُوا يَفْتَرُونَ» (۱). وأعظم خطر تختزنه هذه الذنوب فى الغالب عدم صدق التوبه عليها؛ وذلك لأنّ من شروط التوبه إزاله آثار الذنب؛ فأنى للإنسان بإزاله آثار مثل هذه الذنوب التى قد تتخذ أبعاداً واسعه لتشمل منطقه بأكملها، أو موت الكثير من الأفراد على هذه الذنوب التى ساقهم لارتكابها، أو ظهور الجيل الجديد الذى يعمل بهذه الذنوب بعد وفاته؟

بالتالى لابدّ لهذا الإنسان من التأنى فى حركته، حذراًمن مقارفه مثل هذه الذنوب التى لا سبيل للتخلص من تبعاتها «حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته» .

۱- ۱) سوره العنكبوت / ۱۳. [۱]

القسم الثانی: الجاهل المتشبه بالعالم

اشاره

«الصنف الثانی: وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلًا، مُوضِعٌ فِی جُهّالِ الْأُمَّهِ، عادٍ فِی أَغْباشِ الْفِتْنَهِ عَم بِما فِی عَقْدِ الْهُدْنَهِ؛ قَدْ سَمّاهُ أَشْباهُ النّاسِ عالِماً وَلَیْسَ بِهِ، بَکَّرَ فاسْتَکْثَرَ مِنْ جَمْعٍ؛ ما قَلَّ مِنْهُ خَیْرٌ مِمّا کَثُرَ، حَتّی إِذا ارْتَوی مِنْ ماءٍ آجِنٍ، وَاکْتَثَرَ مِنْ غَیْرِ طائِلٍ، جَلَسَ بَیْنَ النّاسِ قاضِیاً ضامِناً لِتَخْلِیصِ ما الْتَبَسَ عَلی غَیْرِهِ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدی الْمُبْهَماتِ هَیَّأَ لَهَا حَشْواً رَثًّا مِنْ رَأْیِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ، فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهاتِ فِی مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْکَبُوتِ: لا یَدْرِی أَصابَ أَمْ أَخْطَأَ: فَإِنْ أَصابَ خافَ أَنْ یَکُونَ قَدْ أَخْطَأَ وَإِنْ أَخْطَأَ رَجا أَنْ یَکُونَ قَدْ أَصابَ - جاهِلٌ خَبّاطُ جَهالاتٍ، عاشٍ رَکّابُ عَشَواتٍ، لَمْ یَعَضَّ عَلَی الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قاطِعٍ، یَذْرُو الرِّواياتِ ذَرْوَ الرِّیحِ الْهَشِیمَ. لا مَلِیٌّ وَاللّهِ بِإِصْدارِ ما وَرَدَ عَلَیْهِ وَلا أَهْلٌ لِما قُرِّظَ بِهِ، لا یَحْسَبُ الْعِلْمَ فِی شَیْءٍ مِمّا أَنْکَرَهُ، وَلا یَرَی أَنَّ مِنْ وَراءِ ما بَلَغَ مَذْهَباً لِغَیْرِهِ، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَیْهِ أَمْرٌ اکْتَتَمَ بِهِ لِما یَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضائِهِ الدِّماءُ، وَتَعَجُّ مِنْهُ الْمَوارِیثُ» .

الشرح والتفسیر

بعد أن فرغ الإمام علیه السلام من بیان الصنف الأول بشکل جامع، تطرق إلی صفات الصنف الثانی لیتحدث عن ذلک الشخص الذی یغط فی هاله من الجهل والتخبط فی حین یری نفسه عالماً دون الاستناد إلی رکن وثیق من علم أو عالم. فیبین بادئ ذی بدء خمس صفات لمثل هؤلاء الأفراد. الاولی «ورجل قمش جهلًا» فاستناداً إلی ما أورده أرباب اللغه بشأن مفرده

القمش التی تعنی جمع الأشیاء المتناثره دون تناسب وکذلک بمعنی الأشیاء التی لا قیمه لها، فان الذی یفهم من کلام الإمام علیه السلام أنّ هؤلاء الجهال المتشبهون بالعلماء إنّما یتجهون صوب خواء من العلم الذی یفتقر إلی القیمه کما یفتقر إلی النسبه المنطقیه. وقد علق المرحوم العلّامه الخوئی فی شرحه لهذا الکلام علی أنّهم یحصلون علی المعلومات من فم هذا وذاک ومن الروایات الضعیفه غیر المعتبره وعن طریق القیاس والاستحسان والمصادر من هذا القبیل (ذات الحجم الکبیر والقیمه القلیله أو المعدومه) .

الصفه الثانیه أنّه یهرع بسرعه فی أوساط الجهال من عوام الاُمّه لیجمع له بعض الأنصار: «موضع (۱)فی جهال الأمه» ومن الطبیعی ألا یهب لنصره هؤلاء ویتمحور حولهم سوی تلک الطائفه من الجهال، ولیس لهؤلاء من مکان بین العقال. فهدفهم هو لفت انتباه الجهال إلیهم والنفوذ فی أوساطهم لأنّهم یعیشون الیأس من اقتحام دنیا العقلاء.

الصفه الثالثه «عاد (۲)فی أغباش الفتنه» بالالتفات إلی أنّ بعض أرباب اللغه (۳)قد عنی غبش من ماده أغباش بشدّه الظلمه أو ظلمه آخر اللیل التی تعتبر أفضل فتره للسارقین واللصوص، یتضح أنّ مثل هؤلاء الأفراد یفکرون دائماً فی الاصطیاد من ماء الفتن. فهم یهربون دائماً من النور والضیاء ویلوذون بالظلمه وعتمه اللیل کفرصه مناسبه من أجل خداع الجهال؛ ولا غرو فلو تبددت ظلمه الفتنه وبزغت شمس العلم والمعرفه لانکشف النقاب عن صورتهم الحقیقیه ولافتضحوا أمام القاصی والدانی.

وأشار علیه السلام إلی الصفه الرابعه من صفات تعاسه هؤلاء الأفراد «عم بما فی عقد الهدنه» (۴). ومن الواضح أنّه لیس المراد بالهدنه هنا الصلح بین المسلمین وغیر المسلمین، لأنّ الکلام وبشهاده العبارات اللاحقه وارد بشأن القاضی بین الناس. وبناءً علی هذا فالمراد بالهدنه الصلح بین الناس وحل المنازعات بالطرق السلمیه؛ وبعباره اُخری فانّ الهدنه هنا تقابل

۱- ۱) «موضع» من ماده «ایضاع» بمعنی السرعه فی الحرکه (وهو یعطی معنی اللازم لا المتعدی رغم أنّه من باب الافعال) وهو هنا إشاره لحرکه الجهال المتشبهین بالعلماء السریعه بین الجهال.

۲- ۲) «عاد» من ماده «العدو» بمعنی الرکض.

۳- ۳) مقاییس اللغه، الجوهری، لسان العرب.

۴- ۴) «هدنه» بمعنی الصلح والمسالمه بین الناس.

الفتنه التی ذکرت فی العباره السابقه. وبصوره عامه فانّ مثل هؤلاء الأفراد إنّما ینشدون تعمیق هوه الاختلافات وتشدیها لیتسنی لهم تحقیق أطماعهم ومآربهم الخبیثه، والحال لو علموا أنّ الصلح والسلام بین الناس إنّما یعود بالنفع علی جمیع الأفراد، ولیس هنالک من ینتفع بالنزاع والشقاق، لما اتجهوا إلی مثل هذه الامور. نعم ان هؤلاء الأفراد عمی عن مشاهده الحقیقه فضلاً عن ادراکها.

وقال علیه السلام فی صفتهم الخامسه «قد سماه اشباه الناس عالماً ولیس به» یبدو أنّ قوه الجاذبیه التی تربط ذرات هذا العالم فی الأرض والسماء بحیث یمیل کل موجود وینجذب إلی شبهه، فانّ هذه القوه تحکم هذه الفئات والأفراد أیضاً. وما أروع تعبیره علیه السلام عن أتباع من تشبه بالعلماء بأشباه الناس، فی إشاره واضحه إلی أنّ أشباه الناس هم خدمه أشباه العلماء. ومن البدیهی أنّ شباهه هؤلاء بالناس کشباهه أئمتهم الجهال بالعلماء إنّما هی شباهه صوریه لیس أکثر، وغالباً ما یستعمل هذا التعبیر بشأن الموارد ذات الشبه الصوری کقوله علیه السلام فی الخطبه ۲۷ من نهج البلاغه «یا أشباه الرجال ولا رجال» .

وما أن فرغ الإمام علیه السلام من بیان صفاتهم حتی تطرق إلی جانب من أفعالهم القبیحه النابعه بصوره مباشره من تلک الصفات ونقاط الضعف التی تحکم کیانهم، فقال علیه السلام: «بکر (۱)فاستکثر من جمع؛ ما قل منه خیر ممّا کثر» (۲). یمکن ان تکون هذه العباره إشاره إلی الإمکانات المادیه والدنیویه التی تؤدی کثرتها إلی الغفله والتکبر والانهماک الدائم بالمادیات والابتعاد عن المعنویات؛ وغلباً مایکون قلیلها أفضل من کثیرها وأنّ الکفاف والعفاف أقرب إلی السعاده والفلاح من التکاثر والتفاخر. أو إشاره إلی فضول الکلام والمسائل العلمیه التی لا طائل من وراءها علی حساب الأُصول والمبادئ وذهب البعض إلی أنّ المراد بها الآراء الباطله والعقائد الفاسده، ولکن یبدو هذا الاحتمال مستبعداً؛ لأنّ القلیل من هذه الآراء والعقائد فیه الضرر

---

۱ - ۱) «بکر» من ماده «» بکره علی وزن لقمه بمعنی أول النهار ثم أطلقت علی کل بدایه وانطلاقه، وهی هنا إشاره إلی أنّ الجهال المتشبهین بالعلماء إنّما یلهثون خلف الأعمال العابثه من أول النهار حتی اللیل.

۲- ۲) یمکن أن تکون الجمله (ما قل منه خیر ممّا کثر) صفه لجمع مفهومه: یجمع شیئاً قلیله خیر من کثیره، کما قیل یمکن أن تکون مضافه، وفی هذه الحاله تتطلب تقدیراً؛ أی من جمع شیء ما قل منه خیر ممّا کثر، ولکن لیس هنالک من فارق فی المعنی.

أیضاً، وإن کان هذا التفسیر لا ینسجم وبعض العبارات القادمه. ثم قال علیه السلام: «حتی إذا ارتوی من ماء آجن (۱)واکتثر من غیر طائل (۲)، جلس بین الناس قاضیاً ضامناً لتخلیص ما التبس علی غیره» .

أجل أنّ هذا الفرد الجاهل والضال المتشبه بالعالم الذی یتمتع برصید علمی مشوه مفعم بالأخطاء وله روح ونفس ولعه بعالم ماده شغفه بزخارف الدنیا وزبرجها، إنّما وضع نفسه فی موضع لا یتصدره سوی نبی أو وصی، کما ورد ذلک فی الحدیث المعروف عن الإمام علی علیه السلام حین خاطب شریح القاضی قائلاً: «یا شریح قد جلست مجلساً لا یجلسه إلّانبی أو وصی نبی أو شقی» (۳)، والأدهی من ذلک یزعم أنّ هنالک حقائق، ولا غرو فهذه هی المزاعم والادعاءات الفارغه التی یتشدق بها کافه الجهال المتشبهین بالعلماء.

والآن بعد أن تصدی هذا الجاهل للقضاء فما عساه أن یفعل، قال الإمام علیه السلام بهذا الشأن: «فان نزلت به احدی المبهمات هیا لها حشوا رثامن رأیه، ثم قطع به» .

الحشو بمعنی الکلام الزائد الذی لا فائده فیه، والرث بمعنی الخلق القدیم ضد الجدید، فقوله علیه السلام: «حشوا رثامن رأیه» کأنّها إشاره إلی أنّه لیس من أهل الخلاقیه والمبادره، کما لیس له ذهنیه متفتحه، وأخیراً لایمکنه أن یجمع الأدله المقیده التی تعینه علی اصدار الحکم. فلیس له رصید سوی حفنه من الأفکار الزائده التی لا ـ طائل من وراءها وهی رثه قدیمه أکل الدهر علیها وشرب، وهذا هو اسلوبه ودیدنه ویقینه فی الحکم.

ومن الطبیعی أن لا تؤدی هذه المقدمات الباطله والفاسده إلی أی یقین، فهو یخدع الناس متظاهراً لهم بالیقین، وعلی فرض کونه وصل إلی الیقین فانه لیس معذوراً عند اللّه لأنّه سلک الخطأ والتقصیر فی المقدمات. فالمشاکل القضائیه کسائر المشاکل العلمیه والاجتماعیه والسیاسیه إنّما تعالج دائماً عن طریق دراسه المقدمات الصحیحه والمنطقیه؛ فذلک الذی لیست لدیه أدنی معرفه بهذه المقدمات الصحیحه وقد تعلقت أفکاره بالمسائل الباطله فانّه لیس

۱- ۱) «آجن» بمعنی الماء العفن.

۲- ۲) «طائل» من ماده «طول» علی وزن قول بمعنی الفائده والامتداد، ومن غیر طائل تعنی دون فائده.

۳- ۳) الوسائل الشیعه ۱۷ / ۳۷ ([۱]واضح أن وصی النبی هنا تنطوی علی مفهوم واسع یشمل العلماء العدول من أتباع النبی) .

فقط لا يتوصل إلى النتيجه الصائبه فحسب، بل سيغط فى هاله من الحيره والتخبط والضلال كما سيسوق الآخرين إلى الضلال؛ والانكى من ذلك أنّه كلما تقدم أكثر فى هذا المجال ابتعد اكثر عن الوقائع والحقائق.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه «فهو من لبس الشبهات فى مثل نسج العنكبوت (۱)» . وقد اختلفت أقوال الشرّاح بشأن التشبيه الذى استعمله الإمام عليه السلام فى هذه العباره، فاوردوا بعض التفاسير التى لا تخلو من التكلف والتقدير والتغيير فى العباره - أمّا التفسير الذى يبدو مناسباً هو أنّ الإمام عليه السلام شبه هؤلاء الأفراد الجهال المغرورين ضعيفى الفكر بالعنكبوت حيث ينسج لنفسه خيوطاً تكون حرزاً لبيته كما تكون فخاً لصيده، امّا بيته فهو أوهن البيوت ولا يمكن الوثوق به أبداً، كما أنّ فخه لا يطيل سوى الحشرات الضعيفه العاجزه.

نعم هذا الجاهل أيضاً ليس لفخه من دور سوى صيد أمثاله من الجهال الحمقى. وعليه فهو كالعنكبوت وأفكاره كخيوطه وهميه ضعيفه وحيده يقتصر على المغفلين عديمى العلم والمعرفه. «لا يدرى أصاب أم أخطأ، فان أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وان أخطأ رجا أن يكون قد أصاب» . هذا هو حال الأفراد الجهال الذين يتصدون إلى المناصب الهامّه التى لا يمتلكون الجداره لممارستها. فهم على شك وترديد دائماً، حتى أنّ اتجهه صوب الصواب فحيث لا يؤمن بذلك فهو متزلزل يطلق سهمه فى الظلام دائماً عله يصيب الهدف. ويتصور بعض شرّاح نهج البلاغه أنّ الجمله الأخيره تتناقض والعباره «ثم قطع به» لأنّ تلك العباره تحدثت عن القطع واليقين بينما تتحدث هذه العباره عن الشك والترديد. والحال أنّ العباره «ثم قطع به» تعنى الحكم القاطع لا قطع القاضى ويقينه، فالواقع أنّه يحكم فقط ويتخذ لنفسه صيغه القطع، بينما يفيض باطنه بعاصفه من الشك والترديد. نعم مصيبته الكبرى فى دينه، فان أصاب الواقع مصادفه شعر بالتزلزل لأنّه لا يملك الإيمان واليقين، وان هذا التزلزل يؤرقه ولا يجعله قادراً على اتخاذ القرار؛ وان أخطأ فان سبيل الرجوع مغلق بوجهه لأنّه ليس واقفاً على خطأه. ثم انتقل الإمام عليه السلام إلى صفه أُخرى ليصور حال هؤلاء الأفراد بتعبيرات قارعه

۱- ۱) «العنكبوت» هى الحشره المعروفه، وهناك اختلاف فى أصلها من ماده عكب أن عنكب، وقيل اقتبست من ماده «عكوب» بمعنى الغبار لأنّ خيوطه تشبه الغبار.

وتشبيهات غايه فى البلاغه والجمال فقال عليه السلام: «جاهل خباط (۱)جهالات» ، فهو كالأعمى فى الظلمات المليئه بالمخاطر «عاش ركاب عشوات» (۲)فالإمام عليه السلام لا يكتفى بوصفه بالجاهل، بل يؤكد ذلك ليصفه بأنّه يغط دائماً فى هاله من الجهل، كما لا يكتفى الإمام عليه السلام بعشوته وعماه بل يصوره بانه يمتطى الظلمه والعتمه ويحث السير دون أن يعلم أين يسير وإلى أين سينتهى به هذا المسير. المفرده عاش من ماده عشا، فسرت بالعمى المطلق، كما فسرت يضعف الرؤيه وقيل أيضا يراد به عشوه الليل، ومهما كانت فانّ المراد هو أن صاحبها لا يستطيع رؤيه ما حوله من الأشياء، فاذا ما تحرك سقط فى الهاويه، بل قادته حركته إلى الجحيم، وهذا هو حال من يتصدى للقضاء بين الناس دون الاستناد إلى العلم والمعرفه ويزج بنفسه فى هذا الطريق الشائك المليء بالمخاطر، فكلما مر عليه يوم من حياته كثر بؤسه وشقائه لنفسه وللناس حتى ينتهى به المطاف إلى السقوط فى وادى الكفر والضلال، والأنكى من كل ذلك أنّ مثل هذا الفرد يرى نفسه عالماً ضالعاً بموازين القضاء والحق والعدل فلا يسع أحد احصاء خطاياه وذنوبه!

ثم ينتقل الإمام عليه السلام لبيان صفه اُخرى من صفات هذا الجاهل المتخبط «لم يعض على العلم بضرس قاطع» ، فقد شبهه الإمام عليه السلام بمن يتناول الطعام دون المضغ بحيث لا يسع الجسم هضمه. ذهب بعض شرّاح نهج البلاغه إلى أن المراد بالضرس هنا سن العقل الذى يظهر فى مرحله تكامل العقل، وكأن هؤلاء الجهال ليس لهم سن عقل، فهم لا يقيمون القضايا بشكل سليم، وبالمقابل هنالك الأفراد العلماء الحلماء الذين يتحدثون بالضرس القاطع؛ أى أنّ حديثهم يستند إلى أسس العقل والمنطق السليم.

وقال عليه السلام فى صفتهم الثالثه أنّهم كالريح العاصف التى تهلك الحرث والزرع فهى تهب هوجاء دون هدف وهذا حال تعامل الجاهل مع الروايات الإسلاميه «يذرو (۳)الروايات ذرو الريح الهشيم (۴)» . إشاره إلى أنّه يطالع ظاهرياً الموضوعات التى تصدت لبيانها الروايات

۱- ۱) «خباط» من ماده «خبط» ، صيغه مبالغه من خبط الليل إذ سار فيه على غير هدى، ومن هنا يطلق خابط أو ضابط على الفرد المجنون او الذى لا يستطيع توازنه.

۲- ۲) «عشوات» جمع «عشوه» بمعنى الظلمه.

۳- ۳) «يذرو» من ماده «ذرو» على وزن ضرب بمعنى ينثر (وقد وردت هذه المفره بهيئه ناقص واوى وناقص يائى) .

۴- ۴) «هشيم» من ماده «هشم» بمعنى ما يبس من النبات وتهشم وتفتت.

والسنّه النبويه، ولكن ما جدوى ذلك وهو يفتقر إلى تقييمها الصحيح، فهو لا يمتلك العلم بمضمونها ولا بقوه سندها من ضعفه، كما لا يعرف الجمع بين الروايات المتعارضه ولا يميز المحكمه من المتشابهه. فهو بالضبط كالريح الهشيم التى تذرو النباتات هنا وهناك. فالنباتات الجافه (الهشيم) قد لا تكون لها أيه فائده، بينما قد تفيد إذا جمعت، أمّا الريح الهوجاء تزيل حتى هذه الفائده الضئيله من خلال ذروها وتفريقها، وهذا ما عليه الحال بالنسبه للأفراد الجهال الذين يتعاملون مع الروايات دوتن أن تكون لهم معرفه صحيحه بغشها من سمينها وصحيحها من سقيمها.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى صفتهم الرابعه، ليقسم بأنّ هؤلاء الجهال ليسوا حريين بحل ما ترد عليهم من قضايا ولا جديرين بأدنى مدح واطراء يمارسه المتلمقون تجاههم «لاملى - واللّه - باصدار (١)ما ورد عليه، ولا أهل لما قرظ (٢)به» .

ممّا لا شك فيه أنّ الفصل فى الخصومات القضائيه والذى يصطلح عليه الفقهاء برد الفروع إلى الأصول إنّما يتطلب رصيداً علمياً ثراً لا- يتحلى به هؤلاء الجهال المغرورون، وهذه الضحاله العلميه تفحمهم وتجعلهم يضلون سبل التعامل مع القضايا فلا يميزوا كيفيه الدخول فيها أو الخروج منها (المراد بالدخول والخروج هنا ما تعارف بشأن الموضوعات المطروحه على العلماء فيقال أن فلاناً يعلم كيف يرد هذه المسائل وكيف يخرج منها، والفرد الجاهل يفتقر بالمره لهذه المسأله) .

أمّا إحدى مشاكل هؤلاء الأفراد هى إطاحتهم بثله من المتملقين الذين يهدفون إلى تحقيق مطامعهم الدنيويه فيطرونهم بمختلف ألوان المدح والثناء ويضفون عليهم ما لا يستحقونه من الصفات، فيطرب هؤلاء الجهال لمثل هذه الأكاذيب والنعوت الفارغه رغم علمهم بكذبها وزيفها إلّاأنّهم وبمرور الزمان يظنون أنّهم كذلك وهذه قمه البؤس والشقاء التى يبلغونها بحيث تغلق أمامهم كافه سبل النجاه. (٣)

١- ١) «اصدار» من ماده «صدور» ضد الدخول.

٢- ٢) «قرظ» بمنى مدح.

٣- ٣) ذكر بعض شراح نهج البلاغه [١]هنا المفرده «فرط» من ماده التفريط و «فوض» من ماده التفويض بدلاد من «قرظ» من ماده «التقريظ» بمعنى المدح و الثناء. و حيث آلينا على أنفسنا ألانجرى خلف اختلاف نسخ نهج البلاغه و [٢]نكتفى بالنسخه المعروفه المتداوله اليوم، لذلك نغض الطرف عن الخوض فى ما ذكروه.

وقال علیه السلام فی صفتهم الخامسه «لا یحسب العلم فی شیء ممّا أنکره، ولا یری أنّ من وراء ما بلغ مذهباً لغیره» . والواقع أنّ هذا من لوازم الضحاله الفکریه وضیق العلم والمعرفه حیث یری الإنسان نفسه هو العلم الکامل فینکر کل ما ورائه فلا یری من حرمه لأفکار الآخرین وعلومهم، بینما لا یری العالم الحق فی العلم والمعرفه سوی الاعتراف بالجهل، فیسوقه ذلک إلی التواضع للآخرین والاستماع إلی أقوالهم «فَبَشِّرْ عِبادِالَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» (۱)فهم یستمعون إلی الآخرین ویصطفون أحسن مایرد فی کلامهم، فی حین یطالعک الجاهل المغرور الذی یتحدث علی سبیل القطع وهو لیس علی شیء.

وصفته السادسه التی ذکرها الإمام علیه السلام: «وان أظلم علیه أمر اکتتم به لما یعلم من جهل نفسه» هذا هو الفارق والحد الفاصل بین العالم والجاهل، فالعالم إذا عرض له أمر مبهم کرس له اهتمامه فان صعب علیه حله وإزاله ابهامه استشار من حوله واستفاد من أفکارهم وانفتح علی تجاربهم، بینما یهمله الجاهل ویمر علیه مروراً عابراً، لأنّ یعلم بأن التعامل معه والتفکیر فیه لا تزیده سوی فضیحه. وزبده الکلام فهو یعمل علی الخلاف ممّا ورد فی الروایات الإسلامیه بعدم الحیاء من قول لا أدری إذا عرض علیه ما لا یعلمه ولا ینبغی أن یستنکف عن تعلمه «ولایستحین أحد منکم إذا سئل عمّا لا یعلم أن یقول: لا أعلم، ولا یستحین أحد إذا لم یعلم الشیء أن یتعلمه» (۲). والواقع هو أنّ عدم الالتزام بمضمون هذه الروایه إنّما یقود إلی اضرار فادحه تطیل الشخص والمجتمع الذی یعیش کواحد من أفراده.

ثم أشار الإمام علیه السلام إلی حصیله عمل هؤلاء القضاه الجهال عدیمی الورع والتقوی بقوله: «تصرخ من جور قضائه الدما، وتعج (۳)منه المواریث» . أجل فما أکثر الدماء التی تسفک والأموال التی تهدر وهی تضج بصراخها من الأحکام المجحفه التی یصدرها هؤلاء القضاه الجهال، فیطرق هذا الصراخ ضمیر السامع فیهز أعماقه، بینما یعیش هذا الجاهل نشوه الغرور

۱- ۱) سوره الزمر / ۱۷ - ۱۸. [۱]

۲- ۲) نهج البلاغه، [۲] الکلمات قصار، الکلمه ۸۲.

۳- ۳) «تعج» من ماده «عج» و «عجیج» بمعنی ارتفاع الصوت وهنا بمعنی الصراخ.

فلا يسمع ولا يرى ما حوله. امّا تعبيره عليه السلام ب «تصرخ» و «تعج» فهو تعبير فى منتهى الروعه والجمال، حيث عبر عن الدماء التى تراق من غير حلها بالصراخ وكأن لهذه الدماء علم وشعور وإدراك، فى حين ليس لهذا الجاهل المغرور مثل هذه المعانى فهو يعيش فى جهل مطلق. ومن هنا نعتقد بأنّ ما ذكره بعض الشرّاح من أنّ فى الجمله تقدير ينسبون من خلاله هذه الصراخ إلى أولياء الدم وأصحاب الأموال إنّما يقضى على هذه اللطافه والروعه فى التعبير. على كل حال فان رساله القضاء والقضاه التى تهدف إلى حفظ دماء الناس وأموالهم إنّما تضيع فى ظل تصدى هؤلاء الجهال لمسند القضاء؛ الأمر الذى يقود بالتالى إلى تغييب أمن المجتمع وسياده الفوضى.

والكلام شبيه ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى روايه «أبو ولاد» حين سمع عليه السلام اصدار بعض الأحكام القضائيه الظالمه فقال: «فى مثل هذا القضاء وشبهه تحبس السماء ماءها وتمنع الأرض بركاتها» (۱).

تأمّلات

۱ – آفات علماء السوء

لقد أشار الإمام عليه السلام فى الخطبه إلى الآفات الخطيره للجهال المتشبهين بالعلماء وعلماء السوء الذين يشقون أنفسهم وقومهم. وقد تتسبب بعض هذه الأخطار والآفات فى سفك دماء الأبرياء وهضم حقوق المظلومين المستضعفين، فتصرخ تلك الدماء من الأحكام الظالمه كما فأن الأموال المهدروه من القضاء الجائر. فقد جاء عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر ممّا يصلح» (۲)كما قال صلى الله عليه و آله: «من أفتى الناس بغير علم وهو لا يعلم الناسخ من المنسوخ والمحكم من المتشابه فقد هلك وأهلك» (۳).

والعجيب أن هؤلاء الأفراد كلما عملوا أكثر كان ضررهم أعظم، وهذا ما أشار إليه الإمام

۱- ۱) وسائل الشيعه ۱۳ / ۲۵۶. [۱]

۲- ۲) اصول الكافى ۱ / ۴۴. [۲]

۳- ۳) اصول الكافى ۱ / ۴۳. [۳]

الصادق علیه السلام: «العالم علی غیر بصیره کالسائر علی غیر الطریق لا یزیده سرعه السیر إلّا بعداً» (۱).

۲ – علم کخیط العنکبوت

لقد شبه علیه السلام علم هؤلاء الجهال المتلبسین بزی العلماء بخیوط العنکبوت؛ وهو التشبیه الذی اقتبس فی الواقع من القرآن الکریم – سوره العنکبوت – الذی شبه أولیاء المشرکین ببیت العنکبوت «مَثَلُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِیاءَ کَمَثَلِ العَنْکَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَیْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ البُیُوتِ لَبَیْتُ العَنْکَبُوتِ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ» . والعنکبوت ینطوی علی بعض خصائص العجائب فی الخلقه. فالعنکبوت تنسج خیوطها من قطره لزجه غایه فی الصغر فی بطنها تلصقها فی الخارج بمساعدّه مخلبها؛ حیث لهذا المائع ترکیب خاص یتصلب وینجمد بمجرد ملامسته للهواء، ویعتقد بعض العلماء أن للعنکبوت القدره علی نسج ما یعادل خمسمئه متر من هذه الخیوط بالاستفاده من تلک الماده اللزجه الصغیره. وهذه الخیوط هی التی تشکل بیت العنکبوت وفخه، إلّاأنّ القرآن أشار إلی أنّ أوهن البیوت هو بیت العنکبوت، فأیه ریح مهما کانت خفیفه تحطم هذا البیت، کما أنّ قطره الماء تخترقه، وأدنی شعله نار تخربه، بل لیس له قابیله استقطاب التراب والغبار فهی الأُخری تقضی علیه، وهذه هی الصوره الحقیقیه لأولیاء الشرک وعلم الجهال. فالعلماء الذین یستندون فی علمهم إلی القیاس والاستحسان وما إلی ذلک إنّما علمهم کبیت العنکبوت أجوف هزیل لا یصمد أمام شیء ولیس من شأنه فعل شیء.

کما یفهم من هذا التشبیه بشأن هؤلاء الجهال المتشبهین بالعلماء أنّ فرائسهم کفرائس العنکبوت حیث ینحصر فی الأفراد الضحلین الذین لا قیمه لهم کفرائس العنکبوت من الحشرات التافهه.

۳ – اطراء المتملقین

لقد تطرق الإمام علیه السلام فی الخطبه إلی عدم استحقاق هؤلاء إلی المدح والثناء الذی یکیله لهم

۱- ۱) اصول الکافی ۱ / ۴۳. [۱]

المتملقون من أشباه الرجال؛ وهو الأمر الذى يستبطن البلاء الذى يعود على هؤلاء الجهال إلى الاعتقاد بالتدريج أنّ لديهم العلم والمعرفه والجداره والأهليه، فيرون فى أنفسهم الكفاءه فى التصدى لهذا المنصب الخطير الذى يؤدى بالتالى إلى هلاكهم واهلاكهم. فضرر هؤلاء المتملقين الذين يحيطون بهؤلاء الجهال ويسوقونهم للتصدى للقضاء لا يقل عن خطر هؤلاء الجهال فى التصدى إن لم يكن أعظم وأفدح؟ الأمر الذى ذمه القرآن الكريم إلى جانب الروايات الإسلاميه. ومن ذلك أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «إذا مدح الفاجر اهتز العرش وغضب الرب» (۱)وقال صلى الله عليه و آله: «من مدح سلطاناً جائراً وتخفف وتضعضع له طمعاً فيه كان قرينه إلى النار» (۲). ومن هنا ورد التحذير من مطلق المدح والاطراء لتنبه إلى ذلك حتى الأفراد من أهل الورع والتقوى إلى الأخطار التى ينطوى عليها هذا المديح، فقد ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «احثوا فى وجوه المداحين التراب» (۳)وهذا ما حذر منه أمير المؤمنين عليه السلام مالك الأشتر فى عهده الذى عهده إليه حين ولاه مصر بعد أن دعاه إلى مجالسه أهل الورع والتقوى والصدق: «ثم رضهم على ألا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله فان كثره الاطراء تحدث الزهو وتدنى من العزه» (۴).

۱- ۱) بحار الأنوار ۷۴ / ۱۵۰. [۱]

۲- ۲) بحار الأنوار ۷۲ / ۳۶۹. [۲]

۳- ۳) بحار الأنوار ۷۰ / ۲۹۴. [۳]

۴- ۴) نهج البلاغه، الرساله ۵۳. [۴]

القسم الثالث

اشاره

«إلَى اللّه أشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعيشونَ جُهّالاً، وَيَمُوتُونَ ضُلّالاً، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتابِ إذا تُلِيَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، وَلا سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً وَلا أَغْلَى ثَمَناً مِنَ الْكِتابِ إذا حُرِّفَ عَنْ مَواضِعِهِ وَلا عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلا أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ!» .

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى إلى اللّه بقلب كسير وأنين متواصل من مثل هؤلاء الجهال المتشبهين بالعلماء والقضاه من عبده الأهواء والشهوات الذين مردوا على الغرور وحب الذات، فقال عليه السلام: «إلى اللّه أشكو من معشر يعيشون جهالاً، ويموتون ضلالاً» . والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام ينعتهم بصفات اُخرى استمراراً لما وصفهم به فى السابق، فحياتهم بأكملها جهل فى جهل فلم يكن موتهم سوى ضلال فى ضلال (ففى الحقيقه ان العباره الثانيه نتيجه حتميه للعباره الاولى) فكيف لا يموت على الضلال من يفنى عمره فى الجهل.

أمّا الصفه الاُخرى لهم والتى تعدّ علامه فارقه للتعرف عليهم هى: «ليس فيهم سلعه (١)أبور (٢)من الكتاب إذا تلى حق تلاوته، ولا سلعه أنفق (٣)بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا

١- ١) «سلعه» على وزن فرقه، المتاع والبضائع التجاريه، وفى الأصل جاءت من ماده «سَلْع» بمعنى الفتحه أو الفُرجه أو الشق، وتطلق على ثغره الجبل أو شق الجبل، وبما أن البضائع التجاريه توضع بشكل علنى فى منظر ومرآى العيون، لذلك سميت «سلعه» .

٢- ٢) «أبور» من ماده «بَوْر» على وزن غَوْر بمعنى الهلاك والفساد، ومن هنا يطلق هذا اللفظ على الركود فى السوق لانه يتسبب فى أضرارٍ لرؤوس المال.

٣- ٣) «أنفق» من ماده «نفاق ونفوق» ، وفى الأصل بمعنى الزوال والانعدام، ومن هنا يقال للعطاء والصرف «انفاق» ، والظاهر بان ذلك يطلق على الاموال التى تصرف أو تنفق، أى التى تخرج من اليد، واذا استفيد من اللفظ فى موضوع الانفاق والعطاء فيكون معناها، البذل والمساعده، حيث يقصد بها الأموال التى يتم انفاقها. ويطلق أيضا على رواج الأمتعه فى السوق «نَفاق» على وزن «طلاق» وذلك لانها تُشترى بسرعه من قبل الناس، وبذلك تخرج من السوق.

صرف عن مواضعه» . إنّهم يريدون قرآناً ينسجم مع أهوائهم وأغراضهم الفاسده ونياتهم السيئه، ولما كان القرآن بتفسيره الحق لا ينسجم مع تطلعاتهم، فهم ينبذوه ويعمدون إلى تحريفه وتفسيره برأيهم وما تمليه عليهم خيالاتهم.

والنقطه الجديره بالذكر هنا هى أنّهم يعيشون فى وسط يكن للقرآن منتهى القدسيه والاجلال والاكبار على أنّه وحى اللّه الذى أوحاه إلى نبيّه صلى الله عليه و آله؛ الأمر الذى يدفع بهم ولتحقيق أغراضهم ومآربهم إلى التظاهر بالانضواء تحت رايته فيسعون جاهدين لاضفاء الصيغه القرآنيه على تحريفاتهم وتفسيراتهم الخاطئه، فيعود هذا الكتاب السماوى الذى يفيض نوراً وهدايه إلى وسيله لاضلال الناس.

أمّا الصفه الأخيره التى ينعتها بهم الإمام عليه السلام فهى «ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر» .

ملاحظه

التفسير بالرأى وقلب الحقائق

إنّ أعظم فارق بين المؤمنين المتقين وعديمى التقوى إنّما يكمن فى كون الفريق الأول يتعامل مع القرآن الكريم والأحكام الشرعيه كأصل ثابت ويسعى لتكييف إرادته وشؤونه على ضوئه، فان شعروا بأنّهم أخطأوا أو خرجوا من دائره تلك الأحكام ندموا وتضرعوا إلى اللّه وطلبوا منه العفو والمغفره «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ» .

أمّا الفريق الثانى الأنانى المغرور فهو يمنح هذه الأصاله لإرادته وأهوائه الطائشه التى لا تعرف القيود والحدود، فهو يسعى لتكييف الآيات القرآنيه مع أهوائه ورغباته؛ ولا عجب

فهو یری نفسه الأصل والقرآن الفرع، فالأحکام الإلهیه محترمه لدیه ما کانت منسجمه مع هواه وهوسه، فان لم تکن کذلک ضربها عرض الجدار. ومن هنا وصفه القرآن بالازدواج فی التعامل مع الآیات القرآنیه «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ» فهو مصداق بارز لقوله سبحانه «أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ» . امّا الاسلوب الآخر الذی درج علیه هذا الفریق فانّما یکمن فی التحریف المعنوی للقرآن وتفسیره برأیه، ولا ینشد من ذلک سوی خداع الناس أحیاناً أو خداع نفسه أحیاناً اُخری، وهذا ما ذمته بشده الآیات القرآنیه والروایات الإسلامیه. فقد أشار القرآن الکریم إلی الیهود التی مارست هذا الاسلوب بالقول: «أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (۱)ومن المسلم به أنّ مثل هؤلاء الأفراد لا یسلمون لأیه حقیقه تطرح علیهم، أنّهم کخفافیش اللیل التی تعادی الشمس الحقه، وفوق ذلک أنّهم لم یؤمنوا باللّه طرفه عین؛ ولذلک ورد فی الحدیث النبوی الشریف عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله انّه قال: «قال اللّه جل جلاله: ما آمن بی من فسر برأیه کلامی» (۲).

کما قال صلی الله علیه و آله: «أشد ما یتخوف علی اُمتی ثلاث: زله عالم، أو جدال منافق بالقرآن، أو دنیا تقطع رقابکم» (۳).

أمّا الحدیث عن التفسیر بالرأی ومفهومه والأخطار المترتبه علیه فهذا ما سنعرض له فی محله فی الأبحاث القادمه إن شاء اللّه.

۱- ۱) سوره البقره / ۷۵. [۱]

۲- ۲) بحار الأنوار ۸۹ / ۱۰۷. [۲]

۳- ۳) بحار الأنوار ۸۹ / ۱۰۸. [۳]

الخطبه الثامنه عشره

اشاره

ومن كلام له عليه السلام

فى ذم اختلاف العلماء فى الفتيا وفيه يذم أهل الرأى ويكل أمر الحكم فى اُمور الدين للقرآن. (۱)

القسم الأول

اشاره

«تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّهُ فِى حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكامِ فَيَحْكُمُ فِيها بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّهُ بِعَيْنِها عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيها بِخِلافِ قَوْلِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقُضاهُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْإِمامِ الَّذِى اسْتَقْضاهُمْ فَيُصَوِّبُ آراءَهُمْ جَمِيعاً، وَإِلَهُهُمْ واحِدٌ! وَنَبِيُّهُمْ واحِدٌ! وَكِتابُهُمْ واحِدٌ!» .

۱- ۱) طبق ماورد فى مصادر نهج البلاغه [۱]بشأن سند الخطبه، رواها محمد بن طلحه الشافعى فى كتاب مطالب السؤال ۱ / ۱۴۱ وصرح بأن محمد بن طلحه وان عاش بعد الشريف الرضى إلّاأنّ روايه هذه الخطبه مع بعض الاختلاف الطفيف دليل على وجود مصدر آخر لديه غير نهج البلاغه، [۲] ثم أضاف: يستفاد من روايه القاضى نعمان المصرى فى «دعائم الإسلام» الذى عاش قبل الشريف الرضى أنّ هذه الخطبه كانت معروفه عند الشيعه. والذى يستفاد من كلام محمد بن طلحه أنّ هذا الكلام هو جزء من الخطبه السابقه، والواقع أنّهما خطبه واحده مع سابقتها فهى مرتبطه بها تماماً، ولذلك يبرز هنا هذا السؤال: لم فصلهما الشريف الرضى عن بعضهما؟ ذهب صاحب مصادر نهج البلاغه [۳]إلى احتمالين: الأول أن يكون الشريف الرضى نقلهما من مصدرين، والآخر أنّه كتب حقاً: ومن هذا الكلام؛ أى أنّ هذا الكلام جزء من الخطبه السابقه، إلّاأنّ نساخ نهج البلاغه [۴]التبس عليهم الأمر فكتبوا «ومن كلام له عليه السلام الذى يفيد كونه كلاماً مستقلاً» . (مصادر نهج البلاغه ۱ / ۳۶۲ [۵] مع شىء من التوضيح) . [۶]

نظره إلى الخطبه

يعتقد بعض المحققين - كما ذكرنا سابقاً - أنّ هذه الخطبه هى جزء من الخطبه السابقه وقد فككها الشريف الرضى (ره) ؛ الأمر الذى يؤيده مضمون الخطبه ومحتواها؛ فالخطبه السابقه تحدثت عن القضاه والجهال المنحرفين الذين يصدرون الأحكام الجائره فى قضائهم بما يهدد بالصميم أمن الاُمّه وصيانه عرضها وأموالها وأنفسها وبالتالى استشراء الفوضى والفساد فى صفوف المجتمع.

كما تحدثت هذه الخطبه هى الاُخرى عن القضاه الذين يستندون فى أحكامهم إلى الأدله الواهيه الضعيفه من قبيل القياس والرأى والاستحسان فتوصلهم إلى نتائج خاطئه، والأنكى من ذلك يصوب رئيسهم كل هذه الأحكام المتناقضه ويرى فيها أحكام اللّه المطابقه للواقع. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى ابطال نظريه التصويب (النظريه التى ترى أن آراء القضاه وفتيا الفقهاء تمثل الأحكام الإلهيه الواقعيه رغم تضادها وتضاربها مع بعضها) ، على أساس الأدله المنطقيه التى تفند مثل هذه العقيده، ثم يكشف النقاب عن السبيل الذى يقود إلى الحق فى هذه القضايا الإسلاميه التى ضل فيها الكثيرون.

والخطبه على ثلاثه أقسام:

القسم الأول: فى الحديث عن الاسلوب الذى اعتمده القضاه فى تعاملهم مع القضايا والتى تستبطن الأحكام المتناقضه التى تخالف أحكام اللّه.

والقسم الثانى: فى ابطال النظريه التى تصرح بصواب الجميع.

وأخيراً القسم الثالث الذى يتحدث فى الإمام عليه السلام عن عظمه القرآن وكونه المرجع الفصل فى حل جميع الاختلافات.

الشرح والتفسير

ما علّه كل هذا الاختلاف؟

يستهل الإمام عليه السلام كلامه بالقول: «ترد على أحدهم القضيه فى حكم من الأحكام فيحكم

فیها برأیه، ثم ترد تلک القضیه بعینها علی غیره فیحکم فیها بخلاف قوله» ثم أردفه علیه السلام بالقول «ثم یجتمع القضاه بذلک عند الإمام الذی استقضاهم فیصوب آراءهم جمیعاً، وإلههم واحد أو نبیهم واحد! وکتابهم واحد» .

ولعل هذه المسأله تبدو عیجبه للأعم الأغلب من الناس صعبه التصدیق لدیهم فی أنّ تصادق جمیع الآراء المتضاربه والمتناقضه علی أنّها أحکام اللّه؛ إلّاأنّها واقع قائم تبلور بشکل عقیده لدی طائفه إسلامیه من أبناء العامه. ولو تأملنا العلل والدوافع التی ساقت هذه الطائفه إلی هذا الاعتقاد - والذی سنتطرق إلی تفاصیله فی الأبحاث القادمه - سنکتشف أنّهم جعلوا أنفسهم فی زاویه ضیقه حرجه لم یبق أمامهم من سبیل للخروج من هذا المأزق سوی اللجوء إلی عقیده التصویب.

إلّا أنّ الإمام علیه السلام یوجه ضربه قاصمه إلی دعائم هذه العقیده المنحرفه بقوله «والههم واحد ونبیهم واحد وکتابهم واحد» .

فمما لاشک فیه لا یصدر من اللّه الواحد فی مسأله واحده سوی حکم واحد، فهو العالم بکافه الحقائق المحیط بجمیع الأشیاء فیحکم فیها بحکم واحد علی ضوء المصالح والمفاسد.

فلا یخطئ فی هذا الحکم ولا من سبیل للنسیان إلی ذاته المقدسه لیختلف الحکم ولا یندم ولا ینکشف له بمرور الزمان ما کان مجهولاً - إذن فلا یمکن تصور الاختلاف من جانب اللّه أبداً.

أضف إلی ذلک فانّ نبیّهم واحد، وهو معصوم فی اصدار الأحکام، فیبیّن الحکم الإلهی دون زیاده أو نقیصه، وعلیه فلیس هنالک اختلافاً من جانبه أیضاً. وأخیراً کتابهم واحد؛ الکتاب الذی لا یأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه، ولیس للتحریف من سبیل إلیه، فهو یستند إلی الوحی الإلهی الذی یأبی الاختلاف والتضاد؛ فهو کتاب اللّه «وَلَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً» (۱).

إذن فلیس هنالک اختلافاً من جانب الکتاب. فهذه العبارات فی الواقع مقدمه لما سیأتی

۱- ۱) سوره النساء / ۸۲. [۱]

من كلام فی أنّ هذا الاختلاف انّما ینبع من أفکارهم القاصره وعجزهم العلمی، وبعباره اُخری فانّ هذه العبارات اجابه ورد علی مسأله التصویب التی تعرض لها الإمام علیه السلام بصوره مفصله لاحقاً.

والواقع هو أنّ الاعتقاد بالتصویب وصحه الآراء المتناقضه إنّما هو انحراف عن أصل التوحید ونزوع نحو نوع من الشرک. فالتوحید الإلهی یعنی أنّ اللّه واحد، وتوحید النبوه یری أنّ نبوه اُولی العزم واحده فی کل عصر، وتوحید الشریعه فی أن الکتاب السماوی واحد.

وعلیه فالمیل نحو تعدد الأحکام الواقعیه لیس سوی الشرک الذی یتقاطع صراحه وأصل التوحید.

تأمّلات

۱ – مسأله التصویب ونشأتها

تعتبر هذه المسأله من أهم المسائل الإسلامیه ذات الصله الحمیمه بمسأله «الاجتهاد» و «الرأی» و «القیاس» و «الاستحسان» وما إلی ذلک، کما ترتبط بالأحداث السیاسیه والتأریخیه التی أعقبت وفاه النبی صلی الله علیه و آله. وإلیک شرحها باختصار بعیداً عن الاطاله والخروج عن اُسلوب البحث:

۱ – أنّ عصر الرساله کان مفعماً بالأحداث المعقده الاجتماعیه والسیاسیه والعسکریه بحیث لم تدع للمسلمین من مجال للوقوف علی کافه الأحکام، وإن بینت اصولها الاساسیه فی القرآن.

۲ – لقد اتسعت رقعه الدوله الإسلامیه بعد النبی صلی الله علیه و آله بحیث کانت تظهر مسائل جدیده کل یوم فی الأحکام الفقهیه الإسلامیه حتی رأی المسلمون أنفسهم أمام کم هائل من المسائل المستحدثه ولم یروا أجوبتها فی الأحادیث النبویه الشریفه.

أضف إلی ذلک منع بعض الخلفاء (عمر) الصحابه من تدوین السنّه (۱)مخافه أن تختلط

۱– ۱) المرحوم العلّامه الأمینی ذکر فی المجلد السادس من الغدیر الأدله علی هذه المسأله من أهم مصادر العامه من قبیل سنن ابن ماجه وسنن الدارمی ومستدرک الحاکم فی تذکره الحفاظ وکنز العمال وغیرها تحت عنوان «نهی الخلیفه عن الحدیث» وبیّن کیف ان عمر نهی عن تدوین أحادیث رسول اللّه صلی الله علیه و آله وهدد بالحبس والنفی کل من رواها.

بـالقرآن، حتى انـدثرت أغلب أحـاديث رسول اللّه صـلى الله عليه و آله، فأصـبح هناك نقصاً حاداً فى المصادر الإسـلاميه، حتى رأى الفقهاء ولا سـيما الخلفاء الـذين كانوا يشـهدون كل يوم هجوم المسائل الفقهيه الجديده أنّهم يعيشون حرجاً شديداً، بحيث إذا زعموا أنّ الإسـلام لا يمتلك الردود تجاه مختلف القضايا الحقوقيه والجزائيه والفرديه والاجتماعيه، فند زعمهم بالآيه القرآنيه «اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً» (۱).

فالـدين الخاتم الـذى لا يعرف معنى للمكان والزمان بل يتصف بالعالميه والخلود لابدّ أن يلبى كافه الحاجات على مدى الدهور والعصور إلى نهـايه الـدنيا، ولكن كيف بـذلك مع هـذه الأحاديث القليله التى نقلت عن رسول اللّه صـلى الله عليه و آله. وهنا لا ينبغى أن ننسـى بـأنّ هـذا المـأزق الحرج إنّمـا نشأ من تجاهل وصـيه رسول اللّه صـلى الله عليه و آله وحـديثه المعروف بحـديث الثقلين الذى قرن فيه العتره الطاهره من أهل بيته بالقرآن الكريم وأنّ الاُمّه ان تمسـكت بهما معاً فانّها لن تضل بعده أبداً (۲). فلو عمل المسـلمون بهذه الوصـيه وتلقوا أحاديث الأئمه المعصومين التى تمثل الامتداد الطبيعى لأحاديث رسول اللّه صلى الله عليه و آله فانّ مشـكله لم تكن لتحدث قط ولم يشـهد المسـلمون هذه المعضله التى عصفت بالفرق الإسلاميه، وهذا بعينه ما جعل أتباع مـدرسه أهل البيت عليهم السـلام لا يشـعرون بنقص تجاه أيه مسأله من المسائل الفقهيه، وقـد نقلت الآلاف المؤلفه من أحاديث هذه العتره لتمكن فقهاء الإماميه من التعامل مع كافه القضايا الفقهيه على ضوء النظره الإسلاميه.

۳ - أخيراً وبهـدف خروج فقهـاء العـامه مـن هـذا المـأزق والطريـق المسـدود لـم يكن لهم من سبيـل سـواء اللجـوء إلى القيـاس والاسـتحسان والاجتهـاد بـالمعنى الأـخص وتشـريع القوانين والأحكام من الفقهاء - فانبروا ليقسـموا المسائل إلى قمسـين: مسائل منصوصه ومسائل لا نص فيها (أى المسائل التى ورد بشأنها حكم فى الكتاب والسنّه والمسائل التى لم يرد فيها نص فى

۱- ۱) سوره المائده / ۳. [۱]

۲- ۲) لقد تحدثنا بالتفصيل فى كتاب نفحات القرآن ج ۹ بحث «الولايه والإمامه العامه فى السنّه» عن حديث الثقلين وتواتره فى المصادر الروائيه للفريقين ومصادره المعروفه فى صـحيح مسلم والترمذى والدارمى ومسند أحمد وخصائص النسائى ومستدرك الصحيحين وسنن البيهقى وغيرها من المصادر.

الكتـاب ولا السـنّه) . فافتوا فى المسائل المنصوصه طبق ماورد فى النص. وأمّا المسائل التى لم يرد فيها نص فقالوا: حل المشـكله يكمن فى أنّه إن كـان له شبيه ونظير فى الأحكام الإسـلاميه قاسوا عليه، مثلاً إذا ورد فى باب الصـلاه حكم قاسوا الصوم بـذلك الحكم، ان ورد حكم فى الحـج قـاسوا عليه أحكـام العمره، وإذا لم يكن هنـاك من شبيه فى الأحكـام الإسـلاميه يجتمع الفقهاء ويتدارسوا مصالح ومفاسد ذلك الأمر ثم يتخذوا بشأنه حكماً وهذا ما أسموه بالاجتهاد (بالمعنى الأخص) .

وبعباره أُخرى فان هناك من قال صراحه: مالم يرد فيه النص ليس له فى الإسلام قانون خاص، وهذه وظيفه الفقهاء فى أن يضعوا له حكمـاً من خلال الظن وتخفيف ثقل المصالـح والمفاسـد وما يرونه أقرب إلى المصـلحه. وهكـذا أصـبح الاجتهاد بمعنى حق الفقيه فى التشريع متداولاً بينهم. (١)

وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ للاجتهاد معنيان مختلفان إذا لم يميز بينهما فان ذلك يؤدى إلى عدّه نتائج سيئه:

المعنى الأـول للاجتهـاد هو الاجتهـاد العـام والـذى يعنى اسـتنباط الأحكـام من الكتـاب والسـنه وسائر الأدله الشـرعيه. وهـذا هو الاجتهاد الـذى يعتقـد به كافه علماء الشـيعه، وهو الاجتهاد الـذى أنكره الأخباريون قولاً واعتقـدوا به عملاً، لأنّ كبار الأخباريين يستدلون بالكتاب والسنه لاثبات الأحكام الشرعيه كما يراعون أحكام العام والخاص والمطلق والمقيد وأمثال ذلك.

المعنى الثـانى للاجتهـاد هو الاجتهـاد الخـاص وهو الاجتهـاد فى المسائـل التى لم يرد فيهـا نص فى الكتاب أو السـنه، فيلجأ على ضوئه إلى التشـريع وسن الأحكام مع الأخـذ بنظر الاعتبار المصالـح والمفاسـد والتشابه والتناظر. وهـذا النوع من الاجتهاد يختص بجمع كثير من علماء العامه وهو ما يصـطلحون عليه بالاجتهاد بالمعنى الأخص. وأمّا ما ذكرنا آنفاً بعـدم وجود مثل هذا الاجتهاد لدى علماء الشيعه إنّما يعزى إلى الثر الهائل الذى لديهم من أحاديث الأئمه

١- ١) الاصول العامه للفقه المقارن / ۶١٧.

المعصومين عليهم السلام كما يرون أنّ الموارد التى لا نص فيها قليله جداً ولا تتطلب الاجتهاد بالمعنى الثانى، وذلك لأنّهم يلجأون فى مثل هذه الحالات إلى القواعد الكليه أو ما اصطلحوا عليه ب «الاصول اللفظيه» و «العمليه» التى تبيّن حكم المسأله والعجيب أن طائفه من علماء العامه تعتقد بأنّ الموارد التى لانص فيها انّه لا حكم لها «مالا نص فيه لا حكم فيه» وهذه وظيفه العلماء فى وضع الأحكام لمثل هذه الحوادث (والالتفات إلى هذه المسأله يعدّ ضروره لفهم الكلمات القادمه فى الخطبه) ؛ الأمر الذى يتنافى تماماً وإكمال الشريعه.

۴ - إذا ما اعطى حق التشريع ووضع الأحكام فى «ما لا نص فيه» للفقيه وبالالتفات إلى كثره عدد الفقهاء ولكل منهم الحق فى التشريع، وليس هنالك من الزام فى جمعهم فى شورى لتصوب حكماً واحداً فانّ ذلك سيؤدى إلى اختلاف الآراء وربما تناقضها فى المسأله الواحده وهنا يبرز مأزقاً آخر وهو: هل يمكن قبول جميع هذه الآراء المختلفه على أنّها حكم اللّه، أم هناك حكم واحد حق والبقيه باطل؟ ولما لم يكن هناك من تفاوت بين هذه الآراء لأنّها صادره من الفقهاء؛ وليس هنالك من حكم واقعى للّه ليكون معياراً فى تمييز الصحيح من السقيم فسوف لن يبقى هنالك من سبيل سوى التمسك بعقيده التصويب، أو بعباره أفضل فقد سقطوا فى وادى التصويب وقالوا كل هذه الآراء تمثل الحكم الواقعى! ويعزز ذلك أنّهم يقولون بعداله الصحابه وأحياناً عدم خطأهم فى الرأى، ومن هنا كانت هناك آراء متعدده بعدد المجتهدين فى الموضوع الواحد، وكلها تعتبر الحكم الواقعى للمسأله.

فهم حين اعتقدوا بأنّ المرجع فى تعيين الخلافه رغم خطورتها إنّما وكل إلى أهل الحل والعقد (العلماء) فما المانع فى أن يوكل للعلماء الحق فى سن القوانين والأحكام فى المسائل الفرعيه التى لم يرد نص بحقها - ومن هنا ظهرت عقيده التصويب بكل نتائجها وأخطارها بين طائفه من المسلمين إثر عدم العمل بوصيه الرسول صلى الله عليه و آله والالتزام بحديث الثقلين.

۵ - غلق باب الاجتهاد: فقد أدت هذه المسأله إلى تنامى الآراء والعقائد المختلفه والمتضاربه فى المجتمع الإسلامى وبين فقهاء المسلمين، لتتخذ صبغه خطيره، كما كانت السبب فى ترديد الأُمّه فى مسائلها الدينيه واتاحه الفرصه لأعداء الإسلام بالتفوه ضد الإسلام والمسلمين والأحكام الإسلاميه وهنا انبرت طائفه من المسلمين لتوضع حداً لهذا الوضع

المؤسف فارتكبت عملاً قبيحاً تجسد فى غلق باب الاجتهاد. فقد صرحوا بأن هذا الحد يكفى ولا يحق لأحد بعد هذا ممارسه الاجتهاد! وحيث اختلفت الأُمّه طوائف فى الأحكام الشرعيه وذهبت كل طائفه لاتباع عالم. فاختاروا أربعه من هؤلاء الفقهاء ممن لهم أتباع كثيرون (وهم أبو حنيفه ومالك ومحمد بن ادريس الشافعى وأحمد بن حنبل) ثم الزموا الناس بتقليد أحد هؤلاء الأربعه وأبطلوا سائر الآراء والعقائد للحيلوله دون الاختلاف والتمزق؛ بينما لا نرى هنالك من دليل فى الكتاب أو السنّه على إمامه هؤلاء الفقهاء الأربعه، وليس لهم أدنى امتياز على من سواهم سوى كثره أتباعهم، كما لم يقم الدليل على غلق باب الاجتهاد وحصره بهؤلاء الأربعه لكل عصر ومصر! وكما أشار الإمام عليه السلام فى الخطبه رقم ١۶ «ألا وأنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها، وخلعت لجمها، فتقحمت بهم فى النار» . فانّ هذه الهفوات العظيمه إنّما افرزتها الزلات الاولى حتى تبلورت كسلسله ارتبطت حلقاتها لتؤدى بالتالى بأصحابها إلى النار. لقد خلق غلق باب الاجتهاد اليوم مشاكل عويصه لفقهاء العامه وعلمائهم؛ وذلك لأنّهم يرون أنفسهم اليوم أمام سيل جارف من المسائل المستحدثه التى ليس لها من حكم فى المذاهب الأربعه؛ ومن هنا انبرت جماعه منهم علانيه وأُخرى خفيه تطالب بفتح باب الاجتهاد بوجه الفقهاء والخروج من حاله التقوقع والانطواء على المذاهب الأربعه، كما خاضوا فى ضروره الافتاء فى المسائل المستحدثه وإعاده النظر فى المسائل السابقه وهم يتساءلون عن عليه حصر الاجتهاد فى المذاهب المذكوره، مع العلم قد ظهر العلماء الذين فاقوهم، وحتى على فرض عدم تفوقهم على أسلافهم، فمثل هذا السؤال يبقى مطروحاً، إذا أُغلق باب الاجتهاد فمن يتصدى للإجابه على المسائل المطروحه اليوم؟

أمّا أتباع أهل البيت عليهم السلام فقد بقوا فى أمان من هذه العاصفه الهوجاء، فهم لم يعتقدوا بغلق باب الاجتهاد (طبعاً الاجتهاد بالمعنى الأول لا الثانى) طرفه عين أبداً، وقد منحوا فقهائهم وعلمائهم حق استنباط الأحكام الشرعيه من أدلتها المعروفه، فى ذات الوقت الذى حظروا فيه الاجتهاد بالمعنى الثانى على كائن من كان.

سؤال:

هنا سؤال يطرح نفسه: الاجتهاد بالمعنى الأول هو الآخر يقود إلى الاختلاف وعليه

فليس هنالك من فارق بين الاجتهاد بالمعنى الأول أو الثانى؟

جواب:

إنّ الالتفات إلى نقطه قد يوضح الجواب على السؤال المذكور، وهى أنّ الاجتهاد بالمعنى الأول يعنى استنباط الأحكام من الكتاب والسنّه، وعليه فالمحور الأصلى للاجتهاد هو نصوص الكتاب والسنّه التى يجمع عليها الفقهاء، فهناك الوحده التى تجمع هؤلاء الفقهاء، وإن كان هنالك بعض الاختلاف فى الاستنتاجات؛ إلّاانّ هذه الاختلافات طفيفه عاده، ومن هنا نرى وحده آراء الفقهاء فى غالبيه المسائل المشهوره، ولا يوجد سوى اختلاف بسيط فى بعض تفاصيل المسائل.

أمّا الاجتهاد بالمعنى الثانى فهو لا ينطوى على محور معين يجتمع حوله الفقهاء، بل المعيار لدى كل فقيه فكره ورأيه، ومن هنا كانت الخلافات لاتعد ولا تحصى، فقد تطالعنا عدّه آراء فى المسأله الواحده؛ الأمر الذى يشوه سمعه الشريعه الإسلاميه ويسىء إلى كيانها. أضف إلى ذلك فانّ أنصار الاجتهاد بالمعنى الأول الذى يعنى استنباط الحكم من القرآن والسنّه يقولون: إنّ دين اللّه لم ولن يكون ناقصاً، وليس هنالك من واقعه - بالأمس واليوم والغد - ألا وللّه فيها حكم قد ورد فى العمومات والاطلاقات أو الأدله الخاصه للكتاب والسنّه وهى واضحه لدى أئمه العصمه عليهم السلام. فمن بلغ باجتهاده ذلك الحكم فقد أصاب، ومن لم يبلغه فقد أخطأ، فان لم يقصر فى مقدمات الاجتهاد واستفرغ مافى وسعه كان معذوراً عند اللّه ومأجوراً. وهذا هو الاعتقاد بالتخطئه فى مقابل الاعتقاد بالتصويب ولذلك يقول أصحاب هذا الاعتقاد «للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد» بينما زعم أنصار الاجتهاد بالمعنى الثانى أن «كل مجتهد مصيب» أى أنّ كافه الأحكام المتناقضه للمجتهدين والتى تمثل آرائهم هى أحكام إلهيه واقعيه حقه (لابدّ من الالتفات والتأمل فى هذا الأمر) .

٢ - نتائج القول بالتصويب وغلق باب الاجتهاد

نشير بصوره مختصره إلى المفاسد التى ترتبت على القول بالتصويب وغلق باب الاجتهاد:

۱ – الاعتراف بنقصان الدین (والعیاذ باللّه) من حیث الأحکام والاعتماد علی آراء الفقهاء وأفکار الأفراد غیر المعصومین من الخطأ فی إکمال أحکام الشریعه وسد النقص.

۲ – غلق باب الاجتهاد یعنی الاعتقاد بعدم أحقیه أی فرد فی الاجتهاد بعد الفقهاء الأربعه من العامه! لأنّ فتح هذا الباب قد یؤدی أحیاناً إلی ظهور عشرات الآراء والفتاوی المختلفه فی المسأله الواحده؛ کما نعلم أنّ غلق باب الاجتهاد، یغلق الطریق علی فقهاء الإسلام فی التصدی للرد علی المسائل المستحدثه فیزج بمسلمی العالم بمأزق خانق لا یمکنه النجاه منه بالنسبه للأحکام الشرعیه.

فالاقتصار علی المذاهب بأربعه تأریخ خطیر ذا شجون، کما دل علی أنّ هذه البدعه فی الإسلام وبسلبها لاستقلالیه الفقهاء قد جرت الویلات. وعلی ضوء ما أورده المقریزی فی کتاب الخطط المقریزیه وکذلک ابن الفوطی وآخرین أنّه لم تکن هناک من ضابطه معینه فی انتخاب هذه المذاهب الأربعه سوی أنّ کثره المذاهب قد ارعبت ولاه البلدان الإسلامیه المختلفه وأدت إلی ظهور موجه من الفوضی والهرج والمرج من جانب، ومن جانب آخر أنّ العلل السیاسیه والاجتماعیه هی التی أدت إلی انتشار هذه المذاهب فی کافه بلدان العالم الإسلامی؛ وعلیه فلم یکن بالإمکان اسقاطها. ولذلک تواطئ الفقهاء والحکام آنذاک بالوقوف بحزم بوجه کل من یتفوه بما لم یرد فی المذاهب الأربعه المذکوره، والعجیب أنّ هذه المسأله قد حدثت فی القرن السابع عشر. فقد انطلقت فی مصر عام ۶۶۵ وفی بغداد ۶۳۱ بحیث قرر أساتذه المدرسه المستنصریه المعروفه فی عام ۶۴۵ عدم قبول أی طالب ینتمی إلی غیر هذه المذاهب.

وهکذا فقد اغلق باب الاجتهاد بعد مرور سبعه قرون علی ظهور الإسلام وبلوغ الاجتهاد ذروته، لیصبح کافه الفقهاء مقلدین لهؤلاء الأئمه الأربع ففقدوا استقلالیتهم الفقهیه. وما هذا إلّانتیجه طبیعیه لذلک الانحراف الذی وقع فی القرن الأول. فقد اُقصیت العتره الطاهره عدل القرآن الکریم وأحد الثقلین وفتح باب القیاس والاستحسان والاجتهاد بالرأی وظهرت هذه الآراء المتناقضه التی جرت الفوضی، فکان کل رأی حکم اللّه، والمؤسف له هو

أنّ مدرسه أهل البيت عليهم السلام لم تتخذ مكانها حتى فى مصاف المذاهب الأربعه. (۱)

فالحق أنّ ذلك الانحراف الأول هو سبب ظهور هذه البدعه، البدعه التى لم يكن هنالك من سبيل سواها.

۳-الهرج والمرج الفقهى والقضائى

الـذى أفرزته الآراء المتعـدده والمتناقضه التى قد يصل عددها أحياناً إلى عدد المجتهدين؛ ومما لاشك فيه أنّ المشاكل آنذاك تفوق مشاكل المجالس التشـريعيه فى عصـرنا الحاضر بكثير، وذلك لأنّ مجالس العصر تشهد على الأقل حضور الوكلاء لبلد أو منطقه من العالم فى مكان واحـد فيتخـذ القرارات على أساس أكثريه الآراء التى تتمتع بالوحده كحد أدنى بالنسـبه لمنطقه معينه؛ أمّا الاجتهاد بالرأى والتصويب فهو يسـمح لكل مجتهد من المجتهدين أن يشرع بمفرده، والأعجب من ذلك كل ما يتوصل إليه من حكم فهو حكم اللّه الواقعى، وخلافاً لمجالسـنا المعاصـره التى تكون أحكامها أحكاماً وضـعيه بشريه، فانّ أحكام المجتهدين آنذاك تمثل الأحكام الإلهيه التى يلزم الناس بأتباعها.

وأخيراً لا نروم الخروج من بحثنا فى الشرح والتفسير ولذلك نوكل من أراد المزيد بهذا الشأن إلى المصادر المعروفه. (۲)

۱- ۱) للوقوف على التفاصـيل انظر كتاب «توضـيح الرشاد فى تأريخ عصر الاجتهاد» للمحدث المحقق المرحوم الحاج الشيخ آقا بزرك الطهرانى.

۲- ۲) أنوار الأُصول ۲ / ۵۱۹ - ۵۴۳ و۳ / ۶۳۲ - ۶۵۸، المستصفى للغزالى ۲ / ۲۳۴، الأُصول العامه للفقه المقارن / ۳۰۵ و۶۱۷.

القسم الثانی: الاختلافات غیر المبرره

اشاره

«أَفَامَرَهُمُ اللّهُ سُبْحانَهُ بِالاِخْتِلافِ فَأَطَاعُوهُ! أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ! أَمْ أَنْزَلَ اللّهُ سُبْحانَهُ دِيناً ناقِصاً فاسْتَعانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمامِهِ! أَمْ كانُوا شُرَكاءَ لَهُ، فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟ أَمْ أَنْزَلَ اللّهُ سُبْحانَهُ دِيناً تامّاً فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدائِهِ، وَاللّهُ سُبْحانَهُ يَقُولُ: «ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ» وَفِيهِ تِبْيانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَأَنَّهُ لا اخْتِلافَ فِيهِ فَقالَ سُبْحانَهُ: «وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» .

الشرح والتفسیر

یفند الإمام علیه السلام فی هذا الکلام بالأدله المحکمه مسأله الاجتهاد بالرأی وتصویب آراء المجتهدین وبالتالی حق الفقهاء فی اصدار الأحکام، ثم یصنف الإمام علیه السلام ذلک إلی خمسه اُسس ویغلق کافه الطرق علی هولاء، ثم یبین بجلاء تام خطأ هذا اللون من التفکیر.

فقد قال علیه السلام بعد أن تساءل علی نحو الاستنکار عن السب الذی یقف وراء هذا الاختلاف فی المسائل الفقهیه «أفامرهم الله سبحانه بالاختلاف فاطاعوه» .

حقا لا یمکن قبول هذا الامر، فالله واحد أحد یدعو إلی الوحده ویحذر من الاختلاف والفرق فهو القائل: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا» (۱)وبناءا علی هذا فان

۱- ۱) سوره آل عمران / ۱۰۳. [۱]

الاختلاف تابع من موضع آخر، رام الإمام علیه السلام الإشاره إلیه «أم نهاهم عنه فعصوه» فالحق أنّ هذا الأمر یشکل أحد مصادر الاختلاف؛ غیر أن القضاه الذین یوردون عدّه آراء بشأن مسأله واحده لایسعهم الاقرار بمثل هذا الاحتمال!

و علیه فان ردّهم علی هذا السؤال سیکون بالسلب. ثم تطرق الإمام علیه السلام إلی الاحتمال الثالث فقال علیه السلام: «اَم انزل الله سبحانه دینا ناقصا فاستعان بهم علی إتمامه» . من المسلم به أنّه لیس هنالک مسلم یقول بنقصان دین الله وإن الله استعان بالعباد لاـ کماله، بل بالعکس قد صرحت الآیات القرآنیه باکمال هذا الدین من جمیع الجهات «اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَرَضِیتُ لَکُمُ الإِسْلامَ دِیناً» (۱).

ثم یورد الإمام علیه السلام الاحتمال الآخر الذی یبدو بطلانه واضحا وضوح الشمس فی رابعه النهار لا أم کانوا شرکاء له، قلهم أن یقولوا، وعلیه أن یرضی» فمن البداهه أنّ من قال یتعدد الآلهه فانّه علیه أن یؤمن بانّ لکل منهم سهم فی التشریع واصدار الأحکام؛ فهل للمسلم الذی ینطلق فی عقیدته من التوحید أن یعتقد بوجود الشرکاء ویری فی الفقهاء والقضاه شرکاء لله؟ وبعباره اُخری فان أحد فروع التوحید (بعد توحید الذات والصفات) هو توحید الأفعال، أحد تفرعات توحید الأفعال هو توحید الحاکمیه والتشریع؛ وعلی ضوء ذلک فانّ الحکومه لله وحده وتنتهی إلیه، فلا حکم إلّاحکمه ولا أمر إلّاأمره!

و لو لم یکن الأمر کذلک لاختفی الحق سبحانه بقسم من التشریع ثم یفوض القسم الآخر منه للعقول البشریه العاخره.

و هل لغیره من إحاطه قامه بمصالح الأحکام ومفاسدها! أو یجوز علی الله أن یفوض زمام اُمور عباه لمشرعین یصدر کل منهم حکماً وقانوناً علی ضوء ظنه ورأیه القاصر بحیث یعیش العباد فی هاله من الفوضی والقلق والحیره فی ظل الآراء المتناقضه المتضاربه!

ثم یتطرق الإمام علیه السلام إلی آخر احتمال فیقول: «أم أنزل الله سبحانه دیناً تاماً فقصر الرسول صلی الله علیه وآله وسلم عن تبلیغه وأدائه» . لا شک ولا شبهه أنّه لیس هنالک من ینسب

۱- ۱) سوره المائده / ۳. [۱]

مثل هذا القول إلى النبى صلى الله عليه و آله؛ وذلك لأنّ حتى أُولئك الذين لايقرون بمسأله العصمه بصوره مطلقه ويظنون بعدم وجود الدليل على عصمه النبى صلى الله عليه و آله فى كافه الميادين، فانّ الحد الأدنى أنّهم يسلمون بعصمته فى التبليغ وأداء الوحى، حيث لا يبقى من مفهوم للنبوه والرساله دون الاعتقاد بالمعنى المذكور.

آنذاك يعود الإمام عليه السلام إلى أصل المسأله فيكشف النقاب عن هذه الحقيقه وهى أنّ الإسلام قد شرع كل ما من شأنه تلبيه حاجات البشريه ومتطلياتها، وعليه فالإمام عليه السلام يصادر ما أوردوه من قولهم «ما لا نص فيه لاحكم فيه» بالاستناد إلى قوله «و الله سبحانه يقول: «ما فرطنا فى الكتاب من شىء وفيه تبيان لكل شىء» (۱)فالآيتان دليلان واضحان على أن الله لم ينزل ديناً ناقصاً عولهم يستعن باحد لا كماله؛ بل جاء فى القرآن كل ما يحتاج إليه، بعضها فى العمومات وبعضها الآخر فى الأحكام الخاصه التى سيأتى الحديث عنها إن شاء الله فى مبحث التأملات ولم ينس الإمام عليه السلام أن يسلب حربه التناقض من القضاه الذين يستشهد كل منهم بآيه يتباين مفهوماً وسائر الآيات فقال عليه السلام: «و ذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا وأنّه لا إختلاف فيه» ثم يعزز الإمام عليه السلام دعوى عدم الاختيارات فى الآيات القرآنيه متشهدا بالقرآن «فقال سبحانه! ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً» (۲).

فالواقع أنّ علم الإنسان محدود، وأنّ تقادم الزمان أو تغيير المكان وكشف الظواهر الجديده إنّما يدعوه إلى تغيير أفكاره باستمرار، ومن هنا فقد يورد كاتب بعض الموضوعات المتناقضه خلال حياته، وليس ذلك بعجيب، هذا من جانب، ومن جانب آخر فان رصيد الإنسان النسيان، فلعه يتحدث اليوم عن شىء فينساه بعد شهر أو سنه ليتحدث عن خلافه. إلّا أنّ هذه الأُمور لا تصدق على البارىء سبحانه العالم بكل شىء «و ما كان وما يكون» والعالم بالمحال لو كان كيف يكون، فليس لمرور الزمان من أثر على ذاته المقدسه؛ فهو فوق الزمان والمكان، وناهيك عن هذا فليس هنالك من مفهوم للنسيان بالنسبه لله سبحانه،

۱- ۱) لابدّ من الالتفات إلى أن قوله «ما فرطنا فى الكتاب من شئى» هو نص الآيه ۳۸ من سوره الانعام، [۱] أمّا قوله «فيه تبيان لكل شىء» فهو مضمون الآيه ۸۹ من سوره النحل [۲]لا عينها «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء» .

۲- ۲) سوره النساء / ۸۲. [۳]

فکیف الحال هذه ان یصدر عنه أدنی إختلاف أو تناقض.

وزیده الکلام أنّ الإمام علیه السلام قد قند ببیان واضح بلیغ عقیده التصویب والتمسک بالقیاس والاستمسان والاجتهاد بالرأی، فالله سبحانه أنل دیناً کاملاً ـ وقرآنا جامعا یلبی کافه حاجات البشریه، وإنّ رسول الله صلی الله علیه و آله لم یتوانی فی تبلیغ الرساله، کما أنّ الله لم یقبل للاُمّه الإسلامیه أی اختلاف ودعا االمه مرارا إلی الاخاء والوحده. وبناءاً علی ما تقدم فما تفسیر الاعتقاد بصحه الآراء المتناقضه وتصویب الفتاوی المختلفه علی أنّها جمیع حکم الله المطابق للواقع، سوی الانحراف والضلال.

شمولیه القرآن

لقد تضمن القرآن الکریم الآیات الصریحه التی تبیّن کافه اُمور المسلمین ومتطلباتهم وحاجاتهم إلی یوم القیامه. کما صرّحت الروایات الإسلامیه بهذا الأمر، ومن ذلک ما ورد عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «ان الله تبارک وتعالی انزل فی القرآن تبیان کل شیء حتی والله ما ترک شیئاً تحتاج إلیه العباد، حتی لایستطیع عبد یقول لو کان هذا أنزل فی القرآن، إلّاوقد أنزل الله فیه» (۱)ولکن هنا یبرز هذا السؤال: إننا نری أحکاماً مختلفه لم ترد فی القرآن الکریم وهذا الأمر لاینسجم وشمولیه القرآن الکریم؛ مثلا لم یرد فی القرآن شیء بشأن عدد رکعات الصلاه والسلع التی تجب علیها الزکاه وتصاب الزکاه وبعض مناسک الحج وعدد اشواط السعی بین الصفا والمروه والطواف ومسائل اُخری فی القصاص والحدود والدیات وآداب القضاء وشرائط المعاملات وأنواع المعاملات المستحدثه وما شاکل ذلک من الموضوعات الشرعیه. وللإجابه علی هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلی ثلاثه اُمور:

الأول: أنّ القرآن یشتمل علی الأحکام الکلیه والقواعد العامه والعمومات والاطلاقات التی یتمّ حل أغلب المشکلات علی ضوئها. فمثلاً الآیه «أَوْفُوا بِالعُقُودِ» (۲)فی المعاملات والایه

۱- ۱) تفسیر نور الثقلین، ۳ / ۷۴، [۱]اصول الکافی، ۱ / ۵۹ ([۲]هناک احتمالان بشأن هذه الروایه: الأول انّ «لو» شرطیه، والآخر أنّها حرف تمنی و «إلّا» احیاناً للإستثناء واخری للتنبیه، راجع مرآه العقول، ۱ / ۲۰۲. [۳]

۲- ۲) سوره المائده / ۱. [۴]

«وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» (۱)فی أبواب العبادات و «لا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ» (۲)فی حقوق الو الذین وسائرالآیات من هذا القبیل التی من شأنها الاجابه علی أغلب الأسئله والمسائل المستحدثه أضف إلی ذلک فان القرآن الکریم صرّح بأنّ السنه النبویه تمثل إحدی المصادر الرئیسیه للأحکام الشرعیه والمعارف الإسلامیه «وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» (۳)کما وصفه فی آیه اُخری بانّه مبین القرآن ومفسره «وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» (۴).

النبی صلی الله علیه و آله من جانبه وعلی ضوء حدیث الثقلین فقد جعل أهل بیته وعترته علیه السلام من مصادر الأحکام الشرعیه والمعارف الإسلامیه، ولو التزم المسلمون بوصیه القرآن والنبی الأکرام صلی الله علیه و آله بما بقی هناک سوال فی مجال الأحکام دون إجابه.

و أخیراً یستفاد من الروایات الإسلامیه المختلفه أنّ للقرآن ظاهر وباطن، وظاهره المعانی والمفاهیم المعلومه لدی الجمیع ویعملون علی ضوئها، أمّا باطنه فهو معانی ومفاهیم اُخری لیس لاحد من سبیل إلیها سوی النبی صلی الله علیه و آله والأئمه المعصومین علیهم السلام، الذین یتعاملون مع الآیات وفق رویه وإدراک آخر.

و بناءاً علی هذا لو إصطف الثقلان (القرآن وأهل البیت) ولم یفصلهما المسلمون عن بعضهما، لا ستفادوا من هذا العدل القرآنی الذی یحل أغلب معضلاتهم.

فقد قال الإمام الصادق علیه السلام: «أنا اعلم کتاب الله وفیه بدء الخلق وما هو کائن إلی یوم القیامه وفیه خبر السماء وخبر الأرض وخبر الجنّه وخبر النار وخبر ما کان وما هو کائن، اعلم ذلک کما أنظر إلی کفی ان الله یقول فیه تبیان کل شیء» (۵)وجاء فی نهج البلاغه

۱- ۱) سوره الحج / ۷۸. [۱]

۲- ۲) سوره البقره / ۲۳۳. [۲]

۳- ۳) سوره الحشر / ۷. [۳]

۴- ۴) سوره النحل / ۴۴. [۴]

۵- ۵) اصول الکافی، ۱ / ۶۱ ([۵]کما نقل المرحوم الکلینی فی هذا الباب عدّه روایات) .

«و فی القرآن نبأ ما قبلکم وخیر ما بعدکم وحکم ما بینکم» (۱)وقال علیه السلام فی موضع آخر بشأن القرآن «إلّا أنّ فیه علم ما یأتی والحدیث عن الماضی ودواء دائکم ونظم ما بینکم» (۲)ولم یقتصر نقل هذه الأحادیث علی أهل البیت علیهم السلام، بل نقلت من طرق العامه أیضا، فقد روی السیوطی فی الدر المنشور عن الصحابی المعروف ابن مسعود «أنّ فیه علم الأولین والاخرین» . وروی عن الاوزاعی فی تفسیر الآیه «و نزلنا علیک الکتاب تبیانا لکل شیء. قال: بالسنه» (۳). وقد روی السیوطی فی کتاب الاتقان هذا المعنی عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال: «فی کتاب الله نبأ ما قبلکم وخبر ما یعدکم وحکم ما بینکم» (۴)ثم قال: وقد أورده الترمذی وغیره.

۱- ۱) نهج البلاغه، [۱]الکلمات قصار، الحکمه ۳۱۳. [۲]

۲- ۲) نهج البلاغه، الخطبه ۱۵۸. [۳]

۳- ۳) الدر المنشور ۴ / ۱۲۷ - ۱۲۸.

۴- ۴) الاتقان، نوع ۶۵ من العلوم المستفاده من القرآن.

القسم الثالث: أناقه القرآن وعمقه

اشاره

«وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظاهِرُهُ أَنِيقٌ وَباطِنُهُ عَمِيقٌ، لا تَفْنَى عَجائِبُهُ، وَلا تَنْقَضِى غَرائِبُهُ، وَلا تُكْشَفُ الظُّلُماتُ إِلاَّ بِهِ» .

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطيته - فى القسم الثالث - يوصف القرآن الكريم بخمس صفات تنطوى على حقائق عظيمه بشأن أهميه القرآن، مشيرا إلى ضروره عدم غفله القضاه والفقهاء عن هذا القرآن والاستضاءه بنور حقائقه ومعارفه، إلى جانب الشعور بانّ القرآن يغنيهم عمّا سواه من المصادر الاُخرى سوى السنه التى تستند القرآن يغنيهم عمّا سواه من المصادر الاُخرى سوى السنه التى تستند إلى القرآن وتفسير مضامينه. فقد قال فى صفته الاولى «و إنّ القرآن ظاهره أنيق» (۱).

فالعباره إشاره إلى فصاحه القرآن وبلاغته، الفاظه موزونه وعباراته رصينه ولآياته وقع و نغمه خاصه لا تجعل الإنسان يشعر بالكلل أو الملل مهما تلاها، والشواهد على ذلك أكثر من اَن تحصى نتركها لعدم الخروج من اصل البحث (۲).

وأمّا صفته الثانيه «و باطنه عميق» . غالباً ما يبتعد الإنسان عن رصانه المعنى إذا ما خاض فى جمال الظاهر، والعكس صحيح أيضاً فعاده ما يتعذر على الإنسان حسن إختيار الألفاظ إذا

۱- ۱) «أنيق» من ماده «انق» على وزن رمق بمعنى الشىء الجميل.

۲- ۲) للوقوف على المزيد راجع كتاب نفحات القرآن، ۸ / ۱۱۴ بحث «اعجاز القرآن من حيث الفصاحه والبلاغه» .

رام الـدقه فی أداء المعنی، والخلاصه تبـدو عملیه الجمع بین المعنی واللفظ لیست بالهینه؛ الحقیقه التی یمکن مشاهدتها بوضوح فی القرآن الکریم الذی جمع العمق فی المعنی إلی جانب الرصانه والسبک فی اللفظ.

أمّا عمق القرآن فقـد تلاشت علی سـطحه کافه الأفکار وتصاغرت أمامه جهایذه العقول، و کیف لا یکون کذلک وهو کلام الله الثابع من ذاته المقدسه المطلقه، ولعل المتتبع یشعر بحقیقه هذه الکلمات ارا ما طالع أی من السور القرآنیه لتتجسد أمامه بوضوح الصفتین التین أوردها الإمام علیه السلام بشأن القرآن.

وأمّـا الصـفه والرابعه للقرآن فهی «لاـ تفنی عجـائبه، ولاـ تنقضـی غرائبه» . ولعل الفارق بین هاتین العبارتین هو أنّ العباره الاولی تتحدث عن خلود العجائب والحقائق القرآنیه الساميه، و ذلک لأننا الکثیر من الکتب والمؤلفات والمصـنفات التی کانت اُعجوبه فی زمانهـا، إلّاأنّ تقـادم الزمـان قـد سـلبها تلـک المیزه وجردهـا من اُعجوبتهـا، والقرآن لیس کـذلک، فلا یزداد قارىء القرآن ومعبده إلّالذه وحلاوه وطلاوه، بل إنّ قراءته قد تشـکف له کل یوم ما کان غائباً عنه بالأمس؛ فتظل لألفاظه ومعانیه مواقع السحر فی النفس.

وأمّا العباره الثانیه فهی تتحدث عن أسرار القرآن التی تتکشف یوما بعد آخر.

أمّـا الصـفه الأـخیره للقرآن فهی «و لاـ تکشف الظلمات إلّابه» لیس فقط ظلمه الجهل وظلمه الکفر وإنعـدام الإیمان والتقوی، بل لیس لظلمـات الحیـاه الاجتمـاعیه والسیاسـیه والاقتصـادیه دون التعالیم القرآنیه. فالیوم وإن ازدهر العالم من حیث الصـناعه وقطع أشواطـاً فی الرقی التطور، مع ذلـک فهنـاک الظلمـات الهائله التی ألقت بظلالها المشؤومه علی المجتمعات البشـریه التی فأنّ من المعارک والاقتال وسـفک الدماء واستضحال أنواع الظلم والجور والاضطهاد والفقر والحرمان، والأنکی من کل ذلک إنعدام الا من والاسـتقرار وسـیاده الفوض والقلق والاضـطراب، ومـا ذلـک إلّانتیجه مباشـره لغیاب معانی الإیمان والتقوی والفقر الاخلاقی والمعنوی، ولیس هنالـک من سبیل للخروج من هـذه المآزق سوی بالتمسک بالقرآن بل الأدهی من ذلک هجر القرآن واللجوء إلی الآراء الظنیه والأفکار البشریه القاصره علی مستوی الأحکام من قبل قطاعات واسعه من المسلمین.

تأمّلان

١- القرآن والمسائل المستحدثه

هنالك سوال يقتدح فی الأذهان وهو: أنّ المجتمع البشری فی حاله حرکه وتطور مستمر بحیث تستجد یومیا عدّه مسائل علی الساحه، فکیف للقرآن أن یواکب هذه الحرکه فی حین تتصف أحکامه بالثبات وعدم التغییر؟ وکیف یسعه الردّ علی المسائل المستحدثه؟

و للإجابه علی هذا السؤال نقول: هنالك نوعان من الأحکام فی القرآن الکریم هما: الأحکام الجزئیه والأحکام الکلّیه. فالاحکام الجزئیه من قبیل الأحکام التی ذکرت للصلاه ککیفیه الوضوء والغسل والتیمم وسائر المسائل کالقبله وعدد الصلوات وما شابه ذلك.

وأمّا الأحکام الکلّیه فیراد بها القواعد العامه الوارده فی القرآن والتی تتصف بالسعه والشمولیه، کقاعدّه وجوب الوفاء بالعقود والمعاهدات «أَوْفُوا بِالعُقُودِ» (١)وقاعدّه «لا- حرج» «و ما جعل علیکم فی الدین من حرج» (٢)وقاعدّه «لا ضرر ولا ضرار» التی استفیدت من بعض الآیات القرآنیه، وهی القواعد التی تلبی المتطلبات الإنسانیه فی اضفنا إلی القرآن الأُصول والقواعد الکلیه التی صرّح بها الائمه علیهم السلام فی کلماتهم. بعباره اُخری: الموضوعات فی حاله تغییر مستمر، أمّا الأُصول الکلیه فهی ثابته لا یعتربها التغییر، وتغییر الموضوعات لا- یعنی سوی تبدل أحکامها حیث تخرج من حکم وتنضوی تحت حکم آخر، وعلیه فاننا نستطیع الیوم وبالاستناد إلی القواعد الکلیه أن نستنبط کافه الإجابات علی المسائل المستحدثه التی لم یرد ذکرها علی وجه الخصوص فی الکتاب والسنه، فجعلها فی کتاب نطلق علیه اسم المسائل المستحدثه، ویقال أن أفضل دلیل علی إمکان الشیء وقوعه (فی إشاره إلی وجود مثل هذه الکتب وبکثره لاغلب فقهاء الشیعه والتی تصدت للإجابه علی کافه المسائل المسجده الیوم علی الساحه) .

و من أراد المزید فلیراجع کتب العلماء بشأن المسائل المستحدثه.

١- ١) سوره المائده / ١. [١]

٢- ٢) سوره الحج / ٧٨. [٢]

۲- لم لا تنقضی عجائب القرآن

لقد صرّح الإمام علیه السلام فی عبارته الأخیره بشأن القرآن قائلاً: «لا تفنی عجائبه ولا تنقضی غرائبه» . فکلما تقادم الزمان واجال العلماء والمفکرون أفکارهم فی أسرار القرآن، کشفوا حقائق جدیده کانت خافیه علیهم، أضف إلی ذلک فانّ حلاوه القرآن وطلاوته حقیقه خالده لا تعرف معنی للزمان، وهی الحقیقه التی ثبتت لدینا بالتجربه فما أکثر ما قرآنا القرآن وتلوناه و لا نزداد تجاهه سوی حیویه دون أن نشعر بأدنی ملل أو تعب؛ ولا غرو فالقرآن کلام الله، وکلام الله کذاته مطلق لا یقید بالحدود، فهو لیس کلام المخلوق لیکتسب صفات عقله فکره المعروف بالحدود والزمان والمکان، أضف إلی ذلک فانّ الخطاب القرآنی متواصل إلی یوم القیامه، فاودعه الله من الأسرار التی تتجدد علی مدی الزمان.

و نختتم البحث بحدیث الإمام الصادق علیه السلام عن الإمام الرضا علیه السلام أنّ رجلاً سأل الإمام الصادق علیه السلام «ما بال القرآن لایزداد علی الدرس والنشر إلّاغضاضه» فقال الإمام علیه السلام لأنّ الله تبارک وتعالی لم یجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو فی کل زمان جدیدعند کل یوم غض إلی یوم القیامه» . (۱)

۱- ۱) میزان الحکمه ۸ / ۷۰؛ [۱]بحار الانوار ۹۲ / ۱۵. [۲]

الخطبه التاسعه عشره

اشاره

ومن كلام له عليه السلام

قال للأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفه يخطب فمضى فى بعض كلامه شىء اعترضه الأشعث فيه فقال يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك، فخفض عليه السلام إليه بصره ثم قال:

«ما يُدْرِيك ما عَلَيَّ مِمّا لِي، عَلَيْك لَعْنَهُ اللّهِ وَلَعْنَهُ اللاَّعِنِينَ! حائِك ابْنُ حائِكٍ! مُنافِقٌ ابْنُ كافِرٍ! وَاللّهِ لَقَدْ أَسَرَك الْكُفْرُ مَرَّهً وَالْإِسْلامُ أُخْرَى! فَما فَداك مِنْ واحِدَهٍ مِنْهُما مالُك وَلا حَسَبُكَ! وَإِنَّ امْرَأً دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفَ، وَساقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفَ!

لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ الْأَقْرَبُ، وَلا يَأْمَنَهُ الْأَبْعَدُ» . (۱)

قال السيد الشريف: يريد عليه السلام انّه اسرى الكفر مره وفى الإسلام مره واما قوله: دل على قومه السيف فأراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامه، غر فيه قومه ومكر بهم حتى أوقع بهم خالد وكان قومه بعد ذلك يسمونه «عرف النار» وهو اسم للغادر عندهم.

۱- ۱) جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغه عدم وجود الاختلاف بين العلماء فى نقل هذه الخطبه، قد نقلها من عاش قبل السيد الرضى، كأبى الفرج الاصفهانى فى كتاب الاغانى، وقد توفى الاصفهانى قبل نشر نهج البلاغه ۴۴ [۱] سنه (مصادر نهج البلاغه،۱ / ۳۶۹) . [۲]

الاصطدام بمنافق طائش

لابدّ من الإشاره إلى نقطتين قبل الخوض فى شرح هذه الخطبه:

١ – جاء فى التأريخ بشأن الأشعث أنّ أسمه الأشعث معدى كرب، وأبوه قيس الأشجّ سمى الأشجّ؛ لأنّه شُجّ فى بعض حروبهم بن معدى كرب بن معاويه. وأم الأشعث كبشه بنت يزيد بن شُرحبيل بن يزيد بن امرىء القيس بن عمرو المقصور الملك.

كان الأشعث أبداً أشعث الرأس، فسمّى الأشعث، وغلب عليه حتى نُسى اسمه.

٢ – امّا بشأن المناسبه التى دعت الإمام عليه السلام لمخاطبه الأشعث بهذه الكلمات فهناك إختلاف بين العلماء فقد ورد فى روايه أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استوى جالساً على منبر الكوفه فاخرج كتاباً فيه كلام رسول الله صلى الله عليه و آله أنّه قال: «المسلمون تتكافؤ دماؤهم وهم يد على من سواهم من أحدث حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنه الله والناس أجمعين» (١).

فانبرى الأشعث بن قيس المنافق قائلاً: «هذا والله عليك لا لك» فخفض الإمام عليه السلام إليه بصره فخاطبه بهذه الكلمات أمام الملأ. ولعل مراد الأشعث بن قيس إذا كانت دماء المسلمين متكافئه وهم يد على من سواهم، فما معنى قتالك لطائفه من المسلمين؟ (و الحال أن المنافقين الذين أوقدوا نار الجمل وصفين والنهروان كانوا يرون الإمام عليه السلام خليفه رسول الله صلى الله عليه و آله فبالاضافه إلى نص النبى صلى الله عليه و آله على خلافته فقد بايعه الناس) .

نعود الآن إلى شرح الخطبه، فقد رد الإمام عليه السلام على الأشعث بن قيس حين اعترضه بقوله «يا أميرالمؤمنين هذا عليك لا لك» فقال: «ما يدريك ما على ممّا لى» .

حيث أراد الإمام عليه السلام أنّك لم تفهم كلامى وما أريد أن أقول. فمرادى هو دعوه المسلمين إلى الوحده وانبههم إلى خطاهم فى مسأله التحكيم ليرعووا عن تكرار مثل هذه الاخطاء، إلّاأنّك فهمت الكلام بالعكس. ثم اغلظ عليه عليه السلام فقال: «عليك لعنه الله ولعنه اللاعنيين» .

و يشهد تاريخ الأشعث وسيرته الخبيثه أنّه كان مستحقاً لمثل هذه اللعنه وعلى حد قول ابن أبى الحديد فانّ كل فساد فى خلافه على عليه السلام وكل اضطراب حدث فاصله الأشعث (٢)ثم

---

١ – ١) ورد فى عدّه روايات ان المراد بقوله «من أحدث حدثا» القتل وسفك الدماء وهو المعنى الانسب لهذه العباره، راجع وسائل [١]الشعيه، ١٩ / ١١–١٩ ابواب القصاص، الباب ٤و٨.

٢– ٢) شرح نهج البلاغه لإبن أبى الحديد ٢ / ٢٧٩. [٢]

قال علیه السلام «حائک بن حائک، منافق بن کافر» .

إختلفت أقول الشرّاح بشأن المراد من «حائک» فقد حملها البعض علی المعنی الظاهری علی أنّ الحیاکه کانت شغلاً للأشعث وأبیه وقد کانت مهنه تمارس من الطبقه الوضیعه فی المجتمع آنذاک البعیده عن معانی المعارف الدینیه والاداب الاجتماعیه والمدنیه، غیر أنّ هذا المعنی لاینسجم وما ورد فی ترجمه الأشعث وأبیه؛ لأنّهما لم یکونا یعملان بهذه المهنه.

و ذهب البعض الآخر إلی أنّ المراد بها الإنسان المتکبر والأنانی لأنّ احد معانی «حائک» بمعنی الشخص الذی یتبختر فی مشیه ویتکبر (۱)وأخیراً قیل بأنّ المراد بها المعنی الکنائی وهو حیاکه الأباطیل والأکاذیب وهذا ما کانت علیه سیره الأشعث وأبیه؛ ولا تقتصر هذه الکنایه علی اللغه العربیه فحسب بل وردت فی سائر اللغات أیضاً.

والجدیر بالذکر فانّ هناک روایه أشارت بوضوح إلی هذا المعنی، فقد ورد الکلام عن الحائک عند الإمام الصادق علیه السلام فقال علیه السلام: «انّه ملعون، الحائک ملعون» ثم قال علیه السلام فی تفسیر ذلک «إنّما ذلک الذی یحوک الکذب علی الله وعلی رسوله» (۲).

إمّا أنّ الإمام علیه السلام عده منافقاً فذلک ممّا لا نقاش فیه لأنّ أفعاله فی زمان حکومه الإمام علیه السلام إنّما تشیر إلی أنّه کان من رؤوس النفاق، فقد کان یشکل أحد العوامل التی أدت إلی شهاده أمیرالمؤمنین علی علیه السلام وفشل المسلمین فی معرکه صفین ونشوب معرکه النهروان وبروز مسأله التحکیم، وقد کان فی أصحاب أمیر المؤمنین علیه السلام کما کان عبد الله بن أبی بن سلول فی أصحاب رسول الله صلی الله علیه و آله کل واحد منهما رأس النفاق فی زمانه. (۳)وزیده الکلام فانّ نفاقه أشهر من نار علی علم، وامّا التعبیر بالکفار عن أبیه فذلک من مسلمات التاریخ حیث کان من المشرکین وقد قتل فی الجاهلیه إثر خلافات قبلیه.

ثم قال علیه السلام: «والله لقد أسرک الکفر مره والإسلام اُخری! فما فداک من واحده منهما مالک ولاحسبک» . فقد أورد ابن أبی الحدید: فأمّا الأسر الذی أشار إلیه أمیرالمؤمنین علیه السلام إلیه فی

۱- ۱) «حائک» : وتأتی أحیانا من ماده «حوک» بمعنی الحیاکه والنسیج، وتأتی أحیانا من «حیک» بمعنی التکبر والخیلاء أثناء المشی.

۲- ۲) وسائل الشیعه، ۱۲ / ۱۰۱، الباب ۲۳، من أبواب ما یکتسب به، الحدیث ۲. [۱]

۳- ۳) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱ / ۲۹۶. [۲]

الجاهليه فقد ذكره ابن الكلبى فى «جهره النسب» فقال: إنّ مُرادا لما قتلت قيساً الأشجّ، خرج الأشعث طالباً بثأره، فخرجت كِنده مُتساندين على ثلاثه ألويه: على أحد الألويه كَبْس ابن هانى بن شُرَحْبيل بن الحارث بن عدىّ بن ربيعه بن معاويه الأكرمين ويعرف هانى بالمطلع، لأنّه كان يغزو فيقول: اطّلعتُ بنى فلان، فسمِّى المُطلِع، وعلى أحدها القشعم أبو جبر بن يزيد الأرقم. وعلى أحدها الأشعث أبو جبر، وأسر الأشعث، ففُدى بثلاثه آلاف بعير، لم يفدَ بها عربى بعده ولا قبله، وأمّا الأسر الثانى فى الإسلام، فإنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله لما قدمت كنده حجّاجاً قبل الهجره، عرض رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله نفسه عليهم، كما كان يعرض نفسه على أحياء العرب، فدفعه بنو وَليعَهَ، من بنى عمرو بن معاويه ولم يقبلوه، فلما هاجر صلى الله عليه و آله وتمهدت دعوته، وجاءته وفود العرب، جاءه وفد كِنده، فيهم الأشعث وبنو وَليعهَ فأسلموا فأطعم رسول اللّه صلى الله عليه و آله بنى وَليعه طُعمه من صدقات حَضْرَ مَوت، وكان قد استعمل على حَضْرَ موت زياد بن لبيد البياضىّ الأنصارى، فدفعها زياد إليهم، فأبوا أخذها، وقالوا: لا ظهر لنا، فابعث بها إلى بلادنا على ظهر من عندك، فأبى زياد، وَحَدَث بينهم وبين زياد شرّ، كاد يكون حرباً، فرجع منهم قوم إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وكتب زياد إليه عليه السلام يشكوهم.

وفى هذه الوَقعه كان الخبر المشهور عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال لبنى وَليعهَ: «لَتَنتَهُنّ يا بنى وَليعه، أولاً بعثَنّ عليكم رجلاً عديل نفسى، يقتل مُقاتلتكم، وبشىء ذراريكم» . قال عمر بن الخطاب: فما تمنيت الإماره إلّايومئذ، وجعلت أنصب له صدرى رجاء أن يقول: هو هذا، فأخذ بيد على عليه السلام، وقال: «هو هذا» .

ثم كتب لهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى زياد، فوصولا إليه الكتاب، وقد توفّى رسول اللّه صلى الله عليه و آله وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب، فارتدّت بنو وَليعه، وغنّتْ بَغاياهم، وخَضَبْنَ له أيديهُنَّ.

وقال محمد بن حبيب: كان إسلام بنى وَليعه ضعيفا، وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يعلم ذلك منهم. ولما حجّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله حجّه الوداع، وانتهى إلى فم الشَّعب دخل أسامه بن زيد ليبول، فانتظره رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وكان أسامه أسوه أفْطس، فقال بنو وَليعهَ: هذا الحبشى حَبَسنا! فكانت الرّده فى أنفسهم.

قال أبو جعفر محمد بن جرير: فأمّر أبوبكر زياداً على حضر موت، وأمره بأخذ البيعه على أهلها واستيفاء صدقاتهم، فبايعوه إلّابنى وليعه، فلما خرج ليقبض الصّدقات من بنى عمرو بن معاويه، أخذ ناقهً لغلام منهم يعرف بشيطان بن حُجر، وكانت صفيّه نفيسه، اسمها شذره، فمنعه

الغلام عنها، وقال: خذ غيرها، فأبى زياد ذلك ولجّ، فاستغاث شيطان بأخيه العدّاء بن حُجْر، فقال لزياد: دَعْها وخذ غيرها، فأبى زياد ذلك، وَلَجّ الغلامان فى أخذها ولجّ زياد وقال لهما: لا تكونَنّ شذره عليكما كالبَسوس، فهتف الغلامان: يالعمرو! أُنضام ونُضطهد! إنّ الذليل مَنْ أكِلَ فى داره. وهتفا بمسروق بن معدى كرب، فقال مسروق لزياد أطلقها.

ثم قام فأطلقها، فاجتمع إلى زياد بن لَبيد أصحابه، واجتمع بنو وَليعه، وأظهروا أمرهم، فبيّتهم زياد وهم غارون، فقتل منهم جمعا كثير، ونهب وسبى، ولحق فُلُّهم بالأشعث بن قيس، فاستنصروه فقال: لا أنصركم حتى تملِّكونى عليكم. فملّكوه فخرج إلى زياد فى جمع كثيف، وكتب أبو بكر إلى المهاجر ابن أبى أميه وهو على صنعاء، أن يسير بمن معه إلى زياد، فاستخلف على صنعاء، وسار إلى زياد، فلقواالأشعث فهزموه وقُتِل مسروق، ولجأالأشعث والباقون إلى الحصن المعروف بالنُّجَيْر. فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتى ضعفوا، ونزل ليلا إلى المهاجر وزياد، فسألهما الأمان على نفسه، حتى قدما به على أبى بكر فيرى فيه رأيه؛ على أن يفتح لهم الحصن ويُسْلِم إليهم من فيه. فحملواالأشعث إلى أبى بكر مؤثقاً فى الحديد، فعفى عنه وزوّجه، أخته أمّ فروه بنت أبى قُحافه وكانت عمياء فولدت للأشعث محمداً وإسمعيل وإسحاق.

تأمّلان

١- عله هذا الاصطدام العنيف

لعل هنالك من يصاب بالذهول ممن لا يعرف مدى نفاق الأشعث بن قيس لهذا الاصطدام العنيف الذى اتبعه الإمام إزائه حتى خاطبه بلعنه الله والناس أجمعين، ثم وصفه بتلك الصفات الشائنه كقوله: «حائك بن حائك، منافق بن كافر، والله لقد أسرك الكفر مره والإسلام أُخرى! فما فداك من واحده منهما مالك ولا حسبك! وإن إمراً دلّ على قومه السيف وساق إليهم الحتف! لحرى أن يمقته الأقرب، ولا يأمنه الأبعد» ألا أنّ أدنى نظره إلى التاريخ الاسود الذى حفلت به حياه هذا المنافق لتكشف عن مدى فساده وافساده للوسط الإسلامى، بل كان منقوتا حتى فى الجاهليه، إلى جانب كونه اليد الخبيثه فى تأجيج نار الحروب حتى اشتهر بلقب «عرف النار» .

نعم، ليس هنالك ما يثير الدهشه والعجب فى مخاطبته بهذه الكلمات من قبل الإمام عليه السلام.

والواقع لم يرد فى كلام الإمام عليه السلام سوى بعض صفاته الشنيعه التى تحتم على القائد الحكيم فى ظل بعض الظروف أن يعرى بعض الأفراد المتآمرين أمام أعين الاُمّه وانظارها لكى لا تنطلى عليها حيله والأعيبه، ولا سيما طائفه الشباب من المجتمع التى قد لا تمتلك الاطلاع الكافى عن حياه وماضى اُولئك الأفراد، اذن فقد كانت كلماته من قبل التعريف به للاُمّه، لأنّها إنطلقت بدافع الإساءه والسب والشتم.

٢- كيف صبر الإمام عليه السلام على هذا المنافق

لعل ما ورد فى الخطبه المذكوره يثير لدى البعض هذا السؤال:

إذا كانت للأشعث بن قيس مثل هذه السابقه فى الغدر والنفاق واثاره القلاقل والمفاسد، لم صبر عليه الإمام عليه السلام ولم يأمر بقتله؟ والجواب على هذا السؤال هو أن تعامل أئمه المسلمين مع عناصر النفاق ينطوى على شىء من التعقيد؛ فقد كانت عناصر النفاق تعيش الازدواج فى تظاهرها بالاسلام وأدائها لشعائره من قبيل الصوم والصلاه وقراءه القرآن، واضمارها للكفر والتآمر والخيانه والفساد وعليه فالاصطدام بهم قد يؤدى إلى إثاره بعض التوترات وتعالى أصوات الرأى العام فى قتل المسلمين من أهل القبله دون التورع فى سفك دمائهم، ولا سيما بالنسبه للأشعث الذى كان ينتمى إلى قوم وقبيله؛ الأمر الذى يصعد من حده التوتر لا محاله.

و قد شهد الرسول صلى الله عليه و آله مثل هذه المشكله، بل كانت أعظم حده ممّا هى عليه فى عهد أميرالمؤمنين عليه السلام حتى ورد عنه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لولا أنّى أكره أنّ يقال ان محمداً صلى الله عليه و آله استعان بقوم حتى إذا ظفر بعدوه فتلهم لضربت أعناق قوم كثير» . (١)

أجل فقد كانت هنالك طوائف من المنافقين التى إندست بين صفوف المسلمين، بل كانت تشهد حتى الغزوات إلى جانبهم، ولعل الاصطدام بهم كان يعنى أن الإسلام لايقيم وزنا لدماء المسلمين، ومن هنا لم نسمع بان رسول الله صلى الله عليه و آله أمر بقتل أحدهم طيله حياته المباركه، إلّاأنّ ذلك لم يكن ليمنع الرسول صلى الله عليه و آله بل القرآن فى التصدى لهم وتعريتهم أمام الاُمّه.

١- ١) وسائل الشيعه، أبواب حد المرتد / الباب ٥ ح ٣. [١]

الخطبه العشرون

اشاره

ومن كلام له عليه السلام

وفيه ينفر من الغفله وينبه إلى الفرار للّه

«فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ، وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ ما قَدْ عايَنُوا، وَقَرِيبٌ ما يُطْرَحُ الْحِجابُ! وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ، وَهُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ، وَبِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: لَقَدْ جاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ، وَزُجِرْتُمْ بِما فِيهِ مُزْدَجَرٌ، وَما يُبَلِّغُ عَنِ اللّهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّماءِ إِلاَّ الْبَشَرُ» . (۱)

الشرح والتفسير

طرح الحجب قريباً

لقد حذر الإمام عليه السلام الاُمّه من الغفله ودعاها للتحلى باليقظه وتدارك ما فاتها من خلال العبوديه والطاعه خشيه من الأحداث التى تنتظرها فى المستقبل القريب. فقد استهل

۱- ۱) أورد المرحوم الكلينى فى كتاب الكافى فى باب «ما يجب من حق الإمام على الرعيه» بعض هذه الخطبه فى ذيل روايه (راجع كتاب الكافى، ۱ / ۴۰۵ ح ۳، باب ما يجب من حق الإمام على الرعيه) . [۱]

كلامه عليه السلام بالقول «فانّكم لو قد عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم (۱)وسمعتم واطعتم» .

و الذى يستفاد من الروايات أنّ الإمام عليه السلام قد القى هذه الخطبه فى الجمعه الاولى بعد البيعه، و قد حذر الاُمّه – طبق روايه الكافى – من خيانه ائمتها ودعاها إلى الوحده ورص الصفوف واجتناب الاختلاف والفرقه، ثم أورد هذه الكلمات لتأكيد المعنى المذكور. امّا ما هى المواضيع التى سيشهدها الإنسان فى عالم ما بعد الموت بعد أن تطرح عنه الحجب فيسوده القلق والاضطراب والجزع، فهذا ممّا اختلفت فيه أقوال العلماء، لكن المسلم به أن هناك موضوعين مهمين: أحدهما انّه سيرى نتائج أعماله وما ينتظره من جزاء وعقاب عليها، والثانى مدى الحسره والأسف الذى سيشعر به تجاه تقصيراته التى صدرت منه فى حياته الدنيا، الإمكانات التى كان من شأن إستثمارها أن تبلغ به السعاده والفلاح والفوز بالقرب الإلهى ومجاوره الرحمن، غير أنه ضيع كل تلك الفرص، والادهى من ذلك لاسبيل إلى الرجوع إلى الحياه ثانيه.

ثم قال عليه السلام: «ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا، وقريب ما يطرح الحجاب» نعم أنّ هذه الحجب هى التى جعلتكم تغطون فى هذه الغفله وتتعلقون بالدنيا وتغترون بها، ولكن اعلموا إنّ هذه الحجب آيله إلى الزوال وسترون الاشياء والحقائق كما هى حيث لاينفع حينها القلق والجزع والفزع، كما ليس هنا لك من مجال للتوبه.

وهنا يبرز هذا السؤال: لم لا يطرح البارىء سبحانه هذه الحجب عن الإنسان فى الحياه الدنيا لينتبه إلى نفسه ولا يعيش السكر والغفله؟ يبدو أنّ الآيات القرآنيه قد تكفّلت بالإجابه على هذا السؤال: فلو طرحت هذه الحجب ورأى الناس الحقائق على صورتها فانّ أدنى تمرد سيؤدى إلى مواجتهم للعذاب الشديد حيث لم يعدّ هنالك من عذر للتقصير.

فقد صرّحت الآيه الثامنه من سوره الانعام و «ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون» .

---

۱ – ۱)«وهلتم» من ماده «وهل» على وزن «وهب» بمعنى فقد صبره فى مقابل الحوادث الصعبه، وتأتى بمعنى الخوف واحيانا بمعنى التأوه والأنين.

و بغض النظر عن هـذا الأمر فانّ الإيمان من جراء مشاهـده الحقائق المترتبه على ما بعـد الموت سوف لن يكون مـدعاه للعبوديه والطـاعه وسـيكون نوعـاً من الاجبـار والاضـطرار، كمـا نشاهـد ذلـك فى الأفراد - حتى الصبيه منهم - حين يبـدون ردود فعلهم المباشـره إذا ما إقتربت أيـديهم من النار، فاجتناب المعصـيه على هذا الضوء سوف لن يكون بدافع من الورع والتقوى و العبوديه أبداً.

أمّا قوله عليه السلام «قريب ما يطرح الحجاب» فعمر الإنسان مهما كان ليس سوى لحظات عابره مقارنه بعمر الدنيا وزمان الآخره. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مسأله مهمّه بهذا الشأن وهى أنّكم وإن لم تروا عالم ما بعد الموت، إلّاأنّ الأدله عليه قائمه لديكم ومعالمه واضحه أمامكم «ولقد بصرتم ان ابصرتم، واسمعتم ان سمعتم، وهديتم إن اهتديتم» .

وعليه فليس هنالـك من عـذر لمن ضـل السبيل وأخطأ المسـيره، فالحقائق المرتبطه بعالم الآخره وان حجبت عنكم، إلّاأنّكم على علم بها من خلال ثلاثه طرق: الأول من الاعتبار بما تشاهـدونه فى هـذا العالم، فاثار الفراعنه وقبور الأسـلاف لأدله واضـحه على العاقبه المريره التى تنتهى إليها مسيره الأقوام الظالمه والتى تشير إلى أنّ الله بالمرصاد، كما لديكم الكتب السـماويه و الرسالات النبويه، أضف إلى ذلك فانّ الأدله العقليه ليست بالقليله وهى تقودكم بكل بساطه إلى المعاد واليوم الآخر.

و عليه فعبارته عليه السلام إنّما تشير إلى الأدله الحسيه والنقليه والعقليه.

كمـا يحتمـل أن تكون الجمله الاـولى إشاره إلى الأدله الحسـيه والعقليه (لأنّ البصـيره تطلق على الإدراك العقلى أيضا) والجمله الثانيه تلمح إلى الأدله النقليه، بينما تشـير الجمله الثالثهالهدايه الناجعه من هذه الادله. ثم قال عليه السـلام: «وبحق أقول لكم: لقد جاهرتكم العبر»

فالعـالم مليىء بحوادث العبره والاعتبار التى لا تخفى على أحـد، فتلك آثار الفراعنه والأقاصـره والأكاسـره التى تخبر عن أحوال من كان من الاُمم السالفه. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: « وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ* وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ» (۱)

و قـال ايضـا: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ* كَذ لِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ» . وقال فى موضع آخر «فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ» (۲).

۱- ۱) سوره الصافات / ۱۳۷-۱۳۸. [۱]

۲- ۲) سوره الدخان / ۲۵-۲۹. [۲]

فقد شحن القرآن بهذه الآيات إلى جانب الروايات الإسلاميه التى أكدت هذا المعنى. الأدباء والشعراء تعرضوا لهذه الحوادث فى نتاجانهم ممّا يثبت حقيقه قوله عليه السلام: «لقد جاهرتكم العبر» . ثم قال عليه السلام: «و زجرتم بما فيه مزدجر» (۱). ولعل هذا الزجر يستند إلى لسان التكوين الذى ينطلق من أعماق التاريخ واخبار الماضين كما صور ذلك القرآن الكريم «وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ» (۲).

أو عن طريق لسان التشريع والوحى الذى ورد فى الكتب السماويه. وعليه فقد تمت الحجه تكويناً وتشريعاً ولم يعدّ هنالك من عذر. ثم قال عليه السلام: «و ما يبلغ عن الله بعد رسل السماء إلّا البشر» . فما هذا الانتظار؟ أتتوقعون أن تهبط عليكم الملائكه ويتلون عليكم الآيات؟ فقد تشدق بذلك الكفار على عهد النبى صلى الله عليه و آله قائلين: «لَوْ ما تَأْتِينا بِالمَلائِكَهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ» (۳). فرد عليهم القرآن بالقول: «ما نُنَزِّلُ المَلائِكَهَ إِلّا بِالحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ» (۴)وخلاصه القول فان الله قد أتم حجته عن طريق المشاهدات الحسيه لآثار الأمم السابقه ومن خلال العقل وأخيراً الوحى، وليس لاحد أن يخرج عن سبيل الطاعه بحجه «لولا أنزل علينا الملائكه» .

ملاحظه: عالم ما بعد الموت

صحيح أنّ هنالك الاغشيه الغليظه التى تحول بيننا وبين ذلك العالم وأنّ الحجب الظلمانيه لا تدعنا نرى حوادث عالم البرزخ (و ينبغى أن يكون الأمر كذلك؛ فلو طرحت الحجب لفقد الامتحان حرارته ولا نطلق الجميع فى حاله شبه إضطراريه نحو الحق فلم يعدّ هنالك من معيار لتمييز المطيع من العاصى) ، غير أنّ الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه الوارده عن أئمه

۱- ۱) «زجرتم» و «مزدجر» من ماده «زجر» بمعنى الصدعن عمل بصوت عال، ثم اطلق على كل منع صدر كما يستعمل فى التهى عن الذنوب.

۲- ۲) سوره القمر / ۴. [۱]

۳- ۳) سوره الحجر / ۷. [۲]

۴- ۴) سوره الحجر / ۸. [۳]

العصمه علیه السلام قد أشارت إلی طبیعه هذا العالم المرعب، کما بینت مدی الهلع الذی یعتری الإنسان حین مشاهدته لملک الموت وحین یری ما عمل حاضرا أمامه، فینطلق صوته «ربّ ارجعون لعلی أعمل صالحا فیما ترکت» (۱)فیأتیه الجواب بالسلب، فلیس هنالک من سبیل إلی الرجعه کاستحاله عوده الجنین إلی رحم اُمّه.

و قد أشار الإمام علی علیه السلام فی بعض خطبه فی نهج البلاغه إلی هذا الأمر، من ذلک أنّه قال: «یفکر فیم أفنی عمره وفیم أذهب دهره ویتذکر أموالاً جمعها اغمض فی مطالبها. . . واشرف علی فراقها تبقی لمن ورائه» (۲)أجل أنّ کل هذا الجزع والفزع من جراء مشاهده ذلک العالم الخطیر ورؤیه ملک الموت. وقد أسمعنا أولیاء الله من ائمه الدین ما ینبغی سماعه عن تلک المنازل المرعبه، إن کانت لنا آذانا صاغیه.

«اللّهم رزقنا عیناً بصیره واذناً سمیعه وقلباً حافظاً، لنتزود لتلک الدار قبل وفاتنا وفوات الأوان، فنحلق إلی ذلک العالم بقلب مطمئن ونفس واثقه ونفوز بقرب اولیائک من الشهداء والصدیقین «و حسن اُولئک رفیقا» .

اللّهم تقبل منّا هذا الجهد المتواضع ومن علینا باکماله بفضلک ورحمتک.

الختام

النصف من شهر رمضان المبارک

الولاده المیمونه للإمام المجتبی علیه السلام

سنه ۱۴۱۶ الموافق ۷/۳/۱۹۹۵ م

۱- ۱)سوره مؤمنون / ۹۹ - ۱۰۰. [۱]

۲- ۲) نهج البلاغه، الخطبه ۱۰۹. [۲]

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ۱۴۲۶ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثرها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبيّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ في المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين في الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فى نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فى مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فى الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسک kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

٤.CHM

٥.PDF

٦.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

٤.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فی تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فی طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹